الازدواج الثقافي

وأزمة المعارضة المصرية

محاورات

إبراهيم منصور

نجيب محفوظ — يوسف إدريس
د. غالي شكري — د. فؤاد زكريا
أحمد فؤاد نجم — السيد ياسين
عبد الحكيم قاسم — عبد الحميد حواس
محمد سيد أحمد — أمل دنقل
جميل عطية ابراهيم

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

بيروت ــ لبنان
ص. ب ١١١٨١٣
تلفون ٣١٣٦٥٩ / ٣٠٩٤٧٠

الطبعة الاولى
كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨١

الازدواج الثقافي
وأزمة المعارضة المصرية

مقدمة الناشر

ليس هذا الكتاب مجموعة من الاحاديث الصحفية أو الأدبية ، فصاحبه هو الكاتب المصري المعروف ابراهيم منصور ، ومادته الاساسية هي « قضية » الانفصام الثقافي أو الازدواجية في تكوين القيادات الفكرية والسياسية والادبية . وهي القضية التي تنعكس في السلوك بشقيه : السياسي والفني . وبسببها ، كما يرى صاحب المحاورات كانت ظاهرة « اللاتواصل » بين القائد الوطني ـ سياسياً كان اومفكراً أو شاعراً أو روائياً او ناقداً ـ من جهة ، وبين الجماهير من جهة اخرى .

ولأن هذا الكتاب يعتمد على الحوار والمواجهة المباشرة ، فان السؤال لم يكن سلبيا فصاحبه له وجهة نظر او فرضية يحاول اختبارها ميدانياً ، لذلك فهو يناقش الجواب مناقشة تحتد في بعض الاحيان . وصاحب الجواب يتحول احياناً الى صاحب سؤال لمحاوره . وهكذا كانت هذه الحوارات الحية المتدفقة بالانفعال والصراحة غير المعهودة .

إن « الازدواج الثقافي » ليس مشكلة مصرية ، بل هو اشكال حضاري عربي . غير أن تناوله في اطار « أزمة المعارضة المصرية » يمنحه بعدا نوعيا خاصاً ، لأن هذه الأزمة تهم كل مواطن عربي من المحيط الى الخليج ، سواء بسبب الوزن الاستثنائي لمصر عموما ، أو بسبب خطورة الدور المصري في الوقت الحاضر .

وقد يتساءل البعض عن ورود اسم نجيب محفوظ في هذه الحوارات ، وهو ليس معارضا للنظام القائم في مصر الآن . ولكن صاحب الحوار يتناوله كجزء من ظاهرة ادبية أعم ، كانت معارضة في الماضي الناصري القريب ، ولا زالت تعارض في عملها الأدبي مظاهر وظواهر مجتمع الانفتاح .

وقد يتساءل البعض عن اسماء شابة وردت جنباً الى جنب مع الاسماء الكبيرة . ومرد ذلك هو انها تعبر عن جيل جديد ورؤية جديدة للمشكلة ذاتها .

وقد نتساءل اخيراً عن المعيار في اختيار المتحاورين دون غيرهم . والرد هو انهم « انماط » فكرية أو فنية و « نماذج » تغني باجوبتها عن التكرار .

لذلك كلـه ، جاء الكتاب وثيقة فكرية نادرة في مرحلة تاريخية صعبة ، منها يستطيع المفكر السياسي والمؤرخ وعالم الاجتماع أن يستكشف حقائق الارض الثقافية التي تقف عليها أزمة المعارضة المصرية .

السيد ياسين

أ. منصور : الأستاذ السيد ياسين ، مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة الأهرام .. انت احد المتخصصين في علم الاجتماع ، وبالذات فيما يتعلق بالدراسات الخاصة بالشخصية القومية . واعتقد ان لك كتاباً وعدة دراسات منشورة في هذا الموضوع . وهذا في الواقع هو السبب في طلبي اجراء هذا الحديث معك . فقد كنت اجري عدة احاديث مع عدد من الكتاب بخصوص موضوع تطبيع العلاقات الثقافية مع اسرائيل ، وقد تمخضت هذه الأحاديث عن عدة تيمات .. اهمها ان ما تهدف اليه اسرائيل من وراء تطبيع العلاقات الثقافية مع مصر هو محاولة افقاد المصريين شخصيتهم القومية ، وبالذات جانبها العربي ، وان ذلك يتم وفق مخطط مرسوم . وابدا حديثي معك بان اسالك : هل توافق - بحكم متابعتك الأكاديمية الهادئة للصراع العربي - الاسرائيلي في جوانبه المختلفة - على ان هناك مخططاً بهذا الشكل ؟.. وان هذا المخطط يهدف الى ما اشرت اليه ؟..

أ. ياسين : من المؤكد أن هناك مخططاً اسرائيليا ، ومن المؤكد ايضا ان احد اهداف هذا المخطط هو نزع العداء التاريخي المتأصل لاسرائيل من جانب الأمة العربية ، والتمهيد لقبول اسرائيل في المنطقة ، باعتبارها دولة معترف بها ، وكيان له وجوده الشرعي . واسرائيل تحاول بلا انقطاع - منذ انشائها حتى الآن - انتزاع هذا القبول العربي . واسرائيل تدرك تماما اهمية تغيير الاتجاهات النفسية والثقافية والاجتماعية لدى الشعب العربي ازاءها . ومن المؤكد ان احد اهداف اسرائيل من ابرام معاهدة الصلح مع مصر ، هو تغيير اتجاه الشعب المصري والشعب العربي ازاءها ونزع الاتجاهات العدائية ازاءها .

وفي تصوري ، ان القضية الاساسية هنا تتعلق ، بما يمكن ان نسميه ، بمحاولة ترويض الشخصية القومية . وترويض الشخصية القومية له سوابق تاريخية بالنسبة لبعض الدول عقب الحرب العالمية الثانية . وعلى سبيل المثال ، نذكر محاولة الولايات المتحدة ترويض الشخصية اليابانية . وبعبارة اخرى ، محاولة نزع الطابع العسكري من الشخصية اليابانية ، وترويض هذه الشخصية بحيث تصبح اكثر قبولا للتعامل مع الولايات المتحدة .. اي عدو

اليابان التي قهرتها في هذه الحرب .

ولكن مركز الثقل في اهتمامي لا يتمثل في محاولات اسرائيل ، وانما يتمثل في ماذا يستطيع الشعب العربي أن يفعل في مواجهة هذه المحاولات .

أ. منصور : ... في الواقع ان هذا هو سؤالي التالي فعلا .. وهو يتعلق بالثغرات الكامنة في الشخصية المصرية ، والعربية عموماً ، والتي قد ينفذ منها المخطط الاسرائيلي ...

أ. ياسين : في الواقع ان موضوع الشخصية العربية هو من الموضوعات التي تحتاج الى تأمل ودراسة وتحليل . لماذا ؟....

أ. منصور : .. معذرة .. ولكن هل يصح ، علمياً ، ان نقول الشخصية المصرية ، ام ان ذلك اصطلاح غير دقيق من الناحية العلمية ؟..

أ. ياسين : .. لا .. هذا ممكن . ولي رأي في هذا الموضوع مؤداه ان هناك شخصية قومية عربية تقوم على اساس التاريخ المشترك ، وعلى اساس القيم الثقافية المشتركة ، وعلى اساس النضال المشترك ضد الاستعمار والهيمنة الغربية في المرحلة الاخيرة ، من تاريخنا الحديث . وبالاضافة الى ذلك ، هناك شخصيات قومية فرعية ، يمكن ان نطلق عليها اسم الانساق الفرعية التي تنبثق من النسق الرئيسي . والنسق الرئيسي هو الشخصية القومية العربية ، اما الأنساق الفرعية فهي ما يمكن ان نطلق عليه « الشخصية العراقية » و « الشخصية اللبنانية » و « الشخصية المصرية » .. الخ . ولي ، في هذا الموضوع ، دراسة نشرتها في مجلة « المستقبل العربي » ، تشرح ما هي الفروق وما هي الارتباطات بين النسق الرئيسي والانساق الفرعية ، وما هو المنطق وراء هذه الفروق وهذه الارتباطات ، وفي وجود شخصية قومية عربية ، بجانب شخصيات متميزة ، وبشكل مختصر ، فان هذه الدراسة تقول ان التميز في الشخصية العراقية او المصرية مثلا ، يرجع الى تفرد التاريخ الاجتماعي لكل قطر . والتاريخ الاجتماعي لكل قطر لا يمكن تكراره ، وهو تجربة تاريخية فريدة ، ولأن هناك تاريخا اجتماعيا متميزا للقطر العراقي ، فان هناك شخصية عراقية ، وكذلك الأمر بالنسبة الى الجزائر ، والى مصر .. الخ ولكن هذا التميز لا يلغي التشابه الناجم عن الاطار الحضاري العام المشترك ، والذي تلعب فيه اللغة والتراث المشترك والخبرات النضالية المشتركة دوراً اساسياً ..

أ. منصور : .. حسن ، هل تعتقد يا استاذ ياسين ، انه من الممكن الغاء الشخصية القومية لشعب ما ؟..

أ. ياسين : .. لا هذا امر غير ممكن .. ومستحيل ....

أ. منصور : .. اذن ، هل يمكن تشويهها مثلاً ؟...

أ. ياسين : .. نعم .. عن طريق تغيير اتجاهاتها ... اي انه يمكن تغيير اتجاهات شعب ما . ولكن ذلك يقتضي وضع استراتيجية معينة ، وكذلك تدخل عدد من العوامل الخارجية والداخلية . ولكنه امر ممكن بطبيعة الحال . فعلى سبيل المثال ، فانه في مصر ، تم تغيير الاتجاهات ازاء عديد من الموضوعات بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ . فقد تغيرت الاتجاهات ازاء قضية

الملكية الخاصة ، وازاء قضية الديموقراطية ، وازاء قضية التنمية .. الخ . اي ان تغيير الاتجاهات هو امر يحدث من خلال تغيير نمط التنشئة السياسية ، وعن طريق استخدام وسائل الاعلام ، وعن طريق استخدام المناهج التعليمية . ولكنا ، يجب ان نضع في اعتبارنا ان تغيير الاتجاهات بشكل حقيقي ، لا يتم الا بعد مرور فترة من الزمن ، بل ان بعض الباحثين يؤمنون بأنه من الممكن تغيير الشخصية القومية خلال جيل واحد ، اي فترة ٢٥ عاماً . ويرجع منطق امكانية التغيير هنا الى انك تقوم بتنشئة جيل جديد على قيم جديدة . كما حدث في الصين على سبيل المثال ، حيث تغيرت الشخصية الصينية ، بعد نجاح الثورة الصينية ووصول ماوتسي تونج الى الحكم ، عبر ٢٥ عاماً . كيف ؟ من خلال الجيش ، ومناهج التعليم ، ووسائل الاعلام والاتصال ، والايدلوجية ، والتنشئة السياسية - كل ذلك ادى الى تغيير الاتجاهات والقيم ، بحيث ينشأ جيل جديد يعتنق قيما جديدة .. فتتغير بذلك الشخصية القومية ..

أ. منصور : .. هل توافق اذن على القول بان اهم وسائل تغيير اتجاهات الشخصية القومية هي تغيير مناهج التعليم ، وتغيير اتجاهات وسائل الاعلام ؟...

أ. ياسين : .. نعم .. ولكن يجب ان نضيف اليهما التنشئة السياسية ....

أ. منصور : .. تقصد الحياة السياسية الحزبية ؟....

أ. ياسين : .. نعم .. فالممارسة السياسية عامل حاسم . اعني كيفية تنشئة المواطن سياسيا . والتعليم هنا امر اساسي وهام . ولكن التنشئة السياسية لا تقل عنه اهمية . اما الاعلام فان وظيفته تكميلية في الواقع بالنسبة لهذين العاملين ، كما انه يعكس الأيديولوجية والتنشئة السياسية اي انه مجرد تابع ...

أ. منصور : .. حسن ، هل يمكن ان نضيف الى هذه العوامل ، التي تؤدي الى تغيير اتجاهات الشخصية القومية ، عاملاً آخر هو قطع الصلة بين الأمة او بين مثقفيها وبين تراث هذه الأمة ؟....

أ. ياسين : .. انت هنا تثير قضية خطيرة . ذلك لأن مسألة التواصل الثقافي لم تتم مناقشتها ، حتى الآن ، بطريقة نقدية في وطننا العربي . ذلك ان الانبهار بالحضارة الأوروبية قد ادى الى انفصال المثقفين العرب عن تراثهم العربي والاسلامي ....

أ. منصور : .. الواقع انك بذلك تكون قد اجبت على سؤالي التالي ...

أ. ياسين : .. هذا عظيم .. ولكني اريد ان اقول ان تلك مسألة في غاية الخطورة من الناحية الثقافية ، لأنها سهلت الخضوع للهيمنة الغربية ، وللتبعية الثقافية للغرب . ففي غيبة التواصل مع اصول الحضارة العربية والاسلامية ، يسهل على الثقافات الأجنبية ان تبسط هيمنتها وسيطرتها . وعندنا مثلا الدكتور زكي نجيب محمود ، والذي مارس تدريس الفلسفة في الجامعة لسنوات طويلة ، اصدر خلالها كتبه المعروفة مثل « خرافة الميتافيزيقيا » و « الوضعية المنطقية » .. الخ - وعلى الرغم من كل هذه الخبرات ، فانه لم يكتشف التراث العربي الاسلامي الا بعد ان تعدى سن الستين ، حينما ذهب الى الكويت كي يدرس في جامعتها . وقد كان الدكتور زكي نجيب محمود مخلصاً اخلاصاً شديداً حين قال انه ادرك انه قد ضيع حياته

في نقل وترجمة الفكر الغربي ، دون أن يدرك عظمة وثراء التراث العربي والاسلامي . وقد عاد ، وهو في هذه السن المتقدمة ، يدرس هذا التراث ، وكتب كتابه المعروف : « تجديد الفكر العربي » محاولا ان يقدم نظرة عصرية لهذا التراث ...

أ. منصور : .. الواقع ان مثال الدكتور زكي نجيب محمود ، هو مثال شديد الوضوح لما نتحدث عنه . ولكنني اعتقد انه يقدم ايضاً مثالاً شديد الوضوح فيما يتعلق بأمر آخر ... وهو انه امر غاية في الصعوبة ، بعد ان يتخطى المرء مرحلة تكوينه الفكري ، ان يتواصل مع تراثه ، اذا كان منبت الصلة به في هذه المرحلة . ويتضح هذا تماماً من قراءة هذا الكتاب الذي اشرت اليه ، والذي كان الدكتور زكي نجيب محمود ينظر فيه الى التراث العربي برؤية غربية واوروبية الطابع تماماً . ولم يكن يمكن للمرء ان يتوقع شيئاً آخر ، لأنه لم يكن في مقدور الدكتور زكي نجيب ان يغير رؤيته هكذا فجاة وبعد مرور مثل هذه الفترة الطويلة ....

أ. ياسين : .. هذا صحيح ... وانا اتفق معك في ذلك ...

أ. منصور : .... حسن .... هذا ينقلنا الى امر آخر يتصل بما سبق . فانا اريد ان اعرف رأيك في مقولة تتردد حاليا في دوائر المثقفين في مصر . وهذه المقولة تدعي ان الطريقة او الظروف التي تكونت بها فئة المثقفين المحدثين في مصر قد اورثتها الكثير من الأمراض التي قد يكون اخطرها على الاطلاق مرض الانسحاق امام الثقافة الغربية ، واحتقار الثقافة القومية والعربية باعتبارها مسؤولة عن تخلف الوطن العربي . ومنذ قام رفاعة رافع الطهطاوي في النصف الأول من القرن الماضي ، بزيارة فرنسا ، وعاد كي يكتب كتابه الشهير « تخليص الابريز في تلخيص باريز » ، الذي عكس انبهاره الشديد بكل مظاهر الحضارة الأوروبية ، والمثقفون المصريون يتوارثون مرض الانسحاق امام الحضارة الأوروبية . وقد برز ذلك المرض بشكل واضح في جيل المثقفين الذي بلغ مرحلة الرشد الثقافي بعد الاحتلال البريطاني لمصر .. اعني جيل احمد لطفي السيد وسعد زغلول ... الخ والجيل الذي تلاه وتاثر به ، اي جيل طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل وتوفيق الحكيم ويحيى حقي .. الخ . وتقول هذه المقولة ان هذا الجيل الاخير ، الذي نشأ وبلغ رشده الثقافي في ظل ظروف الاحتلال ، قد وقع بسهولة في احبولة المخطط الاستعماري الثقافي الذي نجح في قطع الصلة تماما بين هؤلاء المثقفين وبين تراث امتهم ، وبحيث وجد في مصر ، وفي آن واحد ، فئتان مختلفتان لا صلة بينهما ، يتحدثان بلغتين ذات مفردات ومصطلحات متباينة ، لا جسور بينهما ، اي بكلمات اخرى ان الاساتذة امثال توفيق الحكيم ويحيى حقي والدكتور حسين فوزي .. الخ ترتبط مكوناتهم الفكرية ارتباطا تاماً بالفكر الغربي ، ويقفون في انسحاق امام تراث الحضارة الغربية .. هل توافق على هذه المقولة ؟....

أ. ياسين : .. يجب ان اقرر اولاً انه لا يمكن مقارنة رفاعة رافع الطهطاوي بالأجيال التي تلته .. ذلك ان الطهطاوي كان رائداً حقيقياً ، وقد كان انبهاره امراً طبيعياً . فهو انبهار مثقف

قدم من بلد متخلف ، يتعرف بشجاعة نادرة على انجازات العقل الأوروبي في ذلك العصر في ميادين القانون الدستوري والأنثروبولوجيا وعلم النفس والتاريخ والمنطق وعلم الاجتماع ، بالاضافة الى مشاهداته الميدانية للمؤسسات الثقافية والادارية .. الخ . كذلك فانا ارى ان الطهطاوي كان ينظر الى كل ذلك نظرة نقدية ، وانه لم يقبل كل شيء ، ولم يكن منسحقاً امام التجربة والحضارة الأوروبية .

ومن ناحية أخرى ، فأنا اعتقد ايضاً ان الطهطاوي قد اطلق العنان لعملية خطيرة ، هي التعريف بالتقدم الاوروبي من خلال نظرة نقدية ، تتفق مع معلوماته ، في ذلك العصر ، ومع قدراته الذهنية . وقد فعل خير الدين التونسي نفس الشيء .. وفعل مثله العديد من المثقفين العرب الذين زاروا أوروبا وكتبوا التقارير والكتب عن زياراتهم تلك . ولكن القضية انه كان ينبغي ان يصحب هذه المرحلة التعريفية بالحضارة الغربية محاولة لاحياء التراث العربي والاسلامي . ولكن هذا ، للأسف الشديد ، لم يتم كما ينبغي . وحتى محاولات محمد عبده ، وبالرغم من عظمتها وريادتها ، لم تؤد الى ظهور مدرسة كاملة تقتفي آثاره . وربما لو ان مدرسة متكاملة قد نشأت تقتفي آثار محمد عبده ، لما وصلنا الى هذا الانقطاع بين التراث وبين حياتنا المعاصرة ، ولما خلت لهؤلاء المنبهرين بالحضارة الأوروبية ، والذين يريدون ان ينقلوا الحضارة الأوروبية نقلاً حرفياً الى العالم العربي.وقدساعد على ذلك هذه الازدواجية في نظام التعليم المصري . فهناك نظام التعليم المرتبط بالجامعة الازهرية يخرج هؤلاء الذين تلقوا تعليما دينيا صرفا منقطع الصلة بالتعليم العصري ، وهناك المدارس الثانوية التي تدرس فيها المناهج الحديثة ومنقطعة الصلة بالتراث العربي والاسلامي . وقد عكست هذه الازدواجية التعليمية ، في الواقع ، ازدواجية ثقافية في المجتمع المصري ، لم يتم حلها حتى وقتنا هذا ...

أ. منصور : .... الواقع يا استاذ ياسين ان هذه الازدواجية التي اشرت اليها ينبغي ان تذكرنا بازدواجية اخرى اكثر عمقاً ، واشد ضرراً وخطورة .. وهي هذه الازدواجية بين ثقافة الشعب وما يمكن ان نسميه بثقافة المؤسسة الـ Establishment . اي اننا في الواقع نعيش ازدواجية عالية التركيب تشبه اللعبة الشعبية الروسية المعروفة باسم « كاتيوشا »، وهي هذه الدمية الخشبية الكبيرة التي تحوى بداخلها دمية اصغر منها ، تحوي بدورها دمية اصغر وهكذا الى ما لا نهاية . وقد كانت هذه الازدواجية سمة اتسمت بها الحياة الثقافية في مصر . فقد كان للحكام ثقافتهم التي تبنتها الفئات العليا من المثقفين .. وكانت لهم ايضا اساليب حياتهم الخاصة ، التي حاولت هذه الفئات العليا تقليدها ، تزلفا لهؤلاء الحكام وسعيا وراء المال والسلطة . هذا في الوقت الذي كان فيه عامة الناس من الفلاحين ، وصغار التجار والحرفيين ، والفئات الدنيا من المثقفين ، تعيش حياتها الخاصة ، محتفظة بالقيم والتراث واساليب الحياة والرؤية الثقافية التي انتقلت اليها متراكمة عبر العديد من الاجيال . وهكذا نجد انه في عصر المماليك مثلا ، وفي الوقت الذي كان فيه ابن خلدون ، وابن حجر والمقريزي وتغرى بردى ـ التركي وابن اياس ـ التركي ايضاً ... الخ وكلهم بلا استثناء كانوا قريبين غاية القرب من السلاطين

والأمراء ، ويعيشون حياة تشبه حياتهم ، وينتجون اعمالا فكرية وثقافية يمكن ان نطلق عليها بالرغم من عظمتها وقيمتها الكبرى اسم الثقافة الرسمية ـ نجد انه في نفس الوقت كانت عامة الشعب تحيا حياتها الثقافية الخاصة وتنتج اعمالا مثل الف ليلة وليلة وملاحم عنترة والظاهر بيبرس وغيرها ، تختلف نظرتها الى الحياة والدين ، وقيمها الخلقية والفكرية ، اختلافا ، يكاد ان يكون تاما ، عن « سلوك » المقريزي » و « مقدمة » ابن خلدون و « نجوم » تغري بردى و « بدائع » ابن اياس ولا يزال هذا الانفصال قائما حتى وقتنا الراهن هذا . ولا يمكن التحجج بأن مثل هذه الازدواجية توجد في كافة الامم ، حيث يوجد ادب شعبي وادب مكتوب او رسمي ، ذلك انه في معظم الحالات نجد سماتا مشتركة بين هذين النوعين من الانتاج الفكري والفني ، بينما في حالتنا هذه نجد الصلات تكاد تكون ميتة تماماً ...

أ. ياسين : ... اظن انك تشير هنا الى الفرق بين ثقافة الصفوة وثقافة الجماهير في ظل نفس اطار الثقافة العامة . وهذا امر يختلف عن حديثنا عن ثقافتين : احداهما ذات اصول اوروبية والأخرى عربية اسلامية ...

أ. منصور : ... الواقع انني لا اعني ذلك .. ولكنه يمكن القول بان الثقافة الرسمية ، او ما يمكن تسميته بثقافة المؤسسة ، كانت دائما اكثر مرونة فيما يتعلق باقتراض الثقافات الأجنبية ، وذلك بعكس الثقافة الشعبية التي كانت اكثر احتفاظاً بالعناصر الاساسية التي تعكس الشخصية القومية للامة .. هل توافق على ذلك ؟....

أ. ياسين : .. الواقع ان قضية الثقافة الشعبية معقدة . وفي رأيي انه لا يمكن عقد مقارنة بين الثقافتين . وقد ذكرت الف ليلة وليلة كمثال ، ولكن ماذا هناك بجانبها ؟....

أ. منصور : .... هناك الكثير يا استاذ ياسين ...

أ. ياسين : ... انا اعني ان قضية الفولكلور قضية مختلفة ، وانا لا استطيع ان اناقشه على نفس المستوى الذي اناقش فيه الانتاج الفكري لابن خلدون او المقريزي .. الخ . اي انه ليس هناك توازن بين الثقافة الرسمية والثقافة الجماهيرية ...

أ. منصور : .. ان ما اعنيه ، يا استاذ ياسين ، هو ان نقاط الانطلاق ... او ان رؤية الثقافة الرسمية للعالم تختلف تماما تقريباً عن رؤية الثقافة الشعبية له . فرؤية الثقافة الشعبية للدين ... او معتقدات الشعب الدينية ـ والتي يطلق عليها اسم الخرافات الدينية الشعبية احياناً ـ تختلف تماما عن رؤية الازهر الدينية او رؤية الكنيسة القبطية الدينية ...

أ. ياسين : ... الواقع ان هذه قضية تحتاج الى بحث وتحقيق . ولا بد ان ندرس العصور التاريخية المختلفة لكي نرى كيف انفصلت الثقافة الشعبية عما تسميه بالثقافة الرسمية . فقد ضربت انت مثلا بابن خلدون ، فلا بد ان نعرف ، في هذه الحالة ، ما هي الثقافة الشعبية التي كانت قائمة في عصر ابن خلدون ، وذلك لكي نتبين اذا كانت هناك وشائج بين الثقافتين ام لا . ذلك ان التعميم في مثل هذه الحالات امر يمثل بعض الخطورة . وكل ما يمكن ان نقوله في هذا

المجال هو ان الانفصال بين ثقافة الصفوة والثقافة الشعبية كان قائما دائماً .. وما زال موجوداً بشكل حاد في الوطن العربي ...

أ. منصور : .... هذا هو ما اعنيه ...

أ. ياسين : ... اي ان هناك قلة من المثقفين يفهمون بعضهم بعضاً ، ولكنهم معزولون عن الجماهير ، بحكم الأمية الرهيبة السائدة ، وبحكم عدم وجود ادوات التواصل مع هذه الجماهير . وبعبارة اخرى ، لأن المثقفين العرب ممنوعون ، بقوة القهر من التواصل مع جماهيرهم ، وهذا في رأيي ، هو الوضع الصحيح للقضية . فالانظمة السياسية في الوطن العربي تفرض قيوداً حديدية على تواصل المثقف العربي مع جماهيره . وبالتالي فانها تجبره على ان يكون محصوراً في دائرة ضيقة ، وان يصبح جمهوره هم زملاؤه من المثقفين . ونادراً ما يستطيع المثقف العربي إبلاغ رسالته الى الجماهير العريضة . فالمثقف إذن ، ممنوع من الحركة في الواقع او هو مقصر عن ذلك .

أ. منصور : ... انا اوافق على ما تقول ... ولكن دعنا نعود الى الموضوع الذي كنا نتحدث فيه ... فانا اريد ان اعرف رايك في امر اعتقد انه هام ، وهو اي الثقافتين ـ التراث العربي الرسمي او التراث الشعبي ـ ينبغي للمثقف ان يمد جذوره اليها ؟...

أ. ياسين : .. لو انك اتحت الفرصة للمثقف كي يتفاعل مع جماهيره ، فانه بالقطع سوف يصحح مواقفه ...

أ. منصور : ... دعني اولاً يا استاذ ياسين اسالك : اليس لهذا الانفصال الحاد بين المثقف وبين جمهوره الطبيعي جذوراً تاريخية ؟...

أ. ياسين : ... بالقطع ...

أ. منصور : .. عظيم .. الا يمكن ان يكون السبب في ذلك وجود ثقافتين مختلفتين قائمتين في امتنا العربية ؟....

أ. ياسين : ... لا ... هذا فقط احد الاسباب . وفي رأيي ان اهم هذه الأسباب واخطرها ، هو منع المثقف العربي من الاتصال بجماهيره . ذلك ان الالتحام بهذه الجماهير يدفع المثقف الى تصحيح افكاره ، وتجعله يفهم هذه الجماهير ، وتجعله ايضاً يفهم الثقافة الشعبية التي تشير اليها ، ويضيق من نطاق هذا الانفصال ، ويمد الجسور عبر هذه الفجوة التي تعزل المثقف عن جمهوره الطبيعي . اما اذا ظل المثقف محروماً من الاتصال العضوي مع جماهيره فسوف ينتهي به الأمر الى الاكتفاء بأن يلوك انتاجه الفكري مع زملائه من المثقفين . وسوف اضرب لك مثلا يوضح ما اقوله . فالمثقفين العرب ليس لديهم ادراك حقيقي لعمق الظاهرة الدينية في المجتمع العربي . وبعبارة اخرى ، فانك قد تجد مجموعة من المثقفين يرفضون الظاهرة الدينية دون ان يكون لديهم فهم حقيقي لما تعنيه الظاهرة الدينية ، او الدور الذي تلعبه هذه الظاهرة في تكوين الشخصية القومية العربية ...

أ. منصور : ... اعتقد ان ما تشير اليه امر بالغ الخطورة .. ذلك ان هناك نوعان متميزان من هذه الظاهرة الدينية ، فهناك مجموعة المعتقدات الدينية ـ او ذات الطابع

الديني - التي يؤمن بها عامة الناس من الفلاحين - خاصة - والعمال والحرفيين من ذوي الأصول الريفية وهناك ايضاً الدين الاسلامي والدين المسيحي كما تراهما المؤسسات الدينية الرسمية مثل الأزهر او البطريركية القبطية ...

أ. ياسين : .. لا ... هذه قضية أخرى ...

أ. منصور : ... ولكن هذا امر خطير ...

أ. ياسين : ... صحيح ... ولكنه امر آخر غير ما كنت اتحدث عنه . فقد كنت اضرب مثلاً على مسألة الانفصال ، وهو عجز المثقفين عن فهم ثقافة الجماهير وتقاليدها وعاداتها وذلك بحكم محدودية اتصالهم بهذه الجماهير وتفاعلهم معها عضوياً . وقد ضربت مثلاً بموضوع الدين . ذلك انه ليس هناك فهم حقيقي للظاهرة الدينية ولأبعادها الحقيقية . ولكنك الآن تثير قضية اخرى . وانا اتفق معك في ان هناك ديناً شعبياً بهذا المعنى ، والذي يسمى احياناً بدين العامة ، وهناك ايضاً الدين كما تراه المؤسسات الرسمية وقد كان الحال هكذا دائماً ، سواء بالنسبة للاسلام او للمسيحية . ويمكن القول بأن الشعب يبتدع طرائقه وممارساته الدينية ، والتي تريحه نفسياً . وهناك ، بجانب ذلك ، المفهوم الرسمي للدين ، او تفسيرات الفقهاء له ...

أ. منصور : .. تاكيداً لما تقوله ، يا استاذ ياسين ، فان معي الآن كتيباً يحوي ما يبدو انه تفريغ لتسجيل لقصة دينية مما يـرويه القصاصون الشعبيون في الموالد . واسم هذه القصة هو « هند وبشر » . وتقول هذه القصة ، مثلاً ، ان محمد ، عليه الصلاة والسلام ، ولد في بلدة « طيبة » - التي كانت عاصمة لمصر القديمة - وان هناك وليا صالحا اسمه « آمون » . ونحن نعرف ان طيبة كانت ، في وقت من الأوقات، مركزاً لعبادة الاله المصري القديم « آمون » . اليس هذا امر يستوقف النظر ؟...

أ. ياسين : .. بلا شك . وكما قلت لك فان هناك الدين - بالمفهوم الشعبي - بما يحويه من خرافات وخزعبلات ، احياناً ، وفهم غير دقيق ، وكما يتمثل - مثلا - فيما يجري في الموالد الدينية الشعبية ...

أ. منصور : .. ولكن اليس هذا ، بالرغم من ذلك كله ، هو دين الشعب . اي بعبارة اخرى عندما اقول ان الشعب المصري شعب متدين ، الا ينبغي ان احدد نوعية هذا التدين ؟...

أ. ياسين : ... بالقطع . ولذلك فاننا نحن المثقفون ، ولأننا ممنوعون من الاتصال بالجماهير ، فان علينا ان نفهم وان نعرف ما الذي يحرك هذه الجماهير . علينا ، مثلا ، ان نعرف نوعية المعتقدات الدينية التي تؤمن بها الجماهير ، وان لا نكتفي بالقول ان الجماهير تؤمن بالدين الاسلامي بل يجب ان نعرف شكل هذه العقائد الدينية ، كنه ودلالات القصص الدينية الشعبية المتداولة في الموالد الدينية وما شابهها وهذا ، كما اشرت ، يحتاج الى وجود تفاعل حقيقي بين المثقف وجماهيره . فالمثقف المنعزل الذي يرفض ، وهو جالس الى مكتبه ، الظاهرة الدينية هو مثقف لا يتبع المنهج العلمي . ذلك ان الأمور لا تتوقف ابداً على مزاج المرء منا . فالظاهرة موجودة ومهمتي ان اعرف لماذا وجدت ، وما هو منطقها ، وما هي مصادرها ،

ولماذا تؤمن بها جماهير الشعب . ولكن ذلك لا يحدث ، بسبب الوضع الهامشي للمثقف العربي في النظم العربية القائمة ...

أ. منصور : ... حسن ، اعتقد ان ما قلته يكفي بالنسبة لهذا الموضوع . ولننتقل الى موضوع آخر . ففي رايك ما هي اضعف اجزاء جبهتنا الثقافية في الوطن العربي ؟.. او ما هي الثغرات التي يمكن ان تسهل تحقيق المخطط الصهيوني الامبريالي في الميدان الثقافي ؟...

أ . ياسين : ...اعتقد ان من ابرز هذه الثغرات غياب المنهج النقدي المتكامل في النظر الى قضايا الأصالة والمعاصرة والتراث . واعتقد ان احد مشكلاتنا الاساسية هي اننا لم نحسم الامور بعد فيما يتعلق بقضايا الاصالة والمعاصرة . واحب ان اشير ، في هذا المقام الى ندوة اعتقد انها كانت من اهم الندوات التي عقدت في الوطن العربي في الفترة الاخيرة ، وهي ندوة « ازمة التطور الحضاري » التي عقدت في الكويت منذ عدة سنوات . وقد قامت جمعية الخريجين الكويتية بنشر وثائق الندوة في كتاب بلغ عدد صفحاته حوالي ٥٠٠ صفحة . والمرء يخرج من قراءة هذا العدد الهائل من الصفحات بانطباع مؤداه ان المثقفين العرب ما زالوا يختلفون اختلافا جوهريا حول وضع المشكلة ، وحول الحلول المقترحة لايجاد حل لها ، وهكذا . فاننا منذ عهد رفاعة الطهطاوي لم نتمكن من حسم هذا الأمر بعد : اي هل نعود الى التراث العربي الاسلامي ام نقلد الغرب كما يدعو البعض ؟ أو انه ينبغي لنا ان نتخذ موقفا وسطا يوفق بين التراث والمعاصرة ؟ ..

أ. منصور : ... واعتقد ان كل فئة من الفئات التي ذكرتها تحوي في داخلها تفريعات متعددة ، فهناك مثلا خلافات داخل الفئة التي تدعو الى العودة الى التراث حول نوعية التراث الذي ينبغي العودة اليه ... الخ ...

أ. ياسين : .. بالضبط كما تقول . واعتقد ان هذه القضية تمثل التحدي الحقيقي والرئيسي الذي يجابه المثقفين العرب هذه الأيام . والنقطة الأخرى التي اعتقد باهميتها هي ان الفترة الحالية تشهد بدء عملية مراجعة عميقة لفكر المثقفين العرب في الفترة الماضية . وذلك لأسباب عديدة ، منها فشل التجربة الناصرية في مصر ، وكذلك فشل تجارب اخرى في اقطار متعددة ، وكذلك وبالقطع الظاهرة الايرانية ، وظهور الاسلام باعتباره ايديولوجية ثورية . وانا اعتقد ان كل هذه العوامل سوف تدفع المثقفين العرب الى اعادة النظر في كثير من المسلمات التي كانوا يؤمنون بها في الماضي . ذلك ان المثقفين ، اذا كانوا يتحلون فعلا بالنزاهة الفكرية والموضوعية والشجاعة ، يجب ان يعيدوا النظر في هذه المسلمات ، وذلك في ضوء الخبرة التاريخية التي مرت وفي ضوء الظواهر الجديدة القائمة . وهناك ما يبشر بحدوث ذلك في الوطن العربي . فهناك عديد من الدراسات والمقالات التي ظهرت في الفترة الاخيرة ، والتي تحمل طابع المراجعة النقدية للمسلمات السابقة ، والتي تنقد فكرة التبعية للغرب ، والتي تسأل عن الأسباب التي ادت الى اختفاء الصوت العربي الاسلامي ، والتي تدرس ظاهرة الاغتراب الثقافي الذي يعاني منه المثقف العربي ، وكيف يمكن للمثقف العربي أن يعود الى أصوله

الأولى . وانا اعتقد ان ذلك يمثل ، كما قلت ، بدء فترة مراجعة حقيقية للمواقف التي كان يتبناها المثقفون العرب في الفترة السابقة ...

أ. منصور : ... اسمح لي ، يا استاذ ياسين ، ان اعيد سؤالك بالنسبة لموضوع تناولناه في بداية هذا الحديث . اعني انه بوصفك عالما سوسيولوجيا ، وبوصفك تتابع ، بحكم عملك ، تفاصيل التطورات التي تطرا على الظواهر الاجتماعية في الوطن العربي ، هل تعتقد ان هناك من الظواهر ما يدل على ان هناك مخططاً صهيونياً امبرياليا يهدف الى افقاد الشعب المصري هويته القومية ، وبالذات طابعها العربي ، وان هذا المخطط قد نجح في تحقيق بعض ما يهدف اليه ؟....

أ. ياسين : ... احيانا ، يا استاذ ابراهيم ،نتكلم عن مصر ، وننسى الوطن العربي ككل، وان مصر جزء منه . وانا ضد هذا المنهج . فانا حين اتحدث ينبغي ان اتحدث عن النظام العربي ومصر جزء من النظام العربي . ولذلك فانه يتعين عليك ان تسألني عن كنه ومدى تبعية هذا النظام العربي للغرب ...

أ. منصور : ... شكرا ، يا استاذ ياسين .. ولكن سؤالي يتعلق بالظواهر التي قد تكون تمكنت من رصدها ، والتي تدل على نجاح حققه المخطط الصهيوني الامبريالي ...

أ. ياسين : ... انا اعرف ذلك ، ولكنني اريد ان أوصل هذه المسألة اولاً ...

أ. منصور : ... حسن ... تفضل ....

أ. ياسين : .. ان النظام العربي ، كما قلت ، تابع اقتصاديا للغرب ... ولذا فلا بد من مناقشة هذه القضية في اطار توصيف سمات النظام العربي الراهن ، وفي تبعيته الاقتصادية والثقافية للغرب . ولذا فانا ضد التحدث عن مصر وحدها ...

أ. منصور : ... انا معك في ذلك . وقد كان سؤالي متعلقا بمحاولة محو الطابع العربي في الشخصية القومية المصرية ... ونحن حين نتكلم عن مصر فذلك لأنها هدف الهجوم الرئيسي للعدو ...

أ. ياسين : .... لا ... فهذه حيلة لطيفة لفصل حالة مصر ، وذلك من اجل التركيز على ما يحدث في مصر ، ومن اجل التجاهل المتعمد لما يحدث في الوطن العربي . وانا ضد ذلك ...

أ. منصور : ... على الاطلاق يا استاذ ياسين .. انا اؤكد لك ان هذا ليس صحيحا على الاطلاق ...

أ. ياسين : ... لا.... فهذا هو طابع معظم الكتابات في الوقت الحاضر ...

أ. منصور : ... واؤكد لك ان هذا خطا لم ولن ارتكبه ...

أ. ياسين : ... وانا اريد ان اضع مصر في اطارها العربي . فانا مثقف عربي قومي ، ولا بد ان اتكلم عن الوطن العربي ككل . وانا اقول ان معظم النظم العربية القائمة ضالعة مع الغرب اقتصاديا وثقافيا . وعلى ضوء هذا التوصيف يمكن ان افهم ما يحدث في مصر ، كما استطيع ان افهم ما يجري في غيرها من البلاد العربية...

أ. منصور : ... معذرة يا استاذ ياسين ، ولكنه يبدو انه من الأفضل ، كي يسود طابع الود هذا الحديث ، ان اوجه اليك سؤالي بصياغة اخرى : فهل ترى انه خلال الخمسة عشر عاماً الأخيرة ..

أ. ياسين : ... اي خمسة عشر عاماً ؟...

أ. منصور : ... منذ عام ١٩٦٧ مثلاً ... هل تبينت ، من متابعتك لما يحدث في الوطن العربي ، من الظواهر ، وسواء كانت هذه الظواهر ثقافية ام اجتماعية ام اقتصادية ام سياسية ، ما يدل على ان هناك مخططا يجري تنفيذه ، يهدف من بين ما يهدف الى تدمير العقل المصري ، والى محو هوية مصر العربية ، وان هذا المخطط قد نجح فعلا في تحقيق بعض اهدافه ؟...

أ. ياسين : ... من المؤكد ان هناك مثل هذا المخطط ، واهداف هذا المخطط محددة ومعروفة حتى من قبل انشاء دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ . وانا اعتقد اننا تكلمنا كثيرا عن المشروع الصهيوني ، واننا درسنا سماته دراسة مستفيضة . وما يعنيني اساسا ، من منطلق نقدي ، هو ماذا فعل العرب لمجابهة هذا المشروع الصهيوني قبل ١٩٦٧ ، وبعد ١٩٦٧ ايضاً . فقد كشفت حرب عام ١٩٦٧ ، في رايي ، عن عدم الجدية في مجابهة المشروع الصهيوني ، وكذلك عن عدم فعالية النظام السياسي العربي في توجيه طاقات الأمة وتنميتها ، وفي وضع استراتيجية ثورية للتعامل مع اسرائيل . وبالاضافة الى ذلك ، فما الذي ادت اليه هزيمة عام ١٩٦٧ في نهاية الأمر ؟ لقد ادت الى سيادة مذهب الحل السلمي مع اسرائيل ، والذي وافقت عليه كافة الأنظمة العربية تقريباً. فاذا تحدثنا عن المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية فانها ليست الا تطبيقاً للحل السلمي الذي وافقت عليه اغلبية الأنظمة .

أ. منصور : ... انا لم اطلب منك يا استاذ ياسين ان تتحدث عن معاهدة الصلح المصرية ـ الاسرائيلية .. فليس ذلك هو موضوع حديثنا ...

أ. ياسين : ... نعم .. ولكن ذلك اتى في سياق الحديث .. فقد سألتني عما اذا كان هناك مخطط صهيوني . وانا اقول لك نعم.. هناك مخطط صهيوني ...

أ. منصور : ... وسألتك عن المظاهر التي تدل على تنفيذ هذا المخطط . ولكنك لم تجب على ذلك حتى الآن ...

أ. ياسين : ... كما ان هناك ايضاً مخطط امبريالي ... وقد ظللنا نحو ٥٠ عاما نتحدث عنه .. ولكنه لا يعنيني في المقام الأول . لماذا ؟ لأن ما يهمني حقيقة هو الحديث عن المخطط العربي ...

أ. منصور : ... عظيم ... وهل كان الحديث ، الذي دام ٥٠ عاما عن المخطط الصهيوني والامبريالي ـ كما تفضلت بالقول ـ صحيحا ودقيقا وسليما ؟ وهل تم توصيف هذا المخطط بشكل علمي سليم ؟...

أ. ياسين : ... نعم ... بدون شك ... ولقد كانت التحليلات العربية النقدية للصهيونية ولدولة اسرائيل وخاصة بعد عام ١٩٦٧ ، تتسم في رايي بالموضوعية والدقة العلمية . وكذلك

فيما يتعلق بتشخيص المخطط الصهيوني واهدافه .. وقد تم ذلك بناء على دراسات موثقة ومدروسة وقد قام مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بدور ايجابي في هذا المجال . ولكن هذا لا يعنيني الآن . فقد اصبحت هذه المسائل معروفة للكافة تقريباً . وانما الذي يعنيني هو اين المخطط العربي الثوري لمجابهة هذا المخطط الصهيوني . هذا هو ما ينبغي ان نتحدث عنه . ويذكرني ذلك بكتاب هام صدر مؤخراً للدكتور فؤاد زكريا بعنوان « العرب والنموذج الامريكي » ينقد فيه النظرة العربية للنموذج الأمريكي بوصفه يمثل حلا مثاليا لمشكلات الوطن العربي . وانا اتفق مع الدكتور فؤاد زكريا في كل ما جاء في كتابه هذا . ولكن لو ان لدي متسعا من الوقت لكتبت كتابا اخر تحت عنوان « الامريكيون والنموذج العربي » فانا اريد ان اتحدث عن النموذج العربي وكيف يبدد طاقاته العسكرية والسياسية والاقتصادية ، وكيف يقدم المساعدة المباشرة التي تسهل تنفيذ المخطط الغربي ـ الصهيوني ، وذلك بسبب افتقاده للفعالية والثورية ، ولانصياعه لهذا المخطط . وهذه في رأيي هي اهم قضية تواجه الوطن العربي الآن . وينبغي لذلك ان نكف عن الحديث عن المخطط الصهيوني والمخطط الامبريالي ...

ا. **منصور** : ... !! ... !! ...؟؟ .... ؟؟ ....

ا. ياسين : ... فقد آمنا ، والحمد لله ، بأن هناك مخططا صهيونيا امبرياليا .. والمهم هو ماذا نفعل نحن ...

ا. **منصور** : ... **الحقيقة انني وجهت اليك هذا السؤال ، يا استاذ ياسين ، لأن هناك الكثيرين ـ ومن بينهم بعض ابرز المثقفين في بلادنا ـ ممن ينكرون وجود مثل هذا المخطط ...**

ا. ياسين : ... من الذي يستطيع ان ينكر ، يا استاذ ابراهيم ، ان هناك مخططا صهيونيا ؟..

ا. **منصور** : ... **هناك كثيرون ، واستطيع ـ اذا شئت ان اذكر لك اسماءهم المعروفة ...**

ا. ياسين : ... انا لا استطيع ان اصدق ذلك .. فحتى الأطفال في الوطن العربي اصبحوا يدركون ابعاد هذه الظاهرة العدوانية التوسعية . وبالاضافة الى ذلك ، فانا اعتقد انه من قبيل اضاعة الوقت ، ان يدخل المرء في جدل مع امثال هؤلاء ... ومن ناحية اخرى ، فقد ظللنا فترة طويلة نلقي بعبء تخلفنا على الاستعمار ...

ا. **منصور** : ... **وقد كان ذلك صحيحا الى حد كبير .. بالرغم من ان ذلك لا يعني انتفاء مسؤوليتنا نحن ...**

ا. ياسين : ... ونحن الآن نلقي بعبء تخلفنا على الصهيونية ... والامبريالية الغربية ، ونحن في حاجة الى وقفة شجاعة لنقد الذات ، والى الحديث عن ما نفعله نحن ، كشعب عربي ، ازاء هذه المخططات .. هذا هو ما يجب ان نناقشه بشجاعة وتجرد ...

ا. **منصور** : ... **وهذا هو موضوع حديثنا ...**

ا. ياسين : ... انت تقول ان هناك مخططا صهيونيا لترويض الشخصية المصرية .. هذا

صحيح .. وانا اتفق معك في ذلك . ولكن ما الذي لديك كي تجابه هذا المخطط ؟...

أ. منصور : .. نعم .. هذا سؤال هام ....

أ. ياسين : ... وما هي استراتيجيتك ازاء ذلك ؟ انا لا تعنيني اسرائيل ...

أ. منصور : ... فهل يمكنك ان تجيب عليه ؟...

أ. ياسين : ... نعم ... بالطبع . وما يعنيني بالنسبة للمخطط الصهيوني ـ الغربي هو ان اتعرف على معالمه ـ دون ان يعني ذلك ان اتبنى النظرة التآمرية للعالم ... او ان اكتشف مؤامرة في كل ما يحيط بي . ولكن ذلك لا يعني انه ليس هناك مخطط صهيوني ـ امبريالي ... فهذا امر مسجل في كتبهم ووثائقهم وتقاريرهم ... والتي تقول ان هناك خطة صهيونية ـ امبريالية للسيطرة على المنطقة .. وخاصة منطقة الخليج حيث البترول . وهذا امر منطقي . لأنه بدون هذه المنطقة ، تصبح الحضارة الصناعية الغربية مهددة بالزوال . ومن المنطقي أيضاً ان تحاول القوى الغربية ان تحافظ على سيطرتها على المناطق الغنية بمصادر قواها الطبيعية والاستراتيجية . ولكن القضية الأخطر على ذلك هي ماذا نفعل نحن بثروتنا ، وبطاقاتنا العسكرية والسياسية والاقتصادية ؟.. فهذا هو السؤال الذي يتجاهله دائما المثقفون العرب ...

أ. منصور : ... معذرة يا استاذ ياسين .. ولكن دعنا نحاول ان نقصر حديثنا على الجبهة الثقافية .. رغم ما في ذلك من صعوبة .. فهي لا شك جبهة هامة .. بل ربما كانت هي الجبهة الرئيسية ...

أ. ياسين : ... قد يكون ذلك صحيحا ...

أ. منصور : ... عظيم .. اذاً نحن استعرضنا جبهتنا الثقافية ـ ومعذرة لأني اعيد سؤالك في موضوع سالتك فيه من قبل ـ فما هي اخطر نقاط الضعف في استحكاماتنا عليها .. او ما هي الثغرات الرئيسية في هذه الجبهة ، والتي سوف ينفذ منها ، ولا شك ، هذا المخطط الصهيوني الذي تشير اليه ؟...

أ. ياسين : ... الواقع ان اهم هذه الثغرات ـ وبغض النظر عن وجود مخطط صهيوني ام لا هو عدم قيامنا بنقد حقيقي للنظام السياسي العربي القائم من النواحي الاقتصادية والحضارية والثقافية . هذه هي الثغرة الأولى . والثغرة الأخرى هي ما يمكن أن نسميه بالانتهازية الفكرية ذلك أنه من اسهل الأمور ان يتحدث المرء عن مصر ، ولكنه امر بالغ الصعوبة ان يتحدث المرء عن النظام العربي . وهذا ، في رأيي ، انتهازية فكرية . ولو كنا حقا كمثقفين نؤمن بالقومية العربية فلا بد ان نتكلم عن النظام العربي ككل ، وان نضع كافة النظم العربية امام مسؤولياتها التاريخية ...

أ. منصور : ... حسن يا استاذ ياسين ، هل تعتقد انه يمكن ان نضيف الى ذلك هذا النقص الملحوظ في الدراسات الخاصة بشخصية العرب القومية .. وكذلك انساقها الفرعية ؟...

أ. ياسين : ... لا ...لا اعتقد ان المسألة هي مسألة نقص في هذه الدراسات المشكلة هي

عدم توفر الارادة . ذلك ان العملية التي اتحدث عنها تحوطها المخاطر . ذلك انه لكي تكون موضوعياً ومتجردا وحاسما وحادا في التعامل مع النظام العربي ككل، وذلك بوصفك مثقفاً قومياً عربياً ، هو امر تحوطه المخاطر والمحاذير والتخوفات . ويتحدث عن مصر ، ولكنه لا يستطيع ان يتحدث عن الكويت ، او عن النظام السياسي الكويتي ، وهكذا ...

أ. منصور : ... ذلك لأنه بحكم اوضاع الفرقة والانفصال الطويل ، فان المصري يعتبر انه لا يحق له التدخل في شؤونها الداخلية ...

أ. ياسين : ... فانك تستطيع ان تتحذلق كما تشاء .. ولكن واجبنا كمثقفين عرب هو ان ننظر الى مصر بوصفها جزءاً لا يتجزأ من الوطن العربي ، وان نتحدث ، مثلا ، عن ازمة الديموقراطية في الوطن العربي ككل فهناك ازمة فعلا في هذا المجال ، وهناك عموماً انفصال بين الجماهير وبين القيادة .. ويجب علينا ان ندرس السبب في ذلك . كذلك فان هناك تبعية اقتصادية للغرب .. وينبغي ايضاً ان ندرس السبب في ذلك ...

أ. منصور : ... قد تكون هذه المواضيع ذات اهمية بالغة ... ولكن ما كنت اسالك عنه ، يا استاذ ياسين ، كان يتعلق بالثغرات الكامنة في جبهتنا الثقافية .. وقد ذكرت انت نقطتين متعلقتين بهذا الأمر : اولهما غياب النظرة النقدية الموضوعية المتجردة للنظام السياسي العربي ، والنقطة الثانية هي هذه الأزمة الديموقراطية التي يعاني منها عالمنا العربي . ولكن اسمح لي ان اطرح عليك ان اخطر الثغرات القائمة في جبهتنا الثقافية ، والثغرة التي تجعل من محاولة سد الثغرتين اللتين ذكرتهما امراً بالغ الصعوبة والمشقة - وقد يكون عديم الجدوى ايضاً - هي غياب التحديد الواضح لشخصيتنا القومية ولسماتها وعناصرها الاساسية والفرعية ... او بعبارة اخرى اننا في الواقع لا زلنا لا نعرف من نحن على وجه الدقة . ذلك انه من حق المرء في الواقع ، وفي غياب هذا التحديد لشخصيتنا القومية ، ان يفترض ان ما تسميه سيادتك بازمة الديموقراطية - وهي مفهوم سياسي غربي بالقطع - لا يمثل ثغرة في جبهتنا الثقافية القومية . ذلك انه بدون تحديد شخصيتنا القومية ، وتعيين منابعها وسماتها ، فان المرء لن يمكنه ان يحدد ، بشكل قاطع وحاسم ، ما هي النظم والممارسات السياسية او الاقتصادية التي تتفق وتنسجم مع هذه الشخصية القومية ... ما رايك ، يا استاذ ياسين ! في ذلك ؟....

أ. ياسين : ... الواقع ان ذلك يتعلق بالمشكلة الاولى ، وهي حسم قضية الأصالة والمعاصرة ..

أ. منصور : ... نعم ... قد يكون ذلك هو اصل الداء ...

أ. ياسين : ... ذلك ان موضوع الشخصية القومية مرتبط ، اساسا ، بهذا الموضوع . وعلى ذلك ، فاننا- في رايي - نواجه مشكلتين اساسيتين : مشكلة على الجبهة الثقافية ، وهي التعرض مباشرة لمشكلة الاصالة والمعاصرة ، والعمل الجاد من اجل حسمها . وهذا امر يتعلق بالشخصية القومية ومقوماتها . والمشكلة الأخرى هي نقد سلبيات النظام العربي القائم ....

أ. منصور : ... هذا عظيم .. اذن فما هي في رايك الخطوط العريضة للمنهج الذي

ينبغي تبنيه من اجل معالجة المشكلة الاولى ... وهي مسالة حسم قضية الاصالة والمعاصرة ؟...

أ. ياسين : ... في رأيي ان هذا المنهج ينبغي ان يعتمد على ما يلي : فقد تعودنا في الماضي على نفي الآخر ، وعلى رفض الآخر . اوبعبارة اخرى ، فان المثقف الماركسي كان يشعر انه يتعين عليه ان يرفض المثقف الذي يؤمن بدعوة الاخوان المسلمين، وكذلك فان الآخر كان يشعر بأن عليه ان يرفض المثقف الماركسي . ولم يكن الرفض او القبول يتم على اسس موضوعية . بمعنى ان المثقف الماركسي قد يرفض ، وهو لم يقرأ التراث الاسلامي كما ان المثقف الاخواني قد يرفض الماركسية ، وهو لم يقرأ التراث الماركسي . وهذا يمثل احد السلبيات التي لا بد ان تختفي في المرحلة الجديدة التي نرجو ان تشرق على عالمنا العربي . وبعبارة اخرى ، فانه ينبغي علينا حين ننقد او نرفض شيئاً ، ان نكون على معرفة بمصادره . وهناك ، لحسن الحظ تباشير تدل على بدء تطبيق هذا المبدأ . فهناك مثلا ، مجلة « المسلم المعاصر » ، والتي تنشر احيانا مقالات ودراسات تنقد الماركسية ، وتشعر ان كاتبيها قد قرؤوا الماركسية في اصولها . وهذا هو ما نريده وما نحن في حاجة اليه . فنحن في حاجة الى اقامة حوار علمي موضوعي ، وان يشعر المثقف بأنه حين ينقد فان عليه ان يكون على معرفة بمصادر فكر الآخر وليس بمراجعة الثانوية او الهامشية او الدعائية . وباختصار لا بد من اقامة حوار علمي موضوعي لا يقوم على رفض الآخر بشكل مسبق . والأمر الآخر هو انه لا بد من بدء حركة علمية لنشر التراث العربي والاسلامي ...

أ. منصور : .. بشكل نقدي ؟....

أ. ياسين : ... نعم ... بشكل نقدي وتحقيقي . وهذه مسألة غير متوفرة . فانا حين اطالب باقامة حوار ، فلا بد ان أكون على معرفة بالتراث العربي والاسلامي الذي سوف اتناوله بالنقاش . ولا بد ايضا من نشر هذا التراث في طبعات شعبية ، كي تكون في متناول الجميع .

والمسألة الثانية هي ان يجتهد كل تيار ، داخل اطاره ، لا لايجاد حلول واضحة ومباشرة لمشكلات التخلف في المجتمع العربي من وجهة نظره . ثم لا بد من عقد حوارات متعددة لكافة التيارات . ويجرنا هذا الى الحديث عن حركة التنوير العربي ، والتي عقدت مؤخرا اجتماعا في باريس وتنادي هذه الحركة بأنه على كافة التيارات الفكرية العربية ان تلتقي في جو حر ، لادارة حوار فكري فيما بينها ، وان يعرض كل منها وجهة نظره ، حتى يمكن التوصل الى حد ادنى من الاتفاق وهذا يشير الى وجود احساس بالحاجة الى اقامة حوار موضوعي ، وحقيقي ، كما يحمل ايضا اعترافا بالتخلف الذي كانت تعاني منه الحركات الفكرية العربية في السابق ، والذي كان يتمثل في عزلة هذه التيارات عن بعضها ، اعتقادا من كل منها بأنها وحدها هي التي تمتلك الحقيقة المطلقة ، وان الحركات الأخرى تعاني من الجهل او عدم الفهم . ولم يكن ذلك ، في الواقع ، يمثل قراءة صحيحة للواقع ، فنحن نجد مثلاً ، على الجانب الاسلامي ، حركات تجديد حقيقية . فهناك مجلات تصدر الآن في بيروت تحاول تأصيل التيار الاسلامي بشكل عصري ، وكل ذلك في رأيي يحمل مؤشرات لحركة فكرية جديدة في الوطن العربي ينبغي

تدعيمها ويجب ان نضيف الى ذلك ضرورة القيام ، وعلى مستوى قومي عربي ، بنقد حقيقي للنظام العربي القائم ، اقتصاديا وسياسيا ....

أ. منصور : ... معذرة يا استاذ ياسين .. ولكن هل تعتقد ان النقطة السابقة قد تم استيفاءها ..؟.. انا ، في الواقع ، احس انها لم تستوف ...

أ. ياسين : ... انا مستعد للاجابة على كل اسئلتك ...

أ . منصور:... شكراً..انا في الواقع اريد ان اعيد سؤالك حول ما إذا كنت تعتقد ان الدراسات التي تجري الآن لتحديد ملامح الشخصية القومية العربية ... وكذلك انساقها الفرعية ... هي دراسات كافية ؟....

أ. ياسين : ... لا ... انها مجرد بداية .. ونحن نريد الآن وضع قواعد منهج دراسة قضية الأصالة والمعاصرة ... والتي تشمل مسألة الشخصية القومية . فأنت حين تبحث مثلا ، فيما اذا كان الاسلام هو احد المكونات الحقيقية للشخصية القومية العربية فان بحثك هذا يدخل في اطار قضية الأصالة والمعاصرة .. فيما يتعلق بقضية ماذا تأخذ من تراثك وماذا تدع منه ...

أ. منصور : ... تعني وضع محكات موضوعية لهذه الاختبارات ؟...

أ. ياسين : ... نعم ... بالطبع ...

أ. منصور : ... وهناك ايضا نقطة اخرى .. وهي تتعلق بما ذكر من قبل بخصوص وجود ثقافتين متميزتين ومنفصلتين في بلادنا .. على الأقل نتيجة ان الحكام في الماضي كانوا ينتمون الى امم اخرى وثقافات مختلفة .. فما هي الثقافة التي ينبغي ان امد اليها جذوري ... والى اي مدى ؟....

أ. ياسين : ... في اعتقادي ان المجابهة الحقيقية لهذه المشكلات ـ اي مشكلة الثقافتين ومشكلة ثقافة الصفوة ... الخ ـ هي التي سوف تؤدي الى حلهـا، لأنه سوف يكون هناك حوارا فكريا بين كافة التيارات ، وبمنهج مختلف عن المنهج السابق ، وبمجابهة مباشرة للمشكلة ، الأمر الذي سوف يؤدي الى حل كل هذه المشكلات الفرعية ...

أ. منصور : ... وهل تعتقد ان النجاح في تحديد قسمات شخصيتنا القومية ، ونجاح المثقفين العرب في وصل جذورهم بتراث امتهم ، يمثل الخندق الرئيسي لمواجهة الهجمة الصهيونية ؟....

أ. ياسين : ... بالتأكيد .. ولدينا نموذجا تاريخيا تمثل في الجزائر . فقد كانت حركة المقاومة الجزائرية تناضل ضد الهجمة الفرنسية تحت شعار الاسلام ، الذي كان يمثل احد قسمات الهوية العربية . فقد احتمى « بن باديس » وغيره بالاسلام للدفاع ضد الاستعمار الاستيطاني الفرنسي للجزائر . فنحن ، اذن ، نحتاج لاعادة صياغة لهويتنا القومية .

أ. منصور : ... نحن في حاجة الى تحديد هويتنا القومية ام لاعادة صياغتها ؟...

أ. ياسين : .... نحن نحتاج الى الاثنين معا .. اي نحن في حاجة الى تحديد شخصيتنا القومية والى اعادة صياغتها ايضا للدفاع ضد الهجمة الصهيونية الاستعمارية في المنطقة .

ذلك انه ينبغي من اجل ان تكتسب مقاومتك الفعالية والقوة ، ان تعرف اولاً من انت ، وما هو تراثك ، وما هي استراتيجيتك في المقاومة . ويعتمد ذلك كله ، بالضرورة ، على تعريف دقيق بهويتنا القومية ، والى اعادة صياغة ... واعني بها بعث العناصر الخلاقة في تراثنا .. وادماجها في الجانب المعاصر من حياتنا وهذه قضية صعبة ، ومعقدة ... ولا يمكن طبعا اجمالها في جملتين .. ذلك انها لا بد ان تتسم بالطابع التاريخي ، الأمر الذي سوف يؤدي الى الاشتباك مع النظام العربي القائم ... ومع المصالح الاقتصادية المختلفة . اما كيف سوف يتحقق ذلك ، فتلك قضية اخرى ، ولكنها تتعلق بالقضية الأولى ولهذا فقد قلت ان هناك علاقة عضوية بين القضيتين . فحل قضية الاصالة والمعاصرة يرتبط تماما بحل قضية الديموقراطية في عالمنا العربي ...

أ. منصور : ... حسن ... اريد ايضا ، اذ سمحت لي ، ان اعود مرة اخرى الى مسالة انسحاق الرعيل الأول من المثقفين المصريين المحدثين امام الثقافة الأوروبية .

أ. ياسين : ... معذرة .. ولكن هذا تعميم ينبغي ان نضع عليه بعض التحفظات . فربما لم يكونوا قد انسحقوا جميعا . ولذلك لا بد من القيام بدراسة تحقيقية في هذه المسألة والواقع ان بعضهم انسحق فعلا ، ولكن بعضهم الآخر لم ينسحق ... وانما قاوم ....

أ. منصور : .... هل تتفضل باعطاء امثلة على ذلك ؟....

أ. ياسين : ... مثل محمد عبده مثلا .. بل انني لا استطيع ان اقول ان لطفي السيد قد انسحق ايضاً ... فقد كانت الشخصية المصرية من اولى الموضوعات التي عالجها ...

أ. منصور : ... ولكنه عالجها برؤية اوروبية .. ان ما اعنيه ، يا استاذ ياسين ، ليس ترديد مقولات الثقافة الأوروبية فقط ، بل وايضا تبني الرؤية الاوروبية في النظر الى الاشياء .. فمهاجمة الحضارة الأوروبية ، ومهما بلغ عنف هذا الهجوم ، لا يعني - في حد ذاته - ان المرء لم تسحقه الثقافة الأوروبية . ذلك ان هذا الهجوم العنيف ربما كان ينطلق من نظرة اوروبية .. وفرضيات ومسلمات اوروبية ...

أ. ياسين : ... الواقع انها قضية معقدة .. فتبني المنهج لا يعني تبني الرؤية .. ذلك انه من المؤكد ان المثقفين العرب ، بوجه عام ، قد استفادوا كثيرا من المناهج الأوروبية في التفكير . صحيح انه يصعب احيانا ان يفصل المرء بين المنهج وبين النظرية ، الا انه من الممكن على الاقل ، استخدام المنهج بشكل ثوري ، او بشكل مختلف ... على اية حال ، فانه صحيح ايضا انك سوف تجد مثقفين انبهروا - او انسحقوا كما تقول - بالحضارة الأوروبية ، ولا زال بعضهم موجودا حتى الآن . ولكنك سوف تجد مثقفين آخرين قاوموا ذلك ، وحاولوا تقديم رؤية بديلة ... وسوف تجد هذه الظاهرة موجودة على اتساع الوطن العربي : اي تواجد المسحقون والمقاومون جنبا الى جنب ...

أ. منصور : ... الواقع انني يجب ان اعترف ان ما اعرفه عن الحركة الثقافية في الوطن العربي - ومن الناحية التاريخية بالذات - لا يؤهلني لمناقشة ما تقول .. ولذلك فانا احاول ان احصر الموضوع في نطاق القطر المصري ....

أ. ياسين : ... لا بأس ... ولكن لنأخذ ساطع الحصري مثلا ، الذي روى في كتابه « مذكراتي في العراق » ، كيف انه في ١٩٢٠ ناقش مسألة اختبارات الذكاء ، وهل الأمريكيون حقيقة اكثر ذكاء من العرب ، وانه طبق عددا من اختبارات الذكاء هذه على مجموعة من الطلبة العراقيين ، كانت نتيجتها انه اثبت انه ليس هناك فروقا جوهرية بين الطالب العراقي والطالب الامريكي من حيث مستويات الذكاء ، ومثبتا ايضاً خطل النظرة العنصرية التي كانت تدعي تفوق الأخير على الأول . وانا اعني بذكر ذلك ان اضرب مثلا على مدى حساسية احد رواد الفكر القومي ومدى وعيه وادراكه لأهمية اثبات خطل النظرة العنصرية الأوروبية ، وتأكيد انه ليس هناك فروق عنصرية بين شعوب العالم . كذلك سوف تجد امثالا لساطع الحصري في المغرب العربي ، حيث سوف تجد روادا من المفكرين الذين قاوموا الفكر الغربي مثل « خير الدين التونسي » و « ابن باديس » .. وغيرهم ، كذلك فقد صدر مؤخراً عدد من الكتب تتناول ادب الرحلة في الفكر العربي ، والتعريف بالرحالة العرب ، وبالأفكار التي نقلوها الى المجتمع العربي ، وهل تم نقل هذه الأفكار بشكل نقدي ام نقلي انبهاري ...

أ. منصور : ... حسن ... ولكن اسمح لي ان استكمل المقولة التي طرحتها عليك من قبل في حديثنا هذا ... والخاصة بانسحاق المثقفين المصريين المحدثين من الرواد امام الثقافة الأوروبية . ذلك ان الذين يطرحون هذه المقولة يقولون ان هذا الجيل الأول - ويعنون بذلك هذا الجيل الذي برز في الحياة الثقافية المصرية عقب الحرب العالمية الأولى - بحكم ثقله الأدبي الهائل فقد كان يضم عمالقة من امثال طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم والمازني ، من الذين وضعوا بذور عدد من النشاطات الفكرية والأدبية مثل المسرح والرواية والقصة والنقد الفني الحديث والذين يطلق عليهم جيل الأدباء - ان هذا الجيل كان تأثيره على الجيل الذي تلاه هائلا . ورغم ان هذا الجيل الجديد نشأ في غمار حركة نضال وطني ناضجة ، وخاض معارك بطولية من اجل الاستقلال الوطني عقب الحرب العالمية الثانية ، فانه ورث كثيرا من امراض الجيل الذي سبقه بسبب تأثره الهائل به .

أ. ياسين : ... انت هنا تتكلم عن مسألتين : مسألة الانفصال بين المثقفين والجماهير هي واحدة ، والمسألة الأخرى هي الانبهار بالنموذج الأوروبي . وهنا يحق للمرء ان يتساءل ما هو البديل الذي كان في متناول هذا الجيل من المثقفين ؟...

أ. منصور : ... ولكن المسألتين مرتبطتان ، يا استاذ ياسين ، اي ان الانفصال نتج عن الانسحاق ...

أ. ياسين : ... لا ... ان الأمر يختلف قليلاً ...

أ. منصور : ... الم يحدث هذا الانفصال نتيجة تبني المثقفين غير ثقافة امتهم والتي احتفظت بها - بشكل ما - عامة الامة ، ربما بسبب نسبة الأمية العالية والتي تبلغ في مصر نحو ٨٠٪ تقريباً ؟...

أ. ياسين : ... لا ... ليس بالضرورة . ورأيي فيما يتعلق بالمشكلة الاولى - ان تبني

المثقفين للقوالب الأوروبية في التفكير - انها ترجع إلى انعدام البديل . ذلك انه لم تحدث حركة احياء ثقافي تعمل على تحديث التراث ...

أ. منصور : ... ولكن ذلك حدث ، بالضبط ، بسبب انسحاق المثقفين امام الثقافة الاوروبية ...

أ. ياسين : ... على اية حال ، فان ما حدث هو انه لم تتم ، منذ محاولات رفاعة الطهطاوي حركة احياء ثقافي حقيقية ، تعمل على ابداع نموذج ثقافي واجتماعي عربي ، وتستعين في ذلك بالخبرات الأجنبية وبأصالتك التاريخية ...

أ. منصور : ... وكيف ، في رايك ، يمكن ان يعبر المثقفون هذه الهوة التي تفصل بينهم وبين جماهير امتهم ؟...

أ. ياسين : ... انت الآن تتحدث عن المشكلة الثانية ...

أ. منصور : ... نعم ... ربما ... رغم انني اعتقد انهما مسالة واحدة ...

أ. ياسين : ... نعم ... نحن على خلاف حول ذلك . ففي رايي ان المشكلة الأولى تتعلق بمحاولات طليعة المثقفين العثور على نموذج قومي ثقافي واجتماعي وسياسي للوطن العربي . فهذه مشكلة مستقلة لها قسماتها ومكوناتها الخاصة . اما المشكلة الثانية فانها ذات وجهين وجه سياسي ، ووجه آخر فكري ... يتعلق بمسألة اللغة التي يتواصل بها المثقفون مع الجماهير ونوعيتها : وهل هي لغة أعجمية خاصة يتفاهم بها المثقفون في دوائرهم المغلقة ...

أ. منصور : ... اعتقد انك لا تقصد بنوعية اللغة جنسها . اي اذا كانت لغة انكليزية ام فرنسية ... الخ .. وانما تقصد باللغة زوايا الرؤى والقيم والمصطلحات الثقافية .. الخ ..

أ. ياسين : ... نعم ... بالضبط ... وكمثال على ذلك .. فقد شاهدت منذ فترة برنامجا من برامج التليفزيون يدور فيه حوار بين المشاهدين عن طريق التليفون ... وقد قال احد المشتركين : ما تقولونه مكانه الجامعة .. اما نحن فاننا لا نفهمه ! ... ذلك ان معظم المشتركين في هذا البرنامج من الخبراء والمتخصصين .... واحدهم استخدم - مثلا - اصطلاح « ديناميكية المجتمع » . وانا اسأل من يمكن أن يفهم معنى هذا الاصطلاح غير المثقفين .... او ان يستخدم مثلا ايضاً اصطلاح « ميكانيزم التغير الاجتماعي » ....

أ. منصور : .. نعم ... كما انني اعني ايضاً - وبالاضافة الى ذلك - ان المثقف حين يتحدث عن الدين - مثلا - فانه يعني شيئاً آخر تماما عما يعنيه الناس او يفهمونه حين يتحدثون عن الدين .

أ. ياسين : ... هذا صحيح .. اي ان هناك مشكلتان : مشكلة اللغة التي يستخدمها المثقفون في التعامل مع الجماهير والاتصال بها ، ومشكلة ثانية ذات طابع سياسي تتعلق بمدى قدرة المثقفين على التواصل مع الجماهير ، والتي تحدثنا عنها فيما سبق ... والتي تتصل بقضية الديموقراطية . اي ان هناك قضيتان : قضية فكرية تتعلق بأزمات المفكر العربي ، ومشكلاته ،ولغته،هذه قضية اما القضية الأخرى فهي كيف يمكن له ان يتفاعل مع جماهيره ..

وهذه مشكلة سياسية ، وليست فكرية ...

أ. منصور : ... بصفتك احد المتخصصين في علم الاجتماع .وبحكم رصدك للبذور القائمة في ارضنا الثقافية، وللبذور التي تتوقع لها ان تتولد فيما بعد ، هل تتسم نظرتك الى المستقبل بالتفاؤل ؟..

أ. ياسين : ... مسألة التفاؤل والتشاؤم ، كما تعلم ، مسألة نسبية . ولكن رأيي ، على اي الأحوال ، ان الظروف التاريخية التي يمر بها وطننا العربي الآن ، هي ظروف حاسمة ، وعلى كل من المستوى الفكري والمستوى السياسي . فعلى المستوى الفكري هناك ، كما قلت ، عملية مراجعة ...

أ . منصور :... ولكن ذلك يتم في دوائر ما يسمى بالـ upper - crust (الأبركرست) او الفئات العليا فقط ....

أ. ياسين : ... لا بأس ... ولكن هذا لا ينفي اهميتها . فطالما اننا نعيش في مجتمع تغلب عليه الأمية ، لا تشارك فيه الجماهير في الحركة الثقافية ، وحيث هناك انفصال بين الصفوة وبين الجماهير ، فلا بد ان يأتي التجديد الفكري من هذه الفئة الصغيرة المحدودة العدد .. وانا رأيي ان هناك عملية ايجابية تتمثل في اعادة النظر في الكثير من المسلمات ، وان كانت لم تبدأ بعد بشكل شامل . اما على المستوى السياسي ، فلست كثير التفاؤل ، وذلك بسبب الهيمنة الهائلة التي تمارسها اغلبية النظم السياسية القائمة والتي تمارس القهر على المثقفين وعلى الجماهير معا . ولذا فلست متفائلاً بأن يتم حل ذلك على المدى القصير .. وهذا رأيي ...

أ. منصور : ... فيما يتعلق بالتفاؤل والتشاؤم أيضاً ، هل ترى ان مقاومة المثقفين للمخطط الصهيوني الامبريالي ، في الميدان الثقافي ، تتناسب في مستواها وحدودها مع خطورة المشكلات المطروحة في الوقت الراهن ؟...

أ. ياسين : ... اي مخطط تعني ؟.. الداخلي ام الخارجي ؟.

أ. منصور : ... الاثنان معا ...

أ. ياسين : ... الاجابة هي : لا ...

أ. منصور : ... اذن ، لماذا انت متفاعل ؟...

أ. ياسين : ... انا متفاعل فيما يتعلق بالجبهة الفكرية ... وليس السياسية ...

أ. منصور : ... وانا ايضا اتحدث عن الجبهة الفكرية ...

أ. ياسين : قلت لك انني متفاعل فيما يتعلق بالجبهة الفكرية ، بسبب بدء حركة المراجعة ذلك لأن هذا يشير الى ان هناك ادراكا للقصور الذي اعتور مناهجنا واساليبنا ومسلماتنا في المرحلة الماضية ، اي ان هناك بداية حقيقية للنقد الذاتي ... اي انني متفاعل لأن هناك بشائر صحوة نقدية ثقافية في الوطن العربي ...

أ. منصور : ... وهل ترى ان قيادات المثقفين في الوطن العربي تقوم بواجبها في هذا المجال ؟...

أ. ياسين : ... ماذا تعني بقيادات المثقفين ؟...

أ. منصور : ... اعني المثقفون الذين يراسون المؤسسات الثقافية المختلفة ، وهؤلاء ايضاً الذين يمثلون ثقلاً ثقافياً والذين يتطلع اليهم بقية المثقفون طلباً للتوجيه والترشيد ...

أ. ياسين : ... تعني المثقفين الرسميين التابعين للنظم السياسية ؟....

أ. منصور : ... الواقع انه تصعب التفرقـة بين الفئتين .. ذلك انه غالبا ما تقوم النظم السياسية بمحاولة استيعاب المثقفين ممن يمثلون ثقلاً فكريا ما ...

أ. ياسين : ... ان المثقف الذي يتم استيعابه ، يفقد في الواقع موهبته النقدية ...

أ. منصور : ... هذا صحيح ...

أ. ياسين : ... الواقع ان الأمر هنا يتعلق بالوضع الهامشي للمثقفين العرب وان الكلمة العليا ليست للمثقف العربي بمعناه الحقيقي ، وان وضعه هش وضعيف ومن هنا تنشأ قلة فاعليته ...

أ. منصور : ... لقد كان سؤالي ، يا استاذ ياسين ، هو : هل تقوم قيادات المثقفين بواجبها ، ام لا ؟...

أ. ياسين : ... الواقع انني لا افهم ماذا تعنيه بقيادات المثقفين ؟...

أ. منصور : ... اذا كان الأمر غامضاً بهذا الشكل ... فربما كان من الأفضل ان تدعو تلك القيادات باسماءها ، وليكن السؤال كما يلي : هل يقوم الأستاذ نجيب محفوظ بواجبه ؟... هل يقوم الأستاذ صلاح عبد الصبور بواجبه ؟.. هل يقوم الاستاذ سعد وهبه بواجبه ؟... هل يقوم الأستاذ توفيق الحكيم بواجبه ؟... هل يقوم الدكتور حسين فوزي بواجبه ؟... الخ ...

أ. ياسين : ... الواقع انني قد اختلف معك في ان من ذكرت هم قيادات المثقفين .. ذلك انهم ، في الواقع ، من الادباء والفنانين المبدعين . وانا عندما اتحدث عن المثقف فانني اعني ذلك المشغول بقضايا امته السياسية والاقتصادية والثقافية ـ بالمعنى الواسع ...

أ. منصور : ... الواقع انني عندما ذكرت هذه الاسماء لم اكن احاول حصر قيادات المثقفين وانما كنت احاول توضيح ما اعني بقيادات المثقفين ...

أ. ياسين : ... الواقع انني لا ادخل هذا الجيل في اعتباري ، وذلك على اساس ان هذا الجيل بكل سلبياته وايجابياته ـ قد ادى دوره وانتهى ...

أ. منصور : ... اي انك باختصار .. تجيب على السؤال بالنفي ...

أ. ياسين : ... لا ... انا اقول ان هناك قيادات اخرى للمثقفين ...

أ. منصور : ... ومن هي هذه القيادات في رأيك ؟...

أ. ياسين : ... لا ... لا تطلب مني اسماء ...

أ. منصور : ... حسن ... بدون اسماء اذن .. من هي قيادات المثقفين ؟...

أ. ياسين : ... هناك في الوطن العربي ، بعد الجيل الذي اشرت اليه ، اجيال اخرى تعمل بطريقتها الخاصة ، وبمناهج مختلفة عن مناهج هؤلاء . ولا أستطيع ان اقول ان من ذكرتهم

سوف يحلون مشاكل عالمنا العربي ، فقد ادوا دورهم وانتهى الامر ، وسوف يحكم التاريخ لهم او عليهم ...

أ. **منصور : ... ماذا اذن عن القيادات الحالية ـ في رايك ؟...**

أ. ياسين : ... الواقع ان مفهومك عن القيادة يركز على الاشخاص ... وانا اختلف معك حول ذلك ...

أ. **منصور : ... لا ... لا معذرة يا استاذ ياسين .. هذا غير صحيح بالمرة .. والأسماء التي ذكرتها ـ كما اتفق ـ اوردتها لانك طلبت مني ايضاحا لما اعنيه بالقيادات ...**

أ. ياسين : ... على اية حال .. فان رأيي في القيادات انها عبارة عن اجيـال .. وهناك اجيال مختلفة من المثقفين العرب ، وهذه الأجيال تنتمي الى تيارات فكرية مختلفة .. والقضية هي هل يدور بين هذه الأجيال حوارا ام لا .. وكل من هذه الأجيال يعتقد انه يقوم بدوره في اطاره والحقيقة ان ذلك لن يتحقق الا لو تم ذلك في اطار حوار قومي كالذي اشرت اليه ...

أ. **منصور : ... اذن فدورهم لم ينته بعد ؟...**

أ. ياسين : ... لا ... لقد بدأ ، وما زال مستمرا ، ولم ينته ...

أ. **منصور : ... انا اعني من يطلق عليهم جيل الاباء ...**

أ. ياسين : ... لا ... انا لا اعني هؤلاء .. فهذا جيل تاريخي .. ادى دوره .. وانتهت المسألة ...

أ. **منصور : ... الا يمكن ان يقوم حوار بين هذا الجيل والأجيال التالية له ؟..**

أ. ياسين : ... لا ... ذلك ان رأيـي ان هذا الجيل قد ادى دوره .. وتحميله فوق طاقته .. هو امر ضد منطق التاريخ .. ومعظم هؤلاء قد بلغوا سن السبعين .. ولا زالوا يعيشون على امجادهم الماضية .. والأمور تسير ، بالنسبة لهم ، بالقصور الذاتي .*

---

* سجل في القاهرة ونشر في « السفير » اللبنانية بتاريخ ٢٥/ ٤/ ١٩٨١

د. فؤاد زكريا

أ. منصور : الدكتور فؤاد زكريا ، الكاتب والمفكر ورئيس قسم الفلسفة بجامعة الكويت حاليا ، ورئيس قسم الفلسفة بجامعة عين شمس قبل عدة سنوات .. والواقع انني كلما رايتك تذكرت قول الدكتور علي الراعي : ان اشد ما يحزنه في عمله بالكويت ، هو ان الجهد الذي انفق من اجل اعداده كاستاذ جامعي لا يفيد منه الا بضع طلاب قلائل ... واعتقد ان هذا القول ينطبق عليك ايضاً .

زكريا : .. هذا صحيح ..

أ. منصور : : وهذه قضية اخرىٰ على اية حال ...

زكريا : ... ولكنها ليست بعيدة الصلة بموضوع حديثنا .. فهي تتعلق بمشكلة الديمقراطية وغيرها من المشاكل التي تواجه بلادنا ..

أ. منصور : بدون شك . ولكن دعني الآن انتقل الى موضوع حوارنا . فلقد قرات الحديث الذي اجريته مع الاستاذ سيد ياسين حول موضوعي الهوية القومية والازدواج الثقافي الذي يفتقد جسور الاتصال . وكنت قد عرضت في حديثي هذا مع الاستاذ سيد ياسين مقولة تزعم ان اهم الاخطار التي تهدد الجبهة الثقافية العربية ، والتي تمثل الثغرات التي قد تسهل تنفيذ المخطط الامبريالي ـ الصهيوني ، هي مشكلة الازدواج الثقافي ، الحاد والمتراكم ، القائم في مصر ، وهو ازدواج يفتقد بشكل واضح قنوات للاتصال بين الثقافتين القائمتين ، او بين الثقافة القومية التي صانتها الجماهير الشعبية ودافعت عنها طوال تاريخ مصر الطويل ، وبين الثقافة الاوروبية الممسوخة التي ترتديها الطبقة المتوسطة والطبقات العليا في بلادنا .

ولكن الانطباع الذي تولد لدي من قراءة حديثي مع الاستاذ سيد ياسين هو انه لا يضع ما اشرت اليه في مقدمة الاخطار التي تواجه جبهتنا الثقافية ، وانما يعتقد ان اهم هذه الاخطار هو افتقاد النقد الموضوعي لما يسميه « بالنظام السياسي العربي » .. فهل توافقني على ذلك ، ام ان لك رأياً اخر في الموضوع ؟..

زكريا : .. انا لا اعتقد ، من وجهة نظري الخاصة ، ان هناك تعارضا بين الرأي الذي

عرضته انت ، وبين رأي الاستاذ سيد ياسين . بل واستطيع ان اقول ان الرأيين يكمل احدهما الآخر ومع ذلك ، فانني احب ان احدد ، اولا مدى خطورة هذا الازدواج الثقافي الذي تشير اليه وهل هو فعلا يمثل ظاهرة بمثل هذه الخطورة والاهمية ام لا . فمن الامور المشاهدة ان الازدواج الثقافي هو ظاهرة موجودة في مختلف بلاد العالم ، المتقدمة منها والمتخلفة على حد سواء ونحن باعتبارنا دولة متخلفة او نامية او ما شئت من الاسماء ، لا ننفرد بهذه الظاهرة . بل اننا لو اخذنا بلداً مثل الولايات المتحدة ، فاننا سوف نجد هناك ازدواجاً ثقافياً ، لا يقل خطورة بين اقلية واعية سواء كان وعيها متجها الى الخير ام الى الشر،وبين المجموع الاكبر من المواطنين الاميركيين ، الذين تتقاذفهم الاتجاهات التي تفرضها هذه الاقلية ، او التي تمليها وسائل الاعلام .. الخ . وهذه الملايين العديدة ليس لها رأي خاص ، وليس لها كيان خاص ، وانما هي تردد فقط ما تسمعه . فهذه الازدواجية اذن توجد في الولايات المتحدة وتبلغ ايضاً درجة الخطورة . ومع ذلك ، فانه يخيل إليّ انها لم تؤد الى نتائج تماثل في خطورتها النتائج التي ادت اليها هذه الظاهرة في مصر . كذلك فان التاريخ يشهد بذلك ايضاً . فنحن اذا اخذنا ، مثلا ، الثورة الفرنسية الكبرى ، لوجدنا انها تمثل احد النماذج الصارخة لتأثير المثقفين . وقد كان دور المثقفين في هذه الثورة اساسيا احدث تغييرا كاملا في المجتمع ونبه الناس الى حقوقهم . وبالرغم من ذلك ، فان الجماهير الشعبية كانت تعيش في حالة من الجهل والتأخر الرهيبين . وقد كانت هذه القلة هي التي تقود هذه الملايين المفتقرة تماما الى الوعي . ولذا فانا لا أعتقد اننا ننفرد بهذه الظاهرة التي اشرت اليها .. واذا كنا نعاني من عدد كبير من «المشاكل الثقافية» فانه يصعب على المرء ان يتصور ان كل هذه المشاكل تعود فقط الى هذه الظاهرة .. واذا نحن ناقشنا...

أ. منصور : معذرة لمقاطعتك .. وارجو الا تؤاخذني اذا قاطعتك ..

زكريا : .. لا.. على الاطلاق ..

أ. منصور : .. فالحقيقة ان الكثيرين يعترضون على كثرة مقاطعاتي .. ولكنني ارجو ان تكون صبوراً معي بعض الشيء .. وانا اريد ان اعلق على ما ذكرته الآن .. وان اقدم لك فرضية اخرى ربما فتحت للموضوع افاقا جديدة ...

وابدأ بأن اقول انني اوافق على ما قلته .. وان الازدواج الثقافي هو ظاهرة توجد في جميع البلدان بلا استثناء . فانا اعتقد ان هذه الظاهرة ترجع الى وجود مجتمعات طبقية .. وهو امر ينطبق على جميع بلدان العالم . ولكنني بالرغم من ذلك ، اود ان اطرح عليك فرضية ارجو ان تتناولها بالنقاش ، وهي ان الازدواج الثقافي القائم في مصر يختلف ، اختلافا قد يصل الى ان يكون اختلافا كيفياً ، عن الازدواج الثقافي القائم في بلد مثل الولايات المتحدة مثلاً ، حيث كان هناك في القرن الماضي ازدواج ثقافي حاد بين الاميركيين الذين ينحدورون من اصول افريقية وبين مواطنيهم الذين ينحدرون من اصول اوروبية . ولكن نظرا لتطبيق نظام تعليمي موحد يكاد الآن يستوعب كافة مواطني الولايات المتحدة بالاضافة الى وجود اجهزة اعلام ضخمة ذات تاثير قوي طاغ ، فانه تمت صياغة ثقافة قومية موحدة تجمع بين المواطنين

الاميركيين كلهم تقريباً ، ونحن ، في مصر ، نفتقد هذه العوامل الموحدة بالكلية . فنسبة من يجيدون القراءة والكتابة في مصر - اي اولئك الذين اتيحت لهم فرصة تلقي التعليم الحكومي الموحد وتلونت افكارهم ورؤاهم في ظله - لا تزيد عن ٢٥٪ او ٢٠٪ باي حال من الاحوال . هذا بالاضافة الى ان الاغلبية الساحقة من المصريين وبسبب ظروف تاريخية وسياسية معينة ، لا يثقون باجهزة الاعلام المصرية والتي لا يمكن مقارنة تاثيرها ، على اي حال بالتاثير الذي تمارسه اجهزة الاعلام الاميركية . اما الامر الثالث والذي اعتقد انه ذو اهمية بالغة فهو ان تاريخ الازدواج الثقافي في الولايات المتحدة قصير يعود الى فترة قريبة نسبياً ، مما يجعل مقاومته والتغلب عليه امراً اكثر سهولة - الى حد كبير - من مقاومة الازدواج الثقافي القائم في مصر ، والذي اعتقد انه ظل موجوداً في بلادنا ، وبنفس الحدة ، منذ انهيار عصر الاسرات الفرعونية وبدء الاحتلال الاجنبي لمصر ، والذي تمثل فيما يسمى بالعصر البطلمي ....

زكريا : ... لا شك ان مقارنة مصر بالولايات المتحدة هي مقارنة جائرة .. ولكنني استكمالا لهذه المقارنة - اقول انه اذا كان الازدواج الثقافي في مصر هو ازدواج كيفي ، فانه كيفي ايضا في الولايات المتحدة وانا - باعتباري قد عشت بعض الوقت في اميركا - ارى ان هناك قلة واعية ، وان هذه القلة تعيش في واد مختلف بالكلية عن التيار العام الذي توجهه وسائل الاعلام والذي يعيش المواطن العادي في ظله ، والذي تمثله الخطب والبيانات التي تصدر عن المسؤولين الحكوميين وغيرهم . اي انك تجد هناك بالفعل من يعتورهم احساس كامل بمدى التزييف الجاري في الحياة الثقافية وبمدى التشويه الذي تحدثه وسائل الدعاية والاعلام ، والى اي حد يتم تزييف وعي المواطن العادي وكيف يتم امتصاص امانيه وافكاره ورغباته خدمة للنظام القائم . اي ان هذا الازدواج موجود هناك وبشكل حاد وكيفي ايضاً ، لكنه لم يحدث هذه النتائج الخطيرة .

كذلك فانه بالنسبة لبعض النقاط التي ذكرتها ، فان ما اشرت اليه فيما يتعلق بانعدام الثقة بين الجمهور ووسائل الاعلام ، فانني اعتبر ذلك رصيداً ايجابياً ، لان ذلك يدل على ان الجمهور المصري قد تخطى حاجز التغييب المفروض عليه وهذا يمثل ، في رأيي ، الخطوة الأولى نحو عبور الجسر الذي يفصل بين الجماهير - التي لم تنل نصيباً من الثقافة والتعليم - وبين القلة المثقفة .

اما فيما يتعلق بما اثير بخصوص الغزو الثقافي - سواء كان صهيونياً او امبرياليا او غير ذلك - فان على المرء ان يتساءل عن مدى مسؤولية الازدواج الثقافي عنه . وانا استبعد ان يكون الازدواج الثقافي هو سبب هذا الغزو . ذلك ان ما يلفت النظر فيما يتعلق بهذا الموضوع هو اننا اذا اخذنا مرحلة المهادنة مع الفكر الصهيوني - والتي بدأت منذ عام او اكثر فاننا سوف نجد ان هذه المهادنة لم تتم من جانب جماهير الشعب والبسطاء من الناس ، وانما تمت اساسا على يد القلة المثقفة او الصفوة المختارة من المثقفين ...

أ. منصور : عفوا ... ولكن الا يرجع السبب في ذلك ببساطة الى انبهار هذه الصفوة

المختارة وانسحاقها تماما امام الثقافة الاوروبية ، واسرائيل كما تعلم قطعة من هذه الثقافة الاوروبية ؟ ولذا فانه من الطبيعي ان نجد رجلا مثل الدكتور حسين فوزي (ظل طيلة عمره تقريباً يدعو الى الاخذ باساليب الحياة الاوروبية باعتبارها مفتاح التقدم والحضارة) يحبذ بشدة اقامة علاقات وثيقة مع اسرائيل ، ويؤكد ان مصر جزء لا يتجزأ من حضارة البحر المتوسط ، وان على المثقفين ان يقطعوا ما بينهم وبين تراث زملائهم من مثقفي المؤسسة من امثال المقريزي وابن خلدون وغيرهما .. والواقع اننا ، في اعتقادي ، يجب ان نفهم ان هذه المشكلة لا تمثل خطرا يواجه الجماهير ، بقدر ما تمثل خطرا شديدا على المثقفين انفسهم ..

زكريا : ... هذا بالضبط هو ما أردت ان أقول .. واضيف انه لا شك ان المسألة التي اثرتها وهي انبهار المثقفين بالحضارة الأوروبية ـ تمثل احد جوانب الموضوع . ولكن المرء يلحظ ان المثقفين اتخذوا دائما هذا الموقف ، ولكن ذلك لم يمنع من اتخاذهم ـ في الستينات من هذا القرن على سبيل المثال ـ موقفاً معادياً من اسرائيل بالذات .. ولم يحل بينهم وبين رفض الثقافة الصهيونية ..

أ. منصور : ... ولكن هذا الموقف لم يكن عميق الجذور ... بدليل انه تغير ..

زكريا : .. هذا صحيح .. هذا صحيح .

أ. منصور : .. وذلك لانه لم يكن يرتكز على اسس ايديولوجية صلبة . وفي اعتقادي ان الامر يختلف بالنسبة للجماهير ، التي ينبع عداءها لاسرائيل من عدائها للثقافة الاجنبية التي تحاول انتهاك وسحق ثقافتها القومية ..

زكريا : ... ليس هذا فحسب .. ولكننا لا يجب في اعتقادي ، ان نحمل الاعجاب او عدم الاعجاب بالثقافة الغربية اكثر مما يحتمل . لماذا ؟ ذلك لان التأثر بالثقافة الغربية هو سلاح ذو حدين .

أ. منصور : .. انا لا اعني التأثر .. وانما اعني الانسحاق ..

زكريا : .. لا عليك ...

ومن المعروف بالنسبة لبلدان العالم الثالث ان كثيراً من الزعماء الذين قادوا حركات المقاومة ضد الاستعمار .. بل والذين استشهدوا في النضال ضده . كانوا من ذوي الثقافة الاوروبية اي نفس ثقافة المستعمر الذي ناضلوا ضده .. بل ان بعض هؤلاء القادة كانوا منسحقين تماما امام الثقافة الاوروبية ، مثل الجزائريين الذين لم يكن في استطاعتهم الحديث باللغة العربية ..

أ. منصور : ـ .. ولكن الا تعتقد ان ذلك كان يمثل نقطة ضعف ؟

زكريا : ... نعم ... بلا شك .. ولكن ما اريد ان اقوله هو ان هذا التأثر يمثل سلاحا ذو حدين ، فاحيانا يؤدي الى حدوث سلبية واستسلام، الامر الذي يسهل عملية الاختراق من جانب المستعمر ، ولكنه يؤدي في احيان اخرى ، الى ان يستخدم الزعيم او القائد السياسي اسلحة الغرب في مقاومة الغرب نفسه .. اي يستخدم المنهج الغربي والأسلوب الغربي في التفكير ..

الامر الذي كثيرا ما يؤدي الى نجاح حركة المقاومة التي يقودها .. اي ان التأثر او الانبهار - بل وحتى الانسحاق - ليس بذاته هو العامل الفاصل والحاسم في عملية الاستسلام هذه ، لانه يؤدي احيانا الى نتائج عكسية.ولذلك فانا اقول ان هذه القضية تحتاج الى ان ينظر اليها في ضوء ابعاد اخرى . وانا لا انكر ان النقطة التي اثرتها تمثل احد هذه الابعاد ، ولكن هناك بجانبها ابعادا اخرى تنبع من واقع ظروفنا المحلية ، ما يمكن ان اسميه بالارهاق المادي والعقلي الذي حاق بالانسان المصري في فترات كفاحه الماضية ضد اسرائيل وضد مختلف القوى الاستعمارية ذلك انه بعد مرور ما يزيد على الثلاثين عاما من النضال ضد اسرائيل ، شعر الكثيرون بالارهاق ، سواء اكان هذا الارهاق عقليا او ماديا ...

ا. منصور : ... الواقع ان هذا موضوع خطير .. ولكن ارجو ان تسمح لي بتاجيله الى ما بعد ...

زكريا : .. لقد ذكرته لارتباطه بموضوعنا فقط ..

ا. منصور : .. هذا صحيح .. ولكنني ، بعد اذنك ، اود ان اثير مسالة اخرى .. فقد قرات كتابكم الذين صدر مؤخراً عن « دار الفكر المعاصر » بعنوان « العرب والنموذج الاميركي » والواقع ان القسم الأول من هذا الكتاب يمس موضوع حوارنا بشكل مباشر . وقد استوقف نظري بشدة تلك الفقرة الواقعة في اخر الصفحة الخامسة من الكتاب ، والتي تقول فيها :

« لقد اصبحت الوصفة غاية في البساطة ، امريكا بنت نفسها في قرنين من الزمان ، واصبحت اعظم بلاد العالم . اذن فاتباعنا للنموذج الاميركي ، سوف يجعلنا بدورنا عظماء متقدمين ، وسينقلنا من الفقر الى الغنى ، ومن الضعف الى القوة » .

ان هذا المنطق الذي تشيرون اليه في هذه الفقرة هو بالضبط نفس المنطق الذي كان سائداً في اوساط المثقفين منذ بداية العصر الحديث . وهو المنطق الذي يقول انه اذا كانت اوروبا قد حققت كل ما حققت بفضل اتباعها لاساليب معينة ، فلا بد ان تلك هي الوصفة الاكيدة للنجاح وللتقدم كما لا يسع المرء وهو يقرأ هذه الفقرة سوى ان يستعيد الى ذهنه على الفور ما كان يرمي اليه رفاعة رافع الطهطاوي حين كتب كتابه « تخليص الابريز » ..

زكريا : ... انني بلا شك معجب كثيراً بالمقارنات الذكية التي تجريها ، ولكنني مع ذلك لا بد وان احذر من التعميم السريع ..

.. وذلك بمعنى ..

ا. منصور : .. وانا ايضا اخشى من التعميم السريع .. ومن المفيد دائما ان نكون منتبهين لذلك .

زكريا : .. كما احذر ايضا من اجراء مقارنات بين فترات زمنية تفصلها ساحات عريضة من الوقت ، وتفصلها ايضا تجارب سياسية واجتماعية مختلفة فقد كتب الطهطاوي « تخليص

الابريز » عند بدء تفتح الوعي لدى الانسان المصري الحديث . وكان ذلك بلا تجارب سابقة ـ فيما عدا التجربتين العثمانية والمملوكية واللتين محتهما ما يمكن ان نسميه بالحضارة الحديثة . وفي ذلك الوقت لم نكن قد اختلطنا بعد بهذه الحضارة الحديثة .

أ. منصور : ولكنا كنا مبهورين بها ..

زكريا : ... نعم ... مبهورين بها ، ولكن بشكل مبرر تماما ، وعندما تقارن بين ذلك الوقت وبين الوقت الحاضر الذي مررنا فيه بتجارب ، واحتكاكنا فيه بمختلف الانظمة الفكرية والسياسية وبالايديولوجيات الغربية المختلفة ، ورأينا ما ينفع وما لا ينفع ، وما يفيد وما لا يفيد ،وجربنا ما يمكن ان نسميه بنظام شبه اشتراكي،وجربنا قبله نظاما نصف اقطاعي،كما جربنا ايضا نوعا من الرأسمالية .. الى غير ذلك ـ اي انه حين تقدم الينا هذه الوصفة ، التي ذكرتها في كتابي الذي اشرت اليه ، وبعد كل هذه التجارب وفي عام ١٩٨٠ فلا شك ان دلالاتها تكون مختلفة تماما عن دلالاتها في زمن رفاعة رافع الطهطاوي ، الذي لا يصح لنا ان نظلمه .

أ. منصور : ... انا لا اريد ان اظلمه .. ولكن اقول ان الجوهر واحد ، وان المنطق هو نفس المنطق ولا شك انه اذا كان هناك ما يبرر هذا المنطق في عهد رفاعة الطهطاوي ، فانه ليس هناك الآن ما يبرره على الاطلاق ..

زكريا : ... وقد صدم الرجل ، وللمرة الأولى ، بشيء جديد ..

أ. منصور : ... الواقع يا دكتور انني لم اكن اقصد بكلامي ان ابين الاسباب التي ادت الى ظهور هذا المنطق ، او ارجاعه الى اصوله ، وانما كنت فقط ارصد الظاهرة ، وهي ان هذا التيار الذي يتبنى هذا المنطق موجود في مصر منذ عهد رفاعة الطهطاوي اي انه تيار له جذور عميقة وهو الامر الذي ييسر على دعاة هذا المنطق عملهم .

زكريا : ... اسمح لي ان ابدي ملاحظة تتعلق بتدخلاتك ـ وانا اعني هنا التدخلات بالمعنى الطيب اي بمعنى ....

أ. منصور : هذا حسن .. وانا اشكرك ..

زكريا : .. الاحظ على هذه التدخلات انها تهدف في النهاية ، الى اثبات قضية اساسية تدافع انت عنها بشدة ، وهي انه كان من الواجب ، ومنذ البداية ان لا نأخذ .. او لا ننبهر اكثر من اللازم بهذا النموذج الغربي .. وبهذه الحضارة الأوروبية . ومن الواضح انك من انصار الاصالة العربية او الاسلامية وانا لست ضد هذا الموقف ، ولكنني اريد ان اقول انه لولا ان هؤلاء الناس من امثال رفاعة الطهطاوي ساروا في هذا الاتجاه ـ وقد يكونون قد فقدوا توازنهم في البداية على الاقل لصالح الحضارة الأوروبية ، وهو الامر الذي كان طبيعيا تماما في مرحلتهم التاريخية ـ ..اقول انه لولا امثال هؤلاء،ما كان في استطاعتك انت الآن ان تقدم كل هذه الاعتراضات عليهم وعلى غيرهم .. فقد اعطاك هؤلاء ولغيرك منهجا معينا في التفكير ، نتيجة لعملية التطعيم التي اجروها ، والتي لولاها ما كان في استطاعتنا ان نناقش موضوعنا هذا بهذا المستوى ..

أ. منصور : ... معذرة يا دكتور .. ولكن لا بد لي هنا من ان اوضح موقفي ، وذلك

بسبب توصيفك ، الآنف لي . فانا من المؤمنين بالفلسفة المادية الجدلية ، وبالمادية التاريخية ، وهذا امر اساسي تماما بالنسبة لي . وانا اعمل في مجال الصحافة بهذا الفهم ووفقا لذلك المنطلق ، هذا امر . اما الامر الثاني فهو ان لدي تحفظات قوية فيما يتعلق بما يمكن ان نسميه « ثقافة المؤسسة » منذ انهيار عصر الاسرات الفرعونية ، وبكلمات اخرى فان حماسي واعجابي الذي لا حد لهما لا ينصبان على التراث الرسمي العربي - وهو ما اعتقد انك كنت تعنيه بالاصالة العربية او الاسلامية . فعلى الرغم من اعجابي بهذا التراث ، فان لدي تحفظات قوية بالنسبة له . اما اعجابي وحماسي وانبهاري فانهم من نصيب الثقافة الشعبية ، ومن نصيب قدرة هذا الشعب على الاحتفاظ بهذه الثقافة وعلى الدفاع عنها طوال الفترة التاريخية الماضية .. هذا هو ما اردت ان اوضحه بالنسبة لهذه المسألة . واسمح لي ان اضيف كي نعود الى موضوع حوارنا ، ان الدليل على امتداد هذا المنطق - الذي اشرت اليه في كتابك الآنف الذكر - على طول تاريخنا كله تقريباً ، ان الجبرتي كتب في « عجائب الآثار » وهو يصف زيارة قام بها لمعامل البعثة العلمية للحملة الفرنسية يعبر عن انبهاره بمادة البارود . وهذا امر خليق بأن يثير دهشتنا لان استخدام البارود لم يكن آنذاك قاصرا على الاوروبيين ، بل ان الجيش العثماني استخدمه في موقعه « مرج دابق » .. اي قبل ان يكتب الجبرتي كلامه هذا بنحو ٢٠٠ عام تقريباً . والتفسير الوحيد لذلك في اعتقادي هو ان انسحاق الجبرتي امام الحضارة الاوروبية وامام القوة الاوروبية كان شديدا لدرجة في انه اعماه عن رؤية حقائق الواقع نفسه .. وهنا مكمن الخطورة كما انني ، ومعذرة للاطالة لم اكن اقوم بتقييم لرفاعة الطهطاوي .. وانما كنت فقط اشير الى جوهر دعوته والى ارتباطها العام بتاريخ انسحاق المثقفين المصريين امام الثقافات الاجنبية القوية ..

زكريا : .. الواقع انني اعتقد ان القضية التي نتناولها بالنقاش شديدة التعقيد وانها مليئة بالمفاهيم التي تحتاج الى توضيح . وعلى سبيل المثال فانه من ضمن ما اردده دائما في مختلف المناسبات ، وما احب دائما ان ادافع عنه ، هو ان ما نسميه نحن « ثقافة غرب » ليس في الواقع ثقافة غربية مائة في المائة فانا من الذين يدافعون عن وجهة النظر التي تقول ان الثقافة تشبه الراية التي يحملها العداؤون في سباق التتابع - وانت تعرف انه في سباق التتابع يجري المتسابق مسافة معينة ثم يسلم الراية لمن يليه من المتسابقين . وبكلمات اخرى فان هذه الراية - اي الثقافة - تحملها في كل عصر من العصور ،امة معينة او مجتمع معين او منطقة جغرافية معينة وهذه الامة المعينة - او المجتمع المعين او المنطقة الجغرافية المعينة - تسلمت هذه الراية ممن سبقها ،اي انها لم تبدأ من الصفر .وعلى ذلك فاذا كنا نحن الآن نتحدث عن « ثقافة الغرب » فان ثقافة الغرب هذه ليست غربية خالصة .. واذا كنا نصف هذه الثقافة بانها غربية فان ذلك ، في الواقع ، يعطي للغرب فضلا اكثر مما يستحق ..

أ. منصور : .. اني اوافق تماما على ما قلته يا دكتور .. ولكني اعتقد انه يجب ان نضع في اعتبارنا ان ما نسميه بالثقافة الغربية يتميز بأمرين :

الأول : العدوانية الشديدة ـ وذلك لارتباطها تاريخيا بالفتوحات الاستعمارية . والامر الثاني هو تجاهلها وانكارها للثقافات الاخرى فالثقافة الاوروبية ـ مثل اله يهوذا ـ لا تقبل سوى نفسها ولا تعترف الا بها وهي تحارب وتحاول ان تسحق كل ما يعاصرها من ثقافات اخرى ويختلف عنها .. ترى هل توافق يا دكتور على ذلك ؟

زكريا : .. الواقع انني لم اكمل ما كنت اريد ، قوله بالنسبة للقضية التي كنت قد اثرتها قبل ان تخطف انت مني الميكروفون ..

أ. منصور : ... انا آسف جدا يا دكتور ...

زكريا : لا عليك .. والواقع انني لم اكن اعني على الاطلاق ان الثقافة الغربية هي مجرد حصيلة الثقافات الاخرى وحسب . ذلك ان الثقافة الغربية تتميز بذلك الجانب الانساني والعالمي ، وهو تسليم الراية . فقد تسلمت الثقافة الغربية الراية من العرب اساسا ومن الحضارة اليونانية القديمة ومن الحضارات الشرقية القديمة ايضاً ، مثل الهندية والصينية .. الخ ، وكل ذلك كان تواصلا مستمراً . ويجب ان نميز هذا الجانب عن الجانب الاوروبي البحت ـ وهو الذي كنت انت تتحدث عنه ـ والذي من حقنا تماما ، بطبيعة الحال ـ ان ننقده ـ وان نروضه وان نحمل عليه ما شئنا من الحملات .. وما يهمني في هذا الشأن ، هو اننا يجب ان نذكر انفسنا دائما ان الكثير من العناصر في هذه الثقافة الغربية التي نتحدث عنها ليست غربية بحتة ، وانما اخذها الغرب من حضارات اخرى ، واننا انفسنا شاركنا في عملية صنع هذه الحضارة ، وان الغرب نفسه يزداد اعترافه بذلك اكثر فأكثر . وعلى ذلك فانه لا يليق بنا ان نبخس حقنا ، بان نضع هذا الحاجز المنيع الذي يستحيل اجتيازه بين الثقافة الغربية وبين ثقافتنا القومية او المحلية . كما اود ان اذكر مرة اخرى بما كان يفعله العرب ايام ازدهار ثقافتهم ، وكيف لم يكونوا مصابين بالحساسية ازاء الاستفادة من الثقافات الأخرى .

أ. منصور : .. هل تعتقد يا دكتور ان السبب في ذلك هو ان العرب لم يكن لديهم ثقافتهم القومية المستقلة ؟

زكريا : ... لا .. لا اعتقد ذلك .. فلا شك أن الدين الاسلامي كان تعبيرا عن وجود ثقافة قومية مستقلة ..

أ. منصور : .. هذا صحيح ..

زكريا : .. كذلك فاني أذكر مرة اخرى باننا يجب أن نعتز بما قدمناه للغرب في بداية العصر الحديث . ونحن دائما نقول أن الغرب قد اخذ منا كذا وكذا .. ولا ننظر الى الغربيين باعتبارهم خونة ومنسحقين امام ثقافتنا لانهم اخذوا منا هذه العناصر الثقافية . ولذلك فانه لا يليق بنا أن نكيل بكيلين ، بل يجب ان نطبق على انفسنا ما نطبقه على غيرنا . وهذا لا يمنع ـ كما سبق لي أن قلت ـ وجود عناصر غربية محلية اذا انسحق امامها مثقفونا ، فانه يصبح من واجبنا ان نهاجمه وان ننقده ..

أ. منصور : ولكن الا تعتقد يا دكتور ان ما قلته يفرض عليك أن تقوم بتوضيح هذا الخط الدقيق الذي يفصل بين التأثر والاستفادة وبين الانسحاق وفقدان الشخصية ؟

ذلك ان الفرضية التي قمت انا بعرضها لا تعني على الاطلاق ان اغلق النوافذ على نفسي ، لان ذلك يعني الموت بالجفاف ، وانما تعني رفض ان يزدري المرء ثقافته القومية وان يرتدي ثياب ثقافة اخرى لا يرى شيئا الا من خلال اعينها بحيث يعيش في وطنه كالسائح الاجنبي ..

زكريا : .. اعتقد أن العامل الاساسي في هذا الخط الفاصل هو أن من يتأثر تأثراً ايجابيا ومفيدا هو ذلك الذي يتبنى المنهج قبل المضمون ، بمعنى تبني منهج الفكر الغربي قبل تبني مضمون هذا الفكر ؟ ارفض المضمون بأكمله . وانما ان يكون اساس تأثره هو تبنيه للمنهج فقط . ومن الناحية الأخرى ، فان هناك من يتبنى المضمون مابة في المابة ، دون ان يلقي بالا الى المنهج ذاته أو يتأثر به . هذا على حين ان اعظم ما انتجته الحضارة الأوروبية هو ذلك المنهج الدقيق وذلك المنطق المتماسك . وانا اعتقد أنه من المفيد أن يكون ذلك هو الاساس في رسم هذا الخط الفاصل الذي تشير اليه . ولكنني اعترف أنه من المستحيل ان نضع خطا يفصل بشكل حاسم مائة في المائة بين الاشياء . وخذ مثلا حالتي أنا . فأنا من أكثر الناس اعجابا بالموسيقى الكلاسيكية الغربية .

أ. منصور : هذا امر معروف .. واعتقد ان لك كتابا عن المؤلف الموسيقي الالماني « فاجنر » ..

زكريا : .. هذا صحيح .. ولكن ما أريد أن أقوله هو أن اعجابي بهذه الموسيقى يعني انني اتبنى المضمون ايضاً ، وليس المنهج فقط .. ولكن ذلك لا يعني على الاطلاق انني اقف منسحقا امام الثقافة الغربية وقد يقول البعض انني ما دمت قد تخليت عن الموسيقى المحلية ، فان ذلك لا يعني انني قد انسحقت ونسيت تراثي . ولكنني اقول ـ وبمنتهى الصدق والامانة ـ ان هذا النوع من الموسيقى ـ اي الموسيقى الكلاسيكية الغربية ـ يعطيني تجارب انسانية لا أجدها في الموسيقى المحلية . وأنا هنا لا أخدع نفسي .. ولا اقلد احداً ..

أ. منصور : .. هذا امر لا شك فيه .. ولكن الا تعتقد ان هذا قد يكون راجعا الى طبيعة تكوينك ونشأتك التربوية والفكرية ؟..

زكريا : .. ربما صح ذلك بالنسبة لحالات اخرى ، ولكنه لا ينطبق على حالتي . فقد نشأت نشأة مصرية في أسرة تحت المتوسطة ، وكانت نشأتي تحوي كل عناصر الثقافة الشعبية المحلية . ولذلك فأنا أقول أن وضعي الآن يعود فقط الى جهدي الذاتي .

أ. منصور : ولكن سيادتك تلقيت تعليما رسميا .. وهو تعليم أوروبي .. يهدف الى خلق انسان شبيه بما يحاول نظام التعليم الأوروبي ان يخلقه ..

زكريا : .. لا .. ليس الى هذا الحد . فقد تلقينا جميعا تعليما رسميا ، ومع ذلك فان هناك اختلافا وتباينا بين اتجاهاتنا .. وانا احذر مرة اخرى من التعميم ..

أ. منصور : ولكن الا تتسم اتجاهاتنا هذه كلها ـ وبالرغم من تباينها ـ بالطابع الأوروبي ؟ .. ذلك ان معاداة الثقافة الاوروبية لا يعني، على الاطلاق عدم الانسحاق امامها .. ولناخذ مثلا على ذلك حركة الاخوان المسلمين ، والتي بالرغم من عدائها

المفترض للثقافة الاوروبية ، فان التنظيم الذي اسسته هذه الحركة والطريقة التي يتحرك بها والتي تركت اثارها على برنامجه كان تنظيما ذا طابع اوروبي واضح ..

زكريا : .. الواقع انني الآن لا أفهم بالضبط ما تعنيه بالطابع الاوروبي لانه حين تقول انه حتى المعادين للثقافة الاوروبية يقفون هم ايضاً داخل اطار هذه الثقافة ، فانه يصبح واضحا انه كان من المفيد ان تقدم لي تعريفك لما تقصده بالطابع الاوروبي وبالطابع المحلي ..

أ. منصور : .. اعتقد ان ذلك اقتراح مفيد تماما .. ولكنني اعتقد انه قد يكون من الاصوب ، قبل ان افعل ذلك ، أن اقدم تصوري للموضوع برمته ، الامر الذي قد يفسر ما أعنيه بالطابع الاوروبي او بالطابع المحلي . واحب أن أوضح اولاً ان اقتناعي بالافتراض الذي سوف اقدمه قد لا يزيد عن خمسين في المائة ذلك لانني اوافق على ما قلته انت من ان هذا الافتراض يشوبه التعميم وربما التسرع . ولكن املي وهدفي هو ان تساهم هذه الحوارات التي اقوم باجرائها في توضيح الحقيقة ..

وأبدأ بالقول بانني اتصور ان الازمة الحادة والحقيقية التي يعيشها المثقفون في الوقت الحاضر ترجع جذورها الى انتهاء حكم الاسرات الفرعونية وذلك بقدوم الثقافة اليونانية في صحبة الاحتلال العسكري اليوناني وقد كانت هناك في مصر قبل ذلك مستعمرات اغريقية ، كما كان هناك جنود مرتزقة من اليونانيين في الجيش ، الامر الذي قد يكون قد ساعد على حدوث ما حدث . ولكن المهم ان ما حدث بعد الاحتلال العسكري اليوناني ، هو ان المثقفين المصريين - او الفئات العليا التي تنتج هؤلاء المثقفين - تبنوا وبشكل كامل الثقافة اليونانية والتي كانت في ذلك الوقت تتميز بالديناميكية والحيوية البالغة . وقد ساعد على احداث ذلك ، بالاضافة الى هذا ، رغبة المثقفين في نفاق الحكام الجدد ، الى جانب انبهارهم الناتج عن شعورهم بالضآلة امام تلك الثقافة التي دحرتهم جيوشها . وقد بلغ من قوة انسحاق هؤلاء المثقفين انهم استخدموا الحروف الابجدية اليونانية في الكتابة ، كما اطلقوا على انفسهم اسماء يونانية .. وارتدوا الثياب اليونانية (وسوف نجد ان الكثيرين من علماء اللاهوت المصريين الذين وضعوا الاسس الايديولوجية للكنيسة القبطية المصرية لهم اسماء يونانية كما ان كتاباتهم كانت باللغة اليونانية ايضاً) .

وفي الوقت الذي كان يحدث فيه ذلك في مدينة الاسكندرية وفي بعض المراكز الحضرية الاخرى مثل دمنهور والفيوم ، كانت جماهير الشعب المصري تواصل حياتها وفقا للاساليب والقيم التي الفتها منذ القدم ، دون ان تعرف شيئا عن اللغة اليونانية او الاسماء اليونانية او الحضارة اليونانية . ولا تعني هذه العزلة ، ان جماهير الشعب المصري لم تكن تنتج ثقافتها الخاصة . والدليل على ذلك هو هذا الصراع العنيف والدموي الذي دار بين الكنيسة القبطية المصرية وبين الكنيسة البيزنطية وغيرها ، والذي كان صراعا قوميا بالدرجة الأولى يدور بين العقيدة الدينية المصرية المتميزة وبين العقائد الدينية الاخرى في بيزنطة وروما .

وكي لا ياخذ عرضي هذا وقتا طويلا ، فسوف اكتفي بالحديث عن تلك الفترات التي بلغ فيها هذا الازدواج الثقافي درجة عالية من الحدة والوضوح وكانه قد وضع تحت المجهر . ويمكن ان نجد ذلك في عصرين : العصر الأول هو عصر السلاطين المماليك ، والذي يمتد من انتهاء حكم الأسرة الأيوبية حتى احتلال العثمانيين لمصر . اما العصر الثاني فهو ذلك الذي يبدأ بالاحتلال الانجليزي لمصر وحتى وقتنا هذا .

وبالنسبة للعصر الأول ، فاننا نجد انه كما ان الفئات العليا من المصريين تبنت ثقافة المحتلين الاغريق وقلدت اساليب حياتهم ، فقد حدث نفس الشيء مع الثقافة التركية ، وهي ثقافة حكام مصر الجدد من سلاطين المماليك . وهناك وهم شائع يقول ان الاتراك امة بلا حضارة او ثقافة . وهذا ، في الواقع خطا علمي فادح ويكفي ان يتامل المرء الفن المعماري التركي ، او الاواني الفخارية من « بورصة » او من المراكز الحضارية التركية الاخرى ، لكي يدرك ان ذلك يعكس ثقافة متماسكة وناضجة ومتميزة . وقد كان التاثير الذي مارسته الثقافة التركية على الثقافة المصرية الرسمية تاثيراً هائلاً . وقد شهد عصر سلاطين المماليك فورانا ثقافيا ربما لم يكن له مثيل في التاريخ المصري بأكمله وقد كان هذا الفوران الثقافي يتسم بالشمولية ، وقد امتد اثره الى كافة فروع النشاط الثقافي من التاريخ الى الجغرافيا الى العلوم الطبية الى الفلك .. الى العلوم البحرية .. بل والى اللغات الاجنبية ايضاً . ناهيك بالفن المعماري الذي وصل الى ذرى ربما لم يصلها سوى في عهد عمالقة الفراعنة . وقد امتلأ هذا العصر بكبار العلماء والباحثين ، ويكفي ان نذكر اسماء مثل .. ابن خلدون والمقريزي والقلقشندي وابن النفيس وابن حجر والسخاوي وتغري بردي وابن اياس .. الخ كي ندرك مدى ضخامة الصرح الثقافي الذي اقيم في ذلك العهد . كذلك لم يكن هذا الفوران قاصرا على مدينة معينة او اقليم محدد . ويكفي أن نلقي نظرة على كتاب مثل كتاب كمال الدين الأدفوي : « الطالع السعيد الجامع لنجباء ابناء الصعيد » ـ والذي يضم ترجمة لحياة ٥٤٩ عالماً من علماء الصعيد الأعلى (اي محافظتي سوهاج واسوان فقط) ـ او ان نقرأ فيه ان قاضي مدينة قوص حضر الى اسوان فخرج اليه اربعمائة راكب بغلة (اي عالم وقاض) للقائه ، كي ندرك مدى شمول هذا الفوران الثقافي وامتداده .

كذلك فان هذا الفوران الثقافي لم يكن قاصرا على طبقة دون اخرى او على الحكام دون المحكومين ففي الوقت الذي كان فيه المقريزي وابن خلدون وباقي زملائهما من مثقفي المؤسسة ـ يخرجون روائعهم التي تعرفها ، كانت الطبقات الشعبية ايضاً تخرج روائعها .. وكانت الطبقات الشعبية تقوم بصياغة اعمال عبقرية مثل الف ليلة وليلة ، او ما يسمى بالملاحم الشعبية مثل « عنترة » و « الهلالية » و « حمزة البهلوان » و«علي الزيبق».. الخ.. والتي تختلف اختلافاً جوهرياً ـ في نقاط انطلاقها وفي مفاهيمها الاخلاقية والدينية والثقافية ـ عن ما كان ينتجه مثقفو المؤسسة. فمفهوم الف ليلة وليلة مثلا ، عن الدين وممارساته يختلف اختلافا كيفيا عن مفهوم الدين في « مقدمة » ابن

خلدون او « نجوم » تغري بردي او « بدائع » ابن اياس . ويكتشف المرء ايضاً ـ من قراءة عمل مثل الف ليلة وليلة ـ ان نظرة الطبقات الشعبية الى العلاقات بين المسلمين والاقباط تختلف اختلافا كبيرا عن نظرة المؤسسات الدينية الرسمية لهذه العلاقات . واستطيع ان استطرد في هذه المقارنات بلا نهاية ، ولكن ما اريد الوصول اليه هو انه وجد في عهد سلاطين المماليك نظامان ثقافيان متميزان ـ في نفس الوقت ـ لا يصل بينهما سوى جسور ضعيفة واهية لا تتيح سيولة الاتصال او ديمومته .

ثم ننتقل الى الفترة الثانية ، وهي فترة الاحتلال الانكليزي والذي كان قد سبقها حدوث انفتاح ثقافي واسع على الغرب ، بدأ بالحملة الفرنسية واتسع مداه في عهد محمد علي . وقد كان هذا الانفتاح يتميز ، منذ بدايته بطابع الانبهار بالحضارة الأوروبية . ومثل « الجبرتي » الذي ذكرته فيما سبق يشير الى ذلك .

وما حدث في هذه الفترة هو أن ما يمكن ان نسميهم بـ « جيل الاباء » من المثقفين ـ مثل احمد لطفي السيد والدكتور طه حسين والدكتور حسين هيكل وسلامة موسى ـ والذين كان معظمهم يلتفون حول جريدة « الجريدة » او من تلامذتها ، كانوا يدعون بايمان حقيقي ، وبلا زيف او محاولة للخداع او التزلف الى الحكام الجدد (فقد كان بعضهم يقود حملات او حركات معادية للحكم الاستعماري) الى الاخذ تماما بأساليب الحياة الأوروبية وبكافة عناصر الثقافة الأوروبية ، ونبذ التراث الثقافي لزملائهم من مثقفي المؤسسة ، بدعوى جموده وعدم مسايرته للحياة . ولا يمكن ، في الواقع ، ان يلخص المرء اتجاهاتهم بشكل افضل مما فعلت انت في هذه الفقرة التي اشرت اليها في كتابك « العرب والنموذج الامريكي » . ولذلك فان المتامل لحالة المثقفين اليوم ـ وهم بلا شك نتاج ، بدرجة اكثر او اقل ، لجيل الاباء ـ يجد انهم يعانون من ازدواج ثقافي مركب ، ومن انفصام ثقافي مركب ايضاً فقد رفضنا نحن المثقفون ـ نتيجة انبهارنا بالثقافة الاوروبية وانسحاقنا امامها ـ تراثنا الثقافي العظيم الذي انحدر الينا من عصر سلاطين المماليك مثلا ـ وبجانب انقطاعنا وعزلتنا عن هذا التراث ، فان صلاتنا تكاد أن تكون مقطوعة تماما ، ومنذ عهد طويل بالثقافة الشعبية .. اي بثقافة غالبية من يعيشون معنا على ارض هذا الوطن ـ هذا ـ باختصار ـ ما أود ان اقوله .. ولا ادري ما هو تعليقك على ذلك ..

زكريا : .. لا شك ان العرض الذي قدمته ـ رغم ايجازه ـ يدل على الاتجاه الذي تتبناه ، ولا اظن ان هناك مثقفا واحدا يمكن ان يعترض عليه . ولكن كل ما في الامر انه يبدو ان لك نظرة الى الثقافة الشعبية يمكن ان نصفها بانها خالصة او تجريدية ، بمعنى انك ترى ان الثقافة تكون في احسن حالاتها عندما تستقل عن المؤثرات الاجنبية وترفض الخضوع لها .. الخ يبدو لي ان في ذلك نوعا من الخلط بين ميدانين ، ميدان السياسة وميدان الثقافة ، وكثيرا ما تكون هناك اشياء ضارة من الناحية السياسية ، ولكنها تكون مفيدة من الناحية الثقافية . وميدان الثقافة شديد التعقيد وهناك ظواهر تبدو لنا في البداية انها كانت تعبر عن تدهور او انسحاق او

ما شابه ذلك ، ولكنها في المدى الطويل نجد انها افادت واضافت واثرت ، وانها تحولت الى رصيد ايجابي في يد امة او شعب ما ...

ا. منصور : ... ولقد ذكرت انت ، فيما سبق ، المحك الذي يفرق بين الاستفادة و بين الانسحاق

زكريا : ... هذا صحيح .. ولذلك فانني ارجو أن نتحدث عن السياسة بمنطق يختلف عن ذلك الذي نستخدمه عندما نتحدث عن الثقافة ، وأن نضع في اعتبارنا أن الظاهرة الثقافية اكثر تعقيداً ، بما لا يقاس ، من الظاهرة السياسية . ولكي لا نخرج عن موضوعنا الاصلي ، فانني أقول انه اذا كان من حقنا ان ننقد وان نهاجم ، فانه اذا اردنا أن نكون علميين فإنه يتعين علينا ان نشخص الظاهرة بأقصى قدر ممكن من الموضوعية . وما يسمى بالانبهار بالحضارة الأوروبية في أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين كان في الواقع ، في تصوري وفيما يتعلق بتطور شعب مثل الشعب المصري ، شيئا لا مفر منه ، وايا كان حكمنا على ذلك : سيئا كان أم جيدا .. الخ . ذلك لانه كان يمثل التقاء ثقافة جديدة ناهضة قوية نامية ومتحركة باستمرار ، تأتي كل يوم بشيء جديد ، بثقافة اخرى تتميز بالجمود والتحجر وبأنها وصلت الى المرحلة التي لا تستطيع فيها أن تقوم بتطوير نفسها بأي صورة من الصور . وكانت الفجوة التي تفصل بين الثقافتين قد اتسعت الى أقصى حد . فقد كانت مرحلة التدهور والانهيار التي عاشتها الثقافة العربية والمصرية هي بالضبط نفسها مرحلة صعود الثقافة الاوروبية . وقد ادى ذلك ، بالطبع الى اتساع مستمر في الفجوة التي تفصل بين الثقافتين .

وما اريد أن اقوله هو ان تلك الظاهرة لم يكن من الممكن الفرار منها في تلك الفترة . كذلك فانني ، مرة اخرى ، اقول انه لا بد أن نفرق ، وبشكل واضح بين خضوع او استسلام عدد من كبار المثقفين المصريين ، في الوقت الحالي ، للمؤثرات الثقافية الصهيونية والامريكية ، وبين خضوع واستسلام رفاعة الطهطاوي او محمد عبده او حتى احمد لطفي السيد وطه حسين للمؤثرات الثقافية الاوروبية ، ذلك أن الموقفين مختلفين تمام الاختلاف . وهذا هو ما يهمني ، لان في ذلك انصافا لهؤلاء الرواد الاوائل من جهة ، ومن جهة اخرى لان في ذلك تأكيداً للخطأ الذي يقع فيه هؤلاء المثقفون المعاصرون الذي يدعون الآن الى الاندماج في الثقافة الصهيونية والامريكية .. الخ وهذان ، كما هو واضح ، موقفان مختلفان تماماً . وانا اعتقد أن الموقف الحالي ، من جانب هؤلاء المثقفين المعاصرين ، ليس موقفا ثقافيا فقط . ذلك أن به عناصر سياسية في المقام الأول ، وكذلك به عناصر مصلحية ايضاً . واستطيع ان اقول أن هؤلاء المثقفين،بالنسبة لهذه النقطة بالذات قد تخلوا عن رسالتهم الاساسية ،أما فيما يتعلق بمثقفي القرن التاسع عشر ، فقد كانوا – في اعتقادهم – يؤدون رسالة عن طريق نقل صوت جديد ودم جديد الى ثقافة امتهم ، وقد عانوا في سبيل تأدية هذه الرسالة – ونحن نعرف المعارك العنيفة التي خاضها محمد عبده ضد علماء الازهر مثلا – كما كانوا يتسمون بطابع الرغبة في الاستشهاد في سبيلها . والوضع الحالي يختلف عن ذلك الوضع تماما . ذلك أنه في الوضع الحالي ، هناك اغراءات سياسية واجتماعية معينة ، وهناك ابراز لعدد معين من المثقفين ، هم

الذين تقوم اجهزة الدولة الرسمية واجهزتها الاعلامية من صحف واذاعة وتليفزيون .. الخ بمحاولة فرضهم على الناس ، وذلك لاثبات انه لا يوجد في بلادنا سوى هؤلاء ، وهذا في نفس الوقت الذي لا يسمح فيه للاصوات الأخرى ـ والتي لا تقل اهمية وقدرة وعمقا عن هؤلاء ـ بأن تعبر عن نفسها على الاطلاق ، هذا بالاضافة الى تقديم اغراءات ، لا أول لها ولا آخر ، لهؤلاء الناس (أي المثقفون المؤيدون للنظام ـ ا.م) وكل ذلك ، بالاضافة الى عامل الانهاك العقلي ، قد أدت الى ما نحن فيه الآن . وكل هذه العوامل ، ايضاً ، تميز الوضع الحاضر عن غيره من الاوضاع السابقة . كذلك فانا اعتقد ان الرأي الذي قلته الآن يعبر الفجوة الظاهرة بين ما قلته انت وما قاله سيد ياسين في الحوار الذي اجريته معه ، اي تأكيدك انت على مسألة وجود ثقافتين ، وتأكيده هو على الديموقراطية وعلى حرية التعبير . لأننا نستطيع هنا ان نجد الرابطة التي تصل ما بين الرأيين . بمعنى ان هؤلاء المثقفين الرسميين ـ وهم مثقفو المؤسسة ـ قد فقدوا تأثيرهم وجماهيريتهم الماضية ، لأنه كانت هناك عملية متعمدة مقصود بها اعلاء هذه الاصوات وخفض الاصوات الأخرى . وهكذا ظهر هؤلاء بوصفهم الممثلين الوحيدين للثقافة المصرية .

ولا شك أن من اهم اسباب وجود ظاهرة الازدواج الثقافي التي نعاني منها الآن ، ان هناك محاولات متعمدة لاسكات اصوات صادقة وعميقة في الميدان الثقافي ، مع فتح الباب على مصراعيه امام افراد معينين ، يراد لهم أن يكونوا هم المعبرين عن وجه مصر الثقافي في الخارج كما تريد المؤسسة ان يكون ..

أ. منصور : ... الواقع ان ما قلته انت الآن يثير موضوعين : الأول هو ما يحدث الآن في ميدان الثقافة الشعبية ، والثاني ـ وقد يكون فرعيا ولكنني أؤمن باهميته ـ هو ما قلته بشأن الشيخ محمد عبده ونضال الشيخ محمد عبده . وقد يكون ما قلته عن نضال محمد عبده صحيحاً ـ بل واعتقد انه صحيح ـ ولكن هناك بالاضافة الى هذا الجانب ، جانباً آخر من محمد عبده . وانا اسألك الا تظن ان هناك علاقة ما بين دعوة محمد عبده لتبني النظرة الاوروبية للحياة . وبين موقفه الضعيف المتهالك في مواجهة الاحتلال الانكليزي لمصر ؟

زكريا : ... ان كل كلمة في الجملتين الاخيرتين اللتين قلتهما تثير ، ايضاً تساؤلات عديدة فهناك مثلا عبارة تبني النظرة الاوروبية للحياة . فانا اشك في حقيقة ذلك . لان النظرة الى الحياة تعني نمط الحياة وأسلوب الفكر . وانا اعتقد ان محمد عبده كان يدعو الى تبني عناصر معينة في الحضارة الاوروبية ، وليس لتبني النظرة الاوروبية للحياة . وذلك بدليل انه كان ـ قبل كل شيء ـ عالما من علماء الاسلام (!!!؟ ـ إ.م) ، ولا يستطيع ان يصل الى حد الدعوة الى ان نعيش الحياة اليومية التي يعيشها الاوروبي تماما (!!! ؟ـ إ.م)، او ان تكون علاقاتنا ، نحن الرجال ، بالجنس الآخر مثل علاقات الأوروبيين ، او ان نأكل مثلما يأكلون .. او ان نرتدي ما يلبسون من ملابس فمن المؤكد ان محمد عبده كان يدعو ، فقط ، الى تبني جوانب معينة في الحضارة الاوروبية ، وليس النظرة العامة للحياة ، كما تقول ..

أ. منصور : .. رغم انني ، يا دكتور ، اختلف معك ، فانني سوف اطرح السؤال بشكل آخر : فهل توافق على ان محمد عبده كان يعمل من اجل التوفيق بين الدين الاسلامي وبين طريقة الحياة الاوروبية ؟...

زكريا : ... ان ايماني ـ كما سبق لي ان قلت ـ هو أن ما نسميه نحن بالأسلوب الأوروبي في الحياة ، ليس اوروبيا فقط .. وكل ما في الأمر هو ان اوروبا هي التي تحمل الراية في هذه المرحلة التاريخية ورأيي ان هذه الراية سوف يحملها الشرق الاقصى في وقت ما من القرن القادم . وهناك علامات واشارات لذلك . وانا اعتقد ان اليابانيين والفيتناميين والصينيين .. الخ هم الذين سوف يحملون هذه الراية في المستقبل . وعند ذاك لن نستطيع ان نقول ، ايضاً ، ان تلك حضارة صينية او فيتنامية او يابانية . ولذا فانني أقول انه ربما كان ما يدعو محمد عبده الى تبنيه هو تلك الجوانب الانسانية في الحضارة الاوروبية اي تلك الجوانب التي ساهمت فيها كافة الحضارات والأمم على طول التاريخ الانساني وانا اشك كثيراً ان محمد عبده كان يدعو الى تبني الجوانب الاوروبية الخالصة .

أ. منصور : ... اظن انك قد وافقتني على ان الحضارة الاوروبية تتميز بالعدوانية وبالغيرة العنيفة من الحضارات والثقافات المعاصرة لها ، وسواء كانت تنافسها ام لا ...

زكريا : ... لا .. لا ..

أ. منصور : .. وهنا مكمن الخطورة في الواقع ..

زكريا : .. لا .. انا لم اوافقك على ذلك ..

أ. منصور : .. الحقيقة ان لدي انطباع بانك وافقت ..

زكريا : .. لا ولو أنك رجعت الى ما قلت ، لوجدت أنني لم اوافقك .. صحيح انك قلت ان الحضارة الاوروبية تتميز بالعدوانية ، ولكنني لم اوافقك على ذلك .. ثم انتقلنا بعد ذلك الى موضوع آخر .

ولا تعني عدم موافقتي ان ما قلته انت خطأ بل هو يعني ان ذلك مجرد سمة تميز كل الحضارات في مرحلة ازدهارها ، فاذا اخذنا الحضارة العربية في مرحلة ازدهارها ، فسوف نجد ان هناك من يقولون انها قامت بحد السيف (اليس هذا خلطا بين اقامة حضارة واقامة امبراطورية ؟ـ إ.م)

وسواء كان ذلك صحيحا ام لا ..

أ. منصور : من المؤكد ان الحضارة العربية ـ من الناحية الثقافية ـ لم تحاول القضاء على الثقافات الاخرى ..

زكريا : .. صحيح انها لم تحاول القضاء على الثقافات الأخرى ، ولكن مقدار الاعتزاز بالاصل العربي وبالاصالة العربية . كان كبيراً جداً .

أ. منصور : لا تؤاخذني يا دكتور ، ولكنه لم يحدث ابدا في التاريخ العربي ان كانت هناك محاولة من جانب الثقافة العربية لهدم الثقافات الأخرى ، بل انه من الثابت على العكس من ذلك ، انه كان هناك شوق قوي للاستفادة من الثقافات الأخرى ، بل وحتى

المندثرة منها . وحركة الترجمة القوية التي شهدها العصر العباسي لنقل ثمار الفكر الفلسفي اليوناني لا شك تشير الى ذلك ..

زكريا : انني اوافقك على ذلك . ولكن الفرق لم يكن بهذا الحجم الكبير ، ذلك حين قدمت الحضارة العربية وجدت ان الحضارة اليونانية التي سبقتها كانت تسبقها ، على الاقل في البداية ، بمراحل عديدة .. ووجدت الحضارة العربية تراثا هائلا في العلم والطب والفلسفة .. الخ ، وكان لا بد للحضارة العربية ، ان هي ارادت الاستمرار في الحياة ، ان تنقل عن هذا التراث ، وان تقتبس منه واذا كانت الحضارة الاوروبية يسودها في الوقت الحالي الشعور بالاستعلاء ، فما ذلك الا لانها تعرف انها تجاوزت الحضارات الأخرى بمراحل عديدة .. واذا كان هذا خطأ من وجهة نظرنا ، فانه في نفس الوقت ليس بالأمر الغريب على الحضارات ..

أ. منصور : اسمح لي يا دكتور ..

زكريا : .. اما فيما يتعلق بمسألة انكار الاخرين فان بعض جوانب الحضارة الغربية كانت تتضمن السعي الى اكتشاف تلك الحضارات الأخرى ، بل لقد استطاع الاوروبيون والغربيون ، عن طريق بعض المحاولات الفردية ، ان يقدموا لابناء حضارة اخرى تراثهم هم الخاص وذلك باستخدام المنهج الاوروبي وربما كان هناك قدر كبير من الانتقادات التي توجه الى حركة الاستشراق،والتي لا شك في صحة بعضها مثل ذلك الشعور بالتفوق الذي يتسم به المستشرقون الغربيون ، الذين يحسون بان الحضارات الأخرى اقل شأنا من حضاراتهم ولكن ذلك لا ينفي ان الحضارة الاوروبية ، في بعض جوانبها قد تمكنت من القاء الضوء على جوانب معينة في الحضارات اخـرى ، لم يكن يعرفها ابناء هذه الحضارات انفسهم ، ولذلك فلا بد لنا من ان نكون منصفين وعادلين ..

أ. منصور : هل تسمح لي بالتعليق على ما قلت ؟..

زكريا : نعم .. تفضل .

أ. منصور : لا شك على الاطلاق يا دكتور ، في صحة بعض الاعتراضات التي اثرتها بالاستعلاء ، كذلك فانني الاحظ ان كلامك يتضمن الاعتراف بما زعمته من تميز الثقافة الاوروبية بالاستعلاء والعدوانية ، وتبريرك لذلك لا يغير ، في الواقع من الامر شيئا ، فالتسبب لا يعني عدم صحة التوصيف اما فيما يتعلق بالنقطة الثانية التي اثرتها يا دكتور ، بشان الانجازات التي حققتها الحضارة الاوروبية في ميدان اكتشاف الحضارات الأخرى ، فان لي تحفظا قويا فيما يتعلق بها فحين يقرا المرء مثلا كتابا مثل كتاب الكاتب الامريكي الشهير « الان مورهيد » عن « النيل الابيض » ، يجد ان المؤلف وهو يحكي قصة اكتشاف منابع النيل في القرن الماضي يورد هذا التعبير الغريب : « وهكذا ، ولأول مرة في التاريخ يضع الانسان قدمه على تلك البقعة من الارض » .

واعتقد ان لهذه العبارة دلالتين هامتين : الدلالة الأولى هي مجرد ورودها وكانها احدى البديهات الثابتة ، والدلالة الثانية هي انها لم تثر اية دهشة او اعتراض من جانب القارىء الاوروبي هذا رغم ان الجميع ـ بما فيهم مؤلف الكتاب نفسه الذي اورد ذلك ـ

يعرفون تماما ان هذا المكتشف الاوروبي لمنابع النيل لم يذهب الى هناك وحده ودون معونة من احد بل ان المؤلف نفسه يقول في الصفحة التي وردت بها هذه العبارة ان بعض العرب من سكان مدينة « ممباسا » الكينية هم الذين قادوه الى تلك البقعة ، وناهيك بسكانها المحليين ولكن كل ذلك لم يمنع المؤلف من ان يكتب ما كتب لماذا ؟ وماذا عن الامانة العلمية ؟ ان السبب ببساطة هو ان الانسان في نظر ، الحضارة الاوروبية هو الاوروبي فقط ، اما من عداه فغير موجود ، ولا يستحق هذا الوصف وقد كان ذلك امراً ضرورياً وحيوياً للحضارة الاوروبية من اجل ان تبرر امام شعوبها ، اعمال القسوة والانتهاك الفظ للكرامة الانسانية والسفك الوحشي للدماء التي صاحبت حركة الاستعمار الاوروبي بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ ...

زكريا : هذا صحيح تماما ... والمثل الذي ذكرته يتعلق بمكتشف من العصر الاستعماري وقد ذهب الى افريقيا طبعا حاملا كل اطماع الاستعمار وعقليته واحساسه بالتفوق ورغبته في التبرير ... الخ .. ولكن هذا لا ينفي الجانب الآخر ، وهو ان الذي نبهنا الى هذه الصفات في الحضارة الاوروبية ـ اي الاستعلاء وانكار الحضارات الاخرى والرغبة في القضاء عليها ـ كان الكثيرون منهم من الاوروبيين وهكذا فان هذين الوجهين يوجدان معاً في الحضارة الاوروبية . وانا لا استطيع ان اكتفي برؤية احد الوجهين وانكار وجود الوجه الآخر ....

وارجو الا تظن ان تأكيدي على هذه النقطة يرجع الى انبهاري الزائد بالحضارة الاوروبية ، ذلك ان كل ما في الامر انني غير راض عن ما يذهب اليه الكثيرون من كتابنا ومفكرينا من وصف لهذه الحضارة بانها اوروبية فقط ، وفي ذلك ظلم كبير لنا ولتاريخنا وفي نفس الوقت ..

أ. منصور : هذا الفهم هو فهم اوروبي بحت وهو لم يات منا نحن ، فالاوروبيون انفسهم هم الذين يصفون حضاراتهم بانها اوروبية ، وانها ترجع بجذورها الى الحضارة الاغريقية متجاهلين بذلك الحضارات الاخرى التي ساهمت ـ كما قلت انت ـ في اقامة صرح ما يسمى بالحضارة الاوروبية ..

زكريا : .. نعم .. ولكن لماذا نجاريهم في ذلك ؟...

أ. منصور : لاننا منسحقون امامهم ..

زكريا : ولكن الذين يقولون بذلك هم الذين ينتقدون المنسحقين ..

أ. منصور : ان معاداة الحضارة الاوروبية ، كما سبق لي ان قلت لا تعني الافلات من الانسحاق امامها ..

زكريا : اذن ما العمل ؟.. اذا كانت معاداة الحضارة الاوروبية ومسايرتها يتساويان ؟ على اية حال ، فان ما اريد قوله هو انه يجب علينا ان نضع الحضارة الاوروبية في موضعها الصحيح وحجمها الحقيقي ، وان نقول ان هذه الحضارة هي المرحلة الاخيرة من مراحل جهود شاركت فيها الانسانية جمعاء ، وليس الاوروبيين فقط ، فقد بدأ دور اوروبا منذ ثلاثة او اربعة قرون على اقصى تقدير ، وذلك بالاضافة ، طبعا ، الى عصري الحضارتين اليونانية والرومانية اما في مئات السنين الباقية فقد كان لمختلف انواع الحضارات دور ولولا انه في مكان

ما ، اكتشفت العجلة مثلا ، ولولا انه في مكان ما ، اكتشفت الاستخدامات السلمية للنار او طرق المعادن الخ ـ اقول انه لولا ذلك ما كانت الحضارة الاوروبية كما نعرفها الآن ، ولا بد لذلك من ان ننظر الى المسألة من هذه الزاوية هذا بالاضافة الى المؤثرات المباشرة تماما ، مثل التأثير العربي ابتـداء من القرن الثاني عشر الميلادي.هذا امر،الامر الثاني هو اننا يجب ان لا نتصور ان وجود حضارة عالمية متفوقة مثل الحضارة الاوروبية هو شيء يمكن التخلص منه، ورأيي الخاص انه ما ان تصل حضارة ما الى هذا المستوى ، وما ان تثبت قوتها ـ ولو كان ذلك بالسلاح ـ بهذا الشكل ، وما ان تقدم كل هذه الانجازات التكنولوجية والعلمية التي لا يمكن انكارها ، حتى تصبح هذه العملية لا يمكن الرجوع عنها ، او التراجع فيها ابدا وكل مهمتك ، بوصفك انسانا ينتهي الى حضارة اخرى ، هي ان تتخذ من الحضارة الاوروبية موقفا متوازنا وان لا تفقد اتزانك امامها وبكلمات اخرى ، ان تقول لنفسك : هذا شيء قائم وموجود ولا يمكن تجاهله اذن فكيف استطيع ان اجني اقصى فائدة منه وكيف نتجنب اخطاره وشروره اما ان تنكر وجود هذه الحضارة او تدينها بوصفها شرا خالصاً ، وبانها حضارة مادية غربية ، ونحن حضارتنا روحية الى اخر هذا الكلام الذي نقرأه يوميا في المقالات الرخيصة والكتابات السطحية التي تملأ رفوف المكتبات واكشاك الصحف عندنا ، فإن رأيي ان ذلك امر مستحيل وغير عقلاني ولا يرجع ذلك الى انبهاري ، وانما لان هذا ببساطة ، هو قانون الحياة ..

أ. منصور : اعتقد ، يا دكتور ، ان احدا لا يمكن ان يختلف معك فيما قلت .. ولم تكن هذه المسالة ابدا هي موضع الخلاف في حوارنا . فهي امر يكاد ان يكون بديهيا ومن الناحية العكسية لماذا اخسر شيئا دون مبرر ؟...

زكريا : وبمجرد ان تبدو على هذه الحضارة علامات التقدم ، وحتى لو كان هذا التقدم ماديا الى هذا الحد فان هذه الحضارة تصبح شيئا لا يمكن الرجوع عنه ، والدليل عل ذلك انك تجد اليوم ان اشد الناس هجوما على هذه الحضارة وخاصة هؤلاء الذين يصمونها بالمادية وبارتكاب جريمة افقاد الانسان قيمة الروحية ـ الخ ، يستعينون في هجومهم هذا بنفس ادوات ووسائل هذه الحضارة ويذهبون الى الاذاعة والتلفزيون لابداء ارائهم تلك وهم يركبون سيارات انتجتها الحضارة الاوروبية ..

أ. منصور : هذا كلام صحيح ، يا دكتور ، وانا اوافق عليه . وعلى اية حال فانا اعتقد انك وضعت الأمور في موضعها الصحيح حين قلت انه يجب علينا ان نضع الحضارة الاوروبية في موضعها الصحيح تاريخيا من حركة الفكر الانساني ككل هذا امر لا يصح ان يقع فيه خلاف ولكن تبقى ثقافة اخرى ، لم نعطها حقها في الحوار ، وهي ثقافة جماهير شعبنا ولا ادري ان كنت تعلم يا دكتور انه منذ انشاء كرسي للادب الشعبي في كلية الاداب بجامعة القاهرة منذ حوالي ٢٠ عاما ، لم تقدم اليه حتى وقتنا هذا رسالة جامعية واحدة ـ ماجستير او دكتوراه ـ عن عمل فذ ـ اعتقد انه لا مثيل له في العالم كله ـ هو « الف ليلة وليلة » ؟ وانه لم يقدم عن هذا العمل الفذ منذ انشاء قسم اللغة العربية بكلية اداب جامعة القاهرة ، اي منذ حوالي ٦٠ عاما ، غير رسالة ماجستير واحدة ؟...

زكريا : ولكن لا شك ان هناك رسالات جامعية عديدة قدمت عن الآثار الأخرى في الأدب الشعبي ..

أ. منصور : نعم .. ولكن « الف ليلة وليلة » وفي اعظم مظاهر النشاط الثقافي لجماهير الشعب المصري ، واكثرها شهرة وتاثيرا وبالرغم من ذلك فان المثقفين المصريين قد نبذوها نبذ النواة ولا تستطيع سيادتك ان تجد قصاصا مصريا واحدا يضع هذا العمل ضمن قائمة مصادر ابداعه ، الفني .. بجانب المصادر الاوروبية العديدة الأخرى هذا في الوقت الذي احدث فيه هذا العمل حين ترجم في اوائل القرن الماضي ، تاثيراً هائلا في الادب الاوروبي ولا يزال مستمرا حتى الآن اما نحن - اي المثقفون - فاننا نصمم هذا العمل بنشر الخرافات والاباحية الجنسية .. ونمنع اطفالنا من قراءته ...

زكريا : تعليقي على ذلك هو انه فيما يتعلق بموضوع الف ليلة وليلة قد يكون هناك تقصير ملحوظ ولكنني لا اريد ان اصل الى درجة التعميم - التي وصلت انت اليها - وان اقول ان هناك تجاهلا كاملا للادب الشعبي وانا اعتقد ان هناك عددا كبيرا من كتاب المسرح والقصاصين والروائيين الخ قاموا باستلهام العديد من الآثار الشعبية ولا داعي هنا لان نحصر اسماءهم لان اعمالهم معروفة للكافة ..

أ. منصور : الواقع انه انطباع خاطىء وكل ما كنت اعنيه هو ان يضيف الفنان الأدب الشعبي الى منابعه ، لا ان يجعله هو منبعه الوحيد ...

زكريا : على اية حال فانا لا اظن ان التقصير في هذا الميدان قد بلغ الدرجة او الحدة التي اشرت اليها وانت متحمس لقضية معينة ، وانت في تحمسك لهذه القضية تحاول ان تظهرها وكأنها قد تجوهلت واستبعدت تماماً ، وانا لا اذهب معك الى هذا الحد ... ودعنا نقيم من الناس حكاما في هذا الأمر .

أ. منصور : وهل جرت العادة على استفتاء الناس في المسائل الفكرية ايضاً ؟..

زكريا : لكي نرى ما اذا كان هناك تجاهلا ام لا، كذلك فانه ليس ضروريا حين نتحدث عن الجذور الشعبية ان تكون هذه الجذور تاريخية فحين يأخذ الفنان اسرة مصرية عادية تعيش في النصف الثاني من القرن العشرين ، ويأخذ في تشريحها من الداخل ، فانه في الواقع يعالج عملا ذو جذور شعبية ..

أ. منصور : يبدو لي يا دكتور ، انني لم اوضح ما اريد ان اقوله بشكل كاف ذلك ان المسالة لا تتعلق بالموضوع بل هي تتعلق بالرؤية اي انه من الممكن - وهو الذي يحدث غالبا ايضاً - ان يعالج الفنان موضوعه الشعبي برؤية اجنبية وذلك ان المشكلة الأخرى الخطيرة هي عجز المثقفين عن التواصل مع جماهير امتهم ، وذلك بسبب ان كلا منهم يستخدم لغة ذات دلالات مختلفة ولناخذ مثلا تلك القصة التي ذكرتها في حواري مع الاستاذ سيد ياسين .. وهي قصة « هند وبشر » ذلك انه عندما يقرأ المرء الفقرة الأولى من هذه القصة المنشورة ويجد ان النبي محمد قد ولد في بلد اسمه « طيبة » وان هناك وليا اسمه امون فلا بد للمرء من ان يستنتج من ذلك ان مفاهيم الجماهير الدينية تختلف تماما

عن تلك المفاهيم الصادرة عن المؤسسات الدينية الرسمية .. والتي هي نفس مفاهيم المثقفين وبكلمات اخرى ، كيف يمكن للمثقف حتى ولو اراد ذلك مخلصا ان يفهم التراث الشعبي وان يستوعبه اذا لم تكن هناك اصلا لغة مشتركة بينه وبين هذا التراث ؟..

زكريا : .. اني ارى ان قصة « هند وبشر » هذه قد اثرت فيك تأثيراً قوياً .. بل واقوى مما يجب . وانا لا ادري مصدر هذه القصة ، ولا مدى انتشارها ، ولا مدى خطورتها .. ولكنني اعتقد ان انتشارها محدود للغاية ..

أ. منصور : انتشارها بين من ؟..

زكريا : اعتقد ان حتى العوام يعرفون اين ولد النبي محمد .. فاذا انت قلت لهم انه ولد في طيبة فاعتقد انهم سوف يأخذون حذرهم ويبتعدون عنك لانهم سوف يظنون ان في الامر شيئاً ..

أ. منصور : ان قصة « هند وبشر » يا دكتور هي احد القصص التي يلقيها المنشدون والرواة في موالد الاولياء في الريف وانا لا اعتقد ان حجم انتشارها قد تكون له دلالة هامة ويكفي للاستدلال على مدى انتشارها ان ناشرا يبحث عن الربح قام بتسجيلها وتفريغها وطباعتها وتوزيعها في متجره الذي يقع في ميدان الحسين بالقاهرة ولا اريد ان اقول انني اعرف هذه القصة طبعت عدة مرات .. لان ذلك لن يضيف الى الامر شيئا في الواقع .. ذلك ان المهم هو دلالتها وليس الارقام التفصيلية الخاصة بها .. كذلك فانه بالاضافة الى ذلك ، فان المفاهيم الدينية التي يستخلصها المرء من قراءة قصة « هند وبشر » هذه تتشابه ـ ان لم تكن تتماثل ـ مع المفاهيم الدينية الموجودة في « الف ليلة وليلة » وفي باقي الاعمال الفنية الشعبية .

زكريا : وما يدريك فلعل هذا الناشر قد نشر هذه القصة من اجل تسجيل ظاهرة ملفتة للنظر ؟

أ. منصور : رغم انني اعتقد ان هذا ليس صحيحا بالمرة فان عملية النشر هذه ليست بهذه الاهمية فالمهم هو وجود القصة ذاتها وليس نشرها او انتشارها ..

زكريا : كذلك قد لا يكون المقصود من مكان الميلاد في هذه القصة الميلاد المادي وانت تعرف ان كل الاساطير الشعبية تفسر تفسيراً مجازياً ..

أ. منصور : هذا صحيح .. ولكن من الذي يفسرها تفسيرا مجازياً ؟..

زكريا : غالبا ما يلقي عليها هذا التفسير المجازي ضوءاً عميقاً اي انه يمكن ان يكون المقصود من القول بان النبي قد ولد في « طيبة » هو الاشارة الى ان اول انبثاقه للوعي بفكرة التوحيد كانت هناك، وربما كان ذلك هو مدلولها في الوجدان الشعبي حتى ولو لم يكونوا يشعرون بذلك بوعي وعلى اية حال فانا لا اعتقد ان هذه القصة لها انتشار واسع .. او ان لها تأثيراً قوياً ..

أ. منصور : ليست هذه هي القضية يا دكتور ذلك انه بجانب قصة « هند وبشر » هناك المفاهيم الدينية الموجودة في « الف ليلة وليلة » وهناك قصة « الخضر عليه

السلام » وهناك الرسائل التي يرسلها المئات من جماهير الشعب الى ضريح الامام الشافعي وكانه لا يزال حيا يمارس القضاء بين الناس .. وكل ذلك يثبت ان معتقدات الجماهير الدينية تختلف كثيرا عن تلك المفاهيم الصادرة عن المؤسسات الدينية الرسمية ..

زكريا : نعم كل هذا صحيح وموجود وله ايضا تعليلات اجتماعية ونفسية واضحة ولكن اريد ان اضيف الى ذلك انه حين يوسع المرء من نظرته شيئا ما فانه سوف يكتشف ان هذه الظاهرة موجودة في كل بلاد العالم وقد كنت في المكسيك منذ عامين وقد رأيت هناك طقوسا مسيحية ورغم شدة تمسك المكسيكيين بعقيدتهم الكاثوليكية بها نسبة لا تقل عن ٥٠٪ من المعتقدات الدينية التي كان يعتنقها الهنود الحمر في الماضي وقد رأيت هذه الطقوس والشعائر تمارس في الكنائس الكبرى ويأخذها الناس كامر عادي .. اعني اننا لا ننفرد بوجود هذه الظاهرة ذلك ان الاديان تصلنا عن طريق رجال الدين يقدمونها بطريقة كثيرا ما تجعل فهمها صعبا بالنسبة للانسان العادي .

أ. منصور : صحيح اننا لا ننفرد بوجود هذه الظاهرة يا دكتور ، ولكنني اعتقد انها توجد عندنا بشكل متميز تماما ، وبالغ الحدة ايضا وذلك لانه لا توجد جسور تصل بين الثقافتين الرسمية والشعبية وهذا ليس هو الوضع في المكسيك حيث تدل السمات العامة لحركة الفن التشكيلي هناك وكذلك سمات الاعمال الابداعية الأخرى من شعر وقصة على وجود تواصل بين الثقافة الرسمية والثقافة الشعبية وعلى ان هناك جسورا تربط بينهما ..

زكريا : ولكنني اعتقد ان السبب في وجود هذه الظاهرة ليس هو افتقاد الجذور الشعبية لدى الفنانين او المثقفين او الصفوة او القلة التي تحمل الثقافة الرسمية وانما السبب سياسي في المقام الأول وهو ان انظمة الحكم المختلفة التي تعاقبت على بلد مثل مصر قد عزلت الشعب عن اي نتاج ثقافي رفيع وجديد .

أ. منصور : اذا لم يكن المثقفون هم السببفي وجود هذه الظاهرة او اذا كان هذا الامر موضع خلاف ، فان الذي لا شك فيه ولا خلاف حوله هو ان المثقفين مسؤولون عن استمرارها وتعميقها ..

زكريا : وافرض اننا كمثقفين قد مددنا جذورنا الى المنابع الشعبية فهل سوف يعني ذلك ان في استطاعتنا ايصال انتاجنا الى الناس ؟ لا ، لن نستطيع وذلك لان السياسات الرسمية سوف تمنع ذلك .. اي سوف تمنعنا ، نحن المثقفين من ايصال انتاجنا الى الناس وسوف تمنع الناس ايضا من محاولة الوصول اليه ...

أ. منصور : حسن ، اعتقد اننا بهذا الشكل يا دكتور ، نكون قد استوفينا الحديث في هذا الموضوع .. وانا ، في النهاية ، اشكرك كثيرا على سعة صدرك ..*

---

* سجل في القاهرة عام ١٩٨٠ ونشر في « السفير » اللبنانية بتاريخ ١٩٨١/٥/٣

محمد سيد أحمد

أ. منصور : ... الاستاذ محمد سيد احمد .. الصحفي والكاتب وعضو الامانة العامة لحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي .. طرحت عليك - قبل ان نبدأ في تسجيل حوارنا هذا - المقولة المتعلقة بالازدواج الثقافي القائم في الوطن العربي بصفة عامة .. وفي مصر بوجه خاص ... وهي المقولة التي تدور حولها الحوارات التي اقوم باجرائها ولكنني قبل ان اسالك ان تدلي برايك في هذا الموضوع ... احب اولا ان اوضح جانبا من الاسباب التي دفعتني لاختيارك لاجراء هذا الحوار . فانت .. اولاً ، تنتمي الى عائلة اقطاعية ذات اصول تركية .. ولكنك - رغم ذلك - قد اخترت ، منذ شبابك المبكر ، الانحياز الى معسكر الجماهير الشعبية ، وقد كان ذلك الاختيار هو نقطة الانطلاق الاساسية في نشاطك السياسي - سريا كان ام علنيا - وفي نشاطك الثقافي ايضاً . كذلك فانت من القلائل الذين يكاد يجمع الكل على اخلاصه لما يؤمن به ، وعلى انتفاء المطامح والتطلعات الشخصية في نشاطه العام ..

وهناك نقطة اخرى احب ان انتهز هذه الفرصة كي اثيرها .. فقد لاحظت ان ردود فعل عدد كبير من المثقفين ازاء هذه المقولة التي تدور عليها هذه الحوارات كانت تتسم بطابع الدفاع عن النفس وكان المقولة تتضمن اتهاما ما لهم ، واحب ان اقرر بامانة ان توجيه الاتهامات .. او توزيعها .. ليس وارداً على الاطلاق في هذا الشان فهذه المقولة لا تزيد عن ان تكون مجرد فرضية تستخدم من اجل استكشاف جانب من واقع الوطن العربي في المرحلة الحالية ومن اجل استكشاف الحلول الضرورية للازمات العديدة التي يعاني منها المثقفون ورجال السياسة في الوطن العربي .. اي ان المسالة ليست اتهاما يدفع .. او تهمة تدرأ .. وانما هي محاولة يساهم فيها كافة المشتركين في هذه الحوارات من اجل التوصل الى حلول مناسبة للازمات التي اشرت اليها ...

واحب الآن ان اسمع رايك في هذه المقولة ..

محمد عباس سيد احمد : ... احب ، اولا ، ان اشير الى ان لهذه القضية بعدان، بعد ذاتي وبعد موضوعي . واعني بالبعد الذاتي ان يكون للمرء بحكم وضعه الطبقي والثقافي ، مشكلة تتعلق بهويته الوطنية ، بمعنى ان يحس المرء ، بصورة أو بأخرى ، انه ينتمي الى اشياء وقعت تحت تأثير عوامل خارجية غريبة عن مصر ... وهنا تطرح مشكلة الازدواج الثقافي نفسها . فانا مثلاً ، تلقيت تعليما اجنبيا في مدارس « الليسيه الفرنسية » كما استطيع القول بان الطبقة التي انتمي اليها تاريخيا كانت طبقة ذات طابع كوزموبوليتاني .. كما كانت ايضاً بعيدة ـ الى حد كبير ـ عن الثقافة الوطنية بمعناها الصحيح هذا بالرغم من ان والدي ـ رغم اصوله الاقطاعية ـ كانت له جوانبه المصرية ... كما كان معجبا بالشعر العربي وبالادب العربي ... اي انه يمكن القول بأنه كان منتمياً ، بشكل ما ، من هذه الوجهة وهذا خلافا لوالدتي التي كان الطابع الأوروبي يسود ثقافتها بشكل اوضح ، وما اريد ان اقوله هو ان هذه المسألة تتميز بالتعقيد ولكنني اريد ان اتجاوز هذا الجانب ....

أ. منصور : ... الواقع ، انني لم اكن اريدك ان تتناول هذه القضية من الناحية الشخصية واذا كنت قد اشرت في بدء الحوار الى بعض الجوانب الشخصية في حياتك فان ذلك قد ورد في مجرى تفسيري لاسباب اختيارك لاجراء هذا الحوار ... وليس من اجل ان تكون هذه الجوانب محلا للمناقشة ...

س. احمد : ... هذا حسن ... واحب ان ابدأ حديثي بالاشارة الى تجربة حديثة وقعت لي في العام الماضي ... ١٩٨٠ ... وهي تجربة اعتقد انها احدثت تأثيراً كبيراً ومؤكداً ، في تفكيري في الوقت الحالي فقد دعيت لحضور ندوة عقدت في لشبونة ـــ عاصمة البرتغال ـ في شهر ابريل العام الماضي وقد ترددت في البداية ، في حضور هذه الندوة ، خشية ان يكون هدفها ان يتمكن العالم الغربي من استكشاف افكار المدعوين من بلدان العالم الثالث ولكنني ادركت ، في نهاية الأمر ان هذه الندوة مفيدة الى حد كبير وقد اشترك في هذه الندوة عدد من صفوة المفكرين من بلدان مختلفة ... فقد كان هناك امريكيون وافارقة ويابانيون وهنود واوروبيون وامريكيون لاتينيون ، وكان موضوع هذه الندوة انه يبدو حتى الآن ان الثقافة الغربية هي العمود الفقري للثقافة العالمية ، ولكن من الملاحظ ان ما يمكن نسبته ، بشكل عام ، الى الثقافة الغربية هو الآن موضع للتحدي ، سواء من داخله او من خارجه وفيما يتعلق بالداخل ، فانه يمكن القول بأن الفكر الماركسي ، عامة ، يمثل نوعا من التحدي للـ ....

أ. منصور : ... ما هو اللفظ بالانكليزية .. يا استاذ محمد ؟...

س. احمد : اعني الـ norms

أ. منصور : ... آه ... انها تعني المعيار او النموذج او النمط ...

م . س . احمد : ... شكرا ... التي تمثل تحديا للانماط او المعايير الغربية كما انه من الواضح ان هناك اليوم تحديات اخرى تأتي من خارج الخط الرئيسي للثقافة الغربية ... وتتمثل ، على سبيل المثال ، في الماركسية الصينية وفي الغاندية وفي الاسلام ...

أ . منصور ... تعني الحركة الإسلامية الحديثة ؟

س. احمد : ... نعم ... الحركة الاسلامية الحديثة .. اي انه بوجه عام هناك تحديات .. وتساؤلات ايضاً ولنأخذ اليابان كمثال ، فقد استطاعت اليابان ان تخترق حاجز التخلف ... وان تصبح دولة متقدمة جداً .. رغم انتمائها الى العالم الشرقي فاليابان تنتمي الى العالم الغربي تكنولوجيا ولكنها لا تنتمي اليه ثقافيا ولكنها استطاعت ان تجتاز الحواجز المعوقة للتقدم ، العصري ، دون ان تكون مجتمعا غربياً ، اي مجتمعا عايش تجربة النهضة الاوروبية والتي هي اساس التقدم الغربي المعاصر ... والتي انتجت الحركة الليبرالية الغربية .. بل وحتى الفكر الماركسي . والسؤال هو انه هناك ـ في العقدين الباقيين من القرن العشرين ـ مواجهات جعلت العالم يشعر ان هناك ثورات يمكن ان تنفجر في العالم الثالث وان هذه الثورات تنطلق من مقدمات ثقافية وفكرية تختلف كثيرا عما كان يتوقعه العالم المتقدم سواء كان غربيا ام اشتراكيا ... وان هذه التحديات ـ التي تصحب تخلص العالم الثالث من التبعية الاستعمارية السابقة ـ تطرح نفسها بصور مختلفة ، ولا شك انه في العقدين القادمين ، سوف تتكشف مرحلة حرجة في تاريخ البشرية ... وانه سوف تحدث تغيرات وتقلبات وانتفاضات في العالم لا تقل خطورة عن نتائج الحربين العالميتين السابقتين ... حتى مع افتراض عدم اندلاع حرب عالمية ثالثة ... ولذلك فقد آن الاوان ان نتوقف قليلا كي نتأمل ما يجري في العالم اليوم وقد كانت هذه احدى النقاط التي تناولتها الندوة الدولية بالبحث والمناقشة والتي شدت اهتمامي بوجه خاص ذلك انني تعودت شخصياً ، وبحكم ثقافتي ، ان اكون الى حد ما europo-centrist ... اعني ان بعدي الثقافي ، على الأقل ، كان بعدا يقتصر اساسا .. او يأخذ نقطة انطلاقه مما حدث بعد النهضة الاوروبية بوصفها نقطة بداية اي ان المقياس الذي كنت اعود اليه .. كان هو النهضة الاوروبية وحتى اذا كان هناك في ثقافتي تحليلات لما سبق النهضة الاوروبية فقد كان منطلقها الافكار التي نتجت عن النهضة الاوروبية وما بعدها ، وحين انظر الى الولايات المتحدة او الى الاتحاد السوفييتي وهما القطبين الاساسيين في عالم اليوم ـ فانني انظر اليهما ايضا انطلاقا من موقع اوروبا وباعتبارهما امتدادا لصراعات جرت على ارض اوروبية ..

أ. منصور : .. الواقع انك لا تنفرد بذلك ، فان تلك سمة تميز المثقفين العرب بوجه عام ... واليساريين منهم بوجه خاص .. وان كان ذلك بدرجات متفاوتة ويعود ذلك في

جزء منه ، الى نظم التعليم السائدة والتي تهدف الى محاولة انتاج مواطن اوروبي ... او شبه اوروبي على الاقل ....

س. احمد : ... قد يكون ذلك صحيحا ... ولكن ما اريد ان اقوله هو ان ذلك كان افتراضي الاساسي ونحن لو عمقنا هذه المسألة .. ونظرنا الى عالمنا العربي .. فسوف نجد ان فكرة القومية العربية .. وقت ان بدأت الأمة العربية تتشكل ككيان يعي ذاته .. قد طرحت .. او انه كانت هناك فكرتان : القومية الاسلامية والقومية العربية . ولا شك ان تجارب الـ nation-States (أي الدول التي ترتكز على قومية واحدة) وتشكلها في اوروبا ... ونلاحظ ان ثورة التفكير في القومية العربية كانت في المشرق العربي .. وفي المنطقة التي تضم سوريا وفلسطين ولبنان .. الخ .. فهذه المنطقة تتميز بوجود خليط معقد من التجمعات البشرية .. ذات الأصول العرقية المتعددة المختلفة . ولذلك فقد كان هناك تخوف من ان يترتب على تطبيق فكرة القومية الاسلامية نوع من الطغيان .. اي طغيان العنصر الاسلامي على الاقليات الدينية العديدة الأخرى . وليس من قبيل الصدفة ايضا ان الكثيرين ممن نادوا بفكرة القومية العربية كانوا يطبعونها بطابع الفكر العلماني ..مسترشدين في ذلك بتجربة القومية العلمانية كما نشأت في اوروبا . اي انه يمكن القول ان الفكرتين الاساسيتين اللتين طرحتا في الوطن العربي .. كانتا كأنهما تنتميان الى الأفكار المسلم بها حتى وقت متأخر ، سواء الفكرة القومية او الفكرة الاجتماعية ...فالفكرة القومية قد استرشدت بالفكرة الأوروبية القومية كما ان الفكرة الاجتماعية ـ او الطبقية ـ قد استرشدت بالفكرة الاشتراكية الاوروبية . ولكنه ، في نهاية الأمر ، فان الاثنين كان مرجعهما اوروبا ... التي كانت بمثابة العمود الفقري الأساسي ...

أ. منصور : .. اني اتفق معك ، على وجه الاجمال ، فيما تقول ولكنني اريد ان ....

س. احمد : ولكن هناك تساؤلا بدأ يطرح نفسه الآن .. وفي اطار يجري حاليا في الوطن العربي . فقد بدأنا نتساءل : هل قصر تحليلنا لهذه الأمور على هذه الأبعاد يكفي كي ندرك التطورات الخطيرة التي تجري الآن .. والتي من المحتم ان يكون لها شأن اعظم في المستقبل ؟.. اعني ان التقلبات العنيفة التي نشهدها الآن بين هاتين الفكرتين .. اي بين المنطلق الاشتراكي والمنطلق القومي ـ واللعبة تجري بين هذين القطبين فقط ـ ... وكل ما تعلمنا ان ننظر اليه بوصفه فيما ثابتة يتعرض الآن للتغيير .. وللتغيير السريع . اي ان ما كان يبدو من الثوابت تكشف التجارب ـ وخاصة التجربة المصرية في السنوات الاخيرة ـ انه من المتغيرات ، فمن الثوابت التي اتضح انها من المتغيرات مسألة هل توجهنا اشتراكي ام رأسمالي ؟. ومسألة **هل توجهنا غربي ام عربي ؟ .. ومسألة هل اسرائيل عدو ام هي ثورة حضارية (!) كما توصف لنا الآن ... هذه هي القضايا التي تطرح نفسها في عنف في الوقت الحالي ...**

ا. منصور : ... معذرة ، يا استاذ محمد ...

س. احمد : ... دعني انتهي من هذه النقطة اولا ...

ا. منصور : ... تفضل ...

س. احمد : ... اريد ان أقول ان ما تعلمنا ان ننظر اليه في المرحلة الناصرية على انه من الثوابت ، يبدو الآن انه من المتغيرات . اي انه يجري الآن البحث عن ثوابت اخرى .. وفي ايقاع اسرع من الايقاع التاريخي ....

ا. منصور : ... واين يجري البحث عن هذه الثوابت الجديدة ؟

س. احمد : ... ما اريد ان اقوله .. هو ان ما كان يبدو من المسلمات حتى عهد قريب يتعرض الآن للشك والامتحان .. وان الناس تبحث الآن عن هويتها المهزوزة وفق قيم استقرت حديثاً .. الناس تبحث الآن عن قيم اكثر اصالة ... واكثر قدما .. او اوثق ارتباطا بالتراث .

هذه نقطة . اما النقطة الأخرى التي اعتقد ان لها اهمية كبيرة فيما يتعلق بما يجري الآن ، فهي ان العالم العربي يعاني من نوع من الازدواجية .. التي قد تكون لها نتائج هامة ..

ا. منصور : ... وما هي هذه الازدواجية ؟..

س. احمد : .... سوف اشرحها لك .. فقد شاءت الاقدار ان يكون ذلك الجزء من الوطن العربي الذي سبق باقي الأجزاء من حيث التقدم التاريخي والاجتماعي والحضاري .. لم يكن هو الجزء الاكثر تقدما من الناحية الجيولوجية .. اعني البترولية . واليوم ، وبالنظر إلى الثروة البترولية التي تحكمها اعتبارات خارجية عديدة ـ مثل ازمة الطاقة والاحتياج الى البترول ... الخ ـ فقد اصبح في الوطن العربي قطبان : قطب حضاري تاريخي ، وقطب آخر بترولي ومالي . وما كان ، في الماضي ، محوراً ومحيطاً ، اصبح الآن محوران ، وبعد ان كان هناك قلب ومحيط ، اصبح هناك الآن قلبان ... اي ان المحيط قد اصبح قلبا ... قلبا ماليا .. او مركزا ماليا .. مركز جذب . واصبح الآن هناك تفاعلات في العالم العربي . ذلك ان هذا القطب المالي ـ وهو مالي ريعي ... اي انه ليس ناتج عمل ... وتاريخ ... وتقدم ... وتراث بقدر ما هو نتاج ظروف دولية ... ووضع جغرافي معين ـ .. ما اريد ان اقوله هو ان هناك مقابلة بين الثورة العربية والثروة العربية ...

ا. منصور : .. اليس ذلك ـ مثل الثوابت والمتغيرات ـ هو احد تعبيرات الاستاذ حسنين هيكل ؟..

س. احمد : .. نعم .. هذا صحيح .. فهناك تساؤل عما اذا كان من الممكن ان تحل الثروة العربية محل الثورة العربية كعنصر قوة في الوطن العربي . وانا اعتقد ان الثروة العربية بطابعها الريعي يمكن ان تكون احد عناصر افساد الثورة العربية وليس احد عناصر قوتها. كذلك فان الثورة العربية كانت تطرح الانتفاضة العربية العصرية ... او القوة العربية

العصرية في مواجهة مع الامبريالية العالمية . في حين ان الثروة العربية تقوم بطرح القوة العربية بوصفها شريكا للامبريالية الغربية ، وفي توافق معها . فقد اصبح الغرب ـ في نظر الاثرياء البتروليين العرب ـ شريكا وندا ومشتريا للبترول ، قبل ان يكون عدوا امبرياليا ، والاختلافات بينهما تدور حول شروط الصفقة .. وليس حول الصفقة ذاتها . اي ان التناقض بينهما ليس تناقضا اساسيا . وبناء على ذلك ، فان الثروة والثورة هما شيئان مختلفان ....

أ. منصور : .. اليس ذلك بعيدا بعض الشيء عن موضوعنا ؟

س. احمد : ... لا .. ليس بعيداً . ذلك ان له ابعادا ثقافية ذات اهمية بالغة ...

أ. منصور : ... ان موضوع حوارنا هو اثار الازدواج الثقافي على النشاط السياسي في الوطن العربي ..

س. احمد : ... انتظر لحظة .. انا ما اريد ان اقوله هو ان مصر لم تكن ثورة لحركة القومية العربية .. بل انها انضمت الى هذه الحركة في وقت متأخر ...

أ. منصور : ... وما هو ، في رأيك ، السبب في ذلك ... ربما كان لذلك اتصالا ما بموضوعنا ...

س. احمد : ... اريد ان اقول ان بلورة المنطقة ككيان يتجاوز كياناتها الاقليمية المحدودة .. والى اي تاريخ يعود ذلك .. هذه قضية كبيرة تثور حولها خلافات عديدة ...

أ. منصور : ... اسمح لي ، ان اوضح سؤالي بعض الشيء .. فمصر كانت تشكل ، طوال تاريخها المعروف تقريباً ، وحدة سياسية واقتصادية وثقافية واحدة مع فلسطين وسوريا ولبنان . وكان قيام هذه الوحدة توجبه ضروريات عسكرية احياناً .. وسياسية واقتصادية احيانا اخرى . وهذه حقيقة ثابتة لا سبيل لانكارها .. ولا يستلزم ادراكها اكثر من مجرد مراجعة سريعة لتاريخ المنطقة . والسؤال الذي اريدك ان تجيب عليه هو : الم يكن تخلف مصر عن ركب حركة القومية العربية يرجع ، في جزء منه على الاقل ، الى حقيقة ان قادة حركة التحرر الوطني المصرية الحديثة كانوا جميعا ممن تميز موقفهم بالانسحاق امام الثقافة الغربية .. وهو الانسحاق الذي منعهم من رؤية هذه الحقيقة التاريخية الواضحة .. تماما كما هذا الانسحاق نفسه جعل مؤرخا مثل الجبرتي يصاب بالذهول من رؤية البارود ... والذي استخدم على نطاق واسع في معركة مرج دابق .. اي قبل نحو ٣٠٠ عام ؟...

س. احمد : ... ان ما تقوله صحيح من الناحية التاريخية . ولكن مصر ، بحكم وقعها الجيوبولوتيكي .. وكذلك بحكم ظروف خاصة بها .. اعني أن مصر تميزت بسبب وجود حوض

نهر النيل ... وبحكم المجتمع الهيدروليكي . والدولة المركزة ـ تميزت مصر بخصائص معينة اكسبتها نوعا من الاستقلالية الجزئية عن المحيط الواسع الذي توجد به في ظروف معينة .، والسبب الثاني ...

أ. منصور : ... مع تسليمي بصحة ما تقول ، فإن ذلك ، في الواقع ، لا يجيب على سؤالي ... اذ يبقى السؤال : لماذا لم يطرح شعار القومية العربية ـ من جانب اي من القوى السياسية القائمة ـ الا في هذا الوقت المتاخر ؟... ولنضع السؤال بشكل آخر ونقول : لماذا لم تدفع الحركة الاشتراكية في مصر ـ والتي يفترض انها اكثر وعيا بالتاريخ من الحركات السياسية الأخرى ـ شعار القومية العربية الا في النصف الثاني من حقبة الستينات ؟...

س. احمد : ... أنا أتصور انه ابتداءا من الحملة الفرنسية اصبح لمصر نوع من الشخصية المزدوجة فيما يتعلق بهذه النقطة . فقد كان هناك الشخصية الموروثة التي تنتمي الى تاريخ مصر العام ـ الذي تتحدث عنه ـ الى جانب عملية تتميز بأنها «super- Imposed» ... اي اتت فوقها (اي فوق هذه الشخصية الموروثة ـ أ.م.) وهي تتلخص في انها علاقة ما لمصر كقلب في هذه المنطقة في تعامله مع قطب اخر عبر البحر الابيض المتوسط ، وقد اخذ هذا التعامل شكل تصادم مع الحملة الفرنسية .

أ. منصور : اسمح لي ان اختلف معك في ذلك ، يا استاذ محمد .. فيما يتعلق بالتصادم مع الحملة الفرنسية . فالسؤال هو : من الذي قام بهذا التصادم ؟ ان قراءة اي من كتابي الجبرتي الذين وضعهما عن الحملة الفرنسية ـ اي عجائب الآثار , و « مظهر التقديس » ، وخاصة الأخير الذي كتبه الجبرتي خصيصاً لقائد الحملة العثمانية ـ كاف للرد على هذا السؤال . فمن الواضح ـ من قرآءة اي من هذين الكتابين ـ ان المثقفين المصريين ـ كالعادة ـ كانوا يميلون كثيرا لقبول الوضع القائم .. وللقيام بدورهم التقليدي الذي لعبوه في فترة الاحتلال الاغريقي وفترتي سلاطين المماليك والاحتلال العثماني .. اي دور الادارة التنفيذية المدنية للحكم العسكري الاجنبي ... وتبني ثقافة الحاكم المحتل بشكل يكاد يكون كاملا .. وما اريد أن اقوله هو انه من الضروري ، حين نتحدث عن تصادم ، ان نوضح من قام به .. اي ما هي الفئات او الطبقات التي قامت به .. وكتابا الجبرتي يقرران بوضوح ان المثقفين المصريين كانوا يخشون الثورة الجماهيرية المسلحة ضد الحكم الاجنبي خشية الموت نفسه ... وقد كانت إحدى الركائز الاساسية لسياسة نابليون في مصر الفوز بتاييد فئة المثقفين المصريين .. وقد نجح في تحقيق ذلك الى حد بعيد ..

س. احمد : ... ان ما كنت أعنيه هو انه كان هناك ثمة احتكاك وتصادم مباشر .. على اية حال فأنا أفضل أن توجه إلي اسئلة محددة حول الموضوعات التي تريد طرحها ...

أ. منصور : انا تحت امرك .. ولنبدأ ، مثلا ، بهذا السؤال وهو : هل لاحظت قبل الآن ، وجود ظاهرة الازدواج الثقافي في مصر ؟...

س. احمد : ... نعم ، لقد لاحظت هذه الظاهرة من قبل .. وقد لاحظت ايضا انها ظاهرة متعددة الوجوه .. كذلك فان منابع هذه الظاهرة واسبابها مختلفة ومتعددة . فهي ظاهرة معقدة ، وليست بسيطة . فأنت ، في حديثك معي قبل بدء هذا الحوار، قد أشرت الى أن هذه الازدواجية توجد في المجتمعات المختلفة بدرجات متفاوتة .. ولذلك فان مصر تمثل حالة خاصة . وأنا أتفق معك في أن مصر تمثل حالة خاصة . فمصر لديها اسباب Compounding the Issue (اي تزيد القضية تعقيداً ـ أ.م.) ... وتحديد عناصر هذه الازدواجية العديدة ليست بالأمر السهل . وانا اريد ان احدد ، ابتداء ، بعض نماذج هذه المشكلة ...

أ. منصور : ... الواقع ، ان موضوع حوارنا ـ كما سبق لي ان اشرت ـ هو اثر هذه الازدواجية على الحياة السياسية في مصر ...

س. احمد : ... سوف نتحدث عن ذلك بالقطع .. ولكنني اريد أن أقول .. أن تجد مصر ـ على سبيل المثال ـ في تاريخها ما يبرر الوطنية المصرية بمعزل عن القومية العربية الأوسع نطاقا .. فانك سوف تجد الكثير مما يبرر ذلك . ومن هنا فإن ضرورة حسم مسألة انتماء مصر الى بيئة عربية أوسع .. ليست بالأمر السهل كما هو الحال في البلدان العربية الأخرى . فهذه مشكلة اسبابها متعددة ..

أ. منصور : ... اسمح لي ان اضع تحفظا على المقولة التي اوردتها الآن .. هذا التحفظ هو اننا يجب ان نضع في اعتبارنا عند النظر اليها انها لا تتعلق الا بال ١٣٪ من مواطنينا الذين يعرفون القراءة والكتابة .. والذين يمكن القول انهم يسيطرون على الحياة السياسية في بلادنا .. وانا اعتقد ان ما تقول ينطبق فقط على هؤلاء ...

س. احمد : ... ليس هذا صحيحا ...

أ. منصور : .. طيب .. اتسمح لي ، اذن ، ان اوضح الامر شيئا ما ... فقد نشرت جريدة الاهرام ، التي تعمل بها ، خبرا في الاسبوع الماضي (اواخر شهر فبراير شباط ١٩٨١ ـ م.م) مؤداه ان نسبة الامية في مصر قد بلغت حوالي ٨٧٪ من تعداد السكان . والترجمة العملية لهذا الخبر وللرقم الذي يحويه هو ان ١٣٪ من تعداد السكان يتم تشكيلهم ، منذ طفولتهم ، وفق قيم ، وانماط سلوك ومثاليات تختلف تماما ، وبشكل

جذري، عن ثقافة وقيم وانماط سلوك ومثاليات نسبة الـ ٨٧٪ الباقية من تعداد السكان...

س. احمد : ... لا... لا... لا.. ليس هذا صحيحا ...

ا. منصور : ... لماذا ؟...

س. احمد : ... لأن معرفة القراءة والكتابة اليوم ليست هي الوسيلة الوحيدة لاجتناء الثقافة ...

ا. منصور : .. هذا صحيح ...

س. احمد : ... وهناك وسائل أخرى لاجتناء الثقافة مثل الاذاعة والتلفزيون ...

ا. منصور : ... وهناك ايضاً افتقاد ، يكاد يكون كاملا ، للثقة من جانب الجماهير تجاه اجهزة الاعلام هذه ..

س. احمد : ... على أية حال فان تلك قضايا تكنيكية جزئية .. وأنا أريد أن أتناول القضية الاكثر شمولا ...

ا. منصور : ... هذا عظيم .. ولكن ماذا بالنسبة للاجابة على سؤالي ؟...

س. احمد : ... وخذ علاقة مصر ، على سبيل المثال ، بالأمة العربية المحيطة . فمصر ، تقليديا ، تنظر الى نفسها... كما ينظر اليها بقية العالم العربي كقلبه .. وذلك لأسباب متعددة . أما الآن ، فان مصر لم تعد هي وحدها القلب . فهناك قطب آخر له وزنه . فلم يحدث طوال تاريخ مصر الحديث ، ان حدثت مثل هذه الهجرة ، من جانب المصريين الى البلدان العربية الأخرى ، كما تحدث الآن ...

ا. منصور : ... معذرة ، ولكن ما تقول يخرج عن موضوعنا تماما . ولذلك فانا ارجوك ان تجيب على هذا السؤال ...

س . احمد :.... لماذا تصر على توجيه الأسئلة ؟...

منصور : ... لأنها قد تكون افضل الطرق لتجنيب خروج حوارنا عن الموضوع .. وابدأ بان اسالك : هل تؤمن بوجود ازدواج ثقافي في مصر ؟ ...

س. احمد : نعم .. هناك إزدواج ثقافي في مصر ..

ا. منصور : .. اذن .. ما هي آثار هذا الازدواج على الحياة السياسية او ممارساتها في مصر ؟...

س. احمد : .. انك لا تستطيع ان تتحدث عن هذه الآثار قبل أن نقوم بتشخيص هذا الازدواج ...

ا. منصور : . انا اوافقك .. اذن .. ما هو تشخيصك لهذا الازدواج ؟..

س. احمد : .. ان لهذا الموضوع جوانب متعددة ..

ا. منصور : معذرة .. فقد يبدو وكانني اضع ظهرك الى الحائط .. ولكني اؤكد لك

ان هذا ليس مقصوداً او متعمداً ..

س. احمد : .. لا عليك .. كنت اقول ان لهذا الموضوع جوانب متعددة . وهو ، ايضاً ، ليس بالموضوع البسيط . وانا اريد ان اطرح بعض ابعاد هذا الازدواج ...

أ. منصور : ولكن .. اليس من الأفضل ـ كما تفضلت انت نفسك القول ـ ان نقوم بتشخيص هذه الظاهرة اولاً ؟...

س. احمد : .. لا بأس ، ان النقطة الأولى هي خصوصية مصر .. خصوصية مصر في قلب المنطقة العربية . فتاريخ مصر الحديث يعلمنا ان انتماء مصر لم يكن قاصرا على المنطقة العربية فقط .. فقد كانت مصر قلبا او محورا من محاور المنطقة .. وهو محور كانت له صلة بالعالم الغربي الاوروبي . اي انه كان هناك ، « في فترات معينة مختلفة من تاريخ مصر ، انجذابا ما الى العالم الغربي . ولقد كانت فترة حكم محمد علي تتميز اساسا بأنها فترة اكدت مصر فيها تشخيصي ازاء الغرب ... واستندت فيها الى وجود تواجد مصري في المنطقة العربية لمواجهة الغرب .. وقد هزمت مصر في هذه المعركة ...

س. احمد : ... الواقع انه في عصر الخديوي اسماعيل ، حدث نوع من الاستسلام امام اوروبا ، ورفع شعار « مصر قطعة من اوروبا » .

أ. منصور : ولكن هل تعتقد ، ان ما حدث ايام الخديوي اسماعيل لم يكن محصلة تراكمات سابقة ؟.. اي هل تعتقد انه حدث هكذا فجاة وبدون اية مقدمات ؟.. ذلك انك ـ بوصفك ماركسيا ـ لا بد تؤمن بالقاعدة الجدلية المشهورة بان التغير الكيفي يحدث بشكل مفاجيءنتيجة تراكمات كمية سابقة عليه ... اليس كذلك ؟...

س. احمد : نعم .. ولذلك فقد ارجعت الأمر ـ فيما سبق ـ الى فترة الحملة الفرنسية .. والى هذه الاحتكاك المباشر الذي حدث في هذه الفترة . وقد كان هناك ـ بعد ذلك ـ حوار متواصل بين مصر وبين العالم الغربي عبر البحر الابيض المتوسط ....

أ. منصور : الحقيقة انه من الصعب ان يصف المرء العلاقة بين المثقفين المصريين وبين الثقافة الاوروبية بانها كانت حواراً . وفي رايي ، ان ما حدث هو مواجهة بينهما ، كانت نتيجتها انسحاق المثقفين المصريين تماما امام الثقافة الاوروبية . وقد كان هذا الانسحاق تكرارا لمواقف سابقة وللمثقفين المصريين ازاء الغزو الاغريقي ... وازاء حكم سلاطين المماليك ... وازاء الاحتلال العثماني ايضاً ...

س. احمد : ... الحقيقة انني لا استطيع تقبل هذه المقولة بهذه البساطة ذلك ان المشكلة ان الانتماء الى التراث الوطني والتاريخي لا يعني لفظ او نبذ كل ما تستطيع اقتباسه من

الغير .. وجعله متكيفاً مع ظروفك اي انه ليس من المحتم ان يكون كل اقتباس على حساب الازدهار الثقافي الوطني ...

أ. منصور : هذا امر يكاد ان يكون بديهيا ، ونحن هنا لا نتكلم عن الاقتباس ، وانما نحن نتحدث عن الانسحاق وهما امران مختلفان تمام الاختلاف .. بل على العكس فان الاقتباس كثيراً ما يكون مطلوباً وضرورياً ... اذ ان التفاعل بين الثقافة القومية والثقافات الأخرى امر ضروري كي تحتفظ الثقافة القومية بحيويتها وديناميكيتها ...

س. احمد : نعم هذا صحيح . والمشكلة الاساسية هي من اي موقع تتعامل .. ومن اي موقع تقتبس . ولقد عاشت مصر فترات كانت تنطلق فيها من موقع قوة وهي تتعامل مع الغرب ... كما عاشت فترات اخرى كانت تنطلق فيها من موقع الضعف والاستسلام ...

أ. منصور : ولكن السمة العامة هي الاستسلام والانسحاق بلا ادنى شك .. هل توافقني على ذلك ؟...

س. احمد : انا لا استطيع ان اصل الى هذا الحد ...

أ. منصور : اذن فلتسمح لي ان اثبت لك ذلك بالدليل التاريخي ...

س. احمد : انا لا استطيع ان ابت في هذا الموضوع بمثل هذا الحسم .. بل ولا اريد ذلك .. وعلى اية حال ، فهذا رأيك أنت .. وليس رأيي أنا ...

أ. منصور : اذن ... لماذا الحوار ، يا استاذ محمد ؟... انا لا اطلب منك ان توافقني على ما اقول .. ولكنني اطلب منك ان تقتنع به .. والعكس بالعكس ...

س. احمد : ... طيب .. إنما أريد أن أقوله هو ان « محمد علي » حاول أن يبني قاعدة لمصر .. في نفس الوقت الذي كان فيه يقتبس كثيراً من الغرب .. اعني أنه كان يحاول بناء قاعدة لقوة مصر .. ولكن النتيجة كانت أنه سحق . ولكنه كانت هناك فترة جرت فيها ، بلا أدنى شك ، محاولة لبناء قاعدة مستقلة لقوة مصر ...

أ. منصور : ... ولكننا نتحدث هنا ، يا استاذ محمد ، عن المثقفين . اي اولئك الذين يشكلون خلفية كل القرارات والاتجاهات السياسية ...

س. احمد : ... ثم تبعث ذلك فترة انسحاق استمرت حتى اندلاع الثورة العرابية .. ثم اعقبتها بعد هزيمة هذه الثورة ، فترة من الانسحاق الكامل .. ثم حدثت الهبة المصرية عام ١٩١٩ ، والتي استرشدت كثيرا ايضا .. وطرحت الوطنية المصرية بمعزل عن المنطقة المجاورة ... واقتبست الكثير من أنظمة العالم الغربي ...

أ. منصور : ... دعني اسالك بشكل مباشر : كيف تعلل افتقاد حركة التحرر الوطني المصرية لجانب هام ورئيسي من جوانب حركات التحرر الوطني وهو البحث عن

الشخصية القومية وتاكيدها ؟...

س. احمد : ... أي شخصية قومية ؟.. هل تقصد القومية العربية ؟...

ا. منصور : ... اعني الشخصية القومية المصرية التي هي جزء من الشخصية القومية العربية ..

س. احمد : .. ولكن هناك قضيتان مختلفتان .. فهناك القومية المصرية ..

ا. منصور : .. وهي التي كانت مطروحة آنذاك .. والسؤال هو : لماذا افتقدت حركة التحرر الوطني المصرية جانبا هاما واساسيا في كل حركات التحرر الوطني وهو البحث عن الشخصية القومية وتاكيدها .. ؟..

س. احمد : ... أي شخصية قومية ؟.. هل تقصد القومية العربية ؟

ا. منصور : ... وهي التي كانت مطروحة آنذاك.. والسؤال هو : لماذا افتقدت حركة التحرر الوطني المصرية جانبا هاما واساسيا في كل حركات التحرر الوطني ، وهو جانب البحث عن الشخصية القومية وتاكيدها ؟ فنحن نجد ان قادة حركة التحرر الوطني المصرية الحديثة - وخاصة قادة ثورة ١٩١٩ - على اختلاف مواقفهم واتجاهاتهم ، كانوا ينطلقون من الاطار الثقافي الاوروبي ... وكانت تجمعهم جميعا سمة واحدة وهي رفض تراثهم السلفي والقومي بدعوى تخلفه وعدم جدواه . بل إننا نجد مثقفا مصريا كبيرا ارتبط باحد اجنحة هذه الحركة - وهو الدكتور طه حسين - يعلن صراحة وبوضوح كامل ان مصر تنتمي الى حوض البحر الأبيض المتوسط واستطيع ، اذا شئت ان اضرب لك من الامثلة ما لا حصر له ...

س. احمد : ... الواقع انك تطرح هذه القضية وكأن مصر تمثل استثناء من قاعدة والحقيقة ان مصر لم تكن البلد الوحيد الذي حدث فيه مثل ذلك . فقد كانت هذه الفترة تتميز بتملك الغرب لقوة ساحقة يواجه بها العالم المستعمر .. الذي لم يكن قد استقل بعد .. واستعاد ثقته بنفسه .. بحيث يستطيع أن يتعامل مع الغرب ، فيما يتعلق بالناحية الثقافية ، معاملة الند للند ...

ا. منصور : ... اذن فلنقارن بين حركة التحرر الوطني المصرية وبين حركة التحرر الوطني الهندية على سبيل المثال . فعلى الرغم من اعتراف غاندي بانه تعلم الكثير من ثورة ١٩١٩ المصرية ، فانه يبدو ان غاندي لم يتعلم كل شيء من هذه الثورة . ذلك ان غاندي ، وهو يقود حركة التحرر الوطني الهندية ، كان يحمل مغزلا يدويا في يمينه .. - رمزاً لانتمائه القومي - ويرتدي الثياب القومية الهندية .. ويتحدث باللغة الهندوكية . بينما كان سعد زغلول وهو يطالب لمصر بالاستقلال - في اخلاص وكفاءة لا شك فيهما -

يرتدي الزي الاوروبي .. ويتحدث بمنطق اوروبي .. بل انه يقال ان اللغة الفرنسية كانت هي اللغة التي يغلب استخدامها في بيته ...

س . احمد : .. ولكن الهند هي من اكثر دول العالم الثالث اقتباسا من الثقافة الغربية ..

أ. منصور : .. لقد كان هناك تياران واضحان في حركة التحرر الوطني الهندية : تيار يدفع لواء الشخصية القومية .. وتيار آخر يدفع لواء الثقافة الاوروبية .. وكان هذان التياران موجودان معا وفي نفس الوقت ، داخل هذه الحركة . اما حركة التحرر الوطني المصرية فقد كانت تفتقد ذلك تماما ...

س. احمد : ... ولكنك لا يمكن أن تقول ذلك بشكل مطلق ... وما أريد أن اقوله هو أن الازدواجية كانت موجودة في الحالتين ، ولكن بتغييرات مختلفة ..

أ. منصور : .. ليس ذلك هو ما اعنيه ..

س. احمد : ... وعلى أية حال فان فكرة عدم اتخاذ الغرب محوراً ومقياساً ، هي فكرة حديثة جداً نسبياً . كما انك لا تستطيع أن تحمل قادة النهضة المصرية مسؤولية قصورهم في هذا الجانب بأكثر مما يحتمل الوضع .. وبالمقارنة ببلدان عديدة أخرى ...

أ. منصور : .. انا لا اتهم احداً .. ولا احمل احداً مسؤولية شيء .. وانما انا اقوم فقط بمحاولة توصيف الوضع ..

س. احمد : ... عظيم . فأنا أريد أن أضع الأمور في موضعها التاريخي ولنأخذ ، مثلا ، التجارب المختلفة .. ولنأخذ الغرب باعتباره فكرا ليبراليا راسماليا وماركسيا معا .. اي لنأخذ المعسكرين الغربي والاشتراكي معاً ..

أ. منصور : .. ان الاثنين ، في الحقيقة ، يمثلان اجزاء مختلفة من كل واحد هو الثقافة الغربية ...

س. احمد : ... ولننظر .. فالهند ، مثلا ، والتي تأخذها أنت كنموذج ...

أ. منصور : .. لا .. ليس نموذجا .. بل مثلا فقط

س. احمد : نعم ، كمثل .. فالهند مثلا من أكثر المستعمرات السابقة اقتباسا للنظم والأساليب الاوروبية . ولنأخذ الصين أيضاً .. والتي ما زالت تبحث عن شخصيتها الى يومنا هذا .. وتتعرض لمشاكل عديدة من جراء ذلك ..

أ. منصور : ... انا لا استطيع ان اتحدث عن الصين .. وربما الهند ايضاً . وكل ما كنت اريد أن اشير اليه هو ان حركة التحرر الوطني الهندية كان بها تيار محدد يدفع لواء الشخصية والثقافة القومية .. في الوقت الذي افتقدت فيه حركة التحرر الوطني المصرية وجود تيار مماثل .. كما انني لم اقل انه ليس في الهند ازدواج ثقافي .. بل غالب ظني انها

تعاني من ازدواج ثقافي . ولكنني ـ بسبب نقص معلوماتي فيما يتعلق بذلك ـ لا استطيع توصيفه او تحديد اصوله ومنابعه ...

س. احمد : ... إن ما أريد قوله هو أن أزمة إدراك قضية الازدواج الثقافي هي أزمة ما زال يعيشها العالم غير الغربي حتى الآن ...

أ. منصور : .. هذا صحيح الى حد ما ...

س. احمد : ... وبالمناسبة فقد عدت مؤخراً من زيارة الى اليابان . ومن اكثر الاشياء التي أذهلتني هناك هو وجود هذه الازدواجية بشكل حاد هناك .. ويبدو أن اليابان قد تم سحقها بعد الحرب العالمية الثانية .. واوشكت أن تصبح أشبه بمستعمرة امريكية .. واليابان ، رغم انها تنافس الولايات المتحدة في مجالات معينة مختلفة ، فانها تفعل ذلك في إطار النظام الغربي الاقتصادي . ومع ذلك فإن هناك قضية أزمة ثقافية في اليابان . وقد قلت لاصدقائي اليابانيين انه يبدو لي أنه ، منذ قنبلتي هيروشيما ونغازاكي ، واليابانيون بشكل عام يعانون من عقدة نقص إزاء أمريكا ، بحيث أنهم حتى حين يقاومونها ... فانهم يفعلون ذلك وهم يعتذرون .. وكأنهم ارتكبوا عملا لا يليق . فانهم يقولون مثلا : ماذا نستطيع أن نفعل ، اذا كانت قوانين السوق ، تجعلنا نتفوق في بيع سياراتنا الـ « تويوتا » في السوق الامريكي ... بينما يعجز الأمريكيون عن بيع سياراتهم في اليابان ؟.. أي أنهم ينسبون مناهضاتهم لامريكا الى قانون موضوعي اعتذارا عنها ومع ذلك فهناك قوة يابانية لا ترتبط بالانماط الغربية .وما اريد أن أقوله هو أن مواجهة الدول لا تنتمي للغرب للقرن العشرين ولعالمه يتم بصور مختلفة وبالتدريج . ذلك أنه بعد أن فرغت هذه الدول من حل قضية تحررها المادي .. بقيت أمامها قضية التحرر الروحي .. أي العثور على اجابة لسؤال من نحن ؟. وهذه القضية لا تزال تتلمس طريقها بعد ، ولا يمكنك القول بأن بلورة هذا الموضوع بلغ نهايته وسوف اضرب لك مثلا . ففي عام ١٩٦٥ جاء شو إن لاي الى مصر في طريقه الى الجزائر لحضور المؤتمر الافريقي ـ الآسيوي ، والذي لم يتم انعقاده بسبب إعتقال بن بيللا .. فأقام « شو إن لاي » بعض الوقت في مصر . وقد قال « شو إن لاي » شيئا بدا لي غريبا آنذاك أن يصدر عن ماركسي . فقد قال في خطبة له في حضور الرئيس الراحل جمال عبد الناصر : « اننا ـ أي مصر والصين ـ نمثل أعرق الحضارات في العالم .. وأمامنا مستقبل مشرق . واذا كان الغرب قد أمسك بزمام المبادرة طول القرون القليلة الماضية .. فإن ذلك لا يعني ان هذا الوضع ابدي ولن يتغير .. أو أننا سوف نظل دائما خاضعين لأسبقية الغرب هذه . وقد بدا لي أنه من الغريب أن يصدر مثل هذا الكلام عن سياسي ماركسي . ولكن ما قاله كان يعبر ، في الحقيقة ، عن شيء أكثر عمقا من الفكر الماركسي . فقد كان يعبر عن الانتماء الى شيء ما ، وعن الايمان بأن

أوروبا اذا كانت قد أحرزت كسب السبق في الفترة الماضية ، والتي فرضت فيها هيمنتها على معظم بقاع العالم ، فإن ذلك لا يعني محق أو سحق المصادر الحضارية والثقافة الأخرى . وانه لا بد ان ينطلق عالم الغد من الاعتراف بهذه الحقيقة . اذن فهذه القضية لا تزال In The Making (لم يكتمل تشكلها وتخلقها بعد م.م) . ولذا فإننا لا نستطيع ان نأخذ على مصر انها لم تكتشف ذلك بهذه الدرجة من الوضوح . فمن الطبيعي أن تكون مهمة المراحل الأولى هي البحث عن أدوات التحرر المادي ...

أ. منصور : يا استاذ محمد .. لقد سبق لي ان اكدت لك ان توجيه الاتهامات ليس هو الغرض من وراء اجراء هذه الحوارات . ولذلك فلم تكن هناك حاجة لأن تنبري للدفاع عن من لم توجه اليهم اية اتهامات ... والاهم من ذلك كله هو ان يكون توصيفنا للوضع دقيقا وكافيا وواضحا ايضا،بحيث يتيسر لنا العثور على الحلول الضرورية.واعتقد انه يمكن ان نستخلص من ردك هذا انك توافق على ان حركة التحرر الوطني المصرية كانت تفتقد جانبا هاما ورئيسيا من جوانبها ، وهو جانب البحث عن الشخصية القومية وتأكيدها . واهمية هذه النقطة تكمن في ان تلك كانت تمثل بدايات الحياة السياسية في مصر على النمط الاوروبي . فقد كان من نتيجة هذا الافتقاد لهذا الجانب الهام ، ان تم تبني انظمة واساليب الحياة السياسية الاوروبية تبنيا كاملا : ملك يملك ولا يحكم .. برلمان .. احزاب سياسية .. نقابات عمالية . دستور او قانون اساسي .. صحف ومجلات وجرائد.وهذا هو اطار العالم الذي لا تزال الحياة السياسية تدور فيه في مصر حتى وقتنا هذا . وانا ازعم ان هذا الوضع ـ اي تبني المثقفين المصريين للثقافة الاوروبية بشكل يكاد يكون تاماً . ومحاولة فرضها على البلاد ـ يمثل سببا رئيسيا لفشل تنظيماتهم السياسية ـ وخاصة تلك التي كانت تحمل فكرا جديدا والتي ظهرت في اعقاب الحرب العالمية الثانية ـ بكافة اتجاهاتها في اجتذاب الجماهير اليها .. او في ان تكون تنظيمات سياسية جماهيرية ، رغم ان بعضها كان يتبنى مصالح هذه الجماهير بشكل واضح . وانا اريدك ان تعلق على هذه المقولة استنادا الى امرين : اولهما هو تجربتك السياسية الشخصية ـ على المستويين السري والعلني ـ وثانيهما مهنتك ككاتب ومفكر سياسي ...

س. احمد : ... وما الذي تريد مني ـ بالضبط ـ ان اعلق عليه ؟...

أ. منصور : ... اريدك ان تعلق على المقولة التي تزعم ان من الاسباب الرئيسية لفشل التنظيمات السياسية ـ سرية كانت أم علنية ـ التي تتبنى مصالح الجماهير في ان تكون تنظيمات جماهيرية .. وفي ان تخلق لها قاعدة جماهيرية تتفاعل معها وتثري فكرها .. وتوفر لها الحماية اذا ما تعرضت للاضطهاد والعسف ـ هو هذا الازدواج

الثقافي الذي نتحدث عنه ..

س. احمد : .. نعم انه احد الاسباب ....

أ. منصور : ... الرئيسية ؟...

س. احمد : .. انا لا اريد ان اطرح الموضوع على هذا النحو . وسوف اشيرلك الآن الى نموذج يمكن اعتباره استثناء من هذه القاعدة . فلو اننا اخذنا حزب الوفد ، على سبيل المثال ، لوجدنا انه عاش في وجدان الجماهير بقوة ، على الرغم من كل محاولات هدمه او الاقلال من نفوذه بينها . والغريب انه حين حدث مؤخرا ان نسب احد الاحزاب السياسية نفسه الى الوفد ـ وبعد ان كان قد مضى على حله رسميا نحو ٢٦ عاما ـ فقد تمكن هذا الحزب من ان يكون مركز جذب جماهيري في فترة قـصيرة . والسؤال هو : لماذا كان الحزب الوفد استثناء من القاعدة ؟.. والاجابة على هذا السؤال هي ان الوفد ربما كان الحزب الوحيد في مصر ـ واؤكد على صفة الوحيد هذه ـ الذي انطلق من حركة جماهيرية .. ولم يتم فرضه على الجماهير . والواقع ان الجماهير ربما لم تشارك في الحياة السياسية في مصر الا مرة واحدة في عام ١٩١٩ ...

أ. منصور : ولكن ذلك كان لفترة قصيرة جداً .. وقد كان ...

س. احمد : ... نعم .. هذا صحيح ففي كل مرة كان يبدو فيها ان هناك احتمالا لأن تكون مشاركة الجماهير اوسع من قيود الحركة المفروضة من اعلى ، كان يتم ، وعلى الفور ، اجهاض هذه الحركة ، وحتى ثورة ٢٣ يوليو كانت تمثل شكلا من اشكال هذا الاجهاض ...

أ. منصور : اعتقد ان ما تقوله صحيح في معظمه ، ولكنني احب ان اشير الى ان نجاح الوفد في هز اعماق الجماهير الشعبية ـ وخاصة في الريف ـ لم يكن يرجع الى الوفد نفسه كحزب او تحالف سياسي بقدر ما كان يرجع الى ظروف حـركة التحرر الوطني ذاتها ، والى الجاذبية القوية التي تمثلها بالنسبة الى الجماهير . ذلك ان مطلب الاستقلال وطرد المحتل الاجنبي هو مطلب شعبي حقيقي .. يتفق تماما مع مصالح الجماهير الشعبية .. ويمثل شرطا جوهريا لتطور حركتها السياسية . والجماهير الشعبية لم تكن تقاوم الاحتلال السياسي فقط .. بل كانت تقاوم ـ وبصلابة وكفاءة اكتسبتها من تجاربها التاريخية ـ الاحتلال الثقافي ايضا .. وذلك على عكس المثقفين الذين كان الغرب يمثل منهلهم الثقافي الوحيد . ولكن حين ادركت هذه الجماهير ـ بعد تجربة محاولة القيام بثورة مسلحة ـ عجزت قيادة الوفد عن تحقيق مصالح الجماهير ومطالبها ، تحول الوفد الى حزب يتمتع بجماهيرية .. ولكن بين صفوف الطبقة المتوسطة بكافة فئاتها واقسامها فقط اما الجماهير الشعبية ، فان اقل ما يمكن ان يقال ، هو ان تاييدها لحزب الوفد قد فتر تماما . وقد يكون من الادلة التي تثبت ذلك ان الجماهير لم تتحرك اطلاقا

لحماية هذا الحزب حين قامت قيادة ٢٣ يوليو بحله عام ١٩٥٣ . ولو كانت الجماهير تؤمن بان هذا الحزب هو حزبها .. او ان وجوده ضروري لتطورها ولتامين مصالحها .. لتحركت من اجل الدفاع عنه ...

س. احمد : ... انت تأخذ بالحد الأقصى .. اي ان يظل حزب الوفد المعبر الصادق عن اوسع الجماهير ، اما انا .. فآخذ بالحد الأدنى . بمعنى ان كل الاحزاب السياسية ـ باستثناء حزب الوفد ـ وبما في ذلك الحزب الوطني الاصلي وهيئة التحرير والاتحاد الاشتراكي .. الخ . اما انها نشأت من بين صفوة المثقفين الوطنيين او تم فرضها من اعلى بشكل سلطوي ...

أ. منصور : .. ولكن ايا كان الأمر ، فان الاهم هو انهم ـ اي كل هذه الاحزاب وبلا استثناء ـ يلعبون في اطار ٢٠٪ .. او ١٣٪ من تعداد السكان ، وانهم معزولون تماما عن الجماهير ..

س. احمد : .. ما اريد ان اقوله هو ...

أ. منصور : ... السؤال هو : هل هناك عزلة ام لا ؟..

س. احمد : ... نعم .. هناك عزلة .. ولكن ما اريد ان اقوله هو ...

أ. منصور : .. لنأخذ ، مثلا ، الوضع القائم حاليا في مصر .. حيث تتعرض الجماهير لمعاناة اقتصادية عنيفة يكاد لا يعرف لها مثيل في تاريخ مصر الحديث . ولا يحتاج الامر لكثير من العناء او الذكاء كي يدرك المراقب للأمور ان الجماهير تشعر بسخط حاد ازاء هذا الوضع . وتشعر ايضا بان المجموعة الحاكمة هي عدوها الصريح .. وليس الخفي او المقنع ـ ولكن بالرغم من ذلك كله . فان حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي ـ وانت احد قادته ـ وهو يمثل ، بالقطع ، جانبا هاما من مصالح الجماهير يتعرض للضربة تلو الضربة ، من جانب السلطة ، دون ان تحرك الجماهير ساكنا . كما فشل هذا الحزب ، حتى الآن ، في ان يكون حزبا جماهيريا ...

س. احمد : ... لا شك في صحة هذه المقولة ، من الناحية الاجمالية . اما التفاصيل فهي التي يمكن ان تكون موضع خلاف . وما اريد ان اقوله هو ...

أ. منصور : هل افهم من ذلك انك توافق على هذه المقولة ؟...

س. احمد : ... انتظر .. سوف اقول لك ولكنني قبل ذلك ، اريد ان اقول ان السلطة قد نجحت ، ولا تزال ، في ان تعزل اسباب سخط الجماهير على المعاناة الاقتصادية اليومية عن الاسباب السياسية ، الكلية والاساسية ، التي تدركها النخبة ، ولكنها تعجز عن ترجمتها .. اي ترجمة هذه القضايا الكلية الى قضايا جزئية . ولنأخذ كمثل على ذلك ، تجربة عشناها ، انت وانا ، البارحة (* يقصد الاستاذ محمد سيد احمد بذلك انتخابات نقابة الصحفيين

المصريين ، والتي اجريت في يوم ٦ مارس (آذار) ١٩٨١) فقد كانت اسباب الاحباطات السياسية التي يعاني منها الصحفيون واضحة تماما لديهم ، ولكن السلطة استطاعت ، عن طريق التلويح بالاغراءات المادية وتقديم حلول لعدد من المشاكل الفئوية ، ان تعزل انتخابات نقابة الصحفيين عن الحركة السياسية العامة ..

أ. منصور : ... واليس هذا بالأمر الغريب ؟.. اعني كيف امكن للصحفيين ، وهم من يفترض فيهم انهم يتعرضون للخدمة العامة ويعملون كهمزة وصل بين الجماهير وبين السلطة ، ان يقبلوا رشوة علنية اشهرت على الصفحات الأولى من الجرائد ، وذلك كي يدلوا باصواتهم لمرشحي نظام يعلمون جيدا ان الجماهير تعامله بوصفه عدوها الصريح ؟... اليس التفسير الوحيد لذلك هو عزلتهم الكاملة عن الجماهير ؟... واحساسهم ايضاً بانهم لا ينتمون اليها ؟...

س. احمد : ... ليست المسألة مسألة انتماء ...

أ. منصور : ... اذن .. ما هي المسألة ؟...

س. احمد : ... المسألة هي ان السلطة قد نجحت في ان تفرض المخرج الفردي للمأزق والازمات .. وان تجعل الناس يقتنعون بأنه الحل الوحيد .. وانه لا يوجد اي مخرج جماعي يقوم على الانتماء ...

أ. منصور : ... ولماذا نجحت السلطة في انجاز ذلك ؟...

س. احمد : ... ذلك لأن ـ وهذا يعود بنا الى النقطة التي كنت قد اثرتها في البداية .. وهي ان الفرق بين ما حدث في يناير ١٩٧٧ (* اشارة الى انتفاضة الجماهير الشعبية المصرية في يومي ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧) وبين ما يحدث الآن .. هو ان الجماهير في يناير ١٩٧٧ هبت ضد سياسة الانفتاح..لانه بدا لها ان المنتفعين بهذه السياسة هم فئة من الأثرياء الجدد.اذن فقد كان تحرك الجماهير موجه اساسا ضد الاثرياء الجدد ، وضد تعميق الفوارق بين الطبقات . اما اليوم ، فان كل فرد من افراد الشعب المصري ، ومن اعلى الى اسفل ، يستطيع ان يجد مخرجا فرديا لمأزقه وازمته ، عن طريق السفر الى الخارج ...

أ. منصور : ... بالرغم من صحة ما تقول ، فان تلك ليست هي الاسباب الرئيسية وراء هذه الظاهرة ...

س. احمد : ... ربما كانت هذه الاسباب غير رئيسية بمعنى انها لا تحسم الأمر .. ولكنها اسباب كفيلة بتخفيف وطأة معاناة الناس الاقتصادية ..

أ. منصور : .. لا .. انا اعني انها غير رئيسية . بمعنى انه لولا وجود الازدواج الثقافي لما ادت هذه الاسباب الى تلك النتائج ...

س. احمد : ... انت ، بهذا الشكل ، ترجع كافة الامور الى سبب محوري واحد ...

أ. منصور : ربما كان ذلك لان من حقي ـ بوصفي اريد هذا الحوار ـ ان اتمتع بترف ان اكون احادي الجانب .. ولكنني لا اطالبك بأن تكون هكذا انت ايضاً ...

س. احمد : هذا صحيح .. ولكن من حقي ايضا ان اواجه ذلك بان اضع هذا العنصر ـ الذي تجعله انت محوريا ـ في موضعه الصحيح من العوامل والعناصر الاخرى ...

أ. منصور : ... وهذا هو مبرر الحوار ...

س. احمد : ... عظيم ما اريد ان اقوله هو ان الحديث عن وجود قطبين في الوطن العربي يمثل جزءاً اساسيا من موضوعنا . ذلك ان المجتمع المصري اليوم ـ والذي كان بالامس مستقراً ـ قد اصبح منجذباً الى قطب آخر ، اصبح جزءاً لا يتجزأ منه ويتأثر به كثيراً ، واصبح امام الناس اليوم مخارج فردية للتخلص من ازماتهم الاقتصادية ، كما اصبحت القيم السهلة هي السائدة الآن . ومن الامور الغريبة انه رغم ان مصر معزولة كليا عن العالم العربي المحيط فانها لا تستطيع ان تقطع نفسها عن هذا العالم . وهذه هي المعضلة التي يواجهها النظام القائم الآن . فهذا النظام لا يستطيع ان يعزل مصر تماما عن الوطن العربي . وها نحن نرى هذا الحشد من الناس ـ من الفلاحين ـ الذين يتجمعون يوميا امام سفارة العراق ـ البلد الذي يعاديه نظام السادات اشد المعاداة ـ طلبا للسفر بحثا عن عمل ...

أ. منصور : ... نعم فلولا ذلك .. اي لولا خروج الناس من البلاد طلبا للرزق ، لمات نصف سكان الريف ، على الاقل ، من الجوع .. او سوء التغذية ...

س. احمد : ... تماما .. ولقد اصبح واحدا من المخارج الفردية التي تعوق بلورة المشكلة ...

أ. منصور : ... الا يمكن ان يكون ذلك راجعا الى ان الناس قد تعودت ، تاريخيا ، ان تبحث عن حلولها المستقلة ، وان لا يطلبوا العون من قيادة يعتبرونها غريبة عنهم ؟... انا اعتقد ان تلك هي الازمة .. ان الناس تبحث عن حلول مستقلة ـ تسميها انت فردية ـ لانه لا توجد قيادة يثقون بها ...

س. احمد : ... ولكن المشكلة هي ان الدولة قد نجحت ، ولا تزال في ان تعزل الناس .. في ان تجعل التعبير السياسي عن مشاكلنا .. وعن الازدواجية التي نعيشها .. انتظر لحظة .. قل لي : ما هي الفكرة الاساسية التي تطرحها الدولة اليوم ؟ اعني الفكرة الاساسية التي تبرر بها عقد السلام مع اسرائيل .. والتي تبرر الانفتاح الاقتصادي .. الخ ؟ ان هذه الفكرة الاساسية هي اننا جزء من العالم الغربي المتحضر .. لانه لا يوجد عالم متحضر غير العالم الغربي .. اما العالم الثالث فهو عالم بربري وغير متحضر وارهابي ايضا الخ . ونحن ـ كما يقول النظام ـ جزء

من هذا العالم المتحضر . وباختصار ولذلك فنحن نعقد السلم مع اسرائيل لاننا جزء من هذا العالم المتحضر . وباختصار فان المقولة الاساسية التي يقدمها النظام القائم الآن هي ان مصر لها ثقافتها المستقلة ...

أ. منصور : انا اتفق معك في معظم ما قلته الآن . ولكنني ارجو ان تسمح لي ان ازعم بان هذه المقولة لقيت ـ ولا تزال بشكل اقل او اكثر ـ شعبية كبيرة بين صفوف الطبقة المتوسطة .. وليس بين صفوف الجماهير الشعبية وفي اعتقادي ان الشعار الذي يلقى قبولا ما من جانب الجماهير الشعبية هو ذلك الشعار الذي يردده السادات كثيراً ، والذي يضع فيه « الافندية » في مواجهة الجماهير الشعبية في الريف والمدن . والسبب في ذلك هو الحقيقة التي يحويها هذا الشعار ، بالاضافة الى الدلالات التاريخية المتراكمة لكلمة « افندي » .. والتي اصبحت تماثل في اذهان الجماهير كلمة « الكرباج » .. او « حاكم » ...

س. احمد : ... اريد ان اقول ، فيما يتعلق بذلك ، ان الذي يجعل الطبقة المتوسطة تتقبل هذه المقولة الاساسية ، التي اشرت اليها ، ان هذه الطبقة لا تزال تعتقد ان الانتماء الى عالم القيم الفردية ـ والتي يجري الترويج لها في اجهزة الاعلام في حماس ، بالاضافة الى كونها ذات جذور قديمة ممتدة في هذه الطبقة ـ تمثل اغراءاً قوياً لهذه الطبقة يجعلها تؤمن بوجود وفاعلية الحلول الفردية . ولا تزال امال الطبقة المتوسطة معلقة بذلك ، ولكنها يوم تكتشف ان هذا الطريق مسدود ، وان اوضاعها لا بد ان تتدهور بدلا من ان تتحسن ، وان التبعية للغرب اقتصاديا هي استعمار جديد ، وان استيراد قيم الاستهلاك ، وباقي قيم المجتمعات الاستهلاكية ـ المنتشرة حاليا ، والتي ساعدت الاموال البترولية على تأكيدها ـ كل هذا يجعل الناس تغفل عن هويتها ..

أ. منصور : ... انت لا تزال تتحدث عن الطبقة المتوسطة .. اليس كذلك ؟...

س. احمد : ... نعم .. انا لا ازال اتحدث عن الطبقة المتوسطة والمشكلة هي ان صوت الطبقة المتوسطة لا زال عاليا ومرتفعا .. واعلى من صوت الجماهير الساخطة ، والتي اكتشفت الآن ان الطريق الجديد .. هو طريق يؤدي الى مزيد من العذاب .. والى مزيد من المعاناة وليس بالعكس . اما فيما يتعلق بموضوع « الأفندية » ، فان السادات ، في هذا المجال ، يستخدم رصيده الماضي كي يطبقه على الواقع الحالي . فهو الآن ـ ومن جهة الملابس التي يرتديها وفي أسلوب حياته وتقليده .. بل وفي الجهة التي يتوجه اليها ولاؤه ـ ينتمي مائة في المائة الى العالم الغربي ...

أ. منصور : هذا امر شديد الوضوح والسادات لا يعيش هذا الشعار .. وانما هو يلوح به فقط ...

س. احمد : ... ولكنه يستخدم رصيده السابق ... حين كان ...

ا. منصور : ... لا .. ان الأمر الاساسي هو انه يضع « افندية » القاهرة في مواجهة جماهير الفلاحين ، وذلك لأنه واثق من ان ذلك الشعار سوف يجد استجابة ما في صفوف هذه الجماهير ...

س. احمد : ... انا اعتقد ان القضية الحقيقية فيما يتعلق بالطبقة المتوسطة اليوم ، هو انها مشدودة الى اتجاهين متناقضين في نفس الوقت .. فهي مشدودة الى وهم امكانية الخروج من مأزقها الاقتصادية عن طريق الحلول الفردية .. والى امكانية تبنيها ايضا للقيم الاستهلاكية الغربية التي تظن انها سوف تكفل لها نوعا من الاستقرار . ومن يرى الاعلانات التي يبثها التليفزيون المصري ، قد يداخله وهم ان في قدرة كل الناس اقتناء هذه السلع الغربية المرتفعة الثمن . وهذا ، بالطبع ، مجرد حلم وسراب . ولكن الاعتقاد السائد ، بين افراد هذه الطبقة ، هو ان ذلك امر ممكن التحقيق .

. هذا قطب ، اما القطب الآخر فهو الواقع المعاش ، والذي يثبت لأفراد الطبقة المتوسطة ، بشكل يومي تقريباً ، ان ذلك لا يعدو ان يكون حلما وسرابا ، وان كل ما يوحي بامكانية الوصول الى حلول ما .. هو مجرد كلام لا يتحقق وان حالته المادية والاقتصادية تتدهور بدل ان تسير في طريق التحسن .

هذان هما القطبان اللذان يتجاذبان افراد الطبقة المتوسطة . والمشكلة ان هذه الطبقة لم تحسم بعد القطب الذي يتعين عليها الانجذاب اليه ...

ا. منصور : ... رغم اتفاقي معك ، في معظم ما قلته ، الا انني ارجو ان تسمح لي بأن اختلف معك حول تحديد المشكلة الاساسية والجوهرية التي تعاني منها الطبقة المتوسطة . ذلك انني اعتقد ان المشكلة الجوهرية التي تواجه هذه الطبقة هي مشكلة فقدان الشخصية . . وفقدان الهوية القومية .. وهو الأمر الذي يكمن وراء كل هذه المظاهر التي ذكرتها ...

س. احمد : ... ولكنك حين تقول ان الطبقة الوسطى لا شخصية لها ، فانك بذلك تضفي عليها قيمة ميتافيزيقية اسمها « اللاشخصية » . وانا لا أقول ان لهذه الطبفة شخصية ، وانما انا اقول انها تخضع لشخصية مزدوجة .. بمعنى انها تخضع ، وفي نفس الوقت ، لقطبين يتجاذبانها نحو اتجاهين متضادين . وهذا هو الذي يفقدها الشخصية . ولا يعني هذا ، انها في ظروف مختلفة اخرى ، لن تستطيع استعادة هذه الشخصية . ذلك ان المهم هو ان تحسم الأمر .. وان تؤمن بان حلم الحلول الفردية .. هو حلم غير قابل للتنفيذ . وهذا هو الذي لم يحدث بعد ...

أ. منصور : .. ولماذا لم يحدث ذلك ؟

س. احمد : .. لأن لديها انطباعا قويا بانه يمكن تحقيق هذه الاحلام ...

أ. منصور : .. لماذا تولّد لديها هذا الانطباع ؟ اليس ذلك لانه حتى تلك العناصر المعارضة من الطبقة الوسطى التي تتبنى مصالح الجماهير تقف معزولة عن جماهير الشعب ، وبالضبط بسبب هذا الازدواج الثقافي . وهو الامر الذي يؤدي الى اضعاف هذه العناصر .. ووقوفها وحيدة تتلقى ضربات النظام .. دون ان تحرك جماهير الشعب ساكنا ؟...

س. احمد : ... لا .. ليس الأمر بهذه البساطة . لانه للأسف الشديد فانه في الظروف القائمة الآن ...

أ. منصور : .. معذرة ، ولكن دعني اوجه اليك سؤالا مباشرا هو : هل تعتقد ان حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي ـ وانت احد قياداته ـ هو حزب جماهيري ؟...

س. احمد : .. لا . . ليس حزبا جماهيريا ..

أ. منصور : .. لماذا ؟

س. احمد : .. أنظر .. ما اريد ان اقوله هو .. انني اريد ان اتناول الموضوع بشكل آخر .. واريد ان اقول ان هناك جانبا من الجماهير الفقيرة لا يزال يؤمن بامكانية الخروج من مآزقها الاقتصادية عن طريق حلول فردية . اذن فقد فرضت الطبقة المتوسطة ايديولوجيتها على الطبقة الفقيرة .. وليس العكس ...

أ. منصور : .. انا اختلف معك في ذلك ، فانا اعتقد ان الجماهير الشعبية لا تزال تحتفظ ـ حتى الآن ـ بقدر كبير من شخصيتها القومية ، وان السبب في ذلك يعود ـ في جانب منه ـ الى نسبة الامية المرتفعة والتي تبلغ ٨٠٪ او٨٧٪ ... وهو ما يجنب تلك الجماهير عمليات الصهر التي تحدث في المدارس ، وكذلك بسبب شكها وعدم ثقتها في اجهزة الاعلام .. التي لا تجد صدى ذي شان في صفوف الجماهير . فهذه الجماهير تشاهد ما يعرضه التليفزيون ، مثلا ، وكانها تشاهد شيئا خارجيا لا علاقة لها به .. وكل قيمته ترجع الى انه يوفر لها بعض التسلية والترفيه . وهذا بالضبط ما يحدث في القرى حين تتوفى احدى الشخصيات الثرية الهامة في القرية .. ويجلب اهله مقرئاً مشهوراً من المدينة لاحياء المآتم .. ذلك ان الجميع يهرعون الى سرادق العزاء لسماع هذا المقرىء .. فهم لا يجتمعون لانهم حزانى لموت الفقيد الهام .. وانما لمجرد الفرجة والتسلية .. ولافتقاد القرية الى حياة اجتماعية نشيطة .. وانا اعتقد ان هذه هي الازمة الحقيقية التي تواجهها الطبقة المتوسطة . فحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي ، مثلاً ،

يمثل ـ في برنامجه ونوعية قياداته ـ ما يكاد ان يكون تبنياً تاماً وشاملاً لمصالح الجماهير ولتطلعاتها . وبالرغم من هذا كله ، فإن هذا الحزب لا يجد صدى بين الجماهير .. ولم يصبح بعد حزباً جماهيرياً .. رغم انه يتمتع بكافة المواصفات والعناصر التي كان من المحتم والمنطقي ان تجعله حزباً جماهيرياً ..

س. احمد : .... وهذا ما يعنيه كلامي ... فانا أقول ان هناك اتجاهان متضادان يتجاذبان افراد الطبقة المتوسطة ...

أ. منصور : ... لا ادري لماذا نقصر حديثنا على الطبقة المتوسطة ، ولماذا لا نتحدث مثلا عن جماهير الشعب ؟ ...

س. احمد : ... لأن الايديولوجية المهيمنة ، هي ايديولوجية الطبقة المتوسطة .. فالجماهير العريضة ..

أ. منصور : ... وعلى من تمارس هذه الايديولوجية هيمنتها ؟ ان ايديولوجية الطبقة المتوسطة ، في اعتقادي ، مرفوضة تماما وبشكل حاسم من جانب الجماهير الشعبية . وهناك العديد من المظاهر التي تثبت ذلك . والجماهير الشعبية ليست ضعيفة ، حسب الوهم الشائع . فهذه الجماهير تملك من القوة ما مكنها ، مثلا ، من فرض احمد عدوية كمطرب نجم .. تماثل شهرته وذيوعه شهرة وذيوع عمالقة اجهزة الاعلام مثل محمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ .. وذلك بالرغم من المقاومة الصلبة والمستمرة من جانب اجهزة الاعلام الرسمية .. وينطبق نفس الشيء ـ رغم اختلاف المضمون ـ على الشيخ كشك وعلى احمد فؤاد نجم والشيخ امام ...

س. احمد : .. هذا صحيح ...

أ. منصور : .. اذن فجماهير الشعب تمتلك من القوة ما يمكنها من فرض نجومها .. وناهيك بمحاولات الهيمنة من جانب الطبقة المتوسطة ...

س. احمد : .. ولكننا يجب ان نضع في اعتبارنا ان هذه النجوم التي تفرضها الجماهير ، ما لم يتم تسييسها كما حدث في حالة احمد فؤاد نجم ، فانها سوف تنخرط في الانماط السائدة . وما اريد ان اقوله هو ان الازدواجية هي حالة تعيشها الطبقة الأكثر صخبا في التعبير عن نفسها في المجتمع المصري ...

أ. منصور : ... ان الازدواج الثقافي ، هو حالة يعيشها الوطن باكمله .. وليس مجرد طبقة من الطبقات ..

س. احمد : ... من البديهي انها حالة يعيشها الوطن .. وما كنت اعنيه .. ما اريد ان

اقوله هو ان هناك طبقة ما تجعل هذه القضايا تنطبق وتحدث ...

أ. منصور : ... تعني تتجسد فيها هذه القضايا ؟..

س. احمد : .. نعم .. تتجسد وتتكثف فيها .. وهي التي تجعلها تأخذ صفة الوطنية والشمول . وانا اعتقد ان مفتاح المشكلة هو ان هذه الطبقة المتوسطة ـ بحكم طبيعة النظام القائم وبحكم استيعابها من جانب النظام الغربي ـ بالصورة المطروحة ، والتي تدعي ان في مقدور مصر الخروج من مآزقها وازماتها عن طريق الانتماء الى العالم الغربي المتحضر ... وباختصار كل ما يجري الآن ابتداء من سياسة الانفتاح الى سياسة الصلح مع اسرائيل ... كل ذلك يمثل نقطة جذب بالنسبة الى الطبقة الوسطى ، وجعل افرادها يظنون ان كل فرد منهم على حدة ، يستطيع بمفرده ان يحقق قدرا كبيرا من التقدم والارتقاء . هذا رغم ان الظروف الموضوعية تجعل من تحقيق ذلك امراً مستحيلاً في ظل الأوضاع القائمة الآن في مصر ...

أ. منصور : ... معذرة ، ولكنني اريد ان اعرف رايك في ملاحظة يثيرها كلامك هذا ...

س. احمد : ... انتظر لحظة حتى انهي كلامي ... ما اريد ان اقوله هو ان هذا التردد لم يتم حسمه بعد،ولن يتم حسمه الا اذا استطاع الفكر السياسي الذي يعبر عن المصالح الاصلية للطبقة المتوسطة ان يصل الى افراد هذه الطبقة .. وان يثبت لهم ، بالعمل والممارسة ، انهم يجرون وراء حلم يستحيل تحقيقه . اما الجماهير العريضة ، والتي حسمت هذا التردد ، فهي لم تتبلور بعد في حركة منظمة ، لأنها هي ايضا يراودها وهم انها تستطيع ان تفعل كما يفعل افراغ الطبقة الوسطى ...

أ. منصور : ... الاحظ ان حديثك كله يكاد ينحصر في نطاق الطبقة المتوسطة ، وبحيث يتولد لدى المرء انطباع بانك تريد لحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي ان يكون حزبا للطبقة المتوسطة ، وليس حزبا للجماهير الشعبية ...

س. احمد : ... لا ... انا لا اعني ذلك ابداً ..

أ. منصور : .. انا واثق انك لم تكن تعني ذلك ، ولكنه ـ وبالرغم من ذلك ـ يمثل النتائج الحقيقية والمحصلات النهائية لتربيتك السياسية والفكرية ولنشاتك الاسرية . الخ ..

س. احمد : ... لا .. ليس الأمر هكذا ...

أ. منصور : ... هل تعني ان ذلك امر غير صحيح ؟...

س. احمد : ... نعم .. اعني انه غير صحيح .. ذلك ان ما اعنيه هو ان الساحة الرئيسية للمعركة الدائرة الآن .. او ان الهدف الرئيسي من المعركة الدائرة الآن هو كشف النقاب عن

الخداع والتضليل الذي يكسب الجماهير العريضة ...

أ. منصور : ... لا اظن ان الخداع يحقق اي نجاح في وسط الجماهير ...

س. احمد : ... ولكن الجماهير لا تتحرك .. فلماذا لا تتحرك ؟

أ. منصور : ... انت تقول ذلك ، يا استاذ محمد ، لانك تريد من الجماهير ان تتحرك وفق الانماط التي تريدها انت ، وليس وفق الانماط التي تريدها الجماهير .. انت تريد من الجماهير ان تتحرك وفق الانماط التي تتوقع ان تتحرك وفقها .. ولكنك تنسى ان الجماهير تتحرك وفق انماطها الخاصة ...

س. احمد : ... هذا صحيح ...

أ. منصور : ... ولنراجع التاريخ كي نرى كيف تتحرك الجماهير . ففي عصر سلاطين المماليك ، وحين يئست الجماهير تماما من التخلص من حكم هؤلاء السلاطين بشكل مباشر ، نجد انها ابتكرت اسلوبها الخاص في المقاومة .. والذي يتفق مع احتكار السلاطين والامراء المماليك لحق حمل السلاح (بسبب امتلاك القدرة على تمويل صناعته ومعرفةاسرارها) وحرمان افراد الشعب من حمل السلاح .. بل ومن ركوب حتى البغال .. فقد قام الناس بتجاهل السلاطين .. واقاموا بنفسهم ـ مملكة خاصة مستقلة .. لها سلطانها الخاص .. ودينها المستقل .. وادبها وفنونها وجيوشها المستقلة .. بل وقضاتها ايضاً . وانت تعرف ان الناس اطلقت لقب « السلطان » على « السيد احمد البدوي » .. وان « السيد احمد البدوي » .. مثله مثل السلطان صلاح الدين الايوبي والسلطان الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون ـ كان يحارب الصليبيين بطريقته الخاصة مستخدما القوى الخارقة التي وضعها الله ـ اله الشهب ـ تحت تصرفه ، ورغم ان ذلك لا يدخل في نطاق الحقائق التاريخية . وقد اطلق عليه الناس ، ولا يزالون ، لقب « جاب اليسرى » اي الذي جلب الاسرى .. وباختصار فان هذا هو احد الأنماط التي تحرك الجماهير وفقا لها ...

س. احمد : ... هذا صحيح .. بل ان هناك امثلة عصرية لذلك . ولنأخذ كمثال موقف البيروقراطية المصرية . فانا ازعم ان احد اشكال مقاومة تطبيع العلاقات مع اسرائيل ، هو قيام البيروقراطية المصرية بشن ما يشبه حرب العصابات ضدها . ويتمثل ذلك في احتماء وراء عدم المسؤولية ـ وهو الشعار الدائم لهذه البيروقراطية ـ من اجل ان تحيك المؤامرات ضد التطبيع .. دون ان تتحمل مسؤولية ذلك .. ولكن ما اريد ان اقوله هو ان حركة الجماهير لم تستطع حتى الآن ان تفرض .. او ان تجهض ...

أ. منصور : ... ولكن الجماهير لن تتعامل مع الاسرائيليين .. وهي لا تتعامل معهم الآن ...

س. احمد : ... ان ما اعنيه هو ان النمط المطروح .. اعني انني اضع النمط المطروح - والقائم في الطبقة الوسطى - في وسط الساحة . اعني الساحة التي تجري فيها حسم الأمور .. وهنا تكمن اهمية الطبقة الوسطى .. التي لا تزال حتى الآن عاجزة عن التنفيذ .. ولكن الآمال - بالرغم من ذلك - لا تزال معلقة عليها .. وهنا تكمن المشكلة .. ما اريد ان اقوله هو ان ميدان المعركة الدائرة الآن هو الطبقة المتوسطة .. ولا يعني ذلك إغفال الجماهير ... او التقليل من شأنها او التعالي عليها . ولكن حقيقة الأمر هو ان الساحة .. او العائق الرئيسي الذي يعطل ادراك الجماهير لمصالحها الحقيقية هي تلك الاوهام التي زرعتها الطبقة المتوسطة . وهذه الأوهام زرعتها الطبقة المتوسطة لان السلطة القائمة تفتح لهذه الطبقة باب الحلول والمخارج الفردية .. وتزرع في نفسها وهم انها تستطيع ان تحقق شيئا في مجتمع لا تتوفر فيه الظروف الضرورية كي تتحقق هذه الاشياء .. وهذه هي المشكلة .*

*** سجل في القاهرة عام ١٩٨١ ونشر في « السفير » اللبنانية بتاريخ ١٠/٥/١٩٨١**

نجيب محفوظ

ابراهيم منصور : استاذ نجيب سمعت منك انك قد انتهيت منذ فترة من كتابة عمل روائي جديد ، قمت فيه باستلهام عمل عبقري وفريد في تراثنا الشعبي هو «الف ليلة وليلة » . وقد دفعني ذلك ان اطلب منك الاشتراك في تلك الحوارات التي اجريها حول موضوع الازدواج الفصامي الثقافي . ذلك انه يمكن ترجمة قيامكم ، بما يمكن تسميته ، باعادة صياغة «الف ليلة وليلة ، بانه يعكس اهتماما ـ قد يكون قديما ـ بالتراث الشعبي العربي ، وبانه يعكس ايضا رغبة من جانبك لمد جذورك الفنية الى هذا التراث ، وذلك كي تزيد من ارتباطك بتراث وطنك العربي ، او انه عودة الى المنابت التي نشأت فيها .. ذلك انه من المعروف انك ولدت وامضيت طفولتك وجزءا من شبابك في حي شعبي عريق .. هو حي الجمالية (بالقاهرة القديمة) .. والواقع ان الكثيرين كانوا يعجبون من قلة تأثر اعمالك الفنية بالتراث الشعبي . بالرغم من كل هذه الظروف .. وربما كان من الافضل ان ابدأ حديثي معك بسؤالك عن الاسباب التي ترى انها دفعتك الى استيحاء « الف ليلة وليلة » في عملك الروائي الجديد ...

نجيب محفوظ : الحقيقة ان سؤالك هذا سوف يخرجنا عن موضوعك الاصلي وهو الازدواج الثقافي ...

أ . منصور : اعتقد ان ذلك ليس صحيحا تماما .. فانا ارجو ان تكون اجابتك على هذا السؤال بمثابة مدخل الى الموضوع .

محفوظ : ولكننا بذلك ، نكون قد خرجنا عن الموضوع الاصلي الى موضوع آخر وهو بواعث الالهام في عمل فني لفنان ما ...

أ . منصور : وهذا جزء من الموضوع الاصلي .. ذلك ان انتماء الفنان لثقافة ما .. يجعل هذه الثقافة بمثابة المنابع التي يستمد منها الفنان رؤيته والهامه .

محفوظ : على اية حال .. فانا بدأت حياتي الفنية ، في الواقع ، باستلهام التراث ، فقد كتبت ، كما تعرف ، ثلاث روايات فرعونية ...

أ . منصور : ولكن هذا تراث تاريخي وانا اعني التراث الثقافي الشعبي ...

محفوظ : (معلهش) ان كلًا من التراث التاريخي والتراث الثقافي يختلطان احدهما بالآخر ، وعلى اية حال ، فان روايتين من هذه الروايات الثلاث، وهما « عبث الاقدار » و« رادوبيس » قد استوحيتهما ، ليس من التاريخ المصري القديم بالضبط ولكن من التراث الشعبي القديم..اي من حكايات شعبية فرعونية . فرواية« عبث الاقدار»مستوحاة من حكاية شعبية قديمة معروفة عن الملك « خوفو » (صاحب الهرم الاكبر) ، وكذلك « رادوبيس » التي استوحيتها من حكاية شعبية قديمة اخرى تروي كيف ان ملكا كان يجلس في حديقته فرأى نسرا يحوم فوق رأسه ثم يسقط من مخالبه صندلا (نعلا) فأصدر اوامره بالبحث عن صاحبة هذا الصندل ..

أ . منصور : كانها حكاية « سندريللا » المعروفة ..

محفوظ : تماما وانتهى البحث الى صاحبة الصندل وهي « رادوبيس » التي مزجت شخصيتها بشخصية الملكة « نيتوكريس » التاريخية . والرواية الثالثة ـ وهي « كفاح طيبة » ـ هي الوحيدة من بين الثلاثة التي استوحيتها من التاريخ المصري القديم .. والتي لها اصل تاريخي احدثت فيه بعض التصرف . وهكذا فأنت ترى انني استوحيت التراث في اول ثلاث روايات اكتبها . ذلك ان التراث الفرعوني جزء من تراثنا ، كما ان التراث الاسلامي جزء آخر منه .

وانا حين اكتب ، ايضا ، روايات عادية عن الاحياء الشعبية ، فانا اعتبر ذلك بمثابة استيحاء من الشعب الحي ، ومن حاضر هذا الشعب الحي ، لا من حكاياته وتراثه ، بعد ان ادخلت عليه (شكلا) جديدا، طورته الحضارة الغربية وهو شكل الرواية الحديثة .

وما جعلني اعود اخيرا الى التراث الشعبي هو احساس بان الاصالة الكاملة في العمل الفني ، لا يكفي ان تكون في المضمون فقط ـ كما يقنع الكثيرون ، ذلك ان الكثيرين منا يقولون انه ما دمنا قد مصرنا او عربنا المضمون ، فقد اصبح مضموننا اصيلا ، لان « الشكل » الغربي هو « شكل عالمي » وهذا يكفي . ويخيل الي ان كلمة تكفي هذه لا نستطيع ان نقولها الا اذا توصلنا ايضا الى « شكل » ينتمي الينا ، ولم نقتبسه من حضارة اخرى .

أ . منصور : وهل يستند ما تقول الآن الى فكرة وحدة الشكل والمضمون ؟

محفوظ : نعم ، بلا شك الوحدة الكاملة بين الشكل والمضمون . وليس الدافع الى قولي هذا نعرة وطنية عربية ، بقدر ما تعود الى الاخلاص للمعنى الحقيقي للفن ، الذي يخلص بذاته شكلا ومضمونا . والتفكير في ذلك والبحث عن اسلوب ـ قد لا اوفق في العثور عليه ـ يكون شرقيا مائة في المائة مثل المضمون هو الذي جعلني استوحي « الف ليلة وليلة » وربما استوحيت اعمالا اخرى غيرها ، في المستقبل .

أ . منصور : كما انه يتضح من قراءة رواياتك ، بل ومن الحديث معك ايضا ، انك على دراية ومعرفة بجانب كبير من التراث الشعبي الذي يتمثل في اعمال مثل « الف ليلة وليلة» وفي الملاحم الشعبية مثل « حمزة البلهوان» و« عنترة بن شداد » و« الظاهر بيبرس » و«الهلالية»... الخ والواقع ان هناك اشارات ـ في ثلاثية « بين القصرين »

مثلا ـ الى ذلك فنحن نجد « كمال » ـ وكثير من النقاد كما تعرف يقولون ان شخصيته قد بنيت على شخصيتك ـ يجلس في شغف كي يتسمع الى الحكايات والمواويل الشعبية من اخيه الاكبر « ياسين » ـ واعتقد ان ذلك يمثل جزءا من تجربة حياتية وشخصية لك هل هذا صحيح ؟ ..

محفوظ : نعم .. هذا صحيح ..

أ . منصور : اذن فقد قرأت هذه الاعمال التي ذكرتها ؟

محفوظ : نعم .. بالطبع ..

أ . منصور : ومتى قرأتها ؟

محفوظ : لقد قرأتها حتى قبل ان افكر في تكريس حياتي للادب اي وانا اقرأ قراءات عامة . وقد كنت اقرأ في الادب العربي القديم . الذي يسمونه بالادب الكلاسيكي او الرسمي . فقرأت كتبا مثل « الكامل » (للمبرد) ومثل « الامالي » (لأبي العلاء القالي) كما كنت اقرأ السير الشعبية ايضا . فقد قرأت (الف ليلة وليلة) و(سيرة عنترة) و(حمزة البهلوان) .

أ . منصور : هل قرأت الاجزاء الثمانية كلها التي تتألف منها سيرة عنترة ؟

محفوظ : نعم قرأت سيرة عنترة بأكملها قرأت أجزاءها الست كلها .

أ . منصور : ان الطبعة الجديدة من «عنترة» تحوي ثمانية مجلدات ، وليس ستة .

محفوظ : لا ، اظن انها كانت في ستة اجزاء مهلهلة وكان الجزء الواحد يحوي ما يقرب من الالف صفحة انها عمل في غاية الضخامة .

أ . منصور : ربما كنت ، يا استاذ نجيب ، تخلط بينها وبين « سيرة حمزة البهلون » والتي تقع في ستة اجزاء .

محفوظ : قد تكون على حق في ذلك فربما تكون الذاكرة قد خانتني فقد قرأت هذه الاعمال منذ زمن طويل على حين انك قرأتها حديثا المهم انني قرأت « سيرة عنترة » بالكامل وكذلك « سيرة حمزة البهلوان» قرأتها بالكامل وكذلك « الف ليلة وليلة » ..

أ . منصور : والى جانب ذلك ؟

محفوظ : الى جانب التراث الرسمي ..

أ . منصور : لا انا اقصد التراث الشعبي واعتقد انك لا بد قد قرأت بعضا من عشرات الحكايات الشعبية التي تنتشر في كتيبات صغيرة مثل « حكاية عجيب وغريب » الخ ...

محفوظ : لا لا اظن انني قرأت شيئا مطبوعا من ذلك بل العكس ، فقد سألت الدكتور عبد الحميد يونس ، منذ فترة قريبة ، بوصفه احد المتخصصين في هذا الموضوع ، عن السبب في عدم اعادة نشر الكثير من التراث الشعبي وهي تلك الحكايات التي تشير إليها وقلت له انكم تتكلمون عن التراث الشعبي ولكنكم لا تنشرونه لاتاحته للقراء والواقع انني شديد الشوق الى قراءة هذه الحكايات ، وربما وجدت انني سمعت بعضها شفاهة من الرواة او من غيرهم ولكنني

اريد ان اتأكد من ذلك ، على الاقل ، وانا ، في الواقع ، اريد ان اقرأ هذا التراث بأكمله .

أ . منصور : وماذا عن السماع يا استاذ نجيب لا بد انك سمعت حكايات شعبية كثيرة .

محفوظ : نعم سمعت حكايات مثل « الشاطر حسن » وحكايات العفاريت والجان الخ .

أ . منصور : وربما كان جزء من الحكايات الاخيرة ينتمي الى « الف ليلة وليلة » .

محفوظ : بعضها من« الف ليلة » وبعضها الاخر ليس من « الف ليلة » .

أ . منصور : طيب هل تعتقد ، يا استاذ نجيب ، انه يبدو في اعمالك الفنية ـ ولندع جانبا « رادوبيس » و« عبث الاقدار » ، وذلك على اساس انك هجرت هذا الخط فيما بعد ، وبدأت في تبني خط اخر مختلف .

محفوظ : لم يكن مختلفا فقد كان يدور ايضا عن الشعب اي انني بدأت اكتب عن الشعب نفسه وليس عن حكاياته وانما عن الشعب نفسه .

أ . منصور : ليس هذا ماأعنيه ذلك انه يمكن ان يقوم كاتب اجنبي بالكتابة عن الشعب المصري وهذا لا يجعله متأثرا بـ ـ ..

محفوظ : سوف يكتب من وجهة نظره ..

أ . منصور : بالضبط .. ورغم انه لا شك فيه لانك اكثر فهما واحساسا ، بما لا يقاس ، من هذا الكاتب الاجنبي .. وهو امر بديهي طبعا فان سؤالي هو : هل تعتقد انه يوجد في اعمالك الفنية ما يدل على تأثرك بالتراث الشعبي ؟.. او هل تعتقد ان التراث الشعبي يمثل احد المنابع الرئيسية لاعمالك الفنية ؟

محفوظ : لا فقد كنت اندمج في موضوعي الحي مستخدما الاساليب الفنية التي كنت احسب انها الاساليب الوحيدة التي يمكنني بها كتابة رواية معاصرة وهذه الاساليب كانت ، مأخوذة من الادب الغربي بل وفي احدث اشكاله في الوقت الذي بدأت فيه الكتابة .

أ . منصور : ولكنه يوجد في عدد من اعمالك الاخيرة ما يشير ـ وقد يكون ذلك بمثابة تباشير لما فعلت بعد ذلك من استلهامك لالف ليلة وليلة . ولكن ما اريد قوله هو انه بدأ يتكرر في بعض اعمالك الاخيرة ـ وخاصة ما نشر منها في الستينات ـ ظهور شخصية « القطب الصوفي » وانا اعتقد ان جانبا كبيرا من الادب الصوفي يمكن اعتباره جزءا من التراث الشعبي ذلك ان الطرق الصوفية وممارساتها ـ من ذكر وقراءات وغير ذلك ـ كانت هي الوسيلة التي فضلتها جماهير الشعب ـ وربما تكون قد ابتكرتها ايضا ـ لعبادة الله تعالى وعلى ذلك ، فهل تعتقد ان هناك دلالة لظهور القطب الصوفي الذي يلجأ اليه البطل طلبا للارشاد والهداية في رواياتك اقصد فيما يتعلق التراث الشعبي .. ؟ ..

محفوظ : اظن انني ادخلت مثل هذه الشخصيات في رواياتي باعتبارها جزءا من الواقع الحي . ولذلك لا تستغرب ان وجدتها تلتقي مع التراث الشعبي ، الذي هو بدوره جزء من الواقع الحي . وقد قرأت في رسالة جامعية للحصول على درجة الدكتوراه ، وكان موضوعها هو

« ثلاثية بين القصرين » ان شخصية الشيخ متولي عبد الصمد «مبنية على شخصية» « الخضر » - وهي شخصية ابتكرها الخيال الشعبي . وانا في الواقع لم اكن افكر في شخصية « الخضر » على الاطلاق حين رسمت شخصية الشيخ متولي عبد الصمد . وعلى ذلك فلماذا تلاقت هذه الانعكاسات ؟ الاجابة هي ان الواقع الحي والتراث كلاهما ينبعان من ينبوع واحد، ويختلطان احدهما بالآخر ...

أ . منصور : ولكن للتوقيت هنا دلالة هامة فيما اظن وصاحبة رسالة الدكتوراه التي اشرت اليها ، قامت في الواقع بعملية اسقاط ذاتي حين دمجت شخصية الخضر الشعبية في شخصية الشيخ عبد الصمد الروائية ، الامر الذي قد يضيف ابعادا اخرى الى الرواية ويزيدها ثراء ، ولكن الواقع انه لا يوجد في شخصية الشيخ عبد الصمد ما يؤدي بالضرورة ، الى هذا الفهم او الى هذه الرؤية .. وسؤالي ، في واقع الامر ، يتعلق بامر آخر .. ذلك ان الواقع الحي موجود ولا يكف عن الوجود ، واعمالك الفنية لا شك انها كانت ، ولا زالت ، تتعامل مع هذا الواقع الحي .. فالسؤال هو : لماذا لم يظهر هذا الجانب من الواقع الحي الا في هذا التوقيت بالذات ..

محفوظ : اي توقيت ؟

أ . منصور : اعني الستينات .. حين بدات شخصية القطب الصوفي تظهر في بعض اعمالك ..

محفوظ : ولكن هذه الشخصية ظهرت قبل ذلك في عدد آخر من اعمالي الفنية مثل الثلاثية « وزقاق المدق » . ذلك انه لا بد ان تجد هذه الشخصية امامك اذا ما تعاملت مع الواقع الشعبي الحي .. سواء كان وجودها في الواقع .. ام في عقول الناس ..

أ . منصور : حسن هناك امر آخر ، يا استاذ نجيب ، انه يلاحظ انه بالرغم من ان معظم اعمالك الفنية يتناول الحياة في الاحياء الشعبية .. وذلك مثل « الثلاثية » .. رغم ان حي « بين القصرين » لم يكن في الوقت الذي دارت فيه حوادثها من الاحياء الشعبية .. مثلما هو الآن ..

محفوظ : لا انها منطقة شعبية حتى الآن ..

أ . منصور : نعم منطقة شعبية .. ولكنها لم تكن كذلك حين ولدت .. هي لم تكن آنذاك منطقة شعبية تماماً .. .

محفوظ : كيف ؟ ..

أ . منصور : كان يسكن بها عدد من الباشوات وكبار التجار ..

محفوظ : نعم هذا صحيح فقد كان سكان المنطقة يمثلون الشعب بجميع طبقاته ..

أ . منصور : الواقع انني لا اعني ادخال الطبقة العليا .. حين اتحدث عن المناطق الشعبية .

محفوظ : ما أعنيه هو انه كان يسكن معا في نفس الحارة اغنى الاغنياء وافقر الفقراء في آن واحد ولقد كانت العائلة التيمورية مثلا ، وهي من العائلات الارستقراطية ، تقيم في هذه المنطقة .. اقصد انه لم يكن يعيش خارج الحارات سوى الانجليز وذلك الجانب من

الارستقراطية الذي لم يكن .. يحس بأنه تربطه بمصر اية صلة .. اي جانب المتفرنج الذي كان بروحه وذوقه ونظرته يعتبر نفسه اجنبيا .. وقد يعتبر هذا الجانب انتسابه لمصر عارا .

أ . منصور : بالاضافة الى ان ذلك امر مشكوك فيه ايضا ..

محفوظ : هذا صحيح اما بالنسبة للاغنياء من المصريين . بل وحتى اولئك الذين يتحدرون من اصول شركسية ـ مثل العائلة التيمورية ـ فقد كانوا مصريين دما ولحما .

أ . منصور : .. طيب اظن انه ينبغي عليّ ان استكمل سؤالي الذي كنت قد بدأته .. ذلك انه على الرغم من ان اعمالك الفنية في معظمها تتعامل مع الاحياء الشعبية ، وتعالج حوادث تجري فيها ، فان تأثير التراث المعماري الذي تكتظ به هذه الأحياء ـ مثل المساجد والخانات والوكالات والتكايا .. الخ ـ لا يلحظه المرء في هذه الأعمال . وعلى الرغم من ان رواية « بين القصرين » ـ مثلا ـ تدور حوادثها في هذه المنطقة التي تحوي عددا من الشوامخ المعمارية مثل جامع بدقوق ومجموعة قلاوون ومدرسة الصالح نجم الدين ايوب وسبيل ومدرسة عبد الرحمن كتخدا وقصر بشتاك .. الخ ، فان المرء لا يكاد يلحظ وجودها في هذه الرواية ..

محفوظ : ولكن هناك ذكر لبدقوق وقلاوون والحسين ايضا ..

أ . منصور : ربما كان هذا صحيحا .. ولكنني لا اعني مجرد الذكر .. وانما اعني التأثير والاستيعاب .. اي ان تكون هذه الشوامخ مثلها مثل الشخصيات الانسانية في العمل الفني ..

محفوظ : ولكن هناك جزءا من « بين القصرين » تدور احداثه في جامع الحسين ..

أ . منصور : انا لا اعني جامع الحسين ، فهو جامع حديث ، كما لا يمكن اعتباره من الشوامخ المعمارية مثل الجوامع الاخرى التي ذكرتها ، والموجودة في خط بين القصرين ..

محفوظ : لقد كانت هذه الجوامع الأخرى من الآثار ولم تكن تستعمل لتأدية الصلاة ..

أ . منصور : لا .. يا استاذ نجيب .. انها تستخدم للصلاة حتى وقتنا هذا .. كما انني اظن انه ليس من الضروري ان يكون الجامع مستعملا للصلاة حتى يُحدث التأثير الذي أعنيه ..

محفوظ : ما اريد قوله هو ان هناك جوامع مستعملة ، وجوامع اخرى اثرية .. حتى ولو استعملت شيئا ما .. والنوع الأخير كان محجوبا حتى عن سكان الحي انفسهم ..

أ . منصور : هذا امر غريب .. وعلى اية حال فانه يبقى من هذه الجوامع اشكالها وتكويناتها الخارجية .. المهيبة التي تهز القلب ..

محفوظ : نعم .. بلا شك .. وهو موجود في الرواية .. ولو رجعت اليه لوجدته ..

أ . منصور : الحقيقة ان انطباعي عن هذه الرواية مختلف .. ولكنني قد اكون مخطئا..

محفوظ : لا .. انه موجود ...

أ . منصور : اذن فلنرجع الآن الى ما كنا قد بدانا به .. واحب ان اسألك ، يا استاذ نجيب ، عن الشكل الذي اتخذه استلهامك لألف ليلة وليلة في روايتك الجديدة .

محفوظ : لقد كان موقفي كمن يستوحي عملا جديدا لاستغلاله عصريا اي ان عيني كانت دائما على الحاضر ، واحب ان اقول لك ان المرء يمكن ان يقسم الأدباء ، فيما يتعلق بتعاملهم مع التاريخ ، الى ثلاث انواع : نوع يتركز اهتمامه الروحي الحقيقي على الماضي ، ونوع آخر يكون الحاضر هو محط اهتمامه ، بينما لا يكف النوع الثالث عن النظر الى المستقبل . والنوع الأول يكتب الرواية التاريخية ، من اجل الماضي اي من اجل ان يجعل القارىء يعيش في ذلك الماضي ، وليس من اجل اسقاط الماضي على الحاضر . اما ذلك النوع الذي يهتم بالحاضر ، فانه يعيش دائماً في الحاضر ، سواء كان يكتب عن الماضي ، او عن الحاضر ، او حتى عن المستقبل ، وسواء كان يكتب عن السماء ، او كان يكتب عن الارض . ذلك ان الحاضر يمثل بالنسبة له الموتور الذي يدفعه الى الكتابة . اما النوع الاخير ، الذي ينظر الى المستقبل ، فانك تجدهم بين كتاب الروايات الطوباوية (اي الذي يخططون لقيام المدينة الفاضلة)والروايات العلمية . اي ان اهتمام النوع الاخير يتركز على ما سوف يكون ، لا على ما كان او على ما هو كائن .

ويخيل الي انني اذا اردت تصنيف نفسي ، فانني انتمي الى النوع الثاني ، اي ذلك الذي يهتم بالحاضر . وعلى سبيل المثال فان كثيرا من القراء حين بدأوا يقرأون رواية السماء السابعة ، حسبوا انها سوف تكون شيئا يشبه « الكوميديا الالهية » . ولكنهم وجدوا ان اهل السماء لا يتحدثون الا عن الحاضر .. وعن ما هو كائن بالفعل . ذلك ان الحاضر وحده هو الذي يشدني .

وهكذا ، فان « الف ليلة » قد تحولت معي ، فيما يتعلق بالمضمون والاهتمامات ، الى الحاضر . ويشبه ذلك ما فعله بعض الكتاب حين تناولوا اسطورة « اوديب » وعالجوا عن طريقها ، المشاكل المعاصرة ..

أ . منصور : ان ما تقوله ، يا استاذ نجيب ، يثير نقطة هامة . ذلك انني اعتقد ان قيام بعض كتابنا باستيحاء الماضي ، او التراث الاسطوري المحلي والاجنبي ، كان في الواقع تقليدا لما حدث في الأدب الاوروبي . واظن انه يمكن اعتبار الاستاذ توفيق الحكيم رائدا لهذا الخط ..

محفوظ : اعتقد ان الأحق بذلك هو « جورجي زيدان » ..

أ . منصور : ولكنه كان يكتب روايات تاريخية خالصة ..

محفوظ : على اية حال ، فانه لا شك ان كل ما حدث في نهضتنا الحديثة هذه كان مستوحيا من الغرب .. ومن اوروبا فالكاتب الذي كان ، مثلا ، يكتب روايات تاريخية ، كان يتخذ من « والتر سكوت » او غيره نموذجا يحتذيه . كما ان الكاتب الذي كان يكتب روايات علمية كان يضع ما كتبه « هـ ـ ج . ويلز » في ذهنه وهو يكتب . لماذا ؟ لأنه في الحقيقة اننا حصلنا على تربيتنا العقلية والفكرية من هذه المدرسة . (اي المدرسة الغربية او الأوروبية ـم .م)

وهذا امر لا يمكن انكاره . صحيح اننا كنا نقرأ التراث العربي ، من اجل المعرفة والتذوق . ولكننا كنا نعرف تماما اننا حين نجلس لنكتب ، فاننا لن نكتب قصة مثل « الف ليلة وليلة » او مثل « عنترة » .

أ . منصور : ولماذا يا استاذ نجيب ؟ ..

محفوظ : لأن تلك كانت هي الفكرة السائدة فأنا أعود بك خمسين عاما الى الوراء . وقد كان النموذج الذي تحاول ان نحتذيه آنذاك هو النموذج الأوروبي ..

أ . منصور : وهل تعتقد الآن ان ذلك كان خطأ .. او وهما ؟

محفوظ : لا .. ليس وهما .. بل ولا يمكن القول ايضا بأن ذلك كان امرا مفيدا او غير مفيد . المهم اننا الآن نؤمن بأن شيئا آخر يمكن ان يكون اكثر صلاحية لنا اذا اردنا التعبير عن انفسنا . وعلى سبيل المثال ، فلو ان احدا في الماضي قال لي انني اكتب مثل « بلزاك » فان الدنيا لم تكن لتتسع لفرحتي وسروري بذلك . وكأنني تلميذ نجح في وضع الحل الصحيح لمسألة حسابية .

اما الآن فان ذلك لن يسرني ..

أ . منصور : لن يسرك كثيرا .. ام .. ؟

محفوظ : لا .. لن يسرني . فأنا الآن اريد ان اكون أنا نفسي حتى ولو كان ذلك يعني انني اقل كثيرا من « بلزاك » ..

أ . منصور : هذا ، حقيقة ، كلام طيب ..

محفوظ : هل فهمتني ؟ ..

أ . منصور : نعم .. اعتقد ذلك ..

محفوظ : اي انني اريد ان يحمل فني مزاياي - ان كان لي مزايا - وعيوبي ايضا .. المهم ان اكون انا نفسي .. وليس شخصا آخر ! وسوف اعطيك مثلا عمليا على ذلك . فان كثيرا ممن ينتقدونني .. ولا اعني من يقيمون اعمالي . بل ..

أ . منصور : الذين يهاجموك ؟ ..

محفوظ : نعم .. الذين يهاجمونني .. يعيبون عليّ ما يصفونه بالاحكام الرياضي او الهندسي في بناء اعمالي الفنية . ويتهمونني بأنني مهندس ..

أ . منصور : الواقع ان هذا رأي شائع في اعمالك ..

محفوظ : أرأيت ؟ .. والحقيقة انني كنت قد بدأت اتأثر بهذا الانتقاد .. حتى قرأت في كتاب عن الفن في مصر القديمة ان الفنان المصري لا يمكن ان يكون الا مهندسا .. وعند ذلك ارتاحت نفسي .. وقلت لنفسي حتى لو كان ذلك عيبا .. فلا بأس ..

أ . منصور : انا لا اعتقد ان في ذلك ما يعيب ..

محفوظ : وقد تكونت هذه السمة لدى الفنان المصري بسبب طبيعة بلاده الجغرافية .. اي ان المناطق الجغرافية مقسمة تقسيما يكاد يكون هندسيا . فهناك النيل ثم الخضرة ثم الصحراء .. وكلها تسير في خطوط تكاد تكون محكمة التوازي . وقد خلق ذلك في الفنان المصري

حسا بالتناسق والتماثل .. وهي سمات نبذها الفن الغربي واعتبرها عيوبا .. اما انا فقد تمسكت بهذه السمات رغم كل ما كان يقال ضدها .. وانا اعتبر ان تمسكي لهذه السمات كان بسبب الأصالة وليس العجز ..

أ . منصور : وبالاضافة الى ذلك ، فانا اظن ان البناء الفني المحكم هو احد السمات الرئيسية التي تميز ادبنا وفننا الشعبي . ونحن اذا اخذنا « الف ليلة وليلة » مثلا، فسوف نجد بناءا فنيا يكاد ان يكون متفردا وعبقريا في احكامه . وبفضل هذا البناء الفني المحكم امكن جمع هذه المئات من الحكايات والقصص المختلفة الاصول والمواضيع في عمل فني واحد ... شديد الترابط ويتميز بوحدة عضوية .. فالمرء حين يفرغ من قراءة « الف ليلة وليلة ».. لا يحس أبدا انه قد قرأ مجموعة من القصص .وانما يحس أنه قرأ عملا فنيا واحدا .. ذو تأثير واحد مكثف ..

محفوظ : هذا صحيح تماما .. والواقع ان « الف ليلة » تذكر المرء بطراز « الأرابيسك » العربي ..

أ . منصور : ربما كان هذا صحيحا .. ولكن ما يهمني هو هذا النظام الصارم الذي يربط اجزاء هذا العمل في كل واحد ..

محفوظ : هذا شيء موجود بالفعل في « الف ليلة » ..

أ . منصور : ولولا هذا النظام لاصبح من المستحيل جمع كل هذا الشتات في كل واحد متماسك ..

محفوظ : هذا صحيح .. انا متفق معك ...

أ . منصور : عظيم .. ان ذلك كله يثير سؤالا آخر وهو : هل تعتقد ان ما قمت به من اعادة صياغة او استيحاء لألف ليلة وليلة يجري على نفس النسق الذي جرى عليه الاستاذ توفيق الحكيم ، مثلا ، عندما كتب « شهرزاد » او « بيجماليون » او « اوديب » .. اي استيحاء هذه الأعمال الشعبية وفقا لخطوط او لنموذج اوروبي ؟ ..

محفوظ : اقول لك صراحة ، انه من الصعب ان يكون الانسان كاتبا وناقدا في نفس الوقت .. قد يكون هناك من يمتلك الموهبتين .. ولكن مثل هؤلاء نادرون . وانا اترك لك الحكم عندما تقرأ ما كتبت . وصدقني انني لا احاول التهرب.. ولكن ما تطلبه امر صعب .. لماذا ؟ .. لانني بالقطع لن استطيع ان اتخلص مما اكلت ، بالاضافة الى ان من واجبي الآن ان اشرح موقفي فيما يتعلق بالتراث والثقافة الاجنبية والازدواج الثقافي ..

أ . منصور : وهذا هو موضوع حديثنا يا استاذ نجيب .. تفضل ..

محفوظ : الواقع ان موقفي من كل ما قرأت طيلة حياتي ـ وقد قرأت في التراث الفرعوني والتراث العربي واعمالا فنية انجليزية وفرنسية ـ كان موقفا حياديا بقدر الامكان ، وليس موقف المتحيز . وذلك باعتبار ان كل هذه الثقافات هي ، في نهاية الأمر ، ثقافات انسانية ، انتجها الانسان ، وان لي في التراث الانجليزي بقدر ما لي في التراث الفرعوني .. اي ان كل هذه الثقافات ملكي .. بوصفي انسانا. واذا سألتنى ان اذكر احب الاشياء الي بالترتيب .. فمن

الجائز ان تجد من بينها عملا فرعونيا .. وعملا آخر فرنسيا .. وعملا ثالثا عربيا .. وعملا رابعا انجليزيا . فأنا اقرأ .. واترك لنفسي ان تحب ما تراه جديرا بالحب ، وبصرف النظر عن جنسيته ..

أ . منصور : ولكن هذا الاختيار .. او التفضيل تتدخل فيه عوامل خارجية .. وذلك بمعنى انك تتجاهل في ما نقول ، ذلك التاثير الهائل الذي مارسه على جيلك عمالقة الجيل الذي سبقه من امثال احمد لطفي السيد وطه حسين وسلامة موسى .. الخ .

محفوظ : انا معك في ذلك .. والواقع انني كلما رجعت بالزمن الى الوراء كلما ازداد موقف الحياد هذا اهتزازا وضعفا .. اي انه كان ضعيفا عندما كنت في مقتبل العمر .. ثم ازداد قوة وثباتا بتقدمي في العمر ووصولي الى سن النضج .. بحيث انني الآن لا اميز بين عمل فني وعمل فني آخر بسبب الجنسية . وكمثال على ذلك فان هناك عددا من الشعراء العرب الذين افضلهم عن سواهم من الشعراء العرب .. وكذلك فان هناك عددا من الشعراء الاجانب الاثيرين لدي . واستطيع ان اقول انني استمتعت بأعمال ت . س . اليوت كما استمتعت بأعمال ابي العلاء المعري . ومع ذلك ، فان احب شاعرين لدي هما : حافظ شيرازي وطاغور . والاثنان ، كما ترى ، شاعران شرقيان .. لا هما من الغرب ولا من العرب .

وانا لا استطيع ان اكذب على نفسي . فأنت اذا قلت لي انني سوف اذهب الى بلد ما .. وان علي ان آخذ معي اعمال شاعرين فقط ، فانني سوف اختار قطعا اعمال هذين الشاعرين : شيرازي وطاغور . اما هنا في بلدي . فان الجميع أمامي .

أ . منصور : الواقع انني حسبت انك سوف تختار عملا من اعمال الكتاب الصوفيين . مثل ابن عربي او النفري او عبد القادر الجيلاني ـ والذين تقترب كتاباتهم كثيراً من روح الشعر .. بل الذين يكتبون الشعر فعلا ..

محفوظ : ان ما تقوله صحيح .. وقد استمتعت كثيرا بقراءة اعمال من ذكرت من الكتاب الصوفيين .. وربما اكون قد تأثرت بهم في كتاباتي .. وقد لمست انت ذلك حين اشرت الى ظهور شخصية القطب الصوفي في اعمالي . اما فيما يتعلق بالرواية فربما كان كاتبي الاثير فرنسيا .. اعني مثلا ..

وباختصار انا لا احب كلمة الازدواج ـ بالمعنى السيىء ـ ولا كلمة الغزو ايضا . فانا اعتبر الثقافة شيئا انسانيا تماما . وانا ـ باختصار ـ ضد اي ذم يوجه الى اية ثقافة اجنبية .. وضد كلمة الغزو او الازدواجية .. الخ . كما انني اعتبر ان الثقافة كلها انسانية ، صحيح ان هناك ثقافات انسانية ووطنية في نفس الوقت .. ونحن نتمنى ان نجد بها ما نريد ، اما اذا لم نجد ما نريد فان ذلك لا يصح مبررا للخوف او للاسف .. ولا يعتبر ذلك ضياعا للشخصية .

وانا اريد ان احدد لك موقفي بالنسبة الى التيارات المعروفة عندنا منذ الحملة الفرنسية . فهناك من يتمسك بالماضي بشكل حرفي ويرفض كل جديد . وهناك من يريد الجديد ، بشكل حرفي ايضا ، ويرفض كل ما عداه بلا استثناء . وهناك بالاضافة الى هؤلاء وهؤلاء من يقف موقفا وسطا وينادي بالأخذ بما يناسبنا من الجديد والقديم . واستطيع ان اقول انني لا اؤيد ايا من

هذه التيارات الثلاثة .

ذلك ان الاصالة الحقيقة هي ان تكون نفسك ، وان يكون عقلك متحررا من كل من الانبهار والتحيز . ذلك انه لا شيء يفسد التفكير اكثر من الانبهار والتحيز . وسواء كان هذا الانبهار والتحيز للقديم اوللجديد . لأنه كما ان الجديد يبهر ويدعو للتحيز ، فان القديم ايضا - وبخاصة في عصوره الذهبية - يبهر ويدعو للتحيز . والمطلوب منك ان تتحرر من الأثنين. وعند ذاك سوف تعرف ما ينفعك في جهودك من اجل تحقيق النمو والازدهار والاهتداء الى الطريق الصحيح . ولا يهمني بعد ذلك ، ما ينتج . فان كان ما ينتج كله شرقيا .. فسوف اختاره ، وان كان ما ينتج غربيا كله .. فسوف اختاره ايضا .

اي ان ما نحن بحاجة اليه ليس ان نقيم سدا ضد الغزو .. او ان نتجه الى التراث .. بل ان ما نحن بحاجة اليه هو ان نربي انفسنا تربية عقلية استقلالية ، وان نتعلم كيف نفكر .. وكيف نختار ..

أ . منصور : بالنسبة الى ما قلته ، من ان الاصالة الحقيقة هي ان تكون انت نفسك .. فان السؤال الذي تثيره هذه المقولة هو : ومن انت ؟ وما هي مكوناتك الفكرية التي سوف تؤثر حتما ..

محفوظ : لو انني بدأت بتوجيه هذا السؤال الى نفسي .. ودخلت في دوامة الافتراضات .. فانني بذلك اكون قد اضعت وقتي . وسف اعرف من انا بالتجربة وفي مواجهة المشكلة . اي انني سوف ادرس الجديد والقديم معا ، وعلى قدم المساواة ، وسوف اربي نفسي تربية استقلالية . ولما كنت لا بد ان اواجه عددا من المشكلات في حياتي العملية ، ولما كنت قد ربيت نفسي تربية استقلالية ، ولما كنت قد اكتسبت خبرة واسعة من المحيط الانساني ، سواء كان تراثا ام لا ، فانني عندئذ سوف اعرف من اكون .. وبعبارة اخرى فانه لا مبرر ان احدد من اكون منذ البداية .. لأن ذلك هو ما سوف اكتشفه في النهاية ..

أ . منصور : وهل تستطيع الآن ، يا استاذ نجيب ، ان تجيب على هذا السؤال .. اي من تكون ؟ ..

محفوظ : الآن ؟ ..

أ . منصور : نعم ..

محفوظ : لا .. ذلك اننا بدلا من ان نصل الى تحديد من نكون ، ظللنا ١٥٠ عاما نتساءل : من نحن ..

أ . منصور : ومن كان يسال يا استاذ نجيب ؟ هل هم المثقفون العرب او المصريون .. الذين كانوا قد اختاروا هويتهم بالفعل وهي ان يكونوا مسخا مشوها للثقافة الغربية ، ام الجماهير التي احتضنت الثقافة القومية وردت عنها مطامع الغزاة ؟

محفوظ : لا .. انهم المثقفون بطبيعة الحال .. فهم الجديرون بالتساؤل .. والجديرون ايضا بالاهتداء الى الجواب . ولكنهم غرقوا طول ١٥٠ عاما في نقاش ، لا اول له ولا آخر ، حول من يكونون . بينما لو انهم استثمروا هذا الوقت في العمل . لعرفوا من هم .. وذلك بشرط ان

يتحلوا بالاستقلالية . لأنه بدون ذلك لن تكون نفسك ابدا ..

وايضاحا لما قلت .. لنفترض انني انمتك تنويما مغناطيسيا .. اي انني فرضت سيطرتي عليك حضاريا وثقافيا .. فانني لو سألتك من تكون ، فان اجابتك لن تكون تعبيرا عن شخصيتك .. لأنك سوف تكون عندئذ في حالة غيبوبة ..

أ . منصور : طيب يا استاذ نجيب .. دعنا نفترض ان رواياتك قد سجلت قراءة على شرائط كاسيت ـ وذلك كي نتغلب على عائق الـ ٨٠٪ امية ـ فهل تعتقد ان الشحنة العاطفية او العقلية التي دفعتك لكتابتها سوف تصل الى الجماهير الشعبية في قرانا ومدننا . كما تصل احيانا الى المثقفين ؟.. وينبغي ان نضع في اعتبارنا هنا النجاح الذي اصابته هذه الروايات عند تحويلها الى افلام او مسلسلات تلفزيونية . رغم ان ذلك قد افقدها ، في معظم الاحوال ، شحنتها العقلية والعاطفية ، ولم يبق منها سوى الحكاية او « الحتوتة » . ويجب ان نذكر في هذا المقام ايضا ان الحكاية كانت ، ولا تزال ، احد الاساليب التكنيكية التي طورها الفن الشعبي ووصل بها الى مستوى رفيع .. وان الاتهام الذي يوجه اليك بانك مهندس صارم .. هو في واقع الامر اتهام لك باستخدام هذا الاسلوب التكنيكي الشعبي . ذلك ان الحكاية تستلزم كما نعرف بناءا هندسيا محكما لضمان عنصر التشويق وعدم فقدان اهتمام السامع او القارىء ..

محفوظ : لا بد لكي تصل الشحنة التي تشير اليها ، من اسلاك اتصال . وهذه الأسلاك تنقسم الى نوعين : نوع طويل المدى ، ويتمثل في القضاء على الأمية بين الجماهير ، وتعليمها القراءة والكتابة ..

أ . منصور : ولكننا افترضنا ان رواياتك قد تم تسجيلها على شرائط كاسيت . اي انه لا داعي هنا لمعرفة القراءة والكتابة ...

محفوظ : ولكن ذلك لا يكفي . لأنه يجب ان تفهم ما تسمعه والمرء لن يفهم الا اذا تعلم القراءة والكتابة ...

أ . منصور : ولماذا لن يفهم ؟ ..

محفوظ : لأنك تتحدث بلغة غير تلك المتداولة بين الجماهير ..

أ . منصور : تعني ان المشكلة هي ان رواياتك مكتوبة بالعربية الفصحى ؟ ..

محفوظ : نعم .. هذا امر .. والأمر الآخر هو الترجمة الأمينة عن طريق اجهزة الاعلام العصرية وبشكل يختلف عن الحادث الآن ..

أ . منصور : لنفتضر ان هذه الروايات قد تم تسجيلها دون سيناريو أو تحوير او تعديل .. وبصوت محايد ايضا ؟ ..

محفوظ : لن يحدث ذلك فرقا .. فلن يفهمها الا من يستطيع القراءة .

أ . منصور : وما هو هذا الحاجز الذي يفصل بينك وبين قراءك الطبيعيين ؟ ..

محفوظ : انه اللغة بطبيعة الحال ..

أ . منصور : اللغة بمعنى ما تعنيه رموز الحروف ؟ ام بمعنى ما تحمله من قيم

ونقاط انطلاق ايديولوجية .. الخ ؟ ..

محفوظ : اعني اللغة بكل مفهومها .. وهي التي لا يصل اليها المتعلم ذاته الا بعد تدريب خاص ..

أ . منصور : وما هي طبيعة هذا التدريب يا استاذ نجيب ؟ ..والا يمثل محاولة لتقليد نظم التعليم الأوروبية بهدف انتاج نماذج مماثلة للنماذج الأوروبية ؟ ..

محفوظ : ولكن هذا موضوع آخر . وانا اخشى اننا قد بدأنا نخرج عن موضوع حوارنا ..

أ . منصور : لا بالعكس يا استاذ نجيب ، فان ذلك عنصر اساسي هام في الموضوع . ذلك ان مجموعة المثقفين والكتاب ـ او فلنقل الـ ٢٠ ٪ الذين يعرفون القراءة والكتابة ـ قد تلقت تدريبا وتعليما معينا جعلتهم يفكرون ويعيشون بطريقة مختلفة تماما عن الطريقة التي يفكر ويعيش بها الـ ٨٠٪ ممن لم يمروا بنظام التعليم الموحد ..

محفوظ : هذا صحيح . كما ان المثقفين كانوا يفكرون بنفس النمط الذي تفكر به جماهير الشعب . قبل ان يتعلم هؤلاء المثقفون القراءة والكتابة ..

أ . منصور : اذن فهذا هو الحاجز الذي يفصل بين المثقفين وبين جماهير الشعب ؟ ..

محفوظ : نعم هذا هو الحاجز . وازالته تتم عن طريق التعليم ..

أ . منصور : اي ان أحول نسبة الـ ٨٠٪ الباقية الى مسوخ اوروبية ايضا ؟ .. لا اظن انك تريد ذلك يا استاذ نجيب ..

محفوظ : لا.. اننا نتحدث الآن عن مشكلة اللغة .. ووجوب ان يتعلم الناس لغتهم .

أ . منصور : ولكن المثقفين لا يتحدثون بلغتهم .. وانما يتحدثون بلغة اجنبية ..

محفوظ : وهل تعني ان من يتعلم يصبح مسخا ؟ ..

أ . منصور : الواقع الآن يا استاذ نجيب ، ان مثقفينا لا يزيدون في معظمهم عن ان يكونوا مسوخا مشوهة للثقافة الاوروبية ..

محفوظ : لا ان الامر ليس كذلك .. فالواقع ان التعليم ككل يجعل منا مسوخا ، لأنه يقوم على الحفظ والاستيعاب ..

أ . منصور : ولانه يقوم ايضا على تلقين قيم أجنبية ..

محفوظ : دعك من هذا فهو امر آخر .. فالتعليم يجب ان يقوم اساساً على تربية العقل . وانت اذا ربيت عقل المتعلم ، فلن يكون هناك ما يخيف في ان تعرض عليه ما شئت من القيم . ذلك انه سوف يكون قادرا على التمييز بين القيم الطيبة والقيم السيئة .. وما يناسبه منها وما لا يناسبه . واذا كنت ترى الآن من يقلّد الأوروبيين مثل القرود ، فان ذلك لأنهم قد تربّوا على التقليد ، هذا هو الأساس . ولو ان هؤلاء كانوا قد تلقوا تربية استقلالية ، لما حدث ذلك . فعلى الرغم من ان المواطن الانجليزي ، مثلا ، يدرس الثقافة الفرنسية ، فان ذلك لا يفقده شخصيته القومية . لماذا ؟ لأنه يفكر ..

أ . منصور : ولكن اليس ذلك مثلا غير دقيق يا استاذ نجيب ؟ .. اعني ان ما تسميه بالثقافة الانجليزية .. او الثقافة الفرنسية .. هما في الواقع جزء من الثقافة الغربية أو الأوروبية ؟ ..

محفوظ : ان ثقافتنا قريبة اشد القرب من الثقافة الاوروبية . وذلك لأن كلاهما يقوم على اسس واحدة مشتركة تقريبا . فقد قامت الثقافة الأوروبية على المبادىء الاخلاقية المتضمنة في « التوراة » ، وعلى العلم الحديث الموروث عن الاغريق . والثقافة العربية تقوم ايضا على نفس الأسس . ولا اهمية للاختلاف بين التوراة وبين القرآن . ذلك أن القرآن يقول أنه يحوي التوراة والانجيل معا . اذن فالقيم الاخلاقية واحدة . وكذلك فيما يتعلق بالاغريق . فان العرب ترجموا الآثار الاغريقية وتربّوا عليها .. وهذان هما الاساسان اللذان تربت عليهما الانتليجنسيا العربية . والواقع ان كلا من ثقافتنا والثقافة الغربية ينتميان الى عائلة واحدة . وذلك على عكس الثقافة الهندية ، مثلا ، التي تنتمي الى عائلة ثقافية مختلفة . وهذا يفسر عدم رواج ادبنا في اوربا ، في الوقت الذي يحظى فيه الأدب الافريقي ، مثلا ، برواج كبير . ذلك ان الأدب الافريقي يمثل ، بالنسبة الى اوربا ، شيئا جديدا . بينما نحن نقدم اليهم نفس قيمتهم حين كانت لا تزال في المهد .. ولم تنضج بعد ..

أ . منصور : وهذا هو المقصود بالمسخ الثقافي يا استاذ نجيب . والواقع ان ما قلته يا استاذ نجيب بشأن انتماء الثقافتين العربية والاوروبية الى عائلة ثقافية واحدة هو امر لم يصل بعد الى درجة الحقائق العلمية . واقل ما يمكن ان يقال عنه هو انه لا زال موضع خلاف وجدل . بالاضافة الى ان هذه نظرة اوروبية اصلا . كما اننا يجب ان نضع في اعتبارنا ما تتميز به الثقافة الغربية من عدوانية ومن انكار لوجود الثقافات الأخرى ..

محفوظ : قد يكون ذلك صحيحا في فترة من الفترات .. وانا ارجو ما دمنا نتحدث عن الحاضر ان نظل في الحاضر ..

أ . منصور : من الصعب ، ان نفصل الحاضر عن الماضي .

محفوظ : على اية حال فان تلك كانت مجرد مرحلة . ولنأخذ مثلا موقف المستشرقين من الاسلام .. وانظر كم كانوا مغرضين ومتحيزين في حملاتهم الرامية الى التشويه في العصور الوسطى . ثم كيف تغير ذلك الى البحث العلمي الموضوعي .. وهم اول من ابتكره .. (!؟؟ ـ أ . م) أليس كذلك ؟ ولذلك فقد قدم هؤلاء المستشرقون عددا من اهم واعظم الدراسات عن الاسلام .. والتي تعود بالفائدة على المسلمين انفسهم .

وهكذا فاذا كانت الثقافة الاوروبية قد أصلحت من شأنها.. فلماذا نرفضها.وألن يكون غريبا ان نقبل الثقافة الاوروبية حين كانت ، كما تقول ، تتميز بالعدوانية وانكار الغير ، ثم نرفضها حين تعود الى الصراط القويم ؟ ..

أ . منصور : معذرة يا استاذ نجيب .. ولكنني يجب ان اوضح لك هنا ان ما اقوله لم يكن يعني المطالبة بقبول شيء او رفضه .. او ادانة شيء او تبرئته .. وانما انا اقصر نفسي على مجرد توصيف الوضع القائم حاليا .. ولأن الماضي مسؤول الى حد كبير عن

جانب هام من الحاضر ، فانا اضطر احيانا الى الرجوع الى الماضي ..

هذا امر ، والأمر الآخر انني الاحظ انك تتحدث عن الأمر كما لو انه مجرد تأثر بالثقافة الاوروبية . والواقع ان الأمر لو كان قاصرا على ذلك ، لما كانت هناك اية مشكلة . ذلك ان التأثر بالثقافات الاجنبية هو امر طبيعي ويمثل ضرورة حيوية ايضا . ولكن ما حدث ، وما زال يحدث ، هو الذي يمثل هذه المشكلة التي نتحدث عنها . وهي هذا الانسحاق امام الثقافة الاوروبية ..

محفوظ : انا اشك في صحة ذلك . والدليل اننا تعاملنا مع الثقافة الغربية ، فماذا كانت النتجية ؟ هل كانت النتيجة هي الخضوع والمجاراة ، ام الثورة .

أ . منصور : وهل تريد مني ان اجيب انا على هذا السؤال ؟ ..

محفوظ : نعم ..

أ . منصور : الواقع ان احدى اوجه النقص الاساسية التي شابت حركة النضال من اجل الاستقلال الوطني التي قام بها الشعب المصري بقيادة زعماء من امثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول والنحاس ، كان إغفالها لمسألة تحقيق الذات القومية وتحديدها . وقد أشرت انت ، يا استاذ نجيب ، ذلك عندما قلت اننا ظللنا ١٥٠ عاما نتساءل عن من نحن او من نكون ، وقد كان من المفروض ان تكون الاجابة على هذا السؤال احدى المهام الاساسية لحركة النضال من اجل الاستقلال الوطني . ذلك ان البحث عن الشخصية القومية وتحديدها وتحقيقها هي احدى السمات الرئيسية للحركات المعادية للاستعمار والاحتلال الاجنبي . وقد كانت هذه السمة مفتقدة في حركتنا .

محفوظ : شوف ، يا استاذ ابراهيم .. انا أؤمن بأنه لا مفر من سيادة الثقافة الاكثر كفاءة .. وهذا لخير الانسان ، وليس لضرره .

أ . منصور : ايعني هذا ان الانسحاق خير ؟ ..

محفوظ : لا ليس الانسحاق .

أ . منصور : اننا نتحدث عن الانسحاق .. وليس عن شيء آخر ..

محفوظ : نعم ما اعنيه هو: كيف يحدث التعامل مع مثل هذه الثقافات ؟ .. في البداية يكون هناك انبهار او الانسحاق ..

يتبعه يقظة .. ثم تأتي مرحلة حسن الاختيار ..

أ . منصور : وهل تعتقد، يا استاذ نجيب ، اننا نعيش الآن في مرحلة حسن الاختيار هذه ؟ ..

محفوظ : نعم وبدليل انك تجري معي هذا الحديث .. او فلتسأل نفسك : لماذا لم تجر هذا الحديث منذ عشرين عاما ؟ ..

أ . منصور : ربما لانني لم اكن اعرف القراءة والكتابة آنذاك .. ! ..

محفوظ : ها ها ها المهم ان لهذا الحديث دلالته .. فأنت ضد الانسحاق .. اعني ان الفترة التي نعيشها الآن هي فترة يقظة ومراجعة للنفس .. وهي فترة تأتي في وقتها ..

أ . منصور : الواقع انني لاعتقد ان لتوقيت هذا الحديث تلك الدلالة التي تشير اليها ، يا استاذ نجيب . ذلك ان حركة مقاومة الانسحاق قد صاحبت عملية الانسحاق منذ بدايتها ..

محفوظ : ولكن حديثك ليس هو الحديث الوحيد .. ذلك ان هذا الموضوع في الواقع هو الشغل الشاغل للناس الآن ..

أ . منصور : ربما كان ذلك صحيحا .. او على الاقل ارجو ان يكون .. ولكنني اعتقد ان الناس كانت تفكر في هذا الامر باستمرار .. وربما كان هذا الانشغال يتخذ صورا اخرى مختلفة ولكنه كان موجودا دائما .. ومن هذه الصور ذلك النقاش الطويل حول الاصالة والمعاصرة مثلا .. ولكن المشكلة اننا، حتى الآن ، لم نجد حلا لهذه المشكلة ..

محفوظ : نعم هذا صحيح .

أ . منصور : وكما قلت انت ، يا استاذ نجيب ، فاننا ظللنا ١٥٠ عاما نتساءل عمن نكون .. ولم نجد إجابة على هذا السؤال حتى وقتنا هذا ..

محفوظ : ذلك لأننا لم نكن نتبع الطريق الصحيح للوصول الى الاجابة . فالاجابة تأتي عن طريق العمل ، وليس الكلام .. اي ان تعيش الحياة بشكل مستقل .. وعندئذ سوف تعرف من انت .. وعلى سبيل المثال ، فقد كان للفراعنة شخصيتهم الوطنية المستقلة .. والتي انعكست على فنونهم ومبانيهم .. الخ وهم لم يسألوا انفسهم ابدا عمن يكونون ، بل لقد اتى ذلك بشكل آلي عن طريق العمل .. ولذلك فانا لا استطيع ان اصف نفسي بانني رجل كريم وشجاع وطيب القلب .. فهذا لن يقنع احدا . وانما المهم هو كيف اتعامل مع الحياة ومع الناس .. فمن هذا التعامل استطيع استنتاج الصفات .. وانت تعرف سمات الشخصية الروائية من علاقاتها وتصرفاتها وعملها ..

أ . منصور : الواقع ، يا استاذ نجيب ، ان ما تقول يبسّط المشكلة تبسيطا مخلا . ذلك ان المشكلة لا تنحصر فقط في انسحاق المثقفين ـ طوال التاريخ المصري ـ امام ثقافات الغزاة..بل تتعداها الى وجود هذا الانفصال الذي لا جسور عليه بين هذه الثقافة المسخ وبين الثقافة الشعبية التي تحتفظ في احشائها بكثير من عناصر الثقافة القومية . وقد وصل هذا الوضع ، في عهد سلاطين المماليك ، الى حالة من الاستقطاب الشديد الوضوح . وحين يستعرض المرء الانتاج الثقافي بمختلف انواعه في هذا العهد ، فانه يفاجأ بانه يمكن تقسيم هذا الانتاج بسهولة الى ثقافتين متميزتين ومختلفتين وكانهما ينتميان الى امتين لا رباط بينهما .

محفوظ : ولنفرض ، يا استاذ ابراهيم ، انه لم يكن هناك احتلال يوناني ولا سلاطين ولا احتلال انجليزي ، وان كل ما هنالك ان المصريين ينقسمون الى قسمين : قسم متعلم وقسم امي لم يتعلم .. الا تعتقد ان هذا الازدواج سوف يوجد ايضا ؟.. ان الاجابة هي ان هذا الازدواج كان سيحدث ..

أ . منصور : وما دلالة ذلك ؟ ..

محفوظ : ان اهمية ذلك هو ان الانقسام او الازدواج سببه الفرق بين العلم والجهل ..

أ . منصور : وعلى اساس اي منهج يتم تلقين هذا العلم للدارسين ؟ ..

محفوظ : على أساس امداده بالمعلومات العلمية المتاحة .

أ . منصور : ولكننا نعرف جميعا ، يا استاذ نجيب ، ان المناهج الدراسية لا تحتوي على الحقائق العلمية وحدها .. بل هناك كيفية تفسير هذه الحقائق .. وكيفية عرضها .. ولناخذ الحقائق التاريخية على سبيل المثال .. الا يختلف الناس كثيرا - وفقا لخلفياتهم - في تفسيرها ؟.. هذا امر ، اما الامر الآخر ، فهو ان التعليم يرتبط ارتباطا وثيقا بالقدرة الاقتصادية اي الوضع الطبقي .. والطبقات داخل المجتمع الواحد لا تكون لها ثقافات مستقلة .. وانما تكون لها الوان ثقافية مختلفة .. يجمعها اطار ثقافي عام واحد ..

محفوظ : اذن فقد تكون ثقافتنا قد تلونت بالثقافة الاجنبية .

أ . منصور : لا ان ما حدث هو ان المثقفين وقفوا وقفة المنسحق امام هذه الثقافة الاجنبية .

محفوظ : حين يحدث انسحاق .. فلا بد ان تكون له اسبابه التاريخية ومنها انك تلقيت ثقافتك من يد الحاكم الاجنبي . ومن الحقائق التي يعرفها علماء الاجتماع - وقد عرفها ابن خلدون ايضا - ان المغلوب يقلّد الغالب دائما . بل وينسحق امامه . ولذلك - فانه حين تأتي الثقافة عن طريق المستعمر فانها تكون ذات طابع يختلف عن ثقافة تأتي عن طريق علاقات قوامها المساواة والحرية . ولذلك فان الشكل الذي اخذت به اليابان ، مثلا ، الثقافة الاوروبية يختلف عن الشكل الذي اخذناها نحن به . فقد اقتنعت اليابان بفائدة العلم والصناعة ،ولكنها احتفظت - في ذات الوقت - بتراثها.اما نحن..فلاننا اخذنا هذه الثقافة عن طريق علاقة استعمارية ، فقد قلدنا المستعمر في كل شيء . ولكن ليس من الضروري ان تكون النتيجة - حتى في حالة الانسحاق - اسوأ .. اي ليس من الضروري ان يؤدي ذلك الى ازدياد حالتك سوءاً .. بل ربما ادت الى وضع افضل .. ولقد اعتبرت انت ان زوال الشخصية القومية - اذا كان من الممكن ازالتها - يمثل خسارة وقد يكون الأمر كذلك ، وكان هناك ايضا ، احتمال ان لا يكون كذلك . ونحن اذا لم يكن لدينا غير الثقافة الفرعونية . فسوف تكون شخصيتنا قومية .. واذا نحن بلغنا الثقافة اليونانية وانسحقنا امامها ، فسوف نكون ايضا مصريين لنا شخصيتنا القومية ..

أ . منصور : اشكرك كثيرا ، يا استاذ نجيب ، واعتقد اننا بهذا الشكل نكون قد تناولنا معظم النقاط الواردة في هذه القضية * .

---

* سجل في القاهر عام ١٩٨١ ونشر في « السفير » اللبنانية بتاريخ ١٧/٥/ ١٩٨١

يوسف ادريس

ا . منصور : الكاتب القصصي والمسرحي الدكتور يوسف ادريس ، كنت قد قمت في منتصف الستينات بكتابة سلسلة من المقالات في الاعداد الاولى من مجلة « الكاتب » الشهرية المصرية ، تدور حول المسرح الشعبي ، دعوت فيها الى تبني الاساليب المسرحية لما اسميته « مسرح السامر » .. الذي كنت تؤمن بانه مسرح « شعبي موغل في القدم » .. وحين افكر في سلسلة المقالات هذه فانني اجد ان مدلولها الان ـ وبالنسبة لي شخصيا ـ قد تغير عن ما كان عليه حين قرأتها في الماضي .. ذلك انها اصبحت تشير الان ـ وانا لا زلت اتكلم عن انطباعي الشخصي ـ الى ان احد همومك الرئيسية ـ وربما كان هذا احد الهموم الرئيسية لكل الكتاب الذين يحاولون التعبير بامانة وشرف عن انفسهم ـ كانت ومنذ زمن طويل ، مشكلة الاتصال بالناس ـ وربما كان ذلك يعكس ايمانا ، تولد لديك بوجود نوعين من الثقافة في بلادنا : ثقافة رسمية وثقافة اخرى شعبية ـ او على الاقل بوجود نوعين من الابداع الفني : ابداع فني رسمي واخر شعبي وقد كان تحيزك للابداع الفني الشعبي واضحا في سلسلة المقالات هذه ، واعتقد ان السبب في ذلك يعود ببساطة الى رغبتك في ان يكون لك جمهور قادر اولا ، على الاستمتاع بما تكتبه وقادر ثانيا على حمايتك اذا طرأ ما يستوجب هذه الحماية ... وقد كان ما سبق في الواقع محاولة لايجاد مدخل الى موضوعنا ... فانا اقوم ـ كما رويت لك منذ نحو يومين ـ باجراء حوارات تدور حول مقولة معينة . وقد عرضت عليك هذه المقولة حينذاك واود الان ان اسمع رأيك او تعليقك على ما سمعت ..

ادريس : .. وهل يعني ذلك انك سوف تلتزم الصمت .. ولن تقاطعني .

ا . منصور : لك يا دكتور ان تتكلم كما تحب .

ادريس : عظيم .. سوف ابدأ بما قلته بخصوص دعوتي لاقامة مسرح اكثر شعبية . وانا اريد ـ اذا لم يكن لديك مانع ـ ان الخص ما كنت اهدف اليه من وراء سلسلة المقالات هذه . فنحن ـ كمصريين ـ لنا طبيعة بوصفنا بشرا ، لا تختلف فقط عن طبيعة الغربيين .. بل تختلف ايضا عن طبيعة باقي سكان كوكبنا هذا . ومهمة الفن ، في اعتقادي هي اكتشاف

الطبيعة الخاصة بكل شعب . وهذا عكس مهمة العلم . ذلك ان قواعد العلم تتسم بالعمومية وبانها كونية ايضا تنطبق ليس فقط على كوكبنا هذا ، بل على الكواكب الاخرى ايضا مثل القمر والمجرات الاخرى المختلفة . واما الفن فهو يتسم بالخصوصية ويتعلق ليس فقط بكل شعب على حدة ، بل وبكل شخص على حدة ايضا ، وقد كانت تجاربي القصصية الاولى تحاول ان تكتشف الطريقة المصرية .. والموضوع المصري للقصة ... اي الهموم المصرية .. او ما هي مشكلة الانسان المصري الذي يريد ان يرويهـا ، او يقصها ويحكيها . وقد كانت رؤيتي لهذا الموضع .. او موقفي من الحضارة الغربية على الاصح ، هو موقف المستفيد وليس المنبهر . وذلك بمعنى ان ادرس الحضارة الغربية .. وانت تعرف انني درست الطب على النمط الغربي . ولكن موقفي كان ان اتسلح بما توصل اليه الغرب من علوم ومعارف ، من اجل اكتشاف نفسي ، او ذاتي ... ولا يعني ذلك ، طبعا ان انسى نفسي واغرق في خضم الحضارة الغربية . وبناء على ذلك ، وبناء على استشراف داخلي ايضا ، احسست انه لا بد ان تكون هناك قصة مصرية ذات طابع خاص . وقد كنت دائما اقول ان المصريين هم اول من ابتكر القصة القصيرة ـ وليس بوكاشيو (كاتب ايطالي من عصر النهضة ، اهم كتاباته هي « الديكاميرون » التي يظهر فيها بوضوح تأثره بألف ليلة وليلة ـ أ . م) وذلك ان المصريين ابتكروا النكتة التي هي في الواقع قصة قصيرة .. او اقصر قصة قصيرة ، وقد اكتشف المصريون ايضا ان اخطر ما في القصة القصيرة هو نهايتها . لذا فان نهاية النكتة لا بد وان تكون صارخة ، زاعقة . وهكذا ، فان القصة القصيرة التي لا تنتهي نهاية صارخة لا تصلح لمصر .. لانها تكون ، في الواقع قصة اوروبية ، فنهاية القصة المصرية اهم من بدايتها .

كذلك فانني حين اتجهت الى الكتابة المسرحية ـ وقد اتجهت اليها منذ زمن بعيد ... بل ربما قبل ان ابدأ في كتابة القصة ـ بدأت بكتابة مسرحيات تقليدية مثل « ملك القطن » و« جمهورية فرحات » ، و« اللحظة الحرجة » ، ثم توقفت بعد ذلك . وقلت لنفسي : لا ... ليس هذا هو ما اريد ان اكتبه فانا هكذا اكتب مسرحا للخاصة ... او مسرحا منقولا عن المسرح ال ...

أ . منصور : اوروبي ...؟

ادريس : لا بل المسرح الايطالي خاصة ... والذي تطور بعد ذلك في انجلترا وفرنسا ..

أ . منصور : تقصد ما يسمى بـ « الكوميديا ديلارتي » ؟

ادريس : .. لا .. اعني المسرح الايطالي الرسمي . ذلك انني اقسم الادب في العالم كله ـ بما في ذلك مصر ـ الى نوعين:ادب رسمي وادب شعبي بمعنى ان الادب نشاط طبقي..اي ان التحليل الطبقي ينطبق عليه الى حد كبير فهناك طبقة حاكمة ...وهناك ايضا طبقة محكومة .. وكلاهما يفرز الادب، الذي يخدم مصالح طبقته ووجهة نظرها . والادب الشعبي بطبيعته ادب ـ مقاومة .. لانه ادب يكتبه المسحوقون ضد من يسحقونهم والادب الرسمي بطبيعته ادب محافظ ، لانه يعني بالمحافظة على الاوضاع القائمة لمصلحة الطبقة الحاكمة . ويفسر لنا ذلك الفرق بين عمل مثل : « الف ليلة وليلة » وبين عمل مثل :...

أ . منصور : مقدمة ابن خلدون .

ادريس : لا .. دعك من مقدمة ابن خلدون ... فهذه لها قصة اخرى اعني مثل كتابات ابن الاثير .. وابن رشد بالذات .. وما شابه ذلك من كتابات تحاول تثبيت العقائد القائمة ، او تقديم تفسير غيبي للاشياء . ومن الناحية الاخرى نجد ان الادب الشعبي هو ادب حسي تماما .. ادب يتخيل بل انه حتى حين يتحدث عن بداية الخلق وما الى ذلك .. فانه يتحدث عن ذلك من منطلق حسي . ذلك لان الشعب كان جائعا : كان جائعا جنسيا .. وجائعا ايضا بالمعنى المتعارف عليه .. اي للطعام ... فالف ليلة وليلة هي في الواقع كتاب كتبه جوعى .. جوعى للجنس . وجوعى للخبز ... وجوعى للسفر والترحال وجوعى للثراء ، وعلى هذا فإننا يمكن ان نقول ان « الف ليلة وليلة » تدعو الطبقات الفقيرة الى

(هنا رن جرس تليفون يوسف ادريس . وحين فرغ من المكالمة التليفونية كان قد نسي ما كان يتحدث عنه . ولم تفلح كل محاولاتي لجعله يستكمل ما كان يقوله ...) .

وهناك فروق ايضا بين الادبين في الملامح .. وكذلك فيما يتعلق بالتطور .. فالادب الشعبي ليس مرادفا للتخلف على الاطلاق ... بل على العكس فان القصة في الف ليلة وليلة تصل الى مستوى من التطور لم تصل اليه القصة في الادب الرسمي . هذا مع افتراض وجودها . بل ان هناك مواقف في الف ليلة وليلة يمكن اعتبارها مشاهد مسرحية مكتوبة . وكل ما في الامر ان نشأة المسرح عندنا تختلف عن نشأة المسرح الاغريقي، وان مسرحنا لم يعرف الأبطال، او توزيع الادوار ... الخ . ولكنها فعلا مشاهد مسرحية والدليل على ذلك انه يمكن استيحاء مسرحيات منها كما فعل « الفريد فرج » على سبيل المثال اذن فالمسألة ليست مسألة مستوى ، وليست مسألة ثقافة ايضا وانما هي مسألة طبقات وانا بالمناسبة ـ لم اشعر ابدا ان شعبا ، قد هزم ابدا في اية حرب . حتى ولو كانت هذه الحرب قد ادت الى وقوعه تحت الحكم الاستعماري . فالذي يلقى الهزيمة في الواقع هو الطبقة الحاكمة . اي ان كل ما يحدث هو ان طبقة اجنبية تحل محل طبقة حاكمة محلية .. وبالتالي يحتل ادب هذه الطبقة الحاكمة الجديدة موقع السيادة .

أ . منصور : هل افهم من هذا كله ، يا دكتور يوسف انك توافق على المقولة التي تدور عليها هذه الحوارات التي اجريها .

ادريس : نعم .. انني اوافق عليها بدون تحفظ والى اقصى حد ولان الشعب كما قلت ، لا يهزم ابدا حتى ولو وقع تحت وطأة الحكم الاجنبي ، فان قيمه وتقاليده تظل سائدة ... بل ان مفاهيم جديدة للمقاومة اي ان الادب الشعبي يبدأ عندئذ في الانتباه الى فكرة المقاومة . ويشرع في ابداع قصص البطولة فالطبقات الحاكمة في مصر لم تكن هي التي ابدعت موال « ادهم الشرقاوي » بل كان الشعب هو الذي ابدعه هذا في الوقت الذي كان فيه احد الباشوات (هو احمد فتحي زغلول باشا) يقوم فيه بدور ممثل الاتهام ضد الفلاحين في قضية دنشواي . وينطبق ذلك ايضا على الاغاني الشعبية وما الى ذلك وما اريد ان اصل اليه هو انه ليس هناك ثقافتان وانما هناك طبقتان : شعب وحكام ، ولم يكن للطبقة الحاكمة المصرية على الاطلاق ثقافة بالمعنى المتعارف عليه . بمعنى ان لها حجما وابعادا وفلسفة واهدافا الخ . ولكن الشعب

كان له دائما ثقافة مستمرة ومتكاملة .. وهي ثقافة المقاومة وثقافة المقاومين .. اي بالتالي ثقافة الجوعى . وبهذا المقياس فانه يمكن اعتبار الثقافة الشعبية وفي كل العصور ثقافة متكاملة بينما نجد أن الثقافة الرسمية او ثقافة الحكام هي ثقافة قلة .. وثقافة منقولة في الغالب . تقع تحت تأثير موازين القوى السائدة في المجتمع .

واذا عدنا الى العصر الحديث فسوف نجد ان كلمة مثل كلمة الثورة، والتي يعتبرها بعض الناس كلمة غربية، او تعريفا غربيا للهبات الشعبية هذا في حين انها في الحقيقة تعبير شعبي حتى في الغرب اعني انها ليست تعبيرا حكوميا او رسميا .

أ . منصور:معذرة ..ولكن هل يمكنك ايضاح ما تقول بعض الشيء فالواقع انني لم ..

ادريس : سوف اضرب لك مثلا .. فالناس لم تكن تسمي ثورة عرابي (هو احمد عرابي باشا الذي قاد في النصف الثاني من القرن الماضي تمردا عسكريا ضد الخديوي توفيق انتهى باحتلال القوات البريطانية لمصر في يوليو « تموز » ١٨٨٢ ـ أ . م) بهذا الاسم ذلك ان الناس لم تكن تعرف كلمة « ثورة » وانما كانت كلمة « هوجة » فاطلقوا على ثورة عرابي اسم هوجة عرابي اي هياج عرابي ... او غضبه . هذا بينما نجد ان المؤرخين ـ سواء كانوا مصريين ام اجانب ـ يسمونها « ثورة عرابي » لانهم ، بحكم ثقافتهم كحكام ـ يعتبرونها ثورة ضد المؤسسة الحاكمة القائمة . والواقع ان التعبير الشعبي اكثر دقة ذلك ان ثورة عرابي في الواقع هي مجرد « هوجة » هوجة في الجيش ... اي هوجة عسكرية . ولكن هناك بالطبع علاقة بين الثقافتين او بين هذين النوعين من انواع الفن والادب . وهي علاقة استفادة وذلك يعني ان الادب الشعبي لا يرفض الاستفادة على الاطلاق كما انه لا ينبذ ادب الحكام . لانه ادب حكام . وانما هو يستفيد منه بل انه حتى استطاع ان يستفيد من المسرح الرسمي الذي اقيم في عهد الخديوي اسماعيل واستفادا ايضا من المسرحيات الاجنبية المترجمة . بل انه استفاد من شكسبير ايضا ، فانا مثلا ، في مسرحية « ملك القطن » جعلت المرأة الريفية العجوز تقول لابنها وهي تضربه : « انت عاملي رمرم يا ابن القمحاوي » و« رمرم » هو « روميو » او تشويه له .. اي انهم عرفوا شكسبير. وقد يكون ذلك قد حدث عن طريق الـ (التسلل او التسرب ـ أ . م) او عن طريق السماع بينما نجد ان الادب الرسمي لا يستفيد ابدا من الادب الشعبي بل هو دائما يقف ضده .. ويعتبره يمثل احدى سمات المقاومة ..

أ . منصور : واذا اهتم به فانه يفعل ذلك كي يشوهه .

ادريس : تماما ... ونحن لا نجد ابدا امثالا شعبية في خطب العرش . لان هذه الامثال تنتمي الى الشعب الذي ابدعها لمصلحته هو . وكذلك فانه من النادر ان نجد استشهادا بمثل شعبي في مقال سياسي ايضا .

أ . منصور : وهم يسيئون ايضا فهم الامثلة الشعبية فهم مثلا يفسرون المثل الشعبي الذي يقول : « اللي يجوز امي اقوله يا عمي » بانه يعني الاستسلام وعدم المقاومة . هذا في حين ان فحص المثل بقدر اكبر من العناية خليق بان يجعلنا نفهم هذا المثل بشكل مختلف ذلك ان المثل لا ينصح بمعاملة زوج الام بوصفه عما ، بل بتسميته

فقط . ولذلك فقد استخدم كلمة « اقوله » بدلا من كلمة « اعمله عمي » (اي اجعله عمي) الامر الذي يشير الى ان المثل يدعو فقط الى استخدام الحيلة عند مواجهة عدو اكثر منك قوة .

ادريس : هذا صحيح . تماماً والواقع ان المقاومة الشعبية في مصر تتخذ اشكالا غريبة ، تختلف عن اشكال المقاومة في بلدان اخرى كسويسرا على سبيل المثال حيث نجد ان بطلهم وليم تل بطل « ثورجي » حقا يضرب ويقتل ويسفك الدماء وذلك لانهم في سويسرا لديهم جبال يستطيعون الاختباء بها . اما نحن فليس لدينا جبال وانما لدينا الشعب نفسه الذي يوفر المخبأ والامان للبطل .

ا . منصور : وعندنا « علي الزئبق » ايضا .

ادريس : وعندنا الحقيقة ايضا التي يخفيها الشعب تحت دخان او وراء ستار من الكلمات او التصرفات المخادعة ذلك انه لا مناص له من الخداع .

اما فيما يتعلق بما اشرت اليه من دعوتي الى المسرح الشعبي فأنا في الواقع لم اكن ادعو الى « مسرح السامر » او الى استيحاء المسرح الشعبي فقط .. وانما كنت ادعو الى المسرح المصري كما احسسته انا . اي انني لم اكن ادعو الى استيحاء المسرح المصري . بل كنت ادعو الى المسرح المصري نفسه . والذي يرتكز في رأيي على فكرة التمسرح اي فكرة اشراك الناس او الجمهور في العملية المسرحية بمعنى الغاء الفارق بين الممثلين والمتفرجين اي ان يكون المسرح مثل حلقة الذكر . حيث لا يوجد متفرجون . وانما يوجد فريق ينشد ويصفق وفريق اخر يرقص جماعيا والمسرح ايضا يجب ان يكون جماعيا بمعنى انك تذهب الى المسرح لا لكي تتفرج على مسرحية ما بل لكي تشترك في عرض مسرحي ففي مسرحيتي « الفرافير » سوف نجد ان فرفـور يقول للناس انهم حضروا كي يمثلوا دور المتفرجين ... وليس لكي يتفرجوا . وفرفور هنا يخاطب طبقة من سكان المدن التي تعودت على المسرح التقليدى ... وهو يقول لهم انهم قدموا الى المسرح لكي يشتركوا في العرض المسرحي ، لا لكي يتفرجوا عليه . وقد كان من المفروض في عرض مسرحية « الفرافير » ان يشترك الجمهور بالرأي . اي ان تتحول المسرحية في النهاية الى ندوة تناقش مسألة السيد والفرفور ، ولكن ذلك لم يحدث للاسف بسبب تخوف مخرج المسرحية الاستاذ كرم مطاوع من عدم استجابة الجمهور ... ولكنني كنت اخالفه الرأي .

ا . منصور : وهل تعتقد ان جمهور المسرح القاهري . وهو في غالبيته من اعضاء الطبقة الوسطى وهي طبقة يتسم موقفها من المسرح - بل هي من الفن بوجه عام - بقدر كبير من الاستخفاف ومن عدم الجدية .

ادريس : انا لا اشتم الجماهير ربما كنت تستطيع ان تفعل ذلك ... ولكني لا استطيع .

ا . منصور : تقصد جماهير الطبقة المتوسطة .

ادريس : نعم ولم لا .. انني انظر حتى الى الطبقة الحاكمة بقدر من التعاطف . لماذا ؟ لانها طبقة بلا جذور . تتميز بانها طفيلية وبانها ذات اصول اجنبية في الغالب وذلك ينطبق ايضا على المماليك الذين لم يكن لهم جذور في الشعب . ولذلك فقد كانت ثقافتهم مستوردة فقد

استوردوا الثقافة العثمانية في العصور الوسطى ثم استوردوا الثقافة الاوروبية في عصرنا هذا الحديث ، ثم هم يستوردون الان الثقافة الاميركية . ولك ذلك بسبب ان جذورهم منبته عن الشعب . اما الشعب فقد كان - كما تقول - يبني ثقافته بطريقته الخاصة فانت مثلا حين تسمع نكتة تبدأ كالاتي : ذات يوم كان هناك رجل حشاش يجلس في مقهى - او في اي مكان - وقال كذا فقال له احدهم كيت . فإنك تدرك على الفور ان هذه النكتة من صنع الحكام . وانها تهدف الى السخرية من الشعب ذلك انه لا توجد نكتة شعبية تبدأ بـ : « ... كان فيه مرة واحد حشاش » وذلك لان الحكام ينظرون الى الشعب بوصفه مجموعة من الحشاشين . وذلك لان الشعب يضحك امام الحكام ، فهم لا يضحكون . وانما هم جادون . وعندهم شرطة وامن مركزي .. الخ . اما الشعب فيضحك اما الطبقة الحاكمة فليس من سماتها ان تضحك .

باختصار انا لست مع او ضد هذا الانقسام او الازدواج الثقافي الذي تشير اليه وذلك لانه لا بد من وجود ثقافتين ولا بد من ان يكون هناك حكام طالما كان هناك محكومون ، مغلوبون على امرهم .

أ . منصور : معذرة يا دكتور يوسف ... واعتقد انه ما لم تكن هناك مؤامرة متعمدة ... فانك لا تستطيع ان تشكو من انني كنت اقاطعك بلا توقف او انه لم تتح لك فرصة كافية للتعبير عن رأيك . وانا اقول ذلك لان لي تعليقا على ما قلت من ان الازدواج الثقافي امر طبيعي . وانه يرتبط بوجود مجتمعات طبقية ذلك انه قد يكون صحيحا انه في اي مجتمع او شعب او امة توجد بها طبقات، لا بد ان يكون هناك اختلاف في ثقافة كل طبقة من الطبقات التي يتكون منها المجتمع، او ان يكون لكل طبقة لونها الثقافي الخاص بها . انا اوافقك على ذلك . ولكن هذا لا يؤدي بالضرورة الى احداث الفصام الثقافي الذي نتحدث عنه . اي ان تكون في مجتمع واحد معين ثقافتان قائمتان لا تربط بينهما اية جسور وكانهما قائمتان في بلدين، او في مجتمعين مختلفين ذلك انه يوجد عادة في المجتمعات الطبقية اطار ثقافي واحد يجمع بين كل هذه الالوان الثقافية .. او ان هناك نقاط انطلاق ثقافية مشتركة بين كافة الطبقات القائمة في المجتمع اما في مصر ، فاننا لا نجد هذا الاطار الواحد او نقاط الانطلاق المشتركة هذه وهذا ما يجعل المشكلة اكثر حدة وتعقيدا .

ادريس : انت مصيب تماما في ما قلت .. انت على حق تماما . لانه ما الذي يصنع ثقافة شعب ما . لنأخذ الثقافة الفرنسية على سبيل المثال فأنت تجد في الثقافة الفرنسية هذا الانقسام . او على الاقل لا يوجد انقسام بهذه الحدة . لماذا ؟ لانه حدثت في فرنسا ثورة شعبية وعلى المستوى القومي فأزالت الفواصل بين دائرتي الحاكمين والمحكومين وحكم الشعب بشعاراته وهي : الحرية والاخاء والمساواة .. صحيح انه بعد ذلك تغيرت حكومات . وتغير زعماء وانهارت انظمة ولكن الحقيقة التي تبقى بعد ذلك كله ، انه قد تم القيام بما يمكن تسميته بعملية « طبيخ » او صهر اي انه حدثت عملية صهر للثقافتين معا . فتشكلت نتيجة ذلك ملامح ثقافة قومية واحدة .

اما في مصر فإنه ـ وللاسف الشديد ـ لم تحدث ثورة شعبية وانما كانت هناك محاولات من جانب ثورة ٥٢ من اجل تشعيب الثورة او من اجل تشعيب كلمة الثورة .

ا . منصور : اعتقد انك تعني بتعبير « تشعب الثورة » اضفاء صفة الشعبية عليها .

ادريس : نعم ... تماما . وهذه المحاولات لا تزال تجري حتى وقتنا هذا ولكنها ربما كانت قد ضعفت قليلا . على اية حال فانه لم تكن هناك في مصر ثورة شعبية بمعنى فرض مفهومات الشعب على الطبقة الحاكمة . لم يحدث هذا عبر تاريخ مصر كله . وحتى ثورة ١٩١٩ جاءت بحكام ، ولكنها لم « تشعب » الحكومات . بمعنى ان الحكم ظل لصالح الاقطاع والرأسمالية ـ التي كانت لا تزال ناشئة في ذلك الوقت ـ ولم يكن لمصلحة الشعب اذن فانت لا تستطيع ان تقول ان لدينا ثقافة قومية ، وانما نحن لدينا ثقافة للحكام وثقافة اخرى للمحكومين . وذلك الوضع لا زال قائما وسوف يظل قائما الى ان تحدث عملية الصهر ، العنيفة التي اشرت اليها . حينئذ سوف ينتج عن عملية صهر الثقافتين الرسمية والشعبية شيء جديد ومتطور وشعبي ولمصلحة شعب هذه البلاد .

ا . منصور : انا اوافق على ما تقول مع بعض التحفظات ولكن هنا ليس موضعها فانا اريد ان اتناول امراً آخر اثرته في كلامك ، وهو ما قلته من ان « الف ليلة وليلة » هي ابداع جوعى ، جوعى للخبز وللجنس . الخ والواقع انه ربما كان ما قلته عن الف ليلة وليلة موجودا ـ رغم ان ذلك ليس مؤكدا ـ ولكنه ليس هو ما يقال عن (الف ليلة وليلة) توصيفا دقيقا . ذلك انني اعتقد ان اهم ما يميز الف ليلة وليلة هي انها تعكس بوضوح تام وجود ثقافة ناضجة ومتميزة هي الثقافة القومية او الثقافة الشعبية ان شئت وقد كنت محقا تماما حين قلت ان مستوى القصص التي تحويها « الف ليلة وليلة » افضل كثيراً من مستوى القصص الرسمية .. ولكنك اغفلت مع ذلك امرا كان من المفروض ان يبهرك اكثر من اي شيء اخر . وهو هذه الحيلة الفنية البارعة التي تربط ربطا عبقريا بين مئات الحكايات والأقاصيص المستقلة والتي لا رابط بينها في الأصل وبحيث ان المرء يشعر انه يقرأ عملا فنيا متكاملا يحدث تاثيرا موحدا وكانه قد خلق اصلا كعمل واحد ولم يكن جمعا لعدد كبير من القصص والحكايات . الواقع ان هذا الأنجاز الفني العملاق لا مثيل له ـ من حيث المستوى والنضج الفني ـ في الآداب الرسمية سواء كانت اوروبية ام غير اوروبية .

ادريس : لا شك في صحة ما تقول : وهذا يرجع الى اسباب عديدة فالشعب متطور وهو لا يعاني مثلا من عقدة اللغة ولم يأخذ قرارا على سبيل المثال باستخدام اللغة الشعبية . وانما هو استخدمها ببساطة لأنها تؤدي الغرض المستهدف كذلك لم يقل الشعب ان هناك اشكالا محددة للقصة . وانما ترك القصاص يحكي حكايته كما يريد على شريطة ان يشد انتباه المستمع . والواقع ان الفن الشعبي والأمثلة الشعبية دائما متطورة وذلك بحكم انها حية . وانها افراز لشعب حي . بينما الثقافة الرسمية غالبا ما تكون جامدة . لأنها تريد تجميد الواقع

ورغم ذلك ونتيجة للوعي بهذه الحقائق فانني اعتقد ان انتاج الكتاب منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وفي جميع انحاء الوطن العربي يتسم بحدوث هذه العملية التي اشرت اليها .

أ . منصور : اي عملية يا دكتور .

ادريس : اي عملية المزج بين الروح الشعبية والثقافة الغربية .

أ . منصور : ولكني لم اشر الى شيء من ذلك .

ادريس : نعم . لقد كنت انا الذي اشرت اليها . واعتقد ان ذلك يمثل البداية الحقيقية لمفهوم اخر حتى لكلمة « الثورة » او التغيير ذلك انه لا يمكن قيام ثورة دون تحديد اهدافها .. اي ما الذي تهدف الى تحقيقه .

أ . منصور : انني اريد .

ادريس : .. دعني اكمل كلامي اولا .. اذن فإن هدف الإفراز الأدبي في الوطن العربي بأكمله – وحتى بالنسبة لاولئك الذين يقولون انهم « الترامودون » « Ultra Moderne » او الذين يكتبون على نسق « آلان روب جرييه » .. ذلك ان ما يكتبه « آلان روب جرييه » الآن كان موجودا في الأدب الشعبي منذ ما يزيد عن ٨٠٠ عام .. اذن فالكاتب الذي يكتب على نسق «آلان جرييه » .. انما يفعل ذلك في الواقع استجابة للروح الشعبية الكامنة في اعماقه – على اية حال .. فانا اعتقد ان هدف الأفراز الأدبي في الوطن العربي الان هو انجاز هذا المزج بين الروح الشعبية والثقافة الغربية . وبعد ان عرضت مسرحية « الفرافير » في عام ١٩٦٣ وبعد ان شاعت هذه الدعوى ظهرت فرقة « مسرح الشوك » في سوريا والتي كانت تعتمد على النقد السياسي المباشر – والذي كان احد السمات الرئيسية في « الفرافير » – ثم ظهر بعد ذلك في المغرب « الطيب الصديق » الذي دعا الى استيحاء الف ليلة وليلة و « الجاحظ » .. وما شابه ذلك ، وهكذا بدأ الأمر في الانتشار . وليس الأمر قاصرا على ما ذكرت ، وانما هناك نماذج عديدة اخرى في القصة والرواية ، كما ان هناك محاولات دؤوبة ومستمرة لاستخدام الحضارة الغربية .. اي استخدام ما تسلح به الأنسان من وعي علمي ، ساهمنا جميعا – غربا وشرقا – في خلقه وتوليده في اكتشاف حقيقتنا الفنية .

أ . منصور : اعتقد ان ما قلته الان يا دكتور يوسف سيثير امرا سوف يكون موضوع خلاف بيننا . وانا اقصد بذلك ما قلته من ان جيل الحرب العالمية الثانية – وهو الجيل الذي اصطلح على تسميته ادبيا بجيل الخمسينات – قد بدأ محاولة ، او نجح في تحقيق نوع من المزج بين الثقافة الرسمية – وهي ثقافة غربية ممسوخة الرسمية – وهي ثقافة غربية ممسوخة وبين الثقافة الشعبية ، والتي في اعتقادي هي الثقافة القومية التي صانها الشعب ودافع عنها على طول التاريخ . وسوف احاول ان اوجز هذه النقطة الخلافية في سؤال محدد وهو : الا تعتقد ان تاثر الجيل الذي تنتمي اليه بالجيل الذي سبقه – والذي اصطلح ايضاً على تسميته بجيل الآباء – كان قويا الى حد كبير وانا لا اعتقد ان اجابتك على هذا السؤال سوف تكون بالنفي فقد اعترف ابناء جيلك جميعاً – وبما فيهم انت ايضا – بتتلمذهم على ذلك الجيل ، والذي كان يتميز بسمة

اساسية هي انبهاره القوي بل وبانسحاقه امام الحضارة الغربية والدعوة المستمرة التي لا تني الى تبني الثقافة الغربية ونبذ الثقافة الشعبية ـ لأنها تتسم في رأيهم بالاغراق في الخرافات والجنس ـ وكذلك نبذ التراث الثقافي الرسمي اي انتاج زملائهم من مثقفي المؤسسة في العصور الوسطى .

ادريس : هذه في اعتقادي تهمة باطلة .

أ . منصور : معذرة يا دكتور فـأنـا اعتقد ان هناك قدرا كبيرا من الصحة في هذا القول فهذا الجيل فعلا بلا اساتذة ولأسباب ليس هذا محل ذكرها وقد يكون ذلك قد اضر بهذا الجيل ، ولكنه حماه في نفس الوقت من الوقوع تحت تاثير جيل كان يقف منسحقا امام الحضارة الغربية . كذلك فإن هذا الجيل يتميز ايضاً بان اغلبيته الساحقة لا تجيد اللغات الاوروبية ، اي انهم لم يتعرضوا للهجوم الساحق الذي تشنه الحضارة الغربية على من يتمكن من الاطلاع على اثارها وكذلك فإن .

ادريس:انتظر..فانا احمل اتهاما لجيل الستينات ذلك ان جيلنا حاول ـ طوال الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية ـ ان يقوم بعملية تأصيل للابداع الأدبي ، او صبغه بالصبغة القومية او الشعبية ، اما جيل الستينات فقد عاد الى الأعمال المترجمة اي انه عاد الى عصر لطفي السيد واضاف الى ذلك تلمذته على المجلات البيروتية تصدر باللغة العربية وقد شوهت هذه المجلات ، والى حد كبير الأعمال الإبداعية في القصة والرواية .

أ . منصور : اي مجلات بيروتية تقصد يا دكتور . هل تعني مجلات مثل « الشبكة » و « الموعد » ام مثل « الآداب » و «دراسات عربية » .الخ ..

ادريس : لا ... انا اعني المجلات الثقافية .. والكتب المترجمة ايضاً فقد كانت هذه المجلات والكتب اسوأ اساتذة لجيل الستينات لأنها شوهت الإبداع القصصي ، وحرمته من جمهوره الطبيعي ، والمرء يشعر بان عددا كبيرا من القصص القصيرة التي يقرأها الان تتسم بالغرابة . او انها غريبة عن المجتمع . وذلك لأنها قصص مستزرعة او منقولة نقلا مباشرا عن المدارس الفنية الحديثة التي نشأت في اوروبا نتيجة ظروف لم تكن متوفرة في مجتمعاتنا وبالرغم من ذلك فقد كان هناك في جيل الستينات من حاول الاستمرار في الطريق الذي بدأناه .

أ . منصور : وهل يمكن يا دكتور اتهام قصاص مثل يحيى الطاهر عبد الله بمثل هذا الاتهام .. وابراهيم اصلان .. او محمد البساطي .. او ..

ادريس : انا لا اريد ان اذكر اسماء ..

أ . منصور : ولم لا ..

ادريس : لأني لا اريد اتهام الجيل كله ففي هذا الجيل قصاصون يمتلكون فعلا هذا النبض الشعبي الأمر الذي جعلهم ينجون من هذا الوباء الذي اشرت اليه وهؤلاء هم الذين استطاعوا البقاء في الحقل الأدبي حتى الان . اما الباقين فإنهم يظهرون مثل المحاصيل الزراعية ثم ينتهون لأنهم لا يزيدون عن ان يكونوا مجرد صرعة . مثل صرعة اغاني فرقة

« المصريين » على سبيل المثال والتي يشعر المرء انها تفتقر الى الاصالة ولذا فلا بد ان تموت بعد بضع سنين .

أ . منصور : الواقع انك يا دكتور ، لم توضح حتى الان ما اسميته بالاتهام الموجه الى جيل الستينات،والواقع انه ليس اتهاما بل انه لا يزيد ـ حسب فهمي ـ عن مجرد توصيف واحب ان انتهز هذه الفرصة كي انبهك الى انني لم اقدم الى هنا كي اصدر احكاما . لأن ذلك ليس في قدرتي وسواء كانت هذه الأحكام اخلاقية ام غير اخلاقية وانا قدمت اليك حاملا مقولة معينة بغرض اجراء حوار حولها . وهذا هو كل شيء واحب ايضاً ان الفت نظرك الى ان ايماني بصحة هذه المقولة لا يزيد عن ٥٠٪ فانا ارجوك ان تعفيني من اتهامك اياي بانني اوجه اتهامات ما او بكلمات اخرى تاكد يا دكتور انني لا اوجه اليك اي اتهام . واذا كنت يا دكتور تظن ان احدا يوجه اليك اتهاما ما ، فان هذا الظن غير صحيح ... هذا هو كل ما كنت اريد ان اقول ، وارجو ان تتفضل الان باستكمال ما كنت تريد قوله قبل ان اقاطعك .

ادريس : الواقع انه ليس لدي ما اضيفه الى ما قلت فالحقيقة ان هذه الدعوة اصبحت معروفة لدى الكافة ولم تعد سرا ا و مجرد ابحاث تنشر في مجلة « الكاتب » واعتقد ان ما يبقى بعد ذلك هو الانتاج اي اننا في حاجة الى الاكثار من هذا النوع من الإنتاج . والى الإكثار من تأصيل هذا الاتجاه ايضا . ذلك ان ما يسمى بالثقافة العربية لا تزال فقيرة جداً في كمية التأصيل الذي تحويه فليس لدينا وجهة نظر محددة مثلا ، في ما يجب ان يكون عليه شكل القصة .

أ . منصور : وهل تعتقد : يا دكتور يوسف انك بحكم تكوينك الفكري وبحكم تعليمك في ظل نظام التعليم الموحد ـ الذي لا يتمتع به الا اقل من ٢٠ ٪ من تعداد بلادنا ـ والذي يهدف الى تكوين انسان شبه اوروبي وبحكم قراءاتك وتلمذتك على الجيل الذي سبقك والذي كان يقف منسحقا امام الحضارة الغربية ـ هل تعتقد انك بكل عناصر تكوينك الفكري هذه ، قادر على كتابة الأدب الشعبي .

ادريس : انا اقول لك ، وبكل تواضع انني انا الأدب الشعبي .

أ . منصور : او كما قال لويس الرابع عشر ، بكل تواضع ايضا . انا الدولة.

ادريس : انني اقول ذلك بكل جدية فانا الشكل الحديث للادب الشعبي وللاسف ، فان النماذج التي تماثلني في العالم العربي قليلة جدا . وانا ادعو للاكثار من هذه النماذج . ذلك ان هدفي هو هدف شعبي فعلا . رغم ان كلمة « شعبي » كلمة مضللة . لأن الناس تربطها بالتدني والانحطاط . وهو امر ليس صحيحا على الإطلاق وانا اعتبر ان نظرية مثل نظرية النسبية ، مثلا هي تفكير شعبي . ذلك انها ترتكز على فلسفة التناسب . اي على فكرة انه لا يوجد شيء مطلق . بينما الأيمان بالمطلق هو احد سمات الفلاسفة المنعزلين الذين كانوا في اوروبا عصر النهضة وقبل عصر النهضة . اعني ان الفكرة الشعبية متطورة الى اقصى حد . ومهمتي هي الوصول الى الأدب الشعبي اي انني لا ارفع الأدب الشعبي الى مستواي وانما انا احاول الوصول الى

مستواه والمشكلة هي كيفية مساهمة المبدع، بوصفه فردا في هذه العملية . ذلك ان الأدب الشعبي، في العادة لا صاحب له. فهو من انتاج الشعب ككل وحين يتصدى اديب فرد لمحاولة انتاج ادب شعبي فإن ذلك لا يتم بشكل عقلاني اي ان المرء لا يتخذ قرارا بكتابة ادب شعبي . ذلك ان هذا لا بد ان يكون احد العناصر التي تدخل في تكوينه . تكوينه البيولوجي اي ما لم يكن الفنان مؤهلا بحكم تكوينه ، وبحكم طبيعة مراكز الالتقاط والاختزان الكامنة فيه ، لان يكون فنانا شعبيا فإنه يستحيل عليه ان ينتج فنا شعبيا . وما أكثر ما حاولوا ذلك وفشلوا وخاصة في ميدان الفن التشكيلي حيث حاول الكثيرون ممن هم اشبه بالخواجات عبثا انتاج فن شعبي وذلك رغم محاولاتهم المتكررة والدؤوبة وذلك لأنهم ليسوا شعبيين . بينما نجد ان بعض الناس بالرغم من عدم ادعائهم الشعبية شعبيون حقا . اقصد ان المسألة ليست ارادية ولا تتوقف على حسن النية وانما هي تتوقف على عوامل لا دخل للانسان الفرد فيها . عوامل كونت الانسان عبر اجيال واجيال وعبر تربية معينة وعبر اباء وامهات معينين وعبر تعليم وعبر قدرة على الاطلاع على ارقى ما وصل اليه الانتاج الفكري والفني والشعبي في العالم وكل هذه قدرات لا تتوفر لدى المرء بمجرد توفر النية لديه .

ا . منصور : معذرة ولكن هل انتهيت من اجابتك على السؤال ؟

ادريس : نعم .

ا . منصور : حسن . انا لا اعتقد ان اجابتك هذه مرضية او مقنعة وربما كان من الأفضل وضع السؤال بشكل اخر او تفتيته الى عدة اسئلة . ودعني اسألك عن رأيك في محاولات عدد من كتاب المسرح في مصر استيحاء التراث الشعبي في اعمالهم المسرحية وقد ذكرت انت محاولات الأستاذ الفريد فرج في مسرحيته « حلاق بغداد » و« الزير سالم » او محاولات الأستاذ سعد وهبه في مسرحيته « يا سلام سلم ... الحيطة بتكلم » هذا مع ملاحظة ان كثيرا من محاولات استيحاء تراث الثقافة الشعبية تتسم بروح استعلائية استفزازية تتعارض مع ما قلته انت من انك لا تحاول الارتفاع بالشعب الى مستواك وانما تحاول ان ترفع انت الى مستواه .

ادريس : دعنا نتوقف قليلا عند هذه النقطة الأخيرة التي ذكرتها . فانا اريد ان اضرب لك مثلا يوضح لك مدى تقديري البالغ للادب الشعبي وللحكمة الشعبية . فأنت تعرف كما يعرف القراء انني كنت اعاني من مرض الاكتئاب النفسي، وقد حاولت علاج مرضي هذا في جميع انحاء العالم بدءاً من مستشفى الكرملين في الاتحاد السوفياتي الى مستشفى « مايوكلينيك » في أمريكا . وكل ذلك دون فائدة . وربما كان ما شفاني هو محاولة الوصول الى المعاني الشعبية . وسوف اضرب لك مثلاً في غاية البساطة : فإن أحدث نظرية في علم النفس تستند الى مثل شعبي ـ ربما كنا نحتقره ـ يقول « اضحك للدنيا ، تضحك لك » ان هذا المثل الشعبي هو جوهر احدث نظريات علم النفس ، والتي عولجت وفقا لها ، وتم لي الشفاء بفضلها من مرض الاكتئاب . فأنت اذا عبست للدنيا ، فإنها سوف تعبس في وجهك . اما اذا ضحكت وابتسمت فإن الدنيا ـ فعلاً ـ سوف تبتسم لك . وسوف

تكون قادرا على العمل وسوف تستطيع النجاح ، وتحقيق ما تريد ، دون جهد وبمجرد الابتسام . اي ان يكون موقفك من الحياة هو موقفك المبتسم . ذلك انه حينذاك ، سوف تتخذ منك الحياة موقف المبتسم ايضاً ، وهذه حكمة شعبية ربما يرجع تاريخها الى اربعة الاف عام قبل الميلاد . ومع ذلك فانها تمثل ارقى مستوى وصل اليه علم النفس في الوقت الحالي في العالم وكذلك المثل الشعبي الذي يقول : « اللي يخاف من العفريت ، يطلع له » . فأنا حين كتبت قصة « انا سلطان .. قانون الوجود » والتي تدور حول فكرة انه حين أحس الأسد ان مدربه طيلة عشرين عـاماً ، محمد الحلو » يخاف منه افترسه فوراً . ذلك انني اسميت الأسد في قصتي هذه « ملك الاحساس » ، وليس « ملك الغابة » اي انه يشعر فوراً اذا كان من يقف امامه خائفاً ام لا وقد اعتبر بعض النقاد هذه القصة فتحاً مجيداً . وهي ليست كذلك وانما كل ما في الأمر انها تستند الى هذا المثل الشعبي البسيط ولكن نظرة الناس الى المحكمة الشعبية والثقافية الشعبية نظرة ضيقة . واسمح لي ان اقول لك ان نظرتك انت الى الثقافة الشعبية نظرة ضيقة .

أ . منصور : قد يكون ذلك صحيحا ولكن ما رايك في الإجابة على سؤالي ؟

ادريس : او بمعنى اصح نظرة قومية . نظرة محدودة . والثقافة الشعبية في الواقع ، بحر عميق ذلك لأنها افراز للعقل الجماعي الباطن ، او العقل الجماعي القديم الذي خلق الحيـاة . وعلـم الخفـاش كيـف يتبـين طـريقـه دون أن يـرى في الظلام وهذه كلها اشياء خارقة توجد داخلنا . ونحن بعقولنا الاوروبية الحديثة لا نفعل اكثر من أن نضيق من اتساع فتحة العدسة . عدسة الحياة المتصلة بالكون . ففكرة ان الكون واحد . وانه ليس هناك ذلك الفاصل الذي لقننا اياه اشباه العلماء ، بين الانسان والحيوان والنبات والجماد . وانما كل ذلك شيء واحد متصل يتخذ اشكالا مختلفة وسواء كان هذا الشكل ثابتا مثل كوب الماء هذا او كان متحركا مثل الانسان او اشكالا قادرة على الادراك مثل الانسان الاعلى، اي البشر وما أريد ان اقوله هو انه افراز الأدب الشعبي ليس افرازا يفرزه الشعب لكنه افراز للقوى الخلاقة التي انتجت الانسان ذاته . فهي اذن تمثل العلم . ذلك ان مهمة العلم هي ان يثبت انه قادر على تفسير هذه الأشياء . وعلى استيحائها ومهمة الطب الان هو ان يكتشف كيف تنقبض الحروق بشكل تلقائي حين تحدث جرحا في الجسد وذلك للحيلولة دون حدوث نزيف اذن فالوريد او الشريان اي شبه الجماد هذا يتمتع بقدر من القدرة والعلم يفوق ما يتمتع به عقلك الواعي المتعلم . اذن فهدفنا ليس فقط هو الوصول الى الأدب الشعبي . بل الوصول الى ذلك الذي افرز الأدب الشعبي اي الى الإنسان الذي افرز الأدب الشعبي اذن فالأدب الشعبي لا يحتل فقط مكانا ساميا . بل انه يكاد يتمتع بمكانة تماثل مكانة اسرار الحياة او اسرار الكون العليا والتي يجب ان نتعلم منها . ونتعلم منها الكثير .

أ . منصور : يبدو ان ما قلته الان يا دكتور يحتاج ـ من جانبي انا على الأقل ـ لبعض الوقت ولقدر كبير من التمعن والتمحيص ، حتى استطيع استيعابه ولذلك فإني اعود مرة اخرى الى السؤال ـ هل تذكره ـ الذي طرحته عليك والخاص بالطريقة التي

استوحى بها بعض كتابنا المسرحيين اعمالا من التراث الثقافي الشعبي في اعمالهم المسرحية . ذلك ان هناك من يقول ان ذلك هو الشكل الصحيح والصحي للاستفادة من تراث الفن الشعبي ولكنني اظن ان لك رايا مخالفا ذلك انك قلت ان على الفنان ان يبدع فنا شعبيا لا ان يقلد او حتى يستوحي الأعمال الفنية الشعبية . على اية حال فانا اظن انه من الأفضل ان تقول لنا رايك في هذه المسالة .

ادريس : انا مؤمن طبعا بأن هناك قدرا للانسان ، ولكنه ليس القدر الإغريقي .

أ . منصور : تعني انه ليس صارما لا فرار منه .

ادريس : لا . انه قدر صارم ، ولكنه ليس قدرا حكمت به الالهة على البشر وانما كل انسان يحمل قدره في داخله . وقدره هنا تعني طاقته . وقدرته على الخلق وقدرته على الابداع وقدرته على الوصول الى الحقيقة .. وكم الذكاء وكم الحساسية المتوافرين لديه . وكل هذه امور قدرية مفروضة على الانسان اي ان الانسان لا يمكنه خلقها . كما انك لا تستطيع ان تكون اكثر ذكاء مما انت عليه ، فكذلك انت لا تستطيع ان تكون شعبيا اكثر مما انت عليه . اي انه لا يمكن تشعيب الانسان . ذلك لأنه اما ان يكون شعبيا او لا يكون وهذا هو قدره .

أ . منصور : هل يعني ذلك انك لا توافق على الطريقة التي تم بها استيحاء الاعمال الفنية الشعبية من جانب كتابنا المسرحيين

ادريس : لا . ان الدعوة الى ذلك يجب ان تكون موجودة وقائمة وسائدة ايضا ، ويمكن ان تتلقى هذه الدعوى بعض الايادي القادرة .

أ . منصور : معذرة . ولكن هل تسمح لي بان ازيد سؤالي ايضاحا .

ادريس : لا . معليش سوف اوضحه انا ، وسأضرب لك مثلا وليكن عن فكرة الاشتراكية فقد كنت من بين الذين يعادون تماما الكتابات التي تدعو الى اشاعة المضامين الاجتماعية في الاعمال الفنية ، والى اشاعة الفكر الاشتراكي في الاعمال الفنية ، بدعوى ان هناك ادب اشتراكي وادب غير اشتراكي الى اخر هذه الدعوات . وقد كنت اعادي هذه الدعوات بسبب ايماني بأنه ان لم يكن المرء اشتراكي النزعة من داخله وحتى قبل ان يعرف الاشتراكية او يسمع عنها فانه لن يكون اشتراكيا ابدا وانما سوف يكون اشتراكيا من الناحية النظرية فقط . والكوارث الكبرى تأتي غالبا من جانب هؤلاء الاشتراكيين النظريين الذين يؤمنون بالاشياء ايمانا نظريا ثم يحاولون فرضها على الواقع . والفهم الضيق لكلمة الاشتراكية من جانب بعض المصريين سبب قدرا من الضرر يفوق كثيرا الضرر الذي سببه اعداء الاشتراكية انفسهم . كذلك فان الفهم الضيق لكلمة الثورة احاق بالثورة من الضرر ما لم يكن يحلم به اعداء الثورة انفسهم وذلك لأنهم يجددون مفهوم الثورة او مفهوم الاشتراكية وفقا لمفهوماتهم الثقافية كما سبق لي القول فانت مثلا تجد نماذج للسلوك الاشتراكي قبل ظهور الاشتراكية بالاف السنين وفي اقوال ابو ذر الغفاري قدر من الاشتراكية يزيد عن ما كتبه ماركس نفسه .

أ . منصور : !!!! .. ؟؟

ادريس : .. رغم ان ابا ذر الغفاري لم يكن قد سمع بكلمة الاشتراكية . ولكنه كان يعرف شيئا اسمه العدل . وما اريد ان اقوله هو ان الاستفادة من المسرح الشعبي يجب ان تخضع ايضا لنفس القاعدة .. اي القاعدة التي تقول انك لا تستطيع بشكل نظري ان تضع التراث الشعبي امامك وتتخذ قرارا بالاستفادة منه .. فهذا مجرد كلام فارغ . فالكاتب يجب ان يكتب كما هو .. فاذا كان هو شعبيا .. فسوف تكون كتاباته شعبية بالضرورة . اما اذا لم تكن .. فلن تكون كتاباتك شعبية ابدا . ولا حيلة لكاتب في هذا ابدا . لانه لا يمكن لهذا الامر ان يكتسب .. هو كل شيء .

أ . منصور : اظن ان ما قلته الان قد اوضح المسالة بعض الشيء .. او انا ارجو ذلك على الاقل .. واريد ان اضيف انني اعتقد ان استيحاء الفنان لاعمال الثقافة الشعبية الفنية له الدلالة التي يحاول البعض اضفاءها عليه . لان ذلك لن يجعل العمل الفني الناتج عن ذلك عملا شعبيا بالضرورة . فهناك كثير من الكتاب والفنانين الاوروبيين الذين استوحوا « الف ليلة وليلة » في اعمالهم اعني ان المهم ان تكون جذور الفنان نفسها متصلة اتصالا عضويا بالمخزون تحت الارض للثقافة الشعبية .

ادريس : ان هذا يذكرنا بكتابات جمال الغيطاني . الذي قرأت له رواية بل روايتان في الواقع .

أ . منصور : وما هما ؟

ادريس : احداهما يستفيد فيها الغيطاني من « ابن اياس » وما شابه ذلك . وقد اعجبتني هذه الرواية بوصفها تمثل محاولة في هذا الاتجاه ، ولكنني لم احس الرواية . فقد شعرت أن العقل هو الذي كتبها . كما لو انه وضع « ابن اياس » امامه ، ثم اتخذ قرارا بان يقلده .. بطريقة حديثة ..

أ . منصور : ربما كان من بين الاسباب التي وضعت جمال الغيطاني في الطريق المسدود الذي يحاول الخروج منه الان، هو ان نجاح مجموعته القصصية الاولى «اوراق شاب عاش منذ الف عام » ، والتي استخدم فيها هذا الاسلوب للمرة الاولى ، قد اغراه بتكرار هذا الاسلوب في معظم اعماله التالية . وهو الامر الذي لا يتسع له هذا الاسلوب بطبيعته بمعنى ان هذا الاسلوب هو ، في جانبه الجوهري مجرد بعد من ابعاد العمل الفني واذا كان هذا البعد بطبيعته رمزيا . فانه يكون في العمل الاول رمزا فنياً، ثم يتحول بتكراره الى مجرد رمز رياضي حسابي .

ادريس : وبالاضافة الى ذلك فقد كان على الغيطاني ان يسأل نفسه : من هو « ابن اياس » العصري . والاجابة هي انه جمال الغيطاني نفسه . لو انه ترك نفسه على سجيتها، وكتب كما يتحدث وهو يجلس في مقهى الفيشاوي في حي الحسين . فحينئذ سوف يكون هو نفسه ـ وبشكل طبيعي تماماً ـ « ابن اياس العصري». ولن يتحقق ذلك اذ هو وضع كتاب « ابن اياس » امامه ثم اتخذ قرارا بأن يكتب مثله .

أ . منصور : وكذلك يجب ان نضع في اعتبارنا ان محاولة جمال الغيطاني ليست

محاولة للاتصال بالتراث الفني للثقافة الشعبية ، وانما هي محاولة للاتصال بالتراث السلفي لمثقفي المؤسسة .

ادريس : انت تدخلنا بذلك في مجال الاتهامات . وانا لا اريد الدخول في هذا المجال .

أ . منصور : ولماذا تعتبر ذلك اتهاما ؟ انه مجرد رأي .

ادريس : كي احاول الايقاع بينك وبين جمال الغيطاني .

أ . منصور : اذن فتاكد ان هذه المحاولة لن تنجح لانها ببساطة تاتي من جانبك .

ادريس : تعني كما يقول المثل الشعبي « انا وابن عمي على الغريب » . على اية حال ما اريد ان اقوله هو انني احاول استكمال اوجه النقص في دعواك هذه التي يدور حولها حوارنا وانا اؤمن بانه يجب على المرء اولا ان يكون صادقا مع نفسه . وقبل ان يكون شعبيا او غير شعبي ، وان يكون ثانيا ، صادقا مع قومه. ومع حسهم الخاص . وان يكون المرء ثالثا صادقا مع الانسانية جمعاء او مع المعاني الانسانية العامة ، وبهذه الطريقة ـ وبدون دعاوى نظرية .. او .. او .. الخ ـ سوف يظهر انتاجه بما يحمله مضمونه ذلك الى كتابة لا تزيد عن ان تكون عملية ضخ ما في النفس الى الخارج . فهي ليست عملية تجميل للواقع، او ما شابه ذلك . ذلك انه توجد بالمرء اشياء ثبتت داخله رغم ارادته مثل احساسه العاطفي . ومثل الطريقة التي يحب بها او يكره بها . او الطريقة التي ينظر بها الى الحياة وكل ذلك والكتابة هي اخراج هذا كله الى الخارج .. فقط .

أ . منصور : الواقع ان هناك مقولة اخرى تخالف ما قلت . وتزعم هذه المقولة ان الجماهير الشعبية قد قامت ـ عبر تاريخها الطويل ـ في مقاومة محاولات الاختراق الثقافي بابتكار وسائل دفاعية عديدة اي اقامة التحصينات والاسوار حول انفسهم . وذلك من اجل الحفاظ على ثقافتهم والتي هي ـ حقيقة ـ الثقافة القومية، وبكلمات اخرى فان جماهير الشعب قد بنت حول نفسها سورا ذا ابواب تسمح بالخروج منها . ولكنها لا تسمح بالدخول اليها اي ان من يخرج من هذا السور لا يسمح له بالعودة مرة اخرى . اي من اراد الخروج فليخرج . ولكنه لن يستطيع العودة . ولن يعرف كلمة السر ، التي قد تتيح له هذه العودة . والخروج من هذا السور يتخذ اساليب واشكالا عديدة مختلفة . واحد هذه الاشكال ـ ولعله اهمها في عصرنا هذا ـ هو دخول نظام التعليم الموحد . اي دخول المدارس ببساطة وهناك العديد من الكتاب والفنانين من ذوي الاصول الشعبية . ولكنهم بمجرد دخولهم المدارس وتعلمهم القراءة والكتابة ينتهي تماما ما بينهم وبين عشيرتهم.. واصولهم الاجتماعية .. ويعاملهم اهلهم معاملة الغرباء . والواقع ان ذلك امر يشكو منه كل من اعرفهم من الكتاب ذوي الاصول الريفية البسيطة لماذا ؟ لان الجماهير الشعبية لا بدو ان تكون بالغة الحذر وطيلة الوقت . لان المسالة ـ في الواقع ـ بالنسبة اليهم هي مسالة حياة او موت . والجماهير تتخذ موقفاً بالغ الحذر تجاه كل من يشارك الفئات والطبقات الحاكمة في سماتها وصفاتها . ولا شك في ان نظام التعليم المشترك هذا يخلق خريجين يشاركون الفئات الحاكمة بعض سماتها ، كالملابس وطريقة

التعبير عن النفس بل وحتى مجرد معرفة القراءة والكتابة . ولا شك ان لذلك اسباباً عديدة ولكن من بين هذه الاسباب قطعا الاصول التاريخية لنظام التعليم الموحد في بلادنا ، والذي كان « دنلوب » (المستشار الانجليزي لنظارة المعارف المصرية في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الاولى - أ . م) قد حدد ان الهدف منه هو انتاج حكام متـوسطين يكونون صلة بين الحكام وبين الشعـب اي كلاب حراسة اذا شئت .

وهذا في ، رأيي هو العائق الذي يحول دون كافة الكتاب والفنانين الموجودين الان - وبلا اي استثناء وباجيالهم العديدة - ودون نجاح محاولاتهم - والتي يتسم بعضها بالصدق والاخلاص الشديدين - من اجل رفع الحاجز بينهم وبين جماهير قرائهم الطبيعيين . وهو العائق الذي يجعل من كل محاولاتهم تلك محاولات عبثية لا طائل من ورائها واستطيع ان اقول ، ودون اي مبالغة ان احدا من الكتاب والفنانين الموجودين حاليا في العالم العربي لن يستطيع ان ينتج ادبا او فنا شعبيا بالمعنى الذي اشرت اليه يا دكتور ادريس وسواء اعترف هؤلاء الكتاب بذلك ام لم يعترفوا لان ذلك هو الواقع الصلد الذي لا فائدة من تجاهله ما هو رايك يا دكتور في ذلك ؟

ادريس : رأيي ان تلك المقولة خاطئة مابة في المابة .لان الشعب - كما قلت لك - ليس مكانا منخفضا يصعد منه المتعلمون .

فالشعب هو المعهد والمدرسة . وكما ترسل الدولة ابناءها في بعثات دراسية للخارج من اجل زيادة معرفتهم ببلادهم فكذلك يمكننا ان نقول ان ابناء الطبقات الشعبية الذين يتعملون انما يتسلحون بالعلم لمعرفة قريته او حارته او حيه بصورة افضل . وذلك لان الاصل في الحياة - كما قلت كل - هم هؤلاء الناس . وهم قوانين الحياة التي نحاول نحن التوصل اليها . لذلك فانه حين تقول ان هؤلاء ينسلخون عن اصولهم الاجتماعية لانهم تلقوا تعليما فان ذلك يكون خطأ بالغا .

أ . منصور : انه ينسلخ عن اصله الاجتماعي لانه ببساطة يصبح مشروع حاكم .

ادريس : هذه مسألة سياسية .

أ . منصور : وماذا في ذلك ؟

ادريس : لا ..لا .. لا .. ذلك ان الانسلاخ عن الشعب .. او ان يصبح المرء افنديا او بيكا .. فان ذلك مجرد سلوك .. وهو سلوك يحاسب عليه من يفعل ذلك . ويبدو لي انك لم تفهم جيدا النقطة التي كنت اقوم بشرحها فيما سبق .. وهي ان الشعب ليس مرادفا للتخلف والدونية ..

أ . منصور : وما اقوله لا يعني ذلك على الاطلاق .

ادريس : والشعب عندي انا في مستوى اعلى من مستوى التعليـم ومن مستوى الافنديات ومن مستوى المدينة ايضا .

أ . منصور : ولا اظن ان هناك اي تناقض بين ما قلته انا وبين ما تقوله انت الان .

ادريس : والشعب يحتاج الى استكشاف مثل استكشافات القارات ان لم يكن اكثر .

أ . منصور : يا دكتور يوسف ان المقولة التي عرضتها عليك الان لا تزيد عن ان تكون النتيجة المنطقية بل والبديهية لمقدمات قلتها انت وانا لا اعرف لماذا لا تريد ان تواجه النتيجة المنطقية لما قلته انت ؟

ادريس : ولكنني انا شخصيا لا اشعر بذلك .

أ . منصور : وما علاقة ذلك بالشعور ؟

ادريس : انا اقول لك انني شخصيا لا احس بهذا .

أ . منصور : لماذا هل تراك تعرف كلمة السر ؟

ادريس : انا اشعر انني وعلى العكس قد ازددت حساسية بالناس وقد يكون التعليم قد ارهف حواسي وجعلها اكثر قدرة على الالتقاط ولكنه بالقطع لم يغلق الابواب بيني وبين الناس وانا الان احس انني اكثر احساسا بالشعب مما كنت عليه حين كنت ارتاد غرز ومقاهي قريتنا لتدخين « الجوزة » فانا الان شعبي بالمعنى الصحيح . المعني العلمـي الحقيقي الذي خدم القضية . ولا يعني انني شعبي ان لا بد بالضرورة ان ارتدي جلبابا او ان ادخن « الجوزة » او ان اقضي وقتي في سماع النكات وارتياد الغرز . (مقاهي صغيرة تستخدم ، غالبا في تدخين المخدرات . أ . م) فليست هذه هي الشعبية . وخذ شخصا مثل سعد زغلول على سبيل المثال والذي كان فلاحا من قرية « برنبال » بمحافظة الغربية .

أ . منصور : وكان والده هو عمدة القرية . وكان يمتلك ما يزيد عن الف فدان .

ادريس : معليش هذا لا يهم . فقد تعلم . ثم تزوج من ابنة احد الباشوات .

أ . منصور : ابنه مصطفى باشا فهمي رئيس الوزراء الموالي للاحتلال الانكليزي .

ادريس : نعم . واصبح عضوا في الطبقة الحاكمة .

أ . منصور : لم يصبح فقد كان كذلك اصلا .

ادريس : ومع ذلك فانه في العشر سنوات الاخيرة من حياته ولو انك درست مواقفه من الاحتلال الانجليزي ومواقفه الثورية لوجدت انه ثوري بل واكثر ثورية من ادهم الشرقاوي نفسه .

أ . منصور : نحن لا نتحدث الان عن الثورية . فهذا شيء اخر .

ادريس : اقصد اكثر شعبية اي يخدم الشعب وهناك واقعية لها دلالتها في هذا الشأن فقد بعثت الطبقة الحاكمة بعدلي يكن ،(احد رؤساء الوزراء المصريين في العشرينات وكان يرأس ايضا حزب الاحرار الدستوريين المعارض لحزب الوفد الذي كان يرأسه سعد زغلول - أ . م) ومجموعة من قادة الوفد الى سعد زغلول في باريس كي يؤثر عليه من اجل ان يقبل بشروط الانجليز وفي اثناء مناقشة جرت بين عدلي يكن وسعد زغلول ، قال عدلي يكن ان مصر لا قبل لها بمعاداة الانجليز، فهم اصحاب امبراطورية لا تغيب عنها الشمس . فرد عليه سعد زغلول صارخا : هؤلاء لصوص سرقوا البلاد من أصحابها .

أ . منصور : يقصد انهم سرقوها من حكامها الشرعيين . او من مشاريع حكامها .

ادريس : لا .. لا .. لا ..

أ . منصور : والدليل على ذلك يا دكتور تلك الرسائل المتبادلة بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمي ـ والتي قام الدكتور محمد انيس بنشرها ـ والتي تظهر بوضوح مدى خوف سعد زغلول من ثورة الشعب المسلحة . وكيف كان سعد زغلول يوصي عبد الرحمن فهمي بان يكبح جماح جماهير الشعب . لانه كان يخشاها . ويعرف جيدا ان الفلاح المسلح سوف يوجه سلاحه اولا الى الانجليز ولكنه سوجهه بعد ذلك الى عشيرة سعد زغلول نفسه .

ادريس : هذا مفهوم مراهق جدا لتاريخ مصر .

أ . منصور : وهل هذا اتهام او توصيف ؟

ادريس : انت تفعل مثلما فعل جمال عبد الناصر حين الغى ثورة ١٩١٩ .

أ . منصور : انا لم الغ ثورة ١٩١٩ . وانما هذه وجهة نظر في قيادتها .

ادريس : وانا احمل قدرا كبيرا من الاحترام للعشر سنوات الاخيرة من حياة سعد زغلول واعتبرها مدرسة كاملة .

أ . منصور : اذن فلتحيا السنوات العشر الاخيرة من حياة سعد زغلول . وبشكل جدي ، فان ما قلته لا يعني ادانة سعد زغلول كشخص فهو لم يكن ليستطيع ان يفعل شيئا اخر فهو رجل بدا نضاله الوطني بعد ان كان قد تعدى سن الستين . اي انه ، على الاقل لم يكن ليستطيع ان يتخلص مما اكتسبه طوال تلك السنوات او من عبء تلك السنوات التي عاش فيها مع حميه مصطفى باشا فهمي ومع اضرابه وامثاله ومع حميه مصطفى باشا وارbابه ايضا .

ادريس : معليش .. فان .

أ . منصور : ومذكراته ـ الصادقة ـ تظهر ذلك بوضوح وجلاء . وتظهر على الاقل انه كان يحيا مثل لوردات الانجليز .

ادريس : لا . لا هذه مفهومات .

أ . منصور : مراهقة .

ادريس : لا . مفهومات خاطئة تضر بالقضية الشعبية فالشعب ليس كلمة مرادفة للفقر او العجز او الجهل .

أ . منصور : ومن قال ذلك ؟

ادريس : فالشعب كلمة مرادفة للحقيقة في اسمى صورها .

أ . منصور : على اية حال فانا اظن يا دكتور انه لا فائدة من المضي في النقاش اكثر من ذلك ويكفي ان كلامنا قد عرض وجهة نظره .. ولكنني اريد ان اسالك .

ادريس : ولكنني ارجو ان تكون امينا غاية الامانة في نقل كلامي ..

أ . منصور : وهل حدث انني لم اكن كذلك فيما سبق ؟ ليست هذه هي اول مرة اجري فيها معك حديثا يا دكتور ..

ادريس : .. ولكنني ارجو ان تكون كذلك هذه المرة ..

ا . منصور : لك ذلك .. ولكنني اريد ان اسالك سؤالا اخيرا في هذا الموضوع .. فانت تقول انك اصبحت اكثر فهما واحساسا بجماهير الشعب الان .. وذلك لانك تسلحت بالتعليم والمعرفة اللذين جعلا فهمك واحساسك اكثر رهافة وحدة .. ولنفرض ان هذا صحيح .. فهل اصبحت الجماهير ـ من ناحيتها ـ اكثر قدرة ايضا على فهمك .. وعلى الاحساس بك ؟ فانت تقول انك تعرف كلمة السر التي تصلك بالجماهير .. فهل تعرف الجماهير كلمة سرك انت ؟ ..

ادريس : لانني ـ كما قلت انت ـ املك كلمة السر ..

ا . منصور : انت الذي قلت ذلك وليس انا يا دكتور ..

ادريس : ولانني قد تسلحت بالوعي وبالعلم وبالادراك .. فان في قدرتي ان اجعلهم يصلون الي واستطيع ان اجعلهم يفتحون لي مغاليقهم .. فهم يقابلونني في البداية بوصفي بيكا .. وينادونني بـ « يوسف بيه » ولكنهم بعد خمس دقائق .. وبعد ان اكلمهم باللهجة الشرقاوية التي اجيدها ـ وهذا مفتاح غاية في الاهمية ـ وكذلك بالالغاز الشرقاوية ـ التي لا يفهمها غيري وغيرهم ـ اقول انهم فورا او شيئا فشيئا يتفتحون ويظهرون الانسان الحقيقي الذي كان يخافني لتنكري اي لانني ارتدي بذلة او جلبابا افرنكيا ... اذن فالامر يتوقف على هذا الشخص الذي غادر هذا المجتمع لكي يعود اليه ... ثم ان الشعب ـ بالاضافة الى ذلك ـ اوسع ادراكا من كثير من المثقفين .

ا . منصور : هذا صحيح . بدون ادنى شك.

ادريس : بمعنى انه لا يرفض من يطرق بابه .. حتى ولو كان هذا الطارق اجنبيا ..

ا . منصور : ربما فتح له الباب .. ولكنه لن يسمح له بالدخول ..

ادريس : لا .. لا .. ذلك ان الشعب يحس تماما بالناس .

ا . منصور : وهل تظن ، يا دكتور انه يكفي ان يعرف المرء اللهجة الشرقاوية او الالغاز الشرقاوية كما تقول كي يكون قادرا على خداع الناس؟ وهل تظن ان الناس ليسوا على علم بكل هذه الحيل .. وخاصة بعد قيام ثورة ١٩١٩ .. وبعد ان اصبح الحكام من المصريين.. الذي لا بد ان تجد فيهم من يجيد كافة اللهجات المحلية في طول بلادنا هذه وعرضها . ان الناس ، يا دكتور تبتكر الاسلحة المضادة اللازمة لحماية نفسها . وما ان يظهر سلاح جديد في يد الطبقات الحاكمة .. حتى تشرع الجماهير في ابتكار سلاح مضاد على الفور وذلك لان المسالة بالنسبة للجماهير ـ كما قلت ـ هي مسالة حياة او موت . اذا فقد الشعب ثقافته القومية .. فقد شخصيته واصبح في حكم الاموات .

ادريس : اسمح لي يا استاذ ابراهيم . وارجو ان تنقل ما سوف اقوله الآن حرفيا : انت تتكلم عن شيء لا تعرفه .

ا . منصور : وكيف كان ذلك .. يا دكتور ؟

ادريس : لانني ازعم ان معرفتي بالشعب افضل كثيرا من معرفتك به .

ا . منصور : وانا لا ازعم انني اعرف الشعب معرفة كافية .

ادريس : وانا استطيع بحكم معرفتي هذه بالشعب المصري ان اقول لك وليس فقط شعبي المصري .. بل حتى شعبي البدوي والاعراب القاطنين في صحراء الاسماعيلية .. وفي الصالحية وانا اقول لك انني حين اجلس مع بدوي او اعرابي .. فانني قد اتفاهم معه بشكل افضل كثير مما اتفاهم مع توفيق الحكيم .

ا . منصور : ومن ذا الذي يستطيع التفاهم مع الاستاذ توفيق الحكيم ؟

ادريس : ..اعني ان هذا البدوي يتفاهم معي ويفتح لي مغاليقه .. وهو يعرف جيدا ما تعنيه كلمة كاتب .. وما تعنيه كلمة مفكر . وما تعنيه كلمة كتابة .. وهذه خطورة الكتابة . وهو حين يرى مثـلا فيلما سينمائيا لي مثل فيلم « الحرام » فانه يحسه تماما وكل الفرق انه يقرأه باللغة الشفهية .. والتي هي اللغة السينمائية ..

ا . منصور : ان اعترف لك يا دكتور ، ان جزءا من مصادر معرفتي بالشعب يتمثل في كتابات « الحرام » .. وهي التي جعلتني ادرك ، وبشكل واضح ، انه لا علاقة لي بالجماهير على الاطلاق .. ومن هنا ينبع تعاطفي مع المقولة التي عرضتها عليك . ولكنك في كلامك تعطي انطباعا بانني اهاجم الشعب .. او انك تقف موقف المدافع عنه .. بينما اقف انا موقف المهاجم . وهذا ـ واظن انك توافقني ـ ليس هو الوضع الصحيح للمسالة ..

ادريس : .. ولكنك تنظر الى الشعب بطريقة محدودة شيئا ما . اما انا ، فانني انظر الى الشعب بوصفه غير محدود . اي انك تحاول التحديد .. وتسأل ، من هو الشعب بالضبط ؟.. اما انا .. فلا افعل ذلك ..

ا . منصور : حسن . اعتقد ، يا دكتور يوسف ، اننا بهذا الشكل ، نكون قد استوفينا الحديث حول موضوعنا .. وشكرا جزيلا* .

---

* سجل في القاهرة عام ١٩٨٠ ونشر في « السفير » اللبنانية بتاريخ ٢٤/٥/١٩٨١ .

جميل عطية ابراهيم

ابراهيم منصور : الآن الاستاذ جميل عطية ابراهيم القصاص المصري المقيم الآن في مدينة « بازل » بسويسرا .. استمعت الى تسجيل لبعض الحوارات التي اجريتها حول موضوعي الازدواج الثقافي والهوية القومية .. وانا لن اطلب منك ان تعلق على ما سمعت .. وانما ما اطلبه منك هو ان تحدد لنا موقفك في ما يتعلق بقدرة المثقفين المتعلمين ـ وذلك للتفرقة فيما بينهم وبين المثقفين الأميين ـ على الاتصال والتواصل مع قرائهم الطبيعيين .. اي الجماهير الشعبية . وبكلمات اخرى .. هل تعتقد ـ ان في قدرتك ، انت شخصيا ـ احداث هذا الاتصال والتواصل .. ام ان هذا امر يكاد ان يكون مستحيلا ؟ ..

جميل عطية : انا شخصيا ـ وبعد تفكير طويل في هذه القضية ـ استمر سنوات طويلة ..

ا . منصور : اذن فمسالة الاتصال بالناس كانت تشغلك منذ وقت طويل ؟ ..

عطية : نعم .. بلا شك .. فهذه احدى القضايا الاساسية بالنسبة لجميع الكتاب .. اقول انني ـ وبعد تفكير متصل دام سنوات طويلة ـ اقر بعجزي الكامل .. وعدم قدرتي على الاتصال بالجماهير .. بمعناها الواسع ..

ا . منصور : وما هو ـ في رأيك ـ السبب في ذلك ؟ ..

عطية : لأنني التحقت ، منذ نشأتي الأولى ، بنظام التعليم الرسمي الموحد .. وهو الأمر الذي جعلني اخاطب ـ في كتاباتي ـ من يماثلوني في التنشئة .. بل انني استخدم في كتاباتي ، من الاساليب والمفاهيم ، ما لا يفهمه الا القلة من الذين تلقوا تعليمهم في المدارس والمعاهد الرسمية . واعني بذلك انني لا استطيع حتى ان اتواصل مع جميع خريجي الجامعات .. بل مع بعضهم فقط .. وهم قلة .. او قلة القلة . وقد اخترت جمهوري منذ فترة طويلة وليس لدي على الاطلاق ، طموح في ان اتواصل مع الجماهير الشعبية . لأنني اعترف بعجزي الكامل عن الوصل اليها .. او التواصل معها . وذلك لأن هناك حاجزا ضخما يفصل بيني وبين هذه الجماهير . كما ان هناك حاجزا ضخما ايضا يفصل بين الجماهير وبيني . هذا على الرغم من انني نشأت وشببت في عائلة تنتمي الى طبقة اقل من المتوسطة . ولكن الوسائل

التي أستخدمها في التعبير عن نفسي لا علاقة لها بالجماهير . وبالاضافة الى ذلك ، فانني لم اقم - خلال السنوات الطويلة الماضية - بتنمية .. او بالتواصل مع ما ابدعته هذه الجماهير من فن قصصي .. او من الفنون المختلفة الأخرى ..

أ . منصور : هذا امر محزن في الواقع كذلك فان اعترافك به ليس كافيا .. اعني انه لا زال في حاجة الى مزيد من التفصيل .ذلك انك وبدون شك - لست منحازا عقليا على الاقل - الى « قلة القلة » هذه .. التي تعتبرها جمهورك الذي تخاطبه .. واظن ان تحيزك الكامل هو من نصيب اغلبية الشعب الساحقة ..

عطية : هذا صحيح تماما ..

أ . منصور : واعتقد ان ذلك يمثل تناقضا يثير الحيرة .. اعني انه على الرغم من تحيزك الكامل - عقليا وعاطفيا - لاغلبية الشعب الساحقة ، فانك حين تكتب تخاطب ، ما وصفته انت ، بقلة القلة ، والتي ترفضها عقليا .. بل وربما عاطفيا ايضا .. الا تتملكك الرغبة في حل هذا التناقض ؟ ..

عطية : لقد رأيت ان امامي الفرصة - وفقا لامكانياتي - لخدمة هذه الأغلبية الساحقة بوسائل اخرى غير الكتابة . ثم انني لا اعبِّر ، في كتاباتي ، عن امال او آلام « قلة القلة » هذه . بل اننا - اي انا وبعض من « قلة القلة » هذه - نحاول ان نفسح الطريق للجماهير كي تخلق مبدعيها وفنانيها . كذلك فاننا لا نحاول ان نفرض هيمنة ما على هذه الجماهير .. ولا ندعي ايضا اننا نعلمها او نربيها .. او نرفعها الى مستوانا ؟ بل اننا نحترمها .. ونحاول - كما قلت - ان نهييء لها فرصة خلق مبدعيها وفنانيها . وليس ذلك بالأمر المستحيل .. او حتى العسير . فقد واصلت اغلبية الشعب الساحقة - طوال تاريخها الموغل في القدم - خلق وانتاج مبدعيها وفنانيها .. جنباً الى جنب مع فناني وكتاب المؤسسات الرسمية . وسوف اكون راضيا تماما عن نفسي لو انني نجحت في اجتذاب من يشاركوني الرأي والاخلاص - من بين « قلة القلة » - وان نعمل معا من اجل تعبيد الطريق أمام الجماهير لخلق مبدعيها . وربما - وهو الأغلب - اختار هؤلاء المبدعون وسائل اخرى للتعبير عن انفسهم .. وعن الجماهير ايضا . ذلك انه ليس من المعقول ، ولا من المقبول ايضا ، ان يكون هذا الشعب قد قدم - طوال تاريخه - كل هذه الابداعات الفنية الرائعة - والتي يصل بعضها الى مستوى العبقرية - ثم نأتي نحن ، ونحاول - ونحن في الربع الأخير من القرن العشرين - ان نفرض عليه انواعا محددة من الابداع الفني ، ثم نتهمه بالجهل وبالتخلف ، ان لم يشاركنا فيها . هذا في حين ان الشعب لم يكف يوما عن الابداع الفني باشكاله المختلفة والمتنوعة . ولذلك فانا لا استطيع ان افرض عليه شيئا بدعوى ان غالبيته لا تعرف القراءة والكتابة .. او ان ارغمه على قراءة القصص التي اكتبها .. واذا لم يستطع - بسبب جهله للقراءة والكتابة - اسارع باتهامه بالتخلف وبعدم تقدير الفن ..

أ . منصور : وهل تعتقد ، ان ما قلته الآن بالنسبة اليك شخصيا ، ينطبق ايضا على بقية كتاب القصة والرواية من ابناء جيلك ؟ ..

عطية : اظن ان اغلبية ابناء جيلي من كتاب القصة يشاركونني هذا الرأي تماما ..

أ . منصور : انا لم اقصد المشاركة في الراي .. وانما قصدت انطباق هذا القول الذي ذكرته آنفا عليهم . اعني انن لم اطلب منك ان تتفضل بنقل ارائهم الينا . وانما سالتك اذا كنت تعتقد ان ما قلته ، بالنسبة اليك شخصياً، ينطبق ايضا عليهم ؟ ..

عطية : بلا أدنى شك : ان ما قلته ـ في الواقع ـ ينطبق عليهم بشكل كامل ، وهم ، ايضا ، يسيرون وفق المنهج الذي اسير عليه .. ربما لم يقم بعضهم بتنظيره .. ولكنهم يسيرون وفقا له بالرغم من ذلك .. وخذ كأمثلة على ذلك ـ من بين أبناء جيلي من الكتاب ـ محمد البساطي وابراهيم أصلان ويحيى الطاهر عبد الله، وعبد الحكيم قاسم .

أ . منصور : ولكن ما رايك في ان عبد الحكيم قاسم لا يشاطرك وجهة نظرك هذه ؟.. وقد اكد لي ـ في حوار اجريته معه حول هذه المسالة ـ انه قادر تماما على الاتصال والتواصل مع جماهير الفلاحين .. وانه يكتب عنهم ولهم في آن واحد . وقد قال لي عبد الحكيم انه واثق انه اذا سجلت رواياته وقصصه على اشرطة تسجيل ـ وذلك للتغلب على مشكلة الجهل بالقراءة ـ فان جماهير الفلاحين سوف تتواصل معها وتعتبرها تعبيرا فنيا صادقا عنها ..

عطية : انا عتقد ان هذا الرأي خاطىء تماما .. هذا على الرغم من ان عبد الحكيم قاسم ـ من الناحية العملية ـ يفعل ما افعله ، فان الراي الذي قدمه .. او عدم قدرته على مواجهة النفس في صراحة كاملة .. قد جعلته يصل الى نتائج خاطئة تماما في اعتقادي ..

أ . منصور : اعتقد ان هذا يكفي بالنسبة لهذه المسالة ... وهناك نقطة اخرى احب ان اعرف رايك في ما يتعلق بها .. ذلك ان احد مظاهر الفصام ... او الازدواج الثقافي المنفصل والمنبت الذي نعيشه ... هو هذا الاحتقار الذي يميز نظرة المثقفين الى الثقافة الشعبية . فهناك ، مثلا ، قسم لدراسة الأدب الشعبي في جامعة القاهرة ... وقد مر على انشاء هذا القسم ـ حسب ظني ـ ما يزيد على خمسة عشر هاما ... وعلى الرغم من ذلك فانه لم تقدم حتى الآن في هذا القسم رسالة اكاديمية واحدة ـ سواء كانت للحصول على درجة الماجستير او الدكتوراه ـ حول الف ليلة وليلة ... وهو الأثر الفني الباهر الذي يعد احد مظاهر العبقرية الفنية لشعبنا العربي . وهذا بالرغم من ان هذا القسم يترأسه رجل لا شك في اخلاصه لقضية الأدب الشعبي. **وهذا بالرغم من ان هذا القسم يترأسه رجل لا شك في اخلاصه لقضية الأدب الشعبي .** **وهو الدكتور عبد الحميد يونس ... ورغم ان العاملين معه في هذا القسم لا يمكن اتهامهم بنقص اخلاصهم لقضية الادب الشعبي ... فما هو تفسيرك لهذه الظاهرة ؟ .**

عطية : انا لن افسرها .. وانما سوف ادلي بوجهة نظري فيما يتعلق بها .. انا اعتقد انه رغم اخلاص هؤلاء لهذه القضية .. فان المسألة برمتها قد اخذت مأخذ الفنطزية (المظاهر الفارغة في هذا المقام ـ أ .م).. اي ان جامعة القاهرة كان ينقصها وجود هذا القسم .. فأنشأته خوفا على مكانتها وسمعتها العلمية ..

ا منصور : ولكن الرسالة التي حصل بها رئيس هذا القسم ، الدكتور عبد الحميد يونس ، على درجة الدكتوراه ، كانت تتعلق ـ كما اظن ـ بملحمة ابي زيد الهلالي ... اذن فهو رجل يؤمن منذ زمن طويل باحقية وجدارة الادب الشعبي بالدراسة الاكاديمية . وعلى هذا ، فان المسالة ، بالنسبة اليه ... لم تكن مسالة « فنطزية » كما تقول ، وقد كان هو الذي عمل من اجل انشاء هذا القسم ، ونجح في ذلك ... اعني ان رجلا بهذا الشكل ، لا يتصور ان يقوم بانشاء قسم للادب الشعبي لمجرد الفنطزية . وانما الأمر ، في اعتقادي، يرجع الى هذه النظرة المعينة التي ينظر بها المثقفون الرسميون للأدب الشعبي .. وهي نظرة تتسم بالتعالي ... وبروح الوصاية والأبوية ...

عطية : انا لا اتهم الدكتور عبد الحميد يونس .. وانما انا كنت اتحدث عن جامعة القاهرة . ذلك انه حين تبنت جامعة القاهرة فكرة انشاء قسم للأدب الشعبي .. فانها فعلت ذلك وهي تنظر الى الادب الشعبي نظرة تتسم بالتعالي ..

ا . منصور : اذا كنت تعني بذلك ان نظرة الدكتور عبد الحميد يونس الى الأدب الشعبي لا تتسم بالتعالي .. فانا اخالفك في ذلك .. ففي رايي ان الدكتور يونس ينظر الى الأدب الشعبي وهو يضع في اعتباره استاذيته وشهادة الدكتوراه التي يحملها .. وعلمه الواسع .. وتبحره في خفايا اللغة العربية .. اعني انه لا بد وان تتسم نظرته بكل ذلك .. اي بتنازل الأستاذ كي يتفاهم مع من هم اقل منه علما وثقافة .. او بتنازله كي يدرس انتاجا بدائيا من خلق الناس ..

عطية : اوافقك تماما على ما تقول . واضيف ان نظرة الدكتور يونس للثقافة الشعبية تماثل نظرة السائح الأجنبي الذي يقوم بتسجيل عادات وتقاليد شعب متخلف . والسائح الاجنبي لا يفعل ذلك من اجل التواصل مع هذا الشعب ، او من اجل مساعدته على تسلم السلطة الفعلية .. وانما كل ما يفعله هو رصد هذا الشعب من الخارج . وهذا هو السبب في استخدامي للفظ « فنطزية » . ذلك ان احدى الصرعات المنتشرة في العالم في الوقت الحالي هي الاهتمام ـ الذي يتسم بالتعالي ـ من جانب المؤسسات الرسمية بالفنون الشعبية .. وهو اهتمام يتسم ايضا بنظرة السائح الغريب . وكذلك فان الهدف من هذا الاهتمام ليس مساعدة الجماهير على السيطرة على مقدراتها . ونحن ننظر الى الجماهير من أعلى .. ثم نقول بشيء من الرصد .. وبعض التحاليل .. دون ان تكون لدينا القدرة على التواصل مع هذه الجماهير ..

ا . منصور : لا باس ، ولننتقل الآن الى نقطة اخرى تتعلق بظاهرة فنية بدات في اوائل الخمسينات .. وهي ما اصطلح على تسميته بالشعر العامي .. والذي حمل لواءه في العقدين الماضيين شعراء من امثال فؤاد حداد وصلاح جاهين وعبد الرحمن الأبنودي وسيد حجاب .. ومن تبعهم من الشعراء الآخرين مثل زين العابدين فؤاد ونجيب شهاب الدين ومحمد سيف .. الخ . وقد كان ما دفع هؤلاء الشعراء لاستخدام اللهجة العامية هو ـ كما اعلنوا ـ رغبتهم في التواصل مع الجماهير عن طريق استخدام اللغة ـ او اللهجة اذا احببت ـ التي تستخدمها هذه الجماهير . واسمح لي ان ننحي احمد فؤاد نجم

جانبا لبعض الوقت . اذ ان ما ينطبق على الشعراء المتقدم ذكرهم لا ينطبق عليه .. وهو يكاد ان يكون حالة خاصة تتطلب النظر اليها بشكل مستقل .. على اية حال ، فان السؤال الذي اريد ان اوجهه اليك هو : هل نجح هؤلاء الشعراء ـ في اعتقادك ـ في تحقيق ما كانوا يرمون اليه .. اي هل نجحوا في التواصل مع الناس ؟ ..

عطية : ان مشكلة هؤلاء الشعراء هي ان انتاجهم كان يغطي ميدانين مستقلين . وشعرهم ـ من احد جوانبه ـ يماثل تماما الشعر الذي ينتجه شعراء المؤسسة . فيما عدا انه مكتوب باللغة العاميـة . ولذلك فقد كنا ، نحن المثقفون ، نقرأ قصائدهم التي تحظى باعجابنا البالغ .. والتي لم نكن نرى اية فروق بينها وبين القصائد المكتوبة باللغة العربية الفصحى . ولكن يجب الاعتراف بأنه كان لبعضهم قصائد متناثرة ـ ربما تاهت في خضم انتاجهم الآخر ـ تحقق شيئا من التواصل مع الجماهير ..

أ . منصور : ارجو ان نبتعد قليلا عن التعميم في هذه المسالة ، اي ارجو ان تحدد بالضبط من هم هؤلاء الشعراء الذين تعنيهم ..

عطية : سيد حجاب ، مثلا ، والذي كتب عددا من القصائد الجيدة جدا ..

أ . منصور : وما هي هذه القصائد ؟ ..

عطية : انا لا اذكر بالضبط .. وربما في بعض قصائده الغنائية مثل : زقزق العصفور يا امة (يجب ـ احقاقاً للحق ـ ان نؤكد انه ليس لحجاب اغنية كهذه ـ أ . م) او ما شابه ذلك ..

أ . منصور : حتى ولو كان لسيد حجاب اغنية كهذه ـ وهو امر استبعده ـ فان الكلمات التي ذكرتها لا تزيد عن ان تكون سطوا على التراث الغنائي الشعبي .. والذي يعمد بعض كتاب الاغاني الى السطو عليه في جراة شديدة .. ثم يشوهونه بغرض تقديمه الى جماهيرهم من ابناء الطبقة الوسطى .. من اجل التسلية .. او الشعور بالتفوق ازاء تخلف وتدني الطبقات الشعبية .. والامثلة على ذلك كثيرة في « ريبتوار » عايدة الشاعر .. او ليلى نظمي .. او محمد العزبي .. او محمد رشدي .. او بعض اغاني عبد الحليم حافظ .. الخ ..

عطية : قد ينطبق ما تقول على هذه الاغنية التي ذكرتها .. ولكن لا مشاحة في ان للسيد حجاب عددا من القصائد ـ التي لا اذكرها الان ..

أ . منصور : اذن اذكر قصائد لشاعر آخر غيره .

عطية : في الواقع .. انني لا اتذكر الآن ..

أ . منصور : والواقع ، احدى سمات شعر سيد حجاب الاساسية هي عدم وجود اي اختلاف بينه وبين قصائد الشعر الفصيح اي انه يمكن القول بان قصائد سيد حجاب هي ترجمة عامية لقصائد كتبت اصلا باللغة العربية الفصحى .. ولا مبالغة في هذا القول في الواقع .. اذ ان مصادر الهام سيد حجاب هي نفسها مصادر الهام بقية شعراء الفصحى .. وهي التراث الشعري العربي الرسمي . ولو ان قصائد سيد حجاب كتبت باللغة العربية الفصحى لما فقدت اي من عناصرها .. او لما احسسنا انها فقدت شيئا .

عطية : ربما كان ما تقوله صحيحا على اية حال فان اختلافنا يتعلق بنقطة ثانوية .

ا . منصور : هذا عظيم .. ما رايك اذن في احمد فؤاد نجم ؟ ..

عطية : احمد نجم ـ كما قلت انت ـ حالة خاصة مستقلة ، ولا ينطبق عليه ما سلف ذلك انه اتخذ من جماهير الشعب ـ الذين يحيا معهم حياة كاملة ـ المصدر الوحيد لابداعه الفني . والذي يقوله احمد نجم يصل الى الجماهير وتفهمه الجماهير .. لان وجدانه من وجدانهم .. وهو لن يتأثر .. رغم انه يستوجب الانتاج الفني للمؤسسة الرسمية .

ا . منصور : الواقع انه يمكن القول ان ثقافة احمد نجم تقترب كثيرا من الثقافة الشعبية .. وربما كان يستوعب الانتاج الفني للمؤسسة الرسمية ، ولكنه يرفضه بالقطع ، واظن انه لا دلالة لرفضه العمل عن طريق الاجهزة الثقافية والاعلامية الرسمية ـ ورغم ان ذلك الرفض ليس كاملا تماماً لانه ينشر دواوينه عن طريق دور النشر التابعة للمؤسسة (اعني ان كونها دور نشر خاصة لا يغير من الامر شيئا) وكذلك ينشر له ـ وقد يكون ذلك بدون علمه او ارادته ـ احيانا في الصحف والمجلات العربية الرسمية ـ اقول انه لا دلالة لذلك سوى انه يرفض الثقافة الرسمية ..

عطية : انا اوافق على ما تقول ، وموقفه هذا من المؤسسات الرسمية ينبع من ادراكه لطبيعتها ادراكا عقلانيا وعاطفيا في نفس الوقت وهو لذلك يرفض التواصل مع الجماهير عن طريق الاجهزة الرسمية ، التي ترفضها الجماهير .. وقد ترفضه هو ايضا اذا قبل العمل عن طريقها .. وانا اقول ، انه على الرغم من كل ضروب الضغوط والحصار التي يتعرض لها احمد فؤاد نجم ، فانه يمكن القول .. دون اية مبالغة ـ انه شاعر الشعب المصري رقم واحد .

ا . منصور : اعتقد انه بهذا الشكل نكون قد استوفينا الحديث حول موضوع حوارنا ، اللهم الا اذا كان لديك ما تود ان تضيفه ..

عطية : اعتقد ان هناك ما اود ان اقوله فيما يتعلق بما اثاره الدكتور فؤاد زكريا حين اوحى التخوف من الحضارة الاوروبية لاننا ـ كعرب ـ قد ساهمنا في تخليقها .. ولان العلاقة بين الامم وبين الحضارات المختلفة تشبه العلاقات القائمة بين المتسابقين في سباق التتابع .. اي ان كل امة تحمل ـ وقتا ما ـ شعلة الحضارة او رايتها وانه اذا كانت اوروبا تحمل هذه الشعلة في الوقت الحاضر ، فانها سوف تنتقل ، في غالب الأمر ، الى شعوب منطقة الشرق الاقصى ، وهذه النظرة سليمة مائة في المائة . وانا لا استطيع مجادلة استاذ الفلسفة الدكتور فؤاد زكريا في هذا الموضوع ولكنني ارى ان نقطة الانطلاق في هذا التحليل ، وفي ما يتعلق بموضوع حوارنا ، خاطئة اساسا ، لانه حاول ان يرجع الى عامل عنصري .. وان يجعلني لا اخشاه ..

ا . منصور : معذرة .. ولكنني لا افهم ما تقول ..

عطية : اي اننا .. كعرب ، قد اسهمنا في بناء الحضارة الاوروبية . ولذا فانه خليق بنا

ان نطمئن من ناحيتها بينما الحادث ان الشعوب العربية جميعها بثقافتها الرسمية لا علاقة لها على الاطلاق بالمستوى الذي وصل اليه العرب عندما قدموا هذه الاسهامات التي يتحدث عنها الدكتور زكريا ، وحالة الثقافة السائدة حاليا تتدنى كثيرا ! بل هي في حالة تدهور كامل، ولا علاقة لها بالمستوى الفكري والثقافي الذي كان سائدا عندما نقل العرب التراث اليوناني الى اوروبا .. وانا - اي العرب - نعيش الان في مرحلة تخلف ..

أ . منصور : هل تعني ان ما قاله الدكتور فؤاد زكريا لا يبدد اطلاقا هذا الانسحاق امام الحضارة الغربية ؟ ..

عطية : نعم .. انه لا يبدد الانسحاق اطلاقا ، كذلك فانني اريد - حتى عندما ابرر الانسحاق - ان لا اعتمد على ركيزة عنصرية ..

أ . منصور : وانا لا اعني ان الدكتور فؤاد زكريا - على الاقل فيما يتعلق بهذه النقطة - كان يهدف الى تبرير الانسحاق .. وانما كل ما في الامر ان قوله هذا لا يبرر الانسحاق ..

عطية : على اية حال فقد كان خطأ من الدكتور زكريا ان يبرر اي شيء - ايا كان - اعتمادا على ركيزة عنصرية . وانا شخصيا لا اخاف ولا انسحق امام الحضارة الاوروبية .فانا انتمي الى شعب له حضارته المستقرة والمتواصلة . ولولا انه ، ولظروف متعددة ، كان يوجد دائما انفصال بين الشعوب العربية وحضاراتها وبين حكامها ومؤسساتهم الثقافية ..

أ . منصور : اظن ان ما تقوله الآن يتناقض تماما مع ذلك الاقرار الصادق الذي ادليت به في مستهل حوارنا اعني اقرارك بالعجز عن التواصل مع الاغلبية الساحقة للشعب . ذلك ان عجزك عن هذا التواصل انما يرجع ، اساسا ، الى انك ترتدي ثياب ثقافة اجنبية ..

عطية : هذا صحيح ..

أ . منصور : وهذا هو المقصود بالانسحاق اي انك ترى وطنك بعيون اجنبية وليس بعيون قومية . ولولا انسحاقك هذا لما عجزت عن التواصل مع الاغلبية الساحقة من بني وطنك .. اذن فانت لا حق لك في ان تعلن انك لست منسحقا امام الحضارة الغربية ، ما دمت قد اقررت بعجزك عن التواصل مع الجماهير الشعبية .

عطية : الواقع ان الانسان يمر ، فيما يتعلق بهذا الامر بعدة مراحل . ذلك انه في البداية ، يتعلم المرء عن طريق المؤسسات الثقافية وقد ينسحق امامها . وبعد ذلك ، يشرع المرء في اعادة حساباته ومن ثم يبدا في تعليم نفسه . ذلك انني كمواطن من العالم الثالث تلقى تعليما رسميا ، لا اتعلم حقيقة كما يتعلم الاوروبي في بلده ..

أ . منصور : نعم فانت تتلقى تعليما اوروبيا مشوها ..

عطية : هذا صحيح فانا اذن مشوه ..

أ . منصور : وما هي دلالة ذلك ؟ من الطبيعي ان لا يكون التقليد مثل الأصل .. وان يكون صورة مشوهة له . والنتيجة انك تصبح مثل غراب « كليلة ودمنة » لا

تستطيع ان تمشى مثل الحمامة التي كنت تحاول تقليدها .. ولا تستطيع ايضا ان تمشي كما كنت تفعل من قبل ..

عطية : اذن فأنا مشوه ولست منسحقا ..

أ . منصور : ولكنك لا بد ان تنسحق اولا كي تتشوه . بل ان التشويه هو ـ في احد جوانبه ـ مجرد وصف للانسحاق ..

عطية : قد يكون هذا صحيحا .. ولكن هناك شعوب تنسحق ولا تمر بمرحلة التشوه ..

أ . منصور : اظن ان ذلك غير ممكن ..

عطية : ولكن تلك هي علاقات الثقافات الاوروبية بعضها بالبعض . ولا يوجد انسحاق في هذه العلاقات ..

أ . منصور : ليست هناك ثقافات اوروبية ، وانما هناك ثقافة اوروبية واحدة ـ ذات الوان مختلفة ـ ذات منابع متماثلة . وتاريخ واحد الخ .. وانت لا تستطيع مثلا ان تقول ان مظاهر عصر النهضة كانت قاصرة على ايطاليا لانها كانت تبدو اوضح ما تكون هناك وانما كان عصر النهضة جامعا لعوامل عديدة مختلفة تشمل القارة الاوروبية كلها ..

عطية : على اية حال فإن ما اريد ان اقوله هو ان على مثقفي العالم النامي ان يراعوا امرين : اولهما ، ان يدركوا حقيقة الامور ، وان يربوا انفسهم ، وان يكملوا النقص ، ويعالجوا التشوه الذي اصابهم من الاتصال بالمؤسسات . وعليهم ، بعد ذلك ، ان يتخذوا موقفا واضحا : اما ان يخدم هذه المؤسسات وان يعمل كي تظل السلطة في يدها دائما او ان يتخذ مسارا آخر واهدافا اخرى ، بالرغم من عجزه عن الاتصال بالجماهير واريد ان اضيف امرين تفاديا لحدوث اي لبس او سوء فهم فيما يتعلق بحوارنا . والامر الاول يتعلق برفض الحضارة الاوروبية او رفض الانسحاق امامها ..

أ . منصور : هذان شيئان مختلفان ..

عطية : ذلك ان رفض الانسحاق امام الحضارة الاوروبية لا يعني ، بتاتا ، انني انطلق في ذلك من منطلق رجعي او من موقف سلفي ، كما قد يظن البعض . فانا ارفض الانسحاق امام الحضارة الاوروبية من منطلق تقدمي ، وليس من منطلق رجعي . وما يهمني هنا هو الجماهير ، وليس ما تشيعه المؤسسات الرسمية من ادعاءات عن الأصالة والتراث الخ .. والتي تهدف من وراءها الى سلب حقوق جماهير الشعب العربي ، وحرماننا من السيطرة على مقدراتها وابراز شخصياتها القومية وهذا امر بالغ الاهمية .

ام الامر الثاني ، وهو امر بالغ الاهمية ايضا ، ولكن فيما يتعلق بي انا شخصيا فانا كاتب مصري قبطي . ولكن هذا لا يعني ان يباح اتهامي بانني معاد للقومية العربية ، اذا ما وقفت بجانب الثقافة الشعبية ، او ان يباح اتهامي بانني ضد اللغة العربية ، على سبيل المثال .

فانا ضد كل ذلك وضده بشكل صريح لا لبس فيه . وانا لا اكتب بغير اللغة العربية الفصحى والسليمة ـ بقدر استطاعتي ـ بل انني لا استخدم التركيبات الشعبية في كتاباتي لانني لا اجيدها ولا اجيد التعبير بها . كما انني لا ازعم انني امتلك حسا شعبيا كالذي يتمتع به بعض زملائي من الكتاب ، هذا هو ما اردت ان اضيفه ومعذرة لهذا الاستطراد .

ا . منصور : هذا حقك .. وشكرا مرة اخرى* ..

* سجل في بازل ـ سويسرا ، ونشر في « السفير » اللبنانية بتاريخ ٣١/٥/١٩٨١ .

أمل دنقل

ابراهيم منصور : الشاعر امل دنقل .. قرات الحوار الذي اجريته مع الاستاذ السيد ياسين حول موضوعي الازدواج الثقافي القائم في العالم العربي ، وفي مصر بوجه خاص ، والانفصام القائم بين هذه الثقافات الموجودة . واظن ان من يقرأ شعرك ، لا بد وان يخرج بانطباع بأن الاتصال بالتراث هو احد همومك الرئيسية .. ولذلك فقد يكون من المفيد ان اسالك عن رايك فيما تناوله هذا الحوار من اراء ..

امل دنقل : بالنسبة لموضوع الازدواج الثقافي ، ووجود ثقافة شعبية واخرى رسمية ، وذلك نتيجة لفترات الاحتلال المتوالية في مصر ، ووجود ثقافة سائدة .. اي ثقافة الطبقة الحاكمة في مختلف العصور ـ بالنسبة الى ذلك ، فان هذا كلام حتى ولو لم يصح واقعيا ، فانه يجب ان يصح نظريا . فهو نتيجة حتمية لتغير الفئات الحاكمة في مصر ، واتجاهات مصر الثقافية المختلفة . ولكنني اعتقد ان احدا لم يحس بوجود هذا الازدواج الا في العصر الحديث ، عندما بدأ الاهتمام بالتراث الشعبي ، وبمحاولة تدوينه وتجميعه . ذلك ان لكل امة ادب مكتوب ، وادب غير مكتوب . وقد كان التراث الشعبي ـ كما نعرف ـ يُروى شفاهة على السنة الشعراء الجوالين المختلفين ، وذلك الى درجة ان المرء يجد اكثر من رواية للنص الواحد . ولذلك فانه من الصعب اعتماد رواية واحدة للنص غير المكتوب. وكل ما يمكن عمله هو اعتماد آخر رواية ـ او نسخة ـ للنص وصلت الينا .

أ . منصور : معذرة.. ولكني اريد ان اقول ان هذا الازدواج الثقافي الذي نتحدث عنه موجود في كل بلاد العالم تقريبا ، ولكن ما ينفرد به العالم العربي ـ ومصر بوجه خاص ـ هو انعدام جسور الاتصال بين افرع هذه الثقافة المزدوجة . ذلك انه بالرغم من وجود ازدواج ثقافي في معظم بلدان العالم ، فاننا نجد أن هناك سمات عامة تجمع بين الثقافات القائمة ، وان هناك تشابها في نقاط انطلاق كل منها . وعلى العكس من ذلك ، فان المرء اذا قارن مثلا بين « الف ليلة وليلة » وبين « مقدمة » ابن خلدون واللذان ظهرا الى الوجود في نفس الفترة تقريبا ، فانه لن يجد سمة واحدة او نقطة انطلاق واحدة مشتركة بينهما . وهذه هي احدى الجوانب الرئيسية للقضية : اي انقسام الامة الواحدة الى فرق

لا يربط بينها رابط ، ولا يصلها بعضها ببعض جسر او قناة ..

دنقل : اعتقد انه كان من المستحيل قيام اتصال بين الثقافتين . ففي عهد الف ليلة وليلة ، مثلا ، او عهد نشوئها وتكونها ، كان المماليك الاتراك هم الطبقة السائدة ، وكان من يتعلم اللغة العربية من هؤلاء الاتراك ـ وكانوا يسمونهم « اولاد الناس » ، اي الأتراك الذين اذلهم الدهر ـ يصبح كاتبا في ديوان الانشاء او ما شابه ذلك .

(هذا غير صحيح تاريخيا . فأولاد الناس هم سلالة الأمراء ممن بيدهم اقطاعات ورثوها عن اسلافهم . كما ان غالبية العاملين في ديوان الانشاء كانوا من العرب ـ أ . م) .

وهؤلاء هم الذين كتبوا التواريخ المعتمدة ، الآن ، لهذه الفترة .

(لم يكن إبن تغري بردى او ابن اياس او بيبرس الدوادار ممن عملوا في ديوان الانشاء ، كما ان الأولان لم يكونا يمارسان عملا آخر غير التاريخ والكتابة ـ أ . م) .

هذا بالاضافة الى من يلحق بهؤلاء من ابناء الشعب المتعلمين من خريجي الأزهر وعلماء الدين ..

أ . منصور : تقصد الفئات العليا من المثقفين ؟..

دنقل : نعم .. وهؤلاء كانت مرتبتهم تقرب من مرتبة الخدم . واذا اخذنا الكتب الدينية كمثال ، فان المفهوم المتوارث شعبيا عن الدين عامة ، والدين الاسلامي بشكل خاص ، هو ذاته المفهوم التركي له .. الذي يتسم بالغيبية والتواكل ، والذي يرى ان طاعة ولي الأمر تأتي قبل كل شيء ..

أ . منصور : بالنسبة لهذه المسألة ، فانه من الملاحظ انه على الرغم من ان المذهب الشافعي كان ـ ولا يزال ـ يحظى باكبر قدر من الشعبية في مصر ، فان الحكام كانوا ـ بوجه عام ـ من اتباع المذهب الحنفي .. وينطبق ذلك ـ بشكل خاص ـ على فترة الاحتلال العثماني .. على اية حال ، فاني اريد ان اسألك عما اذا كنت تشعر بوجود ظاهرة وجود نظرتين مختلفتين للدين ؟ ..

دنقل : نعم .. بالطبع .. هذه الظاهرة موجودة بالقطع .. ولكن المشكلة تظهر في مجالات الابداع الآن بشكل مختلف ، وذلك لأن ..

أ . منصور : ارجو ، اذا سمحت ، ان نترك مسألة الابداع بعض الوقت ، لأنها قضية اخرى .. وما اريد ان اعرفه الآن هو : هل توافق ـ بشكل عام ـ على وجهة النظر التي عرضتها في حواري مع الاستاذ سيد ياسين ؟ ....

دنقل : نعم .. انا اوافق على وجهة النظر هذه .. وعلى ان هناك ثقافة شعبية ، كما ان هناك ثقافة رسمية ، وكذلك على ان هناك مفهوما رسميا للتاريخ الى جانب المفهوم الشعبي للتاريخ ، وايضا على ان هناك نظرة رسمية للدين ، ونظرة شعبية للدين ..

أ . منصور : نعم .. هذا صحيح .. وانا اتفق معك تماما .. ويقودنا ذلك الى ما لاحظته انت من ان الاحساس بوجود هذا الازدواج الثقافي لم يبدأ في الظهور الا في عصرنا

الحاضر . وهذا ، في رايي ، امر غريب بعض الشيء .. هذا اذا افترضنا صحة ملاحظتك . ذلك انه حتى لو كانت حركة نضالنا من اجل الاستقلال الوطني - والتي بدات في النصف الثاني من القرن الماضي - قد اتخذت شكلا اوروبيا ، فان هذا لا يبرر - اطلاقا - تجاهلها للجانب الثقافي في الاستقلال الوطني .. وهو تجاهل اعتقد انه ملحوظ وواضح .. واعتقد انه يمثل قصورا في رؤية هذه الحركة ..

دنقل : لا .. اسمح لي ان اختلف معك في ذلك .. ذلك ان حركة النضال من اجل الاستقلال الوطني في مصر، والتي بدأت ضد حكم الاستعمار الانجليزي ، كانت موجهة ضد هذا الحكم - كشكل سياسي - وليس ضد المفاهيم الأوروبية . وبالتالي فانه لم يكن لها محتوى اجتماعي بمعنى انه لم يكن لديها الرغبة في تأكيد استقلال الشخصية المصرية بمكونات ثقافية خاصة ..

ا . منصور : ولكن هذا بالضبط هو ما عنيته ..

دنقل : وقد كان الهم الاساسي لهذه الحركة هو اثبات ان المصريين لا يقلون عن الأوروبيين جدارة في فهم العالم ونقل العلوم والمعارف وبالتالي فقد اتسمت حركة الاستقلال الوطني عندنا بطابع التأثر الشديد بالغرب ، واتباع المناهج الغربية ، وربط مصر بالثقافة اليونانية . كما فعل الدكتور طه حسين ..

ا . منصور : تعني ان حركة الاستقلال الوطني ، من الناحية الثقافية كانت تمثل محاولة لتقليد الغرب ؟..

دنقل : نعم .. كانت تمثل محاولة لتغريب مصر ..

ا . منصور : وان قادة هذه الحركة كانوا يؤمنون انه كلما زاد اقتراب مصر من الغرب كلما كان ذلك افضل ؟

دنقل : نعم .. هذا صحيح .. ولقد نادى طه حسين بأن تكون اليونانيات مادة اساسية في مناهج التعليم ، وذلك لكي تمثل الخلفية للتكوين الثقافي المصري ، باعتبار ان مصر تنتمي ، اساسا ، لحضارة حوض البحر الابيض المتوسط . ومن طبيعة مثل هذه النظرة انها تنظر باحتقار ، او بشيء من الاستعلاء ، للموروثات الشعبية والنظرة الشعبية للعالم ، وذلك على اعتبار انها من مخلفات الماضي . ولكننا لا يجب ان ننسى ان هذا التيار كان يواجه تياراً آخر مضادا ، ينادي بربط مصر بالخلافة التركية العثمانية . وقد كان تأثر الثقافة الشعبية بالأتراك ورؤيتهم للحياة واضحا في ذلك الوقت ..

ا . منصور : معذرة .. ولكنني اعتقد انك تقصد هنا الثقافة السلفية - اي موروثات الثقافة الرسمية - وليس الثقافة الشعبية ..

دنقل : نعم .. انا اعني الثقافة السلفية ..

ا . منصور : ذلك انه من الملاحظ ان الثقافة الشعبية قد احتفظت - على طول تاريخها - بقدر كبير من النقاء الذي لا ينفي التأثر والهضم ..

دنقل : على اية حال فان هذين الجناحين - أي التيارين السلفي وذلك الذي كان يدعو للأخذ بالثقافة الغربية - هما اللذان كانا يقودان حركة الاستقلال الوطني . ولذلك فقد كان

نضال هذه الحركة يتخذ شكلين لا شكلا واحدة . فقد كان طه حسين يكتب عن الثقافة اليونانية ، ويكتب أيضا وفي نفس الوقت ، عن الاسلام بمفهومه الصحيح والأصلي ، وليس بالمفهوم التركي ..

أ . منصور : والحقيقة ان الفئتين معا كانتا منفصلتين عن الشعب .. اي ان السلفيين .. وايضا هؤلاء الذين كانوا ينادون بتبني الثقافة الغربية ، كان كلاهما بعيدين عن الشعب بسبب وقوعهما معا ـ وبشكل انسحاقي ـ تحت تاثير الغرب ..

دنقل : نعم .. هذا صحيح ..

أ . منصور : حسن .. وهناك ايضا ملاحظة لا اعرف اذا كانت صحيحة ام لا .. وهي ان مظاهر الاهتمام بهذه القضية قد تبدت في جنسين من اجناس الابداع الفني : وهما الشعر والفنون التشكيلية .. ترى .. هل توافق على ذلك ؟ .

دنقل : لا .. لا اعتقد ان الأمر اقتصر عليهما فقط .. فقد بدا ذلك واضحا في المسرح ايضا .. كما ان الاهتمام بالتراث الشعبي ..

أ . منصور : ان المسألة ، في نظري ، مركبة : فهناك انفصال المثقفين المعاصرين عن التراث السلفي الرسمي .. وهناك انفصالهم ايضا عن الثقافة الشعبية .. اي ان الانفصال مركب وليس بسيطا . وعلى اية حال ، فما كنت اعنيه هو انه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، بدأ بعض ـ وليس كل ـ الفنانين التشكليين يبدون اهتماما بمد جذورهم الى الثقافة الشعبية ، صحيح انه ربما كانت هذه المحاولة من جانب بعض الفنانين التشكيليين تتسم بشيء من السذاجة ، لانها كانت تتمثل في محاولة تقليد التكوينات التشكيلية الشعبية .. وتقليد الألوان الشعبية .. الخ .. ولكننا الآن لسنا في معرض تقييم هذه المحاولات ، وانما ما يهمنا من امرها هو دلالاتها .. التي تشير ، بلا شك ، الى انه كان هناك اهتمام من جانب بعض الفنانين التشكليين بهذه القضية .

أما فيما يتعلق بالشعر ، فقد كان هناك اهتمام ـ بدأ في اواخر الخمسينات ـ بالاتصال بالتراث بشكل عام . ولا يتسع الوقت لحصره . كذلك بدا هذا الاهتمام واضحا في شعرك انت ايضا .. حيث يبدو انشغالك بهذه القضية ، ومحاولة حلها ، بصورة جلية ..

دنقل : الواقع ان لي تحفظا صغيرا فيما يتعلق بذلك وهو انني اعتقد انه كان هناك اهتمام بهذه القضية في الاجناس الفنية الاخرى ايضا ولكن قدر هذا الاهتمام كان يتفاوت حسب درجة عراقتها في المجتمع المصري . ففي المسرح ، على سبيل المثال ، كانت انجح مسرحيات « الفريد فرج » هي تلك التي تواصلت مع ما تسميه بالثقافة الشعبية ..

أ . منصور : معذرة ، ولكن ما تسميه انت تواصلا ، هو في حقيقة امره مجرد استخدام من الخارج (مثل المراهم والدهانات) ، اي ان كاتب المسرح يستخدم الأدب الشعبي او التاريخ لتحقيق رؤيته هو المعاصرة . وليس ذلك هو ما يعنيه التواصل . ويختلف ما يحدث في مجال المسرح عما حدث ويحدث في ميدان الشعر حيث نجد محاولة

لاحداث اندماج عضوي مع التراث .. اعني ان استخدامك انت للتراث في قصيدة .. « حديث خاص مع ابو موسى الاشعري » مثلا ، يختلف عن استخدام الفريد فرج للتاريخ في مسرحية « سليمان الحلبي » او استخدامه للتراث العربي في مسرحية « الزير سالم » ، وكذلك عن استخدام علي احمد باكثير للتاريخ في مسرحية «واسلاماه»..الخ

دنقل : لا .. انا عتقد انه من الخطأ ان نضع الفريد فرج وباكثير في سلة واحدة . فقد كان « باكثير » يستخدم التراث الرسمي في الواقع او المفهوم الرسمي للتراث . على حين ان الفريد فرج لم يكن يستخدم في مسرحية « حلاق بغداد » ومسرحية « الزير سالم » ـ بل وحتى في « سليمان الحلبي » ـ هذا التراث الرسمي او المفهوم الرسمي للتراث ..

أ . منصور : ان ما كنت اعنيه هو ان « الفريد فرج » لا يتصل بالتراث وانما يستخدمه ..

دنقل : وأحد أوجه الاستخدام ، هو اسقاط التراث على الحاضر .

أ . منصور : هل تراك تعني ان الاستخدام هو احد اوجه الاتصال ؟

دنقل : نعم .. بالضبط .. ان احد اوجه الاتصال بالتراث هو استخدامه في تقديم قضايا معاصرة . ذلك ان الهدف من الاتصال بالتراث ليس مجرد تقديمه كما هو ـ بكل قيمه المتخلفة ، لأن ذلك هو عمل مراكز الفنون الشعبية ـ وليس ذلك هو المطلوب من الفنون الابداعية ..

أ . منصور : اعتقد ان الهدف من التواصل مع التراث ، هو ان تكون جذور الفنان مغروسة في تربة هذا التراث الحقيقية . اي ان الاتصال لا يعني ان يكون انتاج الفنان هو مجرد اعادة صياغة لهذا التراث ، مثلما تفعل المسلسلات الاذاعية بالف ليلة وليلة . ذلك ان السمة الاساسية للاتصال بالتراث ، في رايي ، هي ان يكون ابداع الفنان نتيجة حتمية لتفاعله مع هذا التراث ، وايا كان موضوع هذا الابداع ، اي سواء كان يعالج عملا من اعمال التراث ام لا هذا ، في الواقع ، هو ما عنيته بالاتصال . فلم اكن اعني بـه هذا الاستخدام المشوه للتراث فيما يسمى بالاغاني الفولكلورية التي تؤديها المغنيات من امثال « عايدة الشاعر » او « ليلى نظمي » .. الخ .. لان ذلك ليس اتصالا بالتراث ، وانما هو تكريس للانفصال عنه .. وفي رايي ، ان احد سمات الاتصال ، هو ان يحس الفنان ان هذا التراث عصري .. بمعنى انه ليس ماضيا ، اكل الدهر عليه وشرب ، يستخدمه الفنان من باب الطرافة او التجديد .. وانما يجب على الفنان ، اذا اراد الاتصال بالتراث ، ان يحس به كائنا حيا معاصرا يواكب حياته اليومية .. وبحيث يفرض طابعه على انتاج الفنان ، حتى ولو كان هذا الفنان يتناول موضوعا حديثا معاصرا .. ذلك ان المهم ، بالنسبة لهذه المسالة ليس هو الموضوع وانما كيفية وزاوية النظر اليه .. هذا هو ما عنيته بالاتصال في الواقع ..

دنقل : الحقيقة اننا لا نختلف كثيرا ..

أ . منصور : نعم .. انه مجرد سوء فهم ..

دنقل : ربما .. ولكنني اعتقد اننا لم نختلف كثيرا بالرغم من ذلك .. ذلك ان التراث ، ولا

شك ، يعيش في وجدان الفنان ، ولو بشكل غير واع على الأقل ، وخاصة اذا كان الفنان قد خرج من صميم الشعب . وعلى ذلك فلا بد لهذا الفنان من ان يستخدم التراث .. والمهم ، في رأيي ، ان يحول الفنان هذا الشعور اللاواعي الى شعور واع ..

أ . منصور : اعتقد انه لا يزال هناك قدر من سوء الفهم بالنسبة لهذا الموضوع .. وسوف احاول ازالته عن طريق تقديم مثال آخر . فهناك افتراض سائد ، مثلا ، يؤمن به كافة الروائيين والقصاصيين في بلادنا ، وهو ان اصول وتراث هذين الجنسين من اجناس الابداع الفني يوجدان في الغرب ، وان من اراد ان يكون كاتبا للرواية او القصة لا بد له من الاتصال بهذا التراث الغربي ، وان يمد جذوره اليه . واذكر ان الاستاذ نجيب محفوظ ، مثلا ، قال في حديث له ، انه حين شرع يكتب القصة والرواية ، اخذ على عاتقه ان يقرأ قصة او رواية واحدة على الأقل ، لكل الكتاب الغربيين الذين ينعقد الاجماع على انهم يمثلون اعمدة هذا الجنس الفني ـ ويعني هذا ، في الواقع ، ان الاستاذ نجيب كان يؤمن ، وربما لا يزال ، بان ينابيع الهام هذا الفن تقتصر على التراث الادبي الغربي . فهو لم يأخذ على عاتقه ان يقرأ الف ليلة وليلة او « عنترة » او « حمزة البهلوان» .. الخ .. وهي اعمال اعتقد ان الاستاذ نجيب قد قرأها او سمعها ، ولكنه لم ينظر اليها اطلاقا على انها يمكن ان تكون مصادر او ينابيع الهام لانتاجه الفني . كذلك فان هذا ينطبق على الفنانين من جيلنا نحن.ذلك انك تحس في اعمالهم جميعا وبلا استثناء ـ انهم واقعون تحت تأثير هذا الكاتب الغربي أو ذاك ، وسواء كان هذا التأثير قد اتى بشكل مباشر او غير مباشر ، وسواء كانوا يعرفون لغات هؤلاء الكتاب ام لا ...

دنقل : نعم .. الواقع ان ذلك قد صاحب النهضة الوطنية التي بدأت في اوائل هذا القرن ، والتي كان يسودها الايمان بأن الثقافة الحقيقية توجد في الغرب .. ولم يفكر قادة هذه النهضة في اقامة اي نوع من انواع التواصل بين المناهج الغربية في التفكير وبين الرؤية الشعبية للعالم .

أ . منصور : حسن .. دعنا ننتقل الآن الى نقطة اخرى فانت ـ كما سبق لي ان قلت ـ احد الشعراء الذين يبدو في شعرهم محاولة الاتصال بالتراث : السلفي في معظم الأحايين ، والشعبي في بعضها .. وانا اريد ان اسألك عن رأيك في السبب الذي جعل الشعراء والفنانين التشكيليين اكثر احساسا بالحاح هذه القضية وباهميتها . وقد استخدمت كلمة «اكثر» ـ بدلا من «وحدهم» ـ لانك ترى انه كان هناك احساس بهذه القضية في المسرح .. رغم انني اعتقد انك توافقني على ان هذا الاحساس في الشعر اكثر قوة ووضوحا مما هو في المسرح .. هذا بالاضافة الى ان هذا الاحساس ـ الضئيل القدر ـ لا يبدو واضحاً الا في اعمال كاتب مسرحي واحد ، هو « الفريد فرج » .. هذا بالرغم ان من يقرأ كتابه النظري عن المسرح ، يتبين ان نظرته اليه نظرة اوروبية خالصة .. كما انه ـ على سبيل المثال ـ حين اراد ان يقدم قصة « المهلهل » في مسرحيته « الزير سالم » .. كان تأثر بمسرحية « هاملت » واضحا .. كما اشار الى ذلك كثير من النقاد .. وينطبق نفس

الشيء على مسرحيته « سليمان الحلبي » .. رغم انها تمثل محاولة لمعالجة التاريخ وليس التراث .. وما اعنيه ان ذلك لم يكن قائما في الشعر او في الفنون التشكيلية ـ والرسم بوجه خاص ـ فما هو ، في رايك ، السبب في ذلك ؟..

دنقل : قبل ان اجيب على هذا السؤال ، احب ان اوضح نقطة صغيرة ، وهي الفارق بين ما كتبه «الفريد فرج » مستلهما التراث ، وبين ما انتجه كاتب مسرحي آخر ، هو محمود دياب « حين كتب مسرحية « باب الفتوح ». ذلك انه على الرغم من ان الحروب الصليبية ، كانت مادة لكثير من قصص التراث الشعبي ـ مثل « السيد البدوي » (!؟ ـ أ . م) و« الظاهر بيبرس » .. الخ ـ فان « صلاح الدين الايوبي » لم يتحول اطلاقا الى بطل شعبي ، رغم ان التاريخ الرسمي يسجل انه هو الذي حرر بيت المقدس .. وانه هو بطل موقعة « حطين » .. الخ ..

أ . منصور : ولماذا ، في رايك ، حدث ذلك ؟.. ذلك انني اعتقد انك رصدت ظاهرة بها شيء من الغرابة .. فما هو السبب في ذلك ؟ ..

دنقل : هذه مسألة اخرى ، وما اريد ان اقوله هو ان محمود دياب لم يلتفت في مسرحيته « باب الفتوح » الى انه استخدم التاريخ الرسمي . ولم يحاول التواصل مع التراث الشعبي المتعلق بالحروب الصليبية . ولا بد ان نضع في اعتبارنا ان « صلاح الدين » ـ كحاكم وليس كمحارب ـ كان يحاول ، طيلة مدة حكمه ، ان يغير معتقدات الناس الدينية القائمة (والتي انحدرت اليهم من حكم الخلفاء الفاطميين الطويل ، والذي سبق عهد الأيوبيين مباشرة) ، كذلك فان صلاح الدين قد حول مصر من مقر خلافة الى دولة تابعة للخليفة العباسي . هذا بالاضافة الى انه قدم الى مصر لانقاذ الخلافة الفاطمية ، ثم حطمها بعد ذلك من الداخل . وربما لكل هذه الاسباب لم يحدث تواصل نفسي بين الشعب وبينه ..

أ . منصور : هذه ملاحظة هامة فيما اعتقد .. ولكن ما رايك في السؤال الذي طرحته عليك ؟ .. اعني السبب في ظهور الاهتمام بالتواصل مع التراث في ميداني الشعر والفنون التشكيلية وحدهما ؟

دنقل : في تقديري ان القضية بالنسبة الى الفنان ، هي قضية مزدوجة ايضا .. اعني بالنسبة لاستخدامه للتراث . فهناك وظيفة اولى للفن الشعبي وهي تنبيه مراكز الوعي داخل المجتمع .. اي الشعب ونحن ككتاب ، نواجه مشكلة اساسية هي ضعف الحس التاريخي ..

أ . منصور : لدى المثقفين .

دنقل : لا .. اعني لدى الشعب المصري عموما ..

أ . منصور : لست واثقا من صحة ما تقول فانا اعتقد ان الشعب المصري ـ بالذات ـ يكثر من الكلام عن الماضي .. كما انه يستخلص حكمه وامثاله من الماضي ايضا ..

دنقل : نعم .. ولكن الحديث عن الماضي شيء مختلف عن الحس التاريخي .. الذي يعني حس الانتماء الى حضارة وتاريخ معينين ، وبحيث يصبح هذا التاريخ ، وهذه الحضارة ، هما مصدر الهامه بالنسبة الى ما يستجد عليه من حضارات .

أ . منصور : هل تعتقد ـ وانا اعلم ان اتصالك بالاحياء الشعبية مثل الجمالية والغورية ... الخ اتصال حميمي ودائم ـ ان الناس هناك ليس لديهم هذا الحس التاريخي الذي تشير اليه ؟...

دنقل : لا .. هناك فقط اطار تاريخي ، ولكن لا يوجد حس تاريخي ..

أ . منصور . تعني انه ليس لديهم حس بالتواصل التاريخي ؟ ..

دنقل : نعم ، وربما كان لديهم حس ديني ويتضح ذلك في تقديس شخصيات يمكن اعتبارها شخصيات مؤثرة من الناحية الدينية ، وذلك مثل « ابراهيم الدسوقي » و« السيد احمد البدوي » وغيرهم من الاولياء . وهؤلاء ، في ميدان التاريخ المصري والعربي بل والاسلامي ليست لهم قيمة على الاطلاق ..

أ . منصور : تقصد التاريخ الرسمي ؟ لانه اذا كان الامر كذلك فانه يختلف ..

دنقل : لا اعني ما قدمه هؤلاء من خدمات للمجتمع الاسلامي او المجتمع العربي او المجتمع المصري . فالسيد « أحمد البدوي » مثلا ، هو واحد من اشهر الشخصيات في المجتمع المصري ، ولكنك حين تقرأ سيرته الحقيقية ، تجد انه لا يزيد ان يكون مجرد عميل للفاطميين ، كان يسعى الى احياء الخلافة الفاطمية ، اما كل ما قيل عن جهاده ضد الصليبيين فإن التاريخ الحقيقي يقول انه كذب ولا أساس له من الواقع ، وكذلك ايضا فإن كل ..

أ . منصور : انت هنا تعني ان ذلك كذب من وجهة نظر التاريخ الرسمي .. او التاريخ السلفي ..

دنقل : لا بل من وجهة نظر سيرته الشخصية ..

أ . منصور : وما هي مصادر هذه السيرة الشخصية ؟ ..

دنقل : ان الدليل على صحة ما اقول هو انهم عندما نسبوا اليه ما ينسبون اليه من كرامات ، لم يجعلوه بطلا لكونه كان يقود الجيوش او يقاتل الاعداء ، وانما روت هذه الكرامات انه كان يمتطي صهوة جواده ، ويذهب وحده كي يهاجم جيوش الصليبيين بمفرده ، كي ينقذ « فاطمة بنت بري » من الاسر . اما ..

أ . منصور : معذرة .. ولكن الا يجوز ان يكون هناك تفسير اخر منطقي ؛ وهو ان الظاهر بيبرس ـ او غيره من السلاطين الذين سبقوه او اتوا بعده ـ حين كان يخرج لمحاربة الصليبيين ، كان يخرج على راس جيش مكون من الاتراك والشراكسة والبدو .. الخ ، ولما لم يكن الشعب المصري يشترك في القتال ضد الصليبيين عادة ، ولما كانت جماهير هذا الشعب تتوق الى الاشتراك في قتال الصليبيين ، ولما كان ذلك من الامور المحظورة لاسباب متعددة . منها ان الحكام لم يكونوا ليسمحوا لجماهير الشعب بحمل السلاح ، فإن جماهير الشعب ، كنوع من التعويض النفسي ، كانت تشترك في الحرب في خيالها ، وان يكون لها قائد من صنعها هي ـ هو احمد البدوي ـ وليس السلطان التركي الذي يربض في القلعة . واعتقد ان اطلاق لقب السلطان على « احمد البدوي » له دلالة هامة فيما يتعلق بذلك .. وهذا السلطان الذي صنعه الشعب ، مثله مثل سلطان

القلعة ، كان يخرج ايضا للغزو والجهاد ، بل هو يتفوق على سلطان القلعة ، لتمتعه بقوى خارقة لا يتمتع بها هذا الاخير ، وكذلك لأن السماء نفسها ترعاه وتسبغ عليه حمايتها .. اي انه يستعيض عن الات القتال ـ التي كانت جماهير الشعب محرومة من حملها ـ بالقوى الالهية الخارقة .

دنقل : لا بأس ، واذن ، فان التاريخ الشعبي ـ او الوجدان الشعبي ـ قد اضفى على « السيد البدوي » صفات ـ او اعمال ـ لم تكن له . وعلى ذلك فان هذا التاريخ الشعبي يغفل شخصيات هامة في التاريخ الرسمي ، او تاريخ المجتمع ، مثل القاضي « عز الدين بن عبد السلام »، الذي افتى بوجوب بيع المماليك جميعا .

(هذا غير دقيق تماما تاريخيا ـ ا . م) .

ا . منصور : ان تفسير ذلك يكمن بوضوح في حقيقة ان الناس كانت تدرك ان هؤلاء الحكام لا ينتمون اليهم .. وهذا ، في اعتقادي هو احد مظاهر الانفصال الذي نتحدث عنه . وكما ان مجتمع الحكام الضاغط يتالف من سلطان وامراء وقضاة وجيش ودرك... الخ .. فان جماهير الشعب خلفت مجتمعا مماثلا وموازيا ، يتالف ايضا من سلاطين وامراء .. الخ . وكل الفرق هو ان هذا المجتمع الاخير هو مجرد وهم .. ولكن ذلك لا ينفي اهمية دلالة هذه الظاهرة ..

دنقل : ولكن هذا لا يغير من الواقع شيئا ..

ا . منصور : ان الوهم جزء من الواقع .. والقاضي « عز الدين بن عبد السلام »، الذي اشرت اليه ، هو قاض ـ او حاكم ـ معين من قبل السلطان وبقاؤه في منصبه رهن برضا السلطان ، وليس الشعب وليس هكذا « السيد البدوي » الذي رفعه الشعب الى اريكة السلطنة .. لانه بطل .. رغم ان الشعب هو الذي صنع البطولات التي تنسب اليه ..

دنقل : قد يكون هذا صحيحا . ولكن النتيجة النهائية التي لا بد وان نصل اليها هي ان هذا الوجدان الشعبي ـ او هذا الاحتياج الشعبي ـ يضفي صفة الحقيقة على اشياء غير حقيقية ..

ا . منصور : نعم انه يضفي صفة الحقيقة على اشياء غير حقيقية..من وجهة نظر التاريخ الرسمي ..

دنقل : لا ..من وجهة نظر الواقع نفسه .. من وجهة نظر ما حدث فعلا ..

ا . منصور : وما هي مصادر هذا الواقع ؟ ..

دنقل : لقد قلت انت بنفسك ، ان « الظاهر بيبرس » كان يحارب الصليبيين بجيوش من الاتراك ، وذلك لأن السلاطين لم يكونوا يسمحوا لجماهير الشعب بحمل السلاح .. او حتى بركوب الخيل . وعلى ذلك .. فانه لا يمكن ان يكون قد حدث في الواقع ان « السيد البدوي » كان يقود جيوشا لمحاربة ..

أ . منصور : ان السيد البدوي لم يكن يقود جيوشا .. وانما كان يستعين بالقوى الالهية ..

دنقل : لا بأس .. ولكن ذلك يعني في النهاية انه لم يحدث ، في الواقع انه حارب .. وان كان قد حارب في الخيال .. او حارب بجنود لم يروها ..

أ . منصور : على اية حال .. لنعد الى موضوع سؤالي ، وهو السبب في اقتصار الاهتمام بالتواصل مع التراث ، رسميا كان ام شعبيا ، على الشعراء والفنانين التشكيليين ..

دنقل : ان المسألة هي ان استخدام التراث له مهمة اساسية وهي ايقاظ وعي الشعب ، وذلك عن طريق التذكير الدائم بهذا لتراث ، ومحاولة اعادة تفسيره . ولان الشعر هو احد فنون العرب القديمة ، ولان القصيدة الشعرية تستخدم اللغة استخداما يكاد يكون كهنوتيا ، فلا بد ان يكون الشعر هو اول الاجناس الفنية التي تستفيد من التراث ، واحياء الاساطير العربية . وذلك باعتبار ان تلك هي المادة الاساسية لتفسير الكون . بمعنى انه اذا كان الشعر يتناول دائما المواضيع المتعلقة بالقيم المطلقة ، كالحق والخير والجمال والعدل والحرية ، فان هذه القيم المطلقة تجد تجسيدها الاساسي في الاساطير ، وفي الرموز الشعبية التي يضفيها الشعب على قصصه ، بحيث تتحول من الواقع الى درجة الاسطورة . ومن هنا ، يصبح الشعر اكثر الفنون استفادة من التراث . اما فيما يتعلق بالفنون التشكيلية ، فقد لجأت الى التراث ، والى استخدام مجمل المورورث الفني الموجود نتيجة لحركة النهضة ، ولحركة محاولة اكتشاف ...

أ . منصور : قسمات او سمات الشعب او الأمة ؟

دنقل : نعم .. قسمات الشعب وقسماتها هي نفسها . وبالاضافة الى ذلك ، فان للفنون التشكيلية جذورا قديمة في التاريخ المصري . في حين ان الفنون المستحدثة ، مثل الرواية والقصة ، قد اخذت هذا الاتجاه مؤخرا ..

أ . منصور : حسن .. هناك سؤال اخر ، في رأيك هل هناك انفصال ، بلا جسور ، بين الشعر الرسمي ـ او بعبارة اخرى شعر المثقفين ـ وبين شعر الملاحم الشعبية ؟..

دنقل : نعم .. ان هناك فروقا كبيرة بين النوعين .

أ . منصور : والا توجد جسور تصل بينهما ؟ ..

دنقل : نعم .. هناك جسور ..

أ . منصور : هذا هو ما اعتقده.. فانا اعتقد ان هناك جسورا تصل بين الاثنين .. وان النوعين كانا ـ ولا يزالا ـ يستفيدان من بعضهما ..

دنقل : ولكن يجب ان نأخذ في اعتبارنا ان لكل من النوعين عالمه الخاص . والدليل على ذلك ، انه في الفترات التي يزدهر فيها الشعر الشعبي ، يصاب فيها الشعر الرسمي بالخمول .. ففي فترات الانحطاط التركي ، حيث كان ..

أ . منصور : معذرة .. ولكنني اعتقد انك تقصد هنا فترة الاحتلال العثماني ..

دنقل : لا .. انا اقصد عهد الاتراك المماليك .. وعلى اية حال ، فلس هناك فرق بين الاثنين .

ا . منصور : اسمح لي ان اختلف معك في ذلك ، يا استاذ امل ، فقد شهد عصر سلاطين المماليك الاتراك ازدهارا ثقافيا شاملا يصعب ان نجد له ما يماثله في تاريخ مصر .. وقد شهد هذا العصر ايضا عددا من الشعراء المجيدين مثل ابن نباته ..

دنقل : نعم .. ولكن ابن نباته وغيره ممن عاصروه ، لا يعتبرون ، في ميزان الشعر ، من الفحول . ومنذ العصر العباسي الثاني ، اي منذ بدأ الاتراك والديلم يسيطرون على الخلافة العباسية ، وبدأ الولاة الاتراك يفدون على مصر ، مثل احمد بن طولون ـ التركي الاصل ـ وبدأت ايضا سيطرة العسكريين الاتراك على الدولة ، منذ ذلك الحين ، بدأ الانحطاط يصيب اللغة ، ويصيب الشعر ..

ا . منصور : الواقع انك تتحدث هنا عن امر آخر .. فانت الآن تتحدث عن العصر العباسي الثاني ..

دنقل : نعم .. ذلك لاني اريد تأصيل المسألة .. ففي مصر كان هناك احمد بن طولون ..

ا . منصور : نعم .. ربما كان ما تقول صحيحا الى حد ما ، ولكنني اعتقد انه من غير المنطقي ان يشهد عصر ـ مثل عصر السلاطين المماليك ـ هذه النهضة الثقافية الشاملة في جميع اوجه النشاط العقلي والعلمي والعملي .. ثم يصيب الانحطاط الشعر وحده .. واعتقد ان التدهور ، الذي تشير اليه ، قد حدث في فترة الاحتلال العثماني . ولا ادل على حيوية الشعر واهميته ، في عهد السلاطين المماليك ، من انك يندر ان تجد فقيها او عالما او قاضيا ممن وردت اسماءهم في وفيات كتب تاريخ هذا العهد ـ لم يكن يكتب الشعر ..

دنقل : الواقع ان النهضة التي حدثت في مصر ، في تلك الفترة . لم تكن تشمل كل فروع المعرفة ، وانما كانت قاصرة على علوم معينة ، مثل الحديث والتفسير ..

ا . منصور : الواقع انه كانت هناك بدايات ازدهار في علوم الحديث في الفترة التي سبقت مجيىء الحملة الفرنسية الى مصر .. فهل تراك تقصد تلك الفترة ؟ ..

دنقل : لا .. انا اعني فترة السلاطين المماليك ، التي عاش فيها الامام الشافعي وغيره .. وكانت هناك نهضة ملحوظة في علمي التفسير والحديث .. واعود الى ما كنت فيه ، فأقول ان النهضة التي تشير اليها لم تشمل الجغرافيا مثلا .

(انظر كتاب« تاريخ الادب الجغرافي العربي » للمستشرق المعروف كراتشكوفسكي والذي نشرته الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية عام ١٩٦٢ : صفحة ٣٢٣ ، صفحة ٣٥١ ، صفحة ٣٥٤ ، صفحة ٣٧٥ . ا . م) .

ا . منصور : ولا التراجم ! ولا التاريخ .. ؟ ..

دنقل : على اية حال ، فانه بالنسبة الى الشعر ، فاننا مهما تحدثنا عن ازدهاره في عصر

المماليك ـ وهو لم يكن مزدهرا في الواقع ـ فان الازدهار الحقيقي حدث في شعر الملاحم الشعبية ..

أ . منصور : نعم .. هذا صحيح قطعا ، فقد شهد هذا العهد ـ اي عهد السلاطين المماليك ـ ظهور الملاحم الشعبية التي نعرفها الآن .. مثل عنترة وحمزة البهلوان.. الخ .. كما شهد ايضا ظهور عمل فني فريد وعبقري،هو « الف ليلة وليلة » ..

دنقل : ورغم وجود جسور اتصال بين الشعر الرسمي والشعر الشعبي ـ او شعر الملاحم الشعبية ـ فانهما احيانا يكونا على طرفي نقيض ، وذلك لأن المؤسسة الحاكمة والشعب كانا على طرفي نقيض ، ولكننا حين نأتي الى العصر الحديث ، الذي ضعفت فيه حدة الفروق بين المؤسسة الحاكمة وبين الشعب ، وذلك بسبب انه من الممكن ان نصف ثقافة المؤسسة الحاكمة الآن بأنها ثقافة « بزرميط » ، بمعنى انها مُخترقة ، وليست متلاصقة ، وليس وراءها فلسفة لها نظرة خاصة الى الوجود ، وانما هي تابعة . وفي ظل هذه الثقافة ، يمكن ان يكون هناك تدهور ثقافي على المستوى الرسمي ... وهو تدهور يتضح فيه الخلط في القيم الفنية والمفاهيم الأدبية وفي النظرة الى الأمور بصفة عامة ، وذلك نتيجة لعدم وجود فلسفة واضحة للنظام او للطبقة السائدة .

وبالنسبة للشعر ، وللأدب الشعبي ، فان هذا الخلط ينسحب عليه ايضا ، وذلك نتيجة لدخول عوامل غريبة مؤثـرة لم تكن به من قبل . فقد كان الاقتصاد ، في ايام المماليك ، اقتصـادا زراعيا ، وكان الشعب مرتبطا بالزراعة وبالحياة في القرى ، التي كانت وسائل الاتصال معدومة بينها تقريبا ، ولذلك فقد كان اتصال الناس بالعالم الخارجي قليلا ونادرا . اما الآن ، ونتيجة لارتحال المصريين للعمل في البلاد العربية كعمال وحرفيين ، وكذلك نتيجة لهجرة الفلاحين من القرى الى المراكز الصناعية بالاضافة الى دخول وسائل الاعلام الحديثة الى اعماق القرى ـ نتيجة لذلك كله، حدث نوع من التشويه للثقافة القديمة ، دون ان تحل محلها ثقافة جديدة متكاملة الاسس .

وهكذا ، فان التشويه يمتد الى الأدب الشعبي نفسه ، ويتمثل هذا ـ كما تفضلت بالقول ـ في تلك الأغاني التي نسمعها من الاذاعة ، والتي تؤديها المطربات من امثال « عايدة الشاعر » و« ليلى نظمي » ـ والتي يسمونها بالاغاني الفولكلورية ، كما يتمثل ايضا في بعض الأعمال المسرحية مثل « ياسين ولدي » و« عيون بهية » و« عم احمد الفلاح » والتي استخدمت الأدب الشعبي بفجاجة ، ودون ان تتبنى الرؤية الشعبية الحقيقية .

أ . منصور : عظيم .. ولكن هناك سؤالا آخر : ما هو السبب في اهتمامك ـ انت شخصيا ـ بالتواصل مع التراث السلفي والشعبي ؟ .. او بكلمات اخرى : لماذا تقوم الان باعادة صياغة الملحمة الشعرية « الزير سالم » .. ؟

دنقل : في الواقع انه ليس في قدرتي التنظير في هذا الموضوع . وكل ما استطيع ان اقوله هو ان اهتمامي بالتراث يرجع اساسا الى محاولتي للبحث عن هوية لهذه الأمة . فانا اعتقد ان مصر عربية ، وان روحها عربية ، وذلك رغم كل المحاولات ، التي بذلت وتبذل ، لفصلها عن

العرب ، والحاقها بحوض البحر الابيض المتوسط . ورأيي ان هذين لا يتعارضان . اي ان الحضارة المصرية القديمة ، والحضارة العربية ، ثم الحضارة الاوروبية ، يمكن لها جميعا ان تشترك في انتاج حضارة الشعب المصري . وبكلمات اخرى ، فان القدر الذي استفادته مصر من الحضارة الغربية ، قد نقلتها ايضا دول اخرى ، مثل سوريا وتونس والجزائر ، ولم يعن هذا انتفاء عروبة هذه البلدان . فالحضارة الاوربية لا يمكن ان تنفي الشخصية القومية لبلد ما (؟!) .

وقد كنت في البداية اؤمن بشعارات مثل « مصر للمصريين » و« مصر مصرية » . وبالتالي ، فقد حاولت استخدام الأساطير الفرعونية . واذكر ـ فيما يتعلق بذلك ـ انني كتبت قصيدة استخدمت فيها قصة الأخوين « باتا » ـ وهي قصة مشهورة في الأدب الفرعوني ـ . وكان استخدامي لهذه القصة يتسم بطابع الاستلهام وليس المباشرة . ولما قرأت هذه القصيدة على الدكتور « لويس عوض» ، وهو من اكثر المتحمسين لفرعونية مصر ، استوقفني عند المقطع الذي استلهمت فيه القصة الفرعونية ، وسألني عما اريد ان اقول . وعندما فسرت له خلفية القصيدة ، تنبه ، عندئذ فقط ، لاستخدامي للقصة الفرعونية . ومن هنا فقد تولد عندي يقين بأن التراث الفرعوني لا يعيش في وجدان الناس ، بقدر ما يعيش في ..

أ . منصور : معذرة .. ولكن الا ترى انه من الخطأ هنا استخدام الدكتور لويس عوض لاثبات رايك ؟ . ذلك انه ينتمي الى فئة المثقفين .. وهي فئة ، اتفقت معي ، في انها لا تمثل جماهير الشعب ..

دنقل : ما اعنيه هو انه ليس للتراث الفرعوني ارضية شاسعة يمكن استخدامها . وذلك بمعنى ان القصص الفرعوني ، او الأدب الفرعوني ، او الآثار الفرعونية فانه يمكن ان تجد مصريا قضى حياته كلها دون ان يرى الأهرام وأبي الهول مثلا ..

أ . منصور : لا اعتقد ان لذلك اهمية كبيرة فيما يتعلق بموضوعنا ..

دنقل : لا .. ان لها دلالة على الانتماء .. او على الاحساس بالانتماء ..

أ . منصور : اعتقد انك يمكن ان تجد تاثيرات مصرية قديمة ـ اي فرعونية ـ في عدد من قصص الف ليلة وليلة، وخاصة تلك القصص المتعلقة بالرحلات البحرية ... مثل قصة « السندباد » وحكاية « حاسب كريم لدين » و« حكاية سيف الملوك وبديعة الجمال » ... الخ ، وانت ، بلا شك ، تعرف ان المصريين القدماء كانوا يمتلكون اسطولا بحريا تجاريا كبيرا ، وان سفن هذا الاسطول كانت توغل في مجاهل المحيطات سعيا وراء التجارة . بل ان بعض علماء المصريات يؤمنون بان المصريين القدماء قد وصلوا في رحلاتهم البحرية هذه الى شواطىء امريكا الوسطى ، ويستدلون على ذلك بوجود تشابه بين الاهرامات المصرية ، وبين اهرامات المكسيك ... الخ ...

دنقل : ولكن قد يكون هناك تفسير آخر يعود بقصة « سندباد » الى اصول عربية . فقد كان العرب ، ايضا يشتغلون بالتجارة ، وقد نقل العرب الاسلام الى اندونيسيا ، مثلا ، عن طريق التجارة البحرية ..

أ . منصور : ولكن يجب الا تنسى ان « الف ليلة وليلة » ابتداع مصري اساساً..

دنقل : نعم .. ولكن مصادرها متعددة ..

أ . منصور : على اية حال ، فإن هذه نقطة فرعية فيما يتعلق بموضوعنا .. ولنعد الآن الى سبب اهتمامك انت شخصيا بالتراث السلفي والشعبي . تفضل ..

دنقل : حسن ، لقد انتبهت فجأة الى ان الشخصيات الاسلامية ، او التراث الاسلامي ، هو الذي يعيش اكثر في وجدان الناس . وكان تقريري ان هذا التراث الاسلامي ، او الانتماء الاسلامي الذي يهتم به الناس ، هو في حقيقة الأمر احساس بالعروبة .. ولكنه يتخذ شكلا دينيـا . وذلك بسبب ان المصريين ، في فترات الاحتلال الفرنسي والعثماني والانجليزي ، كانوا يواجهون المحتلين بالروح الدينية ، وذلك باعتبار ان هؤلاء المحتلين كفار ، ولا يصح مسالمتهم ـ هذا في الوقت الذي كانت فيه الدول العربية الأخرى منشغلة بالنضال ضد الأتراك المسلمين . ولحل هذه المعادلة ، وهي ان الأتراك يقتلون العرب ، او ان هناك استعمارا تركيا للبلدان العربية ، واستعمارا انجليزيا للبلاد العربية الاخرى ، فقد اتخذ هذا الكفاح لدى المصريين شكل الجهاد الديني ، وذلك دون ربطه بالصراع العربي ـ التركي ، ومن اجل تجنب محاربة عدويـن في وقت واحد ...

أ . منصور : وهل تعتقد ان هذا الاهتمام بالتواصل مع تراثنا بنوعيه يتضح في الاجيال السابقة عليك ، كما هو واضح وجلي في جيلك انت ؟ ..

دنقل : يمكننا ان نراجع قائمة المبدعين والكتاب في اجيال السابقة فقد استلهم توفيق الحكيم التراث في مسرحية « أهل الكهف » مثلا ، وهذا نوع من الاستلهام ..

أ . منصور : يخيل الي انه استلهم القرآن ..

دنقل : على اية حال ، فهناك ايضا مسرحيته « شهرزاد » وغيرها . ولكن وجهة النظر التي كان الحكيم يقدمها ، من خلال هذا الاستلهام ، تختلف عن وجهة النظر التي يقدمها جيلنا .. وهناك ايضا مسرحية الحكيم « السلطان الحائر » .

أ . منصور : اعتقد ان الاستاذ توفيق الحكيم لم يكن يستلهم التراث العربي او الشعبي في مسرحياته تلك التي ذكرت بعضها ، وانما كتب هذه المسرحيات مقلدا بعض كتاب المسرح الفرنسي في عصر النهضة ، الذين كانوا يعيدون صياغة الاساطير الواردة في الميثولوجيا الاغريقية ـ مثل اسطورة « بيجماليون » والتي استلهمها « الحكيم » ايضا في مسرحيته التي تحمل نفس الاسم ـ ويقدمونها بشكل عصري ..

دنقل : ولكنه كان يرمي من وراء استخدامه للتراث ان يكون ..

أ . منصور : مثل الأوروبيين ، فما دام الأوروبيون قد استلهموا التراث اليوناني في بداية نهضتهم ، فإن الوصفة المضمونة لاحداث نهضة في بلادنا المتخلفة هو فعل نفس الشيء .. ولا شك ان قارىء « اهل الكهف » و« شهرزاد » و« بيجماليون » ـ وقد كتبها الحكيم كلها ، او بعضها ، باللغة الفرنسية في بادىء الامر ـ يحس الطابع الاوروبي والنظرة الأوروبية تسودان هذه المسرحيات.. وقد كانت النظرة السائدة لدى جيل

« توفيق الحكيم » هو ان الانسان الاوروبي هو النموذج الوحيد للتقدم ..

دنقل : بينما ان تستلهم التراث ،لكي تكون عربيا ، لا بد ان تكون مستقلا ، وهذه سمة اولى من سمات هذا الجيل اي جيلنا نحن والأمر الثاني .. ففي قصيدة صلاح عبد الصبور « شنق زهران » مثلا ..

أ . منصور : ولكن هل هذا تراث ام تاريخ حديث ؟ ..

دنقل : ان شخصية « زهران » هي شخصية شعبية . فعلى الرغم من ان حارث دنشواي نفسه كان حادثا واقعيا تاريخيا ، فان شخصية « زهران » نفسها هي من خلق الشعب ..

أ . منصور : الواقع ان المرء يجب ان يتجاوز امورا كثيرة ،لكي يقتنع بماتقول ..

دنقل : ولكن صلاح عبد الصبور ، على اية حال ، لم يستمر في هذا الاتجاه . وقد لجأ بعد ذلك الى استخدام « الحلاج » و« الشمندل » في مسرحيته « الأميرة تنتظر » ..

أ . منصور : وهل تعتقد ان الشكل الذي استخدم به صلاح عبد الصبور التراث السلفي ، هو الشكل الأمثل .. او الصحيح ؟ ..

دنقل : لا ..

أ . منصور : ولماذا في رأيك ؟ ..

دنقل : لأنه في الحقيقة .. اعني ان « صلاح عبد الصبور » في مسرحيته « مأساة الحلاج » ، مثلا ، فعل مثلما فعل « توفيق الحكيم » في مسرحياته التي اشرنا اليها . فقد كان تأثر صلاح عبد الصبور بمسرحية ت . س اليوت « جريمة قتل في الكاتدرائية » قويا وملحوظا فقد اسقط ما حدث ل « بكيت » على مأساة الحلاج ..

أ . منصور : معذرة ، ولكن ما تقوله يعني ، في الواقع امتداد وانتقال المرض الذي كان يعاني منه جيل الاستاذ الحكيم الى جيل صلاح عبد الصبور .. اي مرض الانسحاق امام الثقافة الأوروبية ..

دنقل : نعم .. فيجب ان لا ننسى ان جيل الخمسينات ـ وهو جيل صلاح عبد الصبور ـ قد تتلمذ مباشرة على جيل الأربعينات والثلاثينات ..

أ . منصور : واعتقد انهم يعترفون صراحة بتلمذتهم لتوفيق الحكيم ولطه حسين .. الخ .. وذلك ، في ظني ، على عكس الجيل الذي ننتمي اليه ، والذي يبدو تأثره بهؤلاء الرواد وتلامذتهم ضعيفا وغير ملحوظ ..

دنقل : نعم لا شك ان جيلنا قد نشأ في ظل قيم مختلفة .. ومفاهيم مختلفة وظروف نضالية مختلفة ايضا .. ولذلك فان اتجاهاته الفنية والفكرية مختلفة ايضا . والدليل على ذلك ان جيلي الأربعينات والخمسينات ما زالا مستمرين حتى الآن ، ورغم تغير الظروف والأحوال وعندما حدثت الردة الأخيرة ، واستعادت الطبقات القديمة سيطرتها على الحكم ..

أ . منصور : تعني بعد انحسار التجربة الناصرية ؟ ..

دنقل : نعم .. بعد فشل التجربة الاشتراكية ، وعندما عاد كل شيء الى حاله القديم ،

استمرت الوجوه القديمة التي كانت سائدة منذ قيام ثورة يوليو . ويخدم هؤلاء الآن ، في حماس ، افكارا مثل فكرة « الاقتصاد الحر » وفكرة « حكم الصفوة المتميزة عن الجماهير فكريا واقتصاديا وسياسيا وثقافيا » ..

أ . منصور : حسن .. ناتي الى سؤال آخر : وهو هل كان امام جيل الرواد بديل آخر غير ذلك الذي اختاروه فعلا ؟ .. فالأستاذ سيد ياسين ، في حواره معي ، يقول انه لم يكن هناك خيار آخر ، وان جيل الآباء هذا ، لم يكن امامه سوى ان يتبنى الثقافة الاوروبية تبنيا كاملا ، وان يقطع ايضا ما بينه وبين التراث - حتى السلفي منه - وهو تراث زملائهم الذين سبقوهم من فناني وكتاب ومثقفي المؤسسة .

دنقل : الواقع ان المشكلة ليست مشكلة اختيار ، او بديل آخر وانما المشكلة هي مشكلة التطوير . ذلك لأن ذلك الجيل نشأ في ظل الكفاح ضد الانجليز ، وضد السيطرة الأجنبية على الأمة ، وفي النضال من اجل اقامة اقتصاد قومي ، واقامة ادب عربي ، واقامة الجامعة ..

أ . منصور : وكل ذلك على النسق الأوروبي .. ووفق النموذج الأوروبي ؟ ..

دنقل : نعم .. هذا صحيح ، وقد كان من واجبهم ، في مرحلة الاستقلال التي اتت بعد ذلك ، بدلا من تركيز جهودهم في تحقيق استمرارهم الوقتي في الصحف والمجلات ، ان يحاولوا بناء أساس استمرار حقيقي . وقد كان من نتيجة فشلهم في ذلك ، ان تحول كاتب وطني مثل عباس محمود العقاد ، الى مجرد كاتب يكتب لحساب السفارة الاميركية . كذلك تنقل طه حسين تنقلا غير مبدئي بين احزاب متناقضة ومتطاحنة .. فقد بدأ حليفا ومؤيدا لحزب الأحرار الدستوريين ، ثم اصبح وزيرا في حكومة وفدية .. واصبح كل همه هو الاستمرار .. وان يكون دائما في الصورة . اما توفيق الحكيم ، الذي بدأ كاتبا مسرحيا ، فقد تحول في منتصف الطريق الى مجرد نجم من نجوم مؤسسة اخبار اليوم .. التي احاطته برعاية مستمرة تتسم بالابتذال مطلقة عليه القابا مثل « عدو المرأة » و« صاحب البرج العاجي » و« صاحب الحمار » .. الخ .
وما اريد ان اقوله باختصار هو ان هذا الجيل لم يحاول ان يطور من نفسه كي يتسق مع المرحلة الاجتماعية المختلفة التي نشأت بعد الاستقلال .. وبعد الحرب العالمية الثانية بالذات ، حيث برز عالم يكاد يكون جديدا تماما .. بعد انهيار القيم والمفاهيم القديمة ، وأصبحت هناك مفاهيم جديدة ، ورؤية جديدة للعالم . واظن ان عملية افلاسهم قد بدأت منذ ذلك الحين . وهذا ، بالطبع ، لا ينفى دروهم كآباء ورواد واساتذة ، وناقلين جيدين - ايضا - للثقافة الغربية . وكل ما في الأمر انهم لم يستطيعوا الاستمرار في القيام بهذا الدور .. ولم يمكنوا ايضا من اتى بعدهم من القيام به حتى الآن ..

أ . منصور : قل لي ، يا استاذ امل، متى قرأت « الف ليلة وليلة » ؟.. لقد قرأتها طبعا .. ؟..

دنقل : نعم .. قرأتها عندما كان عمري نحو الخامسة عشر .. او السادسة عشر ..

أ . منصور : وهل كان الدافع لك على قراءتها . دافعا يتعلق بالجنس ، مثلا ؟ .. اعني ما دفعك في البداية ..

دنقل : لا .. لا اظن انه كان للجنس علاقة بذلك .. ولقد كانت «الف ليلة» تباع في بلدنا « مدينة قنا ـ جنوب مصر » بثمن زهيد .. هو خمسة قروش للجزء .. وهو ثمن اعتقد انه كان في متناول غالبية الناس ..

أ . منصور : انا اعلم ان والدك كان يعمل مدرسا .. الم يثر اي اعتراض من جانبه على قراءتك لألف ليلة ؟ ..

دنقل : لا .. فقد كان قد توفي آنذاك .. ولم يعترض اي من اعمامي على قراءتها ..

أ . منصور : هذا ، على اي حال ، على غير الشائع .. ذلك انني اعلم تماما ـ على الاقل بالنسبة للقاهرة ـ ان غالبية الاباء من الطبقة المتوسطة يمنعـون اولادهم من قراءة الف ليلة وليلة او لا يرحبون بذلك ، وذلك ان صورة الف ليلة ، في اذهان هذه الطبقة ، هي انها عمل إباحي لا يحسن ان يقراه المراهقون، وكذلك انها مليئة بالخرافات التي قد تفسد خيال الابن وفهمه للحياة ..

دنقل : الواقع ان « الف ليلة وليلة » لم تكن تمثل مشكلة في بلدنا .. فعدد الذين يعرفون القراءة والكتابة قليل .. وغالبا ما يكونوا قد بلغوا سنا يتيح لهم قدرا من الاستقلال عند ذلك ..

أ . منصور : كذلك فانني اذكر ان الاستاذ نجيب محفوظ قال لي انه قرأ « الف ليلة وليلة » خفية ، وانه لم يكن يجرؤ على قراءتها علانية امام كبار السن من اخوته ..

دنقل : الواقع انها لم تكن تباع في سوق بلدنا باعتبار انها كتاب جنسي . فقد كان تباع بجانبها كتب مثل « تفسير الأحلام » لابن نسرين ، وقصة الاسراء والمعراج .. وعدد آخر من الكتب الدينية ، وكان المرء يشتريها بلا خجل .. وكما يشترى اي كتاب آخر ..

أ . منصور : حسن .. وما هو الطابع العام للكتب التي كنت تقرأها في تلك الفترة التي قرات فيها « الف ليلة وليلة » ؟ هل كنت تقرأ الملاحم الشعبية مثلا ؟..

دنقل : نعم .. لقد قرأتها جميعا في تلك الفترة .. فقد قرأت مثلا « سيرة عنترة » و« الزير ابو ليلى المهلهل الكبير » الخ ..

أ . منصور : وهل اعدت قراءتها مرة اخرى فيما بعد ؟ ..

دنقل : نعم .. قرأتها اكثر من مرة بعد ذلك ..

أ . منصور : ولا بد ان هذا كان ، عندما كنت تتاهب للقيام باعادة صياغة ملحمة « الزير سالم » ؟ ..

دنقل : نعم ..

أ . منصور : حسن .. ما رايك ، في « الف ليلة وليلة » كعمل فني ؟ ..

دنقل : انا لا استطيع الحكم عليها .. فهذا ، فيما اظن ، من اختصاص النقاد .. ولكنني كنت احاول ـ وانا اعيد قراءتها ـ اكتشاف طبقاتها المتراكمة .. ولا اعني بذلك طبعاتها المختلفة ، وانما اعني طبقاتها التاريخية .. فهناك جزء مصري ـ كما قلت ـ وجزء آخر بغدادي .. كما ان هناك جزءا اعتقد انه يرجع الى ايام مملكة « تيمورلنك » .. وهو ذلك الذي يحوي قصص « قمر الزمان » و« بدر الزمان » و« بندر شاه » .. وهم ملوك كان الواحد منهم

يخرج على رأس جيشه كي يغزو مملكة اخيه .. الخ ..

أ . منصور : معذرة ، يا استاذ امل ، ولكن هناك رايا يقول ان خالقي « الف ليلة وليلة » قد لجأوا الى حيلة معروفة كي يتجنبوا مخاطر معالجة حياة سلاطينهم .. فقد ظهرت « الف ليلة وليلة » في مصر في اواخر حكم الاسرة الأيوبية واوائل حكم السلاطين المماليك .. وكانت الدولة آنذاك قوية وهيبتها كبيرة ، ولذا فقد عمد الناس الى معالجة حياة ملوك وسلاطين يطلقون عليها اسماءا غير مصرية .. درءا للمخاطر وتقية من المهالك ..

دنقل : ربما كان هذا صحيحا .. ولكن هناك شيء آخر .. وهو ان الدولة في عهد سلاطين المماليك كانت موحدة .. ولم تكن مقسمة الى عدة ممالك يحكم كل منها ملك مستقل .. كما كان الحال في امبراطورية « تيمورلنك » بعد وفاته ..

أ . منصور : الواقع انه عندما يقرأ المرء تاريخ هذه الفترة عند المقريزي او ابن اياس او ابن تغري بردى ، فانه يجد انهم يخلعون على الامراء الكبار ـ مثل الأتابك او امير المجلس او الأمير آخور الكبير .. الخ ـ لقب ملك .. وكذلك كان هذا اللقب يخلع على الأمراء من النواب الكبار مثل نائب الشام ونائب حلب ..

دنقل : ولكنه ، بالرغم من ذلك ، فانا اعتقد ان الجو الذي تصوره هذه القصص التي ذكرتها اقرب الى جو ممالك اولاد تيمورلنك ..

أ . منصور : على اية حال .. فان مصر لم تكن معزولة عن هذه البلدان .

دنقل : هذا صحيح .. فقد كانت مصر آنذاك مركزا ثقافيا وحضاريا وتجاريا ايضا .. ولذا فليس من المستبعد ان تكون اخبار هذه الممالك معروفة في مصر .

ولكن الأمر الثاني الذي اريد ان اقوله هو ان الشخصيات مثل هارون الرشيد او ابو نواس والتي ترد في القصص الشعبية مثل الف ليلة ، لا علاقة لها بشخصياتهم الحقيقية .. وانما هي مجرد رؤية شعبية لهم .

كذلك يلاحظ المرء ان غالبية ابطال « الف ليلة » كانوا تجارا ..

أ . منصور : ذلك ان التجار هم الذين كانوا يرحلون ويجوبون الدنيا .. ولذا فانه لا بد ان تكون جعبتهم مليئة وثرية بالحكايات والطرائف .. وربما كانوا ـ اي التجار ـ هم مصدر كثير من قصص « الف ليلة » ..

دنقل: نعم .. ولكن قد يكون هناك تفسير آخر، وهو أن هذه الفترة شهدت ازدهار طبقة التجار . بحيث انه اذا كان المماليك يملكون مقاليد السلطة والحكم ، فان التجار كانوا يمتلكون معظم ثروات البلاد الاقتصادية ويسيطرون على حياة الناس من جماهير الشعب ..

أ . منصور : وربما كان ذلك للسببين معا(*) ..

---

* **سجل في القاهرة عام ١٩٨٠ ونشر في « السفير » اللبنانية بتاريخ ١٤/ ٦/ ١٩٨١ .**

أحمد فؤاد نجم

ابراهيم منصور : الاستاذ احمد فؤاد نجم الشاعر والمناضل اعتقد انك لست في حاجة الى تقديم . فلا اظن ان احداً يعمل في الحقل السياسي او الثقافي في الوطن العربي كله .. يجهل اشعارك الذائعة او نضالك البطولي ...

احمد فؤاد نجم : لقد اخجلت تواضعي في الواقع ..

ا.منصور: وفي الواقع ان هذا هو ما عنيته تماما ولكنني لا بد هنا ان افسر سبب وصفي لك بالمناضل .. وانت بالذات فانت حسب ما أعلم الشاعر الوحيد في العالم الذي قدم الى محكمة عسكرية وصدر عليه حكم بالسجن منها ... بسبب القائه احدى قصائده .. واظنها قصيدة « بيان هام » وقد تعمدت ابراز ذلك لايماني بأن هذا الاضطهاد البشع ، المتسم بالغباء وبمعاداة الحضارة والثقافة ، لم يلق الصدى الذي كان من المفروض ان يلقاه ...

ونعود الى موضوع حوارنا الذي تحادثنا بشانه قبل بدء هذا التسجيل ...

نجم : تعني موضوع الازدواج الثقافي ؟ ..

ا منصور : نعم ... ولقد شرحت لك بالتفصيل ما اعنيه بذلك ... وقبل ان ندخل في نقاش تفصيلي حول هذا الموضوع ... احب ان اعرف انطباعك ، بشكل عام ، عن ما عرضته عليك ...

نجم : انا في الحقيقة اوافقك على كل ما قلت فهناك فعلاً ادبان متميزان ادب رسمي ، وادب شعبي وكما قلت انت ، فقد كان الادب الشعبي موجودا دائما في فترات التوهج بجانب الادب الرسمي..وموازيا،له ودون أن تكون هناك علاقة ما بين الاثنين هذا كلام حقيقي وصحيح ولا ريب فيه ، وبالنسبة الى مصر على وجه التحديد ... وانت تعرف انني فلاح ...وان الموال لعب دوراً اساسيا في تكويني الثقافي فتعـال معي كي نرى ...

ا منصور : معذرة ، ولكنني اود ان اسالك عما اذا كنت تعتقد ان الوضع الثقافي الذي كان قائما في عهد سلاطين المماليك ... والذي تحدثنا حوله قبل بدء التسجيل ، هل لا يزال هذا هو الوضع قائما حتى الآن ؟... اعني هل تحس بذلك ... بحكم انك قضيت

معظم حياتك وسط الطبقات الشعبية ، عمالاً وفلاحين رغم انتمائك الى اسرة يمكن القول بانها اقطاعية ... اي انك تقف في كلا المعسكرين ... قدم هنا وقدم هناك ... اي انك تعرف العالمين ...

نجم : هذا صحيح ...

أ منصور : اذن ، وبحكم ذلك كله ، هل تحس ان المتعلمين الذين لا تزيد نسبتهم عن ٢٠٪ او ٢٥٪ من التعداد العام ... لهم ثقافة متميزة ومختلفة عن ثقافة الـ ٨٠٪ او ثقافة الطبقات الشعبية ؟ ...

نجم : هذا امر لا شك فيه على الاطلاق وانا احس بذلك ... وانت تحسه ... والجميع ايضا يحسون به ولا ادل على صحة ذلك من هذا الطناش (التجاهل او اصطناع عدم السمع او الفهم ـ م. م.) العجيب الذي يقابل به الناس الفن الرسمي بأكمله وكما قلت فإن احدا من الـ٢٠٪ لا يتوجه الى الجماهير بالخطاب.. ولا احد منهم يتواصل معها،فالناس ـ أي الـ ٨٠٪ ـ في واد ، وهم في واد آخـــر .. لانهم يتحدثون لغة لا يفهمها الآخرون . ومن المؤكد للناس فنها الخاص بها . ولقد سمعت في الاسبوع الماضي موالا من ريف محافظة الشرقية يكاد ان يكون منشورا اساسيا اصدره تنظيم سياسي معاد للنظام القائم ..

أ منصور : وما هو هذا الموال ـ المنشور ؟ .

نجم : هذا الموال موضوع في قالب يشبه قالب كليله ودمنه وهو يتحدث عن السبع الذي هرب محتميا بعرينه ... وعن الكلب الذي استولى على السلطة فهدد امن الناس وافقدهم الاحساس بمتعة الحياة ... وانا لا اذكر الشطرة الأولى الآن ... ولكن من المؤكد انني سوف اتذكرها ... والموال ايضا يحكي عن الفأر الذي هجم على القط وسلبه طعامه ... وعن النسر الذي لجأ الى اليمامة طالبا منها الحماية ...

أ منصور : اي ان الأوضاع كلها قد انقلبت راسا على عقب ...

نجم : ويحكي ايضا عن أبي فصاده التسمية العامية المصرية للهدهد الذي فرض حكمه الظالم على جميع الطيور ...

أ منصور : هذا الموال منشور سياسي حقا ...

نجم : آه ... لقد تذكرت الموال الآن.. انه يقول :

من فعل الأيام ، هجت السباع م الغاب .

وحط واطي لقليل المعرفة والغاب .

(والغاب هنا بمعنى الغبي) .

والكلب فيها حكم

هدم السكن والغاب .

(والغاب هنا كناية عن غابة الناي ، رمز المتعة) .

واتسلطن الفارع القط ...

كل زاده ...

والنسر راح للحمامة واحتمى فيها
وجاله الفكر الغشوم زاده ...
(اي ضاعف معاناته)
وابو فصادة حكم كل الطيور ..
وظلم ... الخ

الا يخاطب هذا الموال رئيسا نعرفه انا وانت ... وكلنا جميعا والمشكلة انه لا احد من المثقفين يعرف ذلك ، أو يأبه به ولنأخذ مثلاً من الملاحم الشعبية ... وليكن موال ادهم الشرقاوي وهل تعرف - بالمناسبة - أنني قرأت هذا الموال لأول مرة وانا صغير في الأربعينات من هذا القرن في كتيب اشتريته بمليم (عملة نقدية تماثل جزءا من الف من الجنيه المصري - أ. م.) من رجل قبطي اسمه زكي العبيدي كان يمتلك في مدينة الزقازيق متجرا صغيرا لبيع الأشياء القديمة يقع على قرعة المسلمية ... في منطقة اسمها كفر يوسف بك ... ما كنت اريد قوله هو انني عندماسمعت هذا الموال ينشد في الاذاعة الرسمية - فيما زعم انه احياء له - احسست وكأنهم يتبولون على هذا الانجاز الفني الرائع ...

أ منصور : كذلك لقي عمل فني عبقري آخر هو « الف ليلة وليلة » نفس التشويه .. سواء كان ذلك عند تدوينها في عهد الاحتلال العثماني على يد صغار الفقهاء والمتعممين - اي الطبقة الوسطى مرة اخرى - او في عصرنا هذا الذي تتم فيه استباحة هذا العمل وكأنه من اسلاب الحرب والمذهل في الأمر ان كل محاولات التشويه هذه كانت تتم - وسواء في الماضي او في الحاضر - بزعم يتسم بالصلف والصفاقة والغرور الأجوف .. وهو تحسين او اصلاح هذا العمل الفني العبقري الذي تضافرت جهوده اجيال عديدة من جماهير شعبنا من اجل تخليفه ...

نجم : هذا هو انطباعي بالضبط ، رغم انني جاهل .. ولست مثقفاً والحمد لله بل ان الامـريكيين حين استخدموا الف ليلة في بعض افلامهم فعلوا ذلك بشكل افضل بكثير مما فعلنا او نفعل ...

أ منصور : قد يكون ذلك لأن الأصل يفعل الشيء قطعا بصورة افضل من النموذج المشوه له ...

نجم : تماما .. هذا صحيح...

أ منصور : وهناك نقطة اخرى اريد الحديث معك حولها ... فكما سبق ان قلت لك فإن المقولة التي يدور حولها حوارنا تزعم ان الجماهير الشعبية نتيجة للهجمات الشرسة التي تعرضت لها ثقافتها القومية على امتداد التاريخ ... قد احاطت نفسها وثقافتها بسور منيع لا يسمح لأحد من الخارج بالتسلل منه ... والناس تتعامل مع الآخرين ولكن من وراء هذا السور ...

نجم : ان الناس لا تثق في الافندية على الاطلاق ...

أ منصور : هذا صحيح تماما ... وذلك لأن الصبي الذي يلتحق بنظام التعليم

الموحد ... يصبح ، في الواقع ، مشروع حاكم ...

نجم : وحاكم ظالم ايضا ...

أ منصور : تماما ... اي عدوا لهم وقد جعل الناس من مسالة التعليم هذه محكا يفرقون فيه بين العدو والصديق . وما اريد ان اعرف رايك بشانه هو السبب في انك تكاد تكون الوحيد من بين الفنانين المنشورين ولا اعني هنا فناني الثقافة الشعبية الذي قد يمتلك فرصة وامكانية التواصل مع الجماهير ، وذلك رغم انك قضيت بعض الوقت في المدارس الحكومية ولا ادري بالضبط ماذا كنت تفعل هناك ـ ورغم انك ترتدي نظارة طبية كبيرة قد تجعل المرء يخطىء فيظنك احد فئران الكتب ... او احد كبار المثقفين ورغم انك تقضي جزءا كبيرا من وقتك ـ ومنذ بدء اشتهار امرك انت والشيخ امام ـ في الجلوس مع المثقفين الذين يعمل معظمهم في اجهزة الاعلام الرسمية ويتقاضون منها رواتب كبيرة لقاء خدمة النظام الذي يكرهونه والذين ياتون اليك ويسمعونك وانت تهاجمهم كي يقوموا بعملية التطهر الضرورية ـ اقول انه بالرغم من ذلك كله ... فانت في اعتقادي لا زلت تحتفظ بهذه القدرة اي قدرة التواصل مع الناس .. فكيف تفسر ذلك ؟ ...

نجم : قد يكون ذلك لأنني اعيش وسط الناس وهذا ، في رأيي أمر اساسي للغاية كما انني لست سائحا ولا اتكلم عن الناس ... بل اتكلم منهم ... وباعتباري جزءا منهم ...

أ منصور : هذا صحيح وتفكيرك واحساسك قريب جدا من تفكير الناس واحساسهم ..

نجم : نعم انا احس مثلهم وافكر مثلهم وانت احد الذين عايشوا فترة ظهورنا انا والشيخ امام ، ورأيت كيف كان المثقفون يهاجمون انتاجنا ويتهموه بالسذاجة او البساطة الشديدة وانعدام التركيب والحقيقة انني لم اتأثر بتاتا بهذه الهجمات وسوف اقول لك السبب في ذلك فأنا احيانا حين اجلس لكي اكتب ، ينتابني الضعف في مواجهة هجمات المثقفين ، واصاب بالتخاذل امام اغراء ان اكون شاعرا يعجب به المثقفون فأحاول ان اصنع شكلا فنيا مركبا ومعقدا وكانت النتيجة دائما عملا فاشلا مائة في المائة وعلى العكس من ذلك ، فانني حين اترك نفسي على سجيتها واقول ما احس به بدون تعقيد ـ كما هو حال الشعب المصري ـ فسوف تشعر فورا انني واحد من هؤلاء الناس .. ولذلك فأنا أصل اليهم بسرعة .. وذلك لأن الناس سوف يقولون : هذا بالضبط ما كنا نريد قوله ...

أ منصور : معذرة ، ولكن هل تحس فعلا ان الناس تتقبلك ؟ هل تحس انهم يثقون فيك ؟ ...

نجم : سوف احكي لك عن تجربة ، غريبة بعض الشيء ، حصلت لنا اي انا والشيخ امام فقد ذهبنا للغناء في قرية اسمها المشاعلة بمحافظة الشرقية ، بدعوة من استاذ في الجامعة اسمه الدكتور محمد شعلان . المهم اننا بدأنا في الغناء من شرفة في بيت الدكتور شعلان في حين كان الفلاحون يجلسون في قطعة ارض فضاء تقع امام الشرفة . ومن عادة الفلاحين انهم يحبون دائما ان يروا المغنين اثناء غنائهم . ولما كان معظم الجالسين في الصفوف الامامية قد

وقفوا ، فقد وقف ايضا من يجلسون في الصفوف الخلفية . وحدث ، نتيجة لذلك ، شيء من الضجيج . فوقف العبد لله فيهم خطيبا .. طالبا منهم ان يجلسوا جميعا حتى يستطيعوا السماع . ولكنهم رفضوا قائلين انهم لا بد ان يروا المغني . ووقعت في حيص بيص . ثم اقترح احد الفلاحين الحاضرين ان ننتقل للغناء ـ ولن تصدقني ـ في الجامع ولاحاجة بي لأن اقول لك كم صعقت من هذا الاقتراح . وزادت دهشتي حين اتجه الفلاحون جميعا ، وعلى الفور ، الى الجامع ، بينما ظللت انا والشيخ امام والدكتور شعلان ومحمد علي (ثالث ثلاثي امام ونجم ـ عازف على الطبلة) نقف في ذهول .. ولا ندري كيف نتصرف . وقد اكتشفنا ، حين دخلنا الجامع ، اننا ـ اي انا والشيخ والدكتور ومحمد علي ـ وحدنا الذين خلعنا احذيتنا .. اما باقي الفلاحين فقط ظلوا كما هم بنعالهم .

ا منصور : انت تعرف يا نجم انه ليس للجامع قداسة في الاسلام ... فالجامع ليس بيت الله .. وانما هو بيت بناه الناس لعبادة الله .. والواقع ان الجامع كان يستخدم ، في الماضي ، لأغراض شتى منها الصلاة وليس للصلاة وحدها . ومعظم الجوامع التي اقيمت ايام سلاطين المماليك كانت مدارس اساساً ... كما كانت تقام بها الأعراس احيانا .. كما كانت جلسات المحاكم تعقد في بعضها ... وكان بعضها ايضا يستخدم لاذاعة الأنباء الهامة .. كالفتوحات وغيرها ...

نجم : افادكم الله .. ولكن دعني احكي لك عن شيء آخر اكثر غرابة وقع في نفس اليوم . فقد غنى الشيخ امام ، كما القيت انا ، بطبيعة الحال ، عددا من القصائد . وانت تعرف ان الشيخ امام وفق توفيقا كبيرا في تلحيمن معظم اغانيه ... وان اسلوبه في الغناء يعطي لكل كلمة معناها .. كما يضيف اليها ايضا ابعادا جديدة . ولكن الغريب في هذه الليلة ، ان الفلاحين قد استحسنوا الشعر اكثر من الغناء ...

ا منصور : هذه ملاحظة هامة بالفعل ...

نجم : وهذا رغم انني القيت قصيدة « كلب الست » من بين ما القيت من قصائد .. وهي قصيدة قاهرية .. لغتها قاهرية .. ومفرداتها قاهرية ...

ا منصور : وربما كان هذا هو السبب في النجاح الذي لقيته .. فالقاهرة في اذهان الفلاحين هي السلطة .. ولذلك فان اي هجوم عليها .. او على احد سكانها .. لا بد وان يدخل البهجة والسرور في قلوبهم .. رغم اللغة القاهرية .. ورغم المفردات القاهرية .. ذلك ان المشكلة ـ في اعتقادي ـ ليست عجز الجماهير عن فهم ما يقوله الـ ٢٠٪ وانما المشكلة ، على العكس من ذلك ، هي انهم يفهمونه ... ولذلك فهم يرفضونه عن فهم وليس عن سوء فهم .. او عجز عن الفهم ...

نجم : هذا صحيح .. هذا صحيح .. وغرور المثقفين الأحمق هو الذي يصور لهم الوضع على غير ذلك . ولأن الناس تفهمهم جيدا ، فهم يرفضونهم ، وليس العكس . وانا ـ بالمناسبة ـ اسمي استعلاء بعض المثقفين المرضى على الناس بـ «غرور الجاهل » . فليست الثقافة على الاطلاق ان يقرأ المرء كتابين او ثلاثة .. ثم يجلس كي « يضرب بالبق » (البق ـ وتنطق بهمزة

في آخرها ـ تعني الفم في العامية المصرية . ويعني هذا التعبير العامي الخصب ان يستخدم المرء فمه كالحذاء كي يضرب به الناس ويؤذيهم .. كما يعني ايضا ان يفيض المرء في الحديث عن موضوع لا يعرف عنه شيئاً ـ أ. م.) وسوف انتهز هذه الفرصة السانحة كي القي عليك قصيدة فرغت توا من كتابتها .. وهي عن المثقفين .. واسميتها « حالة » ..

اقول في هذه القصيدة :

مبيعملشي حاجة ،
ومعندوش كلام .
صرصار القهاوي ،
هربان م الزحام .
غيبان عن وجوده ،
يصحى عشان ينام .
ياكل مرتدلة ،
ويقربع سخام .
ويقولك ده موقف ،
ويبيع لك كلام .
طب ايه القضية يا استاذ حمام ؟
دوغري يروح مبقبق ،
من تحت الحزام .
بوقين في الرتينة ،
تلقى الكون ضلام .
شرقه زي غربه ،
كله مش تمام .
طظ في اي حاجة ،
وفي اي اهتمام .
ومفيش اي فايدة ،
بكرة والف عام .
والعالم في رأيه ،
منحوت من رخام .
والربيع مزيف ،
والنجوم ركام .
والأمل ده خدعة ،
والعمل حرام .
طب عندك بدايل ؟

يعمل نفسه نام .
وتدور تلاقي ،
صرصارنا الهمام .
يئس من حياته ،
من صدمة غرام .

هل يستطيع امثال هؤلاء ان يصلوا الى الناس .. او ان يتواصلوا معهم ؟ ..

أ منصور : انا اتفق معك في ان المشكلة ليست مشكلة الناس .. بل هي مشكلة المثقفين .. وليست ازمة للناس .. بل هي ازمة للمثقفين ... ذلك انهم بدون الناس لا يساوون شيئاً كثيرا .. في حين ان الناس لا يخسرون كثيرا من فقدان مثقفين من هذا النوع . ذلك ان المثقف حين يتعرض لاضطهاد من جانب السلطة ـ وقد يكون السبب في هذا الاضطهاد دفاعه عما يتصور انه حقوق الجماهير ـ فان الجماهير لا تدافع عنه ولا تحميه .. وهي قادرة تماما على ذلك . والمثقفون يرجعون ذلك الى خوف الجماهير او الى تخلفها .. او عجزها عن فهم الدر الغالي الذي يتفضلون به عليها .. ولكنهم لا يرجعون الأمر ابدا ـ بسبب عزوفهم عن مواجهة انفسهم بالحقيقة ـ الى السبب الحقيقي .. وهو ان الناس لا تفرق بينهم وبين الحكام الذين يضطهدونهم سويا .. وينظرون اليهم بوصفهم اغرابا وسائحين .. لا يمكن الاطمئنان الى حسن نيتهم .. او الى مقدرتهم على القيادة التي يتصدون لها . ولكن السؤال الآن هو : هل يتحمل المثقفون مسؤولية هذا الوضع بشكل كامل ؟ ..

نجم : بلا شك .. هم مسؤولون تماما عن ذلك .. والا فمن يكون المسؤول ؟ ..

أ منصور : قد يتحمل بعض المسؤولية هذا النظام التعليمي الذي تكونت افكارهم وشخصياتهم في ظله .. والذي يرمي ـ في النهاية ـ الى فصلهم عن الجماهير .. وذلك عن طريق تشكيلهم على النمط الأوروبي الغربي ... وبحيث يصبحون في النهاية اشباها ومسوخا للأوروبيين . ذلك ان كثيرا من المثقفين يتحدرون من اصول شعبية ، عمالية وفلاحية ، حقة ... والكثيرين منهم ايضا يتميزون بالاخلاص والحماس لما يتصورون انه قضايا الجماهير ... والكثيرين منهم كذلك يتملكهم توق حقيقي وصادق للاتصال مع الجماهير وللتواصل معهم ... ولكن ذلك كله لا يؤدي الى تحقيق ما يريدون ..

نجم : ذلك لأنهم لا يمتلكون الموهبة ... موهبة القدرة على الاتصال بالناس .

أ منصور : انا لا اظن ان للموهبة دخلا في ذلك ... والمشكلة تكمن في رفض الجماهير لهم ...

نجم : ولكن التواصل مع الناس موهبة ...

أ منصور : بلا شك .. ولكن ما جدوى الموهبة في مواجهة هذا الرفض من جانب الجماهير ؟ ...

نجم : انتظر سوف احكي لك عن أمر تذكرته الآن ... ففي عام ١٩٧١، خرجت انا

والشيخ امام من المعتقل ، بعد ان قضينا ثلاثة اعوام خلف اسواره ، ووجدنا ان زميلنا « محمد علي » قد امتهن بيع « البطاطا » الساخنة في « حوش قدم » . وكنت أحل محله في بيع البطاطا اذا ما اضطر الى قضاء بعض مصالحه خارج الحي ... كأن يذهب لشراء البطاطا النيئة ... وما الى ذلك . وذات يوم ، كان الصديق محمد جاد يقف ... وانا ابيع البطاطا . وكانت حركة البيع نشيطة بعض الشيء ... وقد التف حولنا عدد كبير من الأطفال والصبية يتصايحون ويتضاحكون .. ويصيحون بي : « يا عم نجم بقرش صاغ بطاطا .. بقرش تعريفة بطاطا .. يا عم نجم ... الخ .. وفجأة التفت إلي محمد جاد وسألني : « .. احمد يا نجم .. هل يعرف هؤلاء الناس انك شاعر ؟ فقلت له : لا ... كل ما يعرفونه عني هو انني جارهم وابن حيهم . وما ادري الا ومحمد جاد يضربني ضربة قوية بقطعة من الخشب كان يمسك بها وقال : « يا ابن الكلب يا خبيث ... هذا ما سوف يجعلك تعيش الى الأبد » . وفي ظني ان ما قاله محمد جاد حق .. فأنا لست سائحا اتفرج على الناس من الخارج ...

أ منصور : ولكن الا تجد هذا الوضع غريبا بعض الشيء ... اعني ان لا يعرف اهل حيك نوع العمل الذي تمتهنه ؟ ... وما هو في رايك ، السبب في ذلك ؟ ... ولماذا لا يعرف من تكتب الشعر دفاعا عن مصالحهم انك شاعر ؟ ... وهل تعتقد انهم لا يعرفون حقا ؟ ... ان للقصة التي رويتها الآن دلالة هامة بالنسبة لهذا الجانب من ازمة المثقفين العرب الذي يدور حوله حوارنا . ذلك ان الكثير من المثقفين ينحازون - بعقولهم وعواطفهم ايضا - الى جانب الجماهير ... والكثير منهم ايضا تتملكهم رغبة حقيقية وصادقة في التواصل مع الجماهير ... والكثير منهم ايضا على استعداد للتضحية بكل شيء دفاعا عن مصالح الجماهير ... ولكن المشكلة هي ان الجماهير ترفضهم ... فما هو الحل ، في رايك ؟ ...

نجم : سوف احاول ان اجيب على هذا السؤال ... ولكنني ابدأ بأن اؤكد اتفاقي معك فيما قلته آنفاً .. كذلك احب ان اقول لك انني اقوم الآن بعملية مراجعة كاملة وشاملة لعملي ... في جميع مراحله . واقول لك صراحة ، انه في تقديري انني لم انجح تماما في ان اصبح شاعر الشعب المصري ... والذي يستطيع الانتشار ، والوصول الى الناس ، رغم هذا الحصار الاعلامي المحكم المفروض علينا . والسبب في ذلك هو ان جمهورنا لا يزال قاصرا على الطبقة الوسطى ... وهم الذين يسمعون اغانينا واشعارنا لأنهم هم الذين يمتلكون اجهزة التسجيل .. وهم الذين يمتلكون القدرة المالية ايضا على شراء التسجيلات .. اذن .. ماذا نستطيع ان نفعل ؟ ... اننا لا نتوقف عن العمل وعن الانتاج .. وانتاجنا غزير كما تعرف ... ولكن المشكلة هي من يقوم بايصاله الى الناس ؟ ... فانا ، بالتأكيد ، لا استطيع ان افعل ذلك ... كذلك لا يستطيع الشيخ امام ان يفعل ذلك ... ونحن ندعى للغناء ... ونلبي كل الدعوات التي تصلنا تقريبا ... واحيانا يكون مستمعونا مائة شخص .. او مائتين ... او حتى خمسة اشخاص ... ونحن نغني للجميع ... لهؤلاء ... ولهؤلاء ... ولكن التجربة التي اريدك ان تجربها هو ان تأخذ اغنياتنا هذه وتسمعها لأناس لم يسمعوا عنا من قبل ... وسواء كانوا في « الحارة » ام في

الحقل ... ثم تراقب وترى ما هو رد الفعل . واستطيع القول بأنه حتى الآن ... كانت النتائج ايجابية تماما ... بمعنى انه لم يحدث مرة ان وصل شريط لأغانينا قرية ما ... ولم تتحول هذه القرية لما يشبه ، محطة اذاعة لأغانينا ...

أ منصور : ولكن الا يجوز ان يكون جمهورك في القرية من المتعلمين وافراد الطبقة الوسطى ايضا ؟ ...

نجم : نعم .... هذا جائز جدا ... ولكنك تعرف ان القرى ضيقة ... واذا كان المتعلمون في القرية سوف يسمعون اغانينا .. فلا بد ان الفلاحين سوف يسمعونها ايضا ...

أ منصور : ولكنك تعرف ان شعبنا يحب التسلية والفرجة ... ولا اعتقد اطلاقا ان اجتماع الفلاحين لسماع شيء يعني انهم يحبونه او يتواصلون معه ... ذلك ان هذا التجمع لا يزيد عن ان يكون نوعا من الحياة الاجتماعية التي تفتقر اليها القرية في الغالب .. ولكن تلك ، على اية حال ، نقطة ثانوية ... والأمر الهام الذي اريد ان نتحدث فيه ... هو ان هناك عددا من الظواهر التي بدات في البروز في السنوات الأخيرة ... وقد لا يكون هناك رابط بين هذه الظواهر من حيث التماثل او الأسباب التي ادت الى ظهور كل منها ... واعني بهذه الظواهر انت والشيخ امام ... ثم الشيخ « محمد كشك » ثم احمد عدوية وكتكوت الأمير ... الخ ... ورغم انه ليس هناك تماثل على الاطلاق بين اي من هؤلاء والآخر ... فانهم جميعا يشكلون ، في رايي ، ظاهرة ذات دلالة هامة ... ذلك انها تمثل اول مرة يتم فيها ، بنجاح ، تحدي اجهزة الدولة الاعلامية القوية ...

وان يظهر نجم ما في سماء الفن من خارج ـ ودون مساعدة بل وبمقاومة ـ اجهزة الاعلام الرسمية ... وما يزيد هذه الظاهرة اهمية ودلالة ان هؤلاء جميعا قد ظهروا في وقت واحد .. وبالتحديد في الفترة التي تلت هزيمة ١٩٦٧ العسكرية . وكأنما الجماهير ـ وقد رات الدولة البورجوازية تنهار امام العدو الصهيوني ـ قد أرادت ان تقوم باستعراض للقوة .. ربما من اجل اعادة تاكيد ثقتها في قدراتها . وربما لاسباب اخرى لا ازعم انني اعرفها ولكن المهم هو ما رايك انت في هذه الظاهرة ؟ وكيف تفسرها ؟ .

نجم : انت تعرف اننا ـ اي انا والشيخ امام ـ اكتسبنا بعض الشهرة في عام ١٩٦٧ رغم اننا نعمل معا منذ عام ١٩٦٢ ، وفي عام ١٩٦٩ ظهر الشيخ عاشور عندما اخذ موقفا انتقاديا من نظام عبد الناصر ، وقد كتبنا اغنية آنذاك تحية له .

أ منصور : وارجو ان تسمح لي بان الفت نظرك الى انه من الأفضل ـ نظراً لضيق الوقت ـ ان نلتزم بموضوع حوارنا وانت تعرف ان المرحوم الشيخ عاشور لا علاقة له بتلك الظاهرة التي كنت تحاول تفسيرها ..

نجم : سوف اقول لك رأيي في هذه الظاهرة ورأيي هو ان احمد عدوية .

أ منصور : انا لا اعني عدوية وحده .. وانما ايضا كتكوت الأمر وفكري الجيزاوي الخ .. اي المجموعة كلها ..

نجم : نعم ولكن عدوية هو ابو هذه الموجة ولكن رأيي ان الشيخ امام هو الأصل . كيف ؟ ذلك اننا قررنا منذ عام ١٩٦٢ ان لا نتعامل على الاطلاق مع اجهزة الاعلام الرسمية .. واننا لا نغني لاننا مغنون محترفون .. او من اجل انتشار اغانينا وكنا انا والشيخ امام نسكن معا في حي الغورية . ونقيم جلسات للاصدقاء نغني فيها الاغاني القديمة والكلاسيكية وقد بنينا سداً بيننا وبين اجهزة الاعلام فلم نكن نسمع الاذاعة ولم نكن نريد سماعها على الاطلاق فقد كان لدينا ما يكفينا من اغاني سيد درويش وزكريا احمد وداود حسني وذات يوم ، قلت للشيخ امام : انك في ادائك لهذه الاغاني تقدم اضافات جديدة لها .. فلماذا لا تقوم بتلحين اغانيك انت ، فقال لي ان ما يحول بينه وبين ذلك هو انه لا يجد القصائد المناسبة لتلحينها فعرضت عليه ان اكتب له عددا من الاغاني كي يقوم هو بتلحينها فوافق وهذا ما حدث . وفي تلك الفترة كتبت للشيخ عدة اغاني قام بتلحينها من بينها « جيفارا مات » و« كلب الست » .. الخ ..

أ منصور : وكيف كنت تتصور آنـذاك كيفية وصول اغانيكما الى الناس اي هل كنت تظن ان جمهوركما سوف يظل قاصرا على هذه المجموعة الصغيرة من الاصدقاء والجيران التي تجتمع عندكما في « حوش قدم » ؟ ام انكما ـ بعد ان نبذتما اجهزة الاعلام الرسمية ـ كان لديكما تصور محدد للطريقة التي سوف تتواصلان بها مع الناس ؟ .

نجم : كان هناك عدد من الناس التفوا حولنا وقدموا لنا التشجيع كذلك شجعتنا تجربة سيد درويش وكذلك ايضا تجربة بيرم التونسي .

أ منصور : ولكن سيد درويش لم يكن لديه اعتراض ، فيما يبدو على التعامل مع اجهزة الاعلام الرسمية الموجودة آنذاك وقد كان يتعامل مع الفرق المسرحية شبه الرسمية والتي كانت جزءا اصيلا في المؤسسة الثقافية البورجوازية .

نجم : نعم .. نعم .. هذا صحيح ولذلك فان بيرم التونسي اقرب الي من سيد درويش ..

أ منصور : وبيرم ايضا كان يتعامل مع اجهزة الاعلام الرسمية بل كان يكتب الاغاني لابرز ممثلي المؤسسة البورجوازية الفنية .. وهي المرحومة السيدة ام كلثوم والتي لولا خلافه معها لاستمر في تعامله معها ومع الاذاعة ايضاً .. اعني ان توقف بيرم التونسي عن التعامل مع الاذاعة لم يكن نتيجة موجة موقف فكري او سياسي .. اي انه ليس هناك في الواقع وجه شبه بينكما وبين بيرم التونسي ...

نجم : اعترف لك ـ من باب الامانة ـ ان كلينا ـ اي انا والشيخ امام ـ قام ، قبل ان نلتقي بعدة محاولات للتعامل مع الاذاعة ولكننا تعرضنا للكثير من الاهانات التي لم نكن على استعداد لتحملها وحين تقابلنا حكينا لبعضنا ما حدث لنا ـ واتفقنا على ان معظم الذين يتعاملون مع الاذاعة لا شرف لهم ولا ضمير ..

أ . منصور : نحن لا نتحدث عن هؤلاء ، يا استاذ نجم فهؤلاء مرفوضون من جانب الجماهير ولا امل لديهم في التواصل معها .. ولكن سؤالي هو عن كيفية وصولكما لهذا القرار ؟ .

نجم : لم اكن اتعامل مع نفسي بوصفي شاعرا وكذلك لم يكن الشيخ امام يتعامل مع نفسه بصفته ملحنا اي اننا كنا نؤلف اغانينا لأنفسنا ولاصدقائنا ..

أ . منصور : للمتعة ؟ ..

نجم : نعم .. للمتعة .. نعم كنا نكتب اغانينا لاصدقائنا ولأنفسنا وكان بعض هؤلاء الاصدقاء يسجل هذه الاغاني على اشرطة كاسيت وبهذا الشكل امكن حفظ هذه الاغاني ولكني اكون كاذبا لو قلت لك اننا لم نكن ندرك اننا نصنع فنا . لا ، فقد كنا نعرف تماما اننا نصنع فنا .. اي اننا لم نكن متواضعين الى حد البلاهة ..

أ . منصور : انت تعرف ان التوزيع ليس هو الذي يجعل الفن فنا ..

نجم : بالضبط والشيخ امام ، بوصفه فنانا تتلمذ على عمالقة الفن من امثال الشيخ درويش ، الحريري وزكريا احمد والشيخ علي محمود وفتحية احمد .. وباقي عمالقة الاغنية الكلاسيكية ـ كان يرى ان ما كان يحدث ايام عبد الناصر لا علاقة له بالموسيقى وانه لا يزيد عن أن يكون سرقات ممسوخة .. كلمات متهافتة شاحبة لا معنى لها .. والحان مسروقة ومتفرنجة .. اي انسحاق كامل ـ كما قلت انت ـ امام الثقافة الاوروبية .

أ . منصور : معذرة ولكن سؤالا ـ ربما يكون خارجا شيئا ما عن ما نتحدث فيه الآن ـ قد خطر لي وهو ان الناس في حي الغورية الذي تسكن فيه يفتحون اجهزة الاذاعة التي يمتلكونها طيلة الليل والنهار .. كما ان غالبيتهم ـ والإطفال والشبان بوجه خاص ـ لا يكفون عن ترديد الاغاني الهابطة التي تقدمها الاذاعة الرسمية رغم عدم تواصلهم معها الم يؤثر ذلك عليكما انت والشيخ امام ؟ الم يجعلكما ذلك تخشيان الدور القوي والتاثير القوي الذي قد تمارسه اجهزة الاعلام الرسمية على الناس ؟ ..

نجم : هناك صفة تجمع بيني وبين الشيخ امام وهي : العناد او العناد الشديد وانت حين تعرف ان ما تفعله جيد .. وحين تؤمن بشيء وتكون على استعداد للدفاع عنه حتى آخر المدى .. وحين تدرك تماما كيف ان الأغنية سلاح وسلاح فتاك ايضا . وهي اقوى الأشكال الفنية تأثيرا فالمرء يستطيع ان يغني في اي مكان . ويستطيع ان يغني وهو راقد او وهو جالس او وهو واقف ولا يتوافر ذلك في الأشكال الفنية الأخرى كما ان الأغنية ايضا تخاطب الوجدان .. فما بالك حين تكون انت الذي كتبت كلمات الأغنية او وضعت لها لحنها ؟ سوف تحبها بالقطع ورأيي ان حبنا لعملنا ـ انا والشيخ امام ـ هو الذي جعله يبقى كما انه هو ايضا بالتالي الذي دفعنا الى دائرة الضوء ونحن ـ اي انا والشيخ امام لم ننس ذلك ولم ننس اننا بدون عملنا هذا لا نساوي قلامة ظفر ولذا فاننا ، بالتالي، نحب عملنا ونحترمه .. ولا نقبل ان يعامله احد بغير احترام . كذلك فاننا لم نتوقع ان يصل امرنا الى هذا الحد ولكننا حين بدأنا ننتج اغاني سياسية ، توقعنا ان يصل بنا الأمر الى السجن ولكن ذلك لم يجعلنا نتوقف . ذلك ان كل ما كنا نفعله هو اننا نغني . وانت تعرف ان الشيخ امام صنبور اغاني اذا فتحته نزلت منه الانغام نزول الماء من الصنبور ولو سألته عن حاله يغني ولو ربت على ظهره يغني اي انه باختصار لا يكف عن الغناء .. لأنه مليء بالانغام . اما انا فلا استطيع مقاومة الموسيقى فأنا ضعيف جداً جداً أمامها ..

أ . منصور : معذرة ، ولكن سؤالي ـ اذا كنت تذكر ـ كان عن مدى تأثركما بما

تريناه في حيكما من الدور المؤثر الذي تلعبه اجهزة الاعلام الرسمية في تشكيل وجدان الناس .

نجم : ان تأثرنا بذلك يأخذ شكلا عكسيا كيف ؟ قد يكون في ما اقول بعض الغرور وبما كان فيه ايضا شيءمن الحماقة .. ولكننا - اي انا والشيخ امام - على ثقة كاملة بأن ما يذاع من اغاني في اجهزة الاعلام الرسمية ليس فنا على الاطلاق وان ما نصنعه افضل منه بكثير - وتستطيع ان تسمي ذلك ما تشاء غرورا أو .. أو .. الخ - ولكننا كلما احسسنا - اي انا والشيخ امام - بمدى جبروت اجهزة الاعلام كلماقوى ذلك من عزيمتنا ودفعنا الى المزيد من العمل ..

أ . منصور : هناك سؤال يتعلق بما قلته انت الآن وهو : هل تظن ان المغني الشعبي أو الشاعر الشعبي - وليس المغني الرسمي او الشاعر الرسمي - يحسان بروح التحدي هذه ايضا في مواجهة اجهزة الاعلام الرسمية ؟ .

نجم : ان الشاعر الشعبي الحقيقي جزء لا يتجزأ من الشعب المصري . وانت تعرف ان الشعب المصري تتملكه دائما روح التحدي في مواجهة السلطة حتى السمكري يحس بذلك .

أ . منصور : اظن ان الشاعر الشعبي يؤمن تماما في داخله انه افضل من هؤلاء الذين يثرثرون في اجهزة الاعلام ..

نجم : نعم هذا صحيح هذا صحيح .. وانا اعرف روايات وحواديت ، لا اول لها ولا آخر ، تحكي عن مقدرة الفنان او الصانع الشعبي - وانت تعرف انني كنت اعمل ترزيا - على تجاوز الفنان الأجنبي او الشاعر الأجنبي وعلى التفوق على الشعراء الافندية فهناك حكاية عن واقعة - لم تحدث - للأسطى محمد الباشا - النجار الذي يستأجر محلاً في بيتنا في حوش قدم - وعن كيف ان الزوجة الايطالية لأحد الباشوات كسرت رجل مائدة كانت تعتز بها ، وكيف اصرت ان يقوم الباشا زوجها بارسال المائدة الى ايطاليا لاصلاحها ، وكيف ان الباشا لجأ الى الاسطى محمد الباشا الذي اصلح له المائدة بشكل لا يجعل احدا - ولو كان خبيرا - يدرك انها تعرضت لعمليات اصلاح وترميم . وهذه الحادثة - كما قلت لك - لا اساس لها من الواقع ولم تحدث ولكنها بلا شك تعبر عن روح الاعتزاز بالنفس .. وروح التحدي وهناك المئات - بل الآلاف - من امثال هذه الحكايات فانا واثق انني انا الذهب وان غيري « كورو » * (* ذهب مزيف - أ. م.) بلا اصالة على الاطلاق وقد اثبتت التجربة ذلك وقد رأيت انت بعينيك كيف كانوا يستقبلونا في الجامعة ...

أ . منصور : ولكنك تعرف ان الطلبة - ورغم الدور الوطني الهام الذي يلعبونه - لا يزيدون عن أن يكونوا مشاريع حكام ...

نجم : نعم .. نعم .. هذا صحيح .. ولكنهم في مرحلة الدراسة يكونون شبانا انقياء لم يتلوثوا بعد .. والكثير منهم ملتزم تماما بقضايا الجماهير .. وعلى أية حال ، فما أريد أن أقوله هو أنني أدرك جيدا انني ، أنا والشيخ إمام ، ننتج أفضل اغان في الوقت الحالي ...

أ . منصور : ولا شك أن عددا كبيرا من الناس يشارك هذا الاعتقاد ..

نجم : نعم .. هذ صحيح .. وهناك أيضا جانبا لا بأس به من الجماهير - أي الـ ٨٠٪

ـ يشاركني هذا الاعتقاد أيضاً ..

أ . منصور : إذن لماذا ، وبالرغم من ذلك وبرغم من احساسكما الـواعي بالجماهير .. وبرغم دفاعكما البطولي المستميت عن قضايا الجماهير ومصالحها .. فان انتشار وذيوع اغاني احمد عدوية وامثاله بين الجماهير يفوق كثيرا انتشار وذيوع اغانيكما انت والشيخ امام ؟ ..

نجم : لأن عدوية ليس ممنوعا .. أغانيه ليست محظورة .. وهي تباع علنا في المحلات .. ثم هو يغني في ملاهي شارع الهرم .. وهو يغني أيضا في الأفراح والحفلات ..

أ . منصور : ولكن هذا لا يكفي ... فهناك العديد من المغنين غير الممنوعين الذين لم تحقق اغانيهم اي انتشار ...

نجم : سوف أقول لك لماذا حقق « عدوية » كل هذا الانتشار والذيوع . ودعنا نعقد مقارنة بينه وبين الشيخ إمام ... وكذلك بين « عدوية » وبين مطربي أجهزة الإعلام الرسمية . وبالنسبة الى الشيخ امام ، فإنني أعتقد أن الأبواب لو فتحت امامه لكان من المؤكد أن يحقق في مصر شعبية رهيبة تفوق بما لا يقاس شعبية أحمد عدوية . ولكن الأبواب مفتوحة أمام عدوية ، رغم حظر أغانيه في الأذاعة ، ولكنه يغني في التلفزيون .. وفي الأفلام السينمائية .. وفي الأفراح .. الخ ..

أ . منصور : انا ، في الواقع ، لم اكن اعني تلك المرحلة الأخيرة من حياة عدوية .. والتي اظن انك تتحدث عنها ... وانما كنت اعني المرحلة المبكرة من حياته ـ قبل التلفزيون والسينما ـ حينما لم يكن من الممكن ان تركب تاكسيا أو تجلس في قهوة شعبية دون ان تسمع اغاني عدوية الشهيرة . اما الآن ، ففي اعتقادي أن انتشاره قد قل كثيرا جدا ... ربما لأنه اصبح او كاد ان يصبح مغنيا رسميا .. لا يفترق عن مطربي الأذاعة الرسمية .. فهو الآن يستعين بنفس كتاب الاغاني ونفس الملحنين الذين يتعاملون مع المطربين الرسميين . وسؤالي هو لماذا ، في رايك ، استطاع احمد عدوية ان يحقق كل هذا الانتشار في المرحلة الأولى التي اشرت اليها ؟ ..

نجم : دعنا أولا نحلل أغاني عدوية . وعناصر الأغنية الرئيسية بوجه عام هي الكلمات واللحن والأداء ...

أ . منصور : وهل تعتقد ان كلمات الاغاني التي يغنيها عدوية لها أهمية ما ؟ ...

نجم : بلا ادني شك .. فكلمات أغانيه لها أهمية قصوى ...

أ . منصور : انا اتفق معك في ذلك ... واظن انه ربما كانت كلمات اغاني عدوية تحتل المرتبة الأولى من حيث الأهمية .. ثم يلي ذلك الأداء ... أما اللحن فاعتقد انه يحتل المرتبة الأخيرة ...

نجم : الحقيقة ان كتاب الأغاني الذين يستعين بهم أحمد عدوية هم من أفضل كتاب الأغاني في مصر . وأجهزة الاعلام الرسمية .. والدكتور اللواء محمد عبد الوهاب .. يصفون الكلام الذي يغنيه احمد عدوية بأنه كلام فارغ .. وأنا أتساءل : متى غنى مطربو الأذاعة كلاما

مليئا ... فإذا كان عدوية يغني « السح .. الدح .. امبوه » .. فان محمد عبد الوهاب أيضا يغني كلاما مماثلا .. وكذلك أم كلثوم .. وكذلك بقية القائمة من المطربين الرسميين المتحذلقين . ورأيي أن الكلام الذي يغنيه عدوية به قدر كبير من روح الفكاهة التي يتميز بها المصريون .. كما أن ألحان أغانيه خفيفة .. وتشبه ألحان أغاني العوالم .. (فرق فنية شعبية تقدم فنا رخيصا كانت شائعة في مصر الى وقت قريب) أما فيما يتعلق بالأداء .. فان رأيي هو أن أحمد عدوية هو أفضل من يؤدي الأغنية في مصر الآن . ومن الإنجازات الهامة التي حققها أحمد عدوية ـ والتي أشد على يده من أجلها ـ هو أنه هدم صرح غناء الخمسين عاما الذي بناه عبد الوهاب وأم كلثوم .. لقد هدم عدوية هذا الصرح بركلة من قدمه .. واستطاع أن يجعل كل الناس تردد أغانيه في الشارع .. رغم حظر اذاعتها في الاذاعة الرسمية ...

أ . منصور : هذه هي المسألة ، فلماذا استطاع عدوية ان يحقق ذلك في رأيك ؟ ...

نجم : لأن كلماته شعبية جدا ... وألحانه شعبية جدا .. وأداءه شعبي جدا فالكلمات تحوي الكثير من التريقة (أي السخرية) التي يجيدها المصريون .. والشعب المصري ضعيف جدا أمام « النكتة » . وهو يحب ويتقبل من يتمتعون بخفة الدم ... وعدوية يتمتع بخفة الدم .. وكلماته خفيفة الدم .. وكذلك ألحان أغانيه . والناس ـ كما تعرف ـ كفرت أو كادت من صنوف العذاب التي تصبها الاذاعة عليها . وأنت حين تسمع اللواء محمد عبد الوهاب وهو يغني أغانيه الجديدة تحس ـ كما يقول الشيخ أمام ـ أن الرئيس جونسون هو الذي يغني ... أو ربما السلطان المنصور قلاوون شخصيا .. فهو يغني بتعاظم وتكبر عتاة الأمبرياليين والسلاطين . أما عدوية .. فهو لا يتعاظم ولا يتكبر .. وانما هو يغني في بساطة .. وكأنه يتحدث مع مجموعة من الأصدقاء ..

أ . منصور : نعم .. ولكن هناك ، عدد من المطربين يتمتعون بهذه المواصفات التي تقول أن عدوية يتمتع بها ، ومع ذلك فانهم لم يحققوا ما استطاع هو ان يحققه . لماذا ، في رأيك ؟ .. وهل تعتقد ، مثلا ، أن عدوية يعرف كلمة السر التي تفتح له أبواب السور الذي اقامته الجماهير حول نفسها ؟ ..

نجم : نعم .. أعتقد أنه يملك كلمة السر هذه ..

أ . منصور : وما هي كلمة السر هذه ، في رأيك ؟ ... هل هي خفة الدم كما يوحي كلامك ؟ ... ولكن فؤاد المهندس يتمتع بخفة الدم .. ولكنه ليس نجما شعبيا مثل عدوية ...

نجم : نعم ... ولكن فؤاد المهندس نجم رسمي . وصدقني عندما أقول لك أن أحمد عدوية هو رد الشعب المصري على فؤاد المهندس . وأنا لا أستطيع تنظير ما أقول .. ولا أستطيع أيضا أن أقدمه بشكل علمي ... كما يجيد المثقفون الرسميون . ولكن ما أعرفه وما أحسه وأشعر به بوضوح كامل هو أن شعبنا يقف دائما موقف التحدي من الفئات الحاكمة . فهو يرد على « نكتها » بنكت أكثر ظرفا وأصالة .. وهو يرد على جبروتهم وإجرامهم .. بجبروت من نوع آخر . وهذا يعود بنا الى المقولة الأصلية التي يدور حولها حوارنا .. أعني مقولة وجود ثقافتين

متميزتين . ذلك أن الشعب المصري دائما يتصرف معتمدا على ذاته .. وبحيث تكون تصرفاته ، وبشكل تلقائي ، ردا - مباشرا أحيانا ... وغير مباشر أحيانا أخرى - على تصرفات الحكام والرسميين ...

أ . منصور : تعني انه يشن هجوما مضادا ؟ ...

نجم : نعم .. هذا تبسيط سليم لما أريد قوله ونحن لا زلنا نذكر قصة « قراقوش » الذي أمر الناس أن تعمل ليلا وتنام نهارا ... والتي تذكر بالانضباط القائم الآن ...

أ . منصور : معذرة ، ولكن شخصية « قراقوش » كما يصورها كتاب « الفاشوش في حكم قراقوش » لا أساس لها من الواقع التاريخي . ولا أدل على ذلك مما تقول . فكتب التاريخ لا تقول أن قراقوش - الذي كان أحد معاوني صلاح الدين الأيوبي ، وهو الذي اشرف على بناء قلعة القاهرة مستخدما أسرى الصليبيين - قد أصدر مثل هذا الأمر . وانما الذي أصدر هذا الأمر - كما تقول كتب التاريخ - هو الخليفة الحاكم بأمر الله نزار الفاطمي . ويدلنا ذلك على أن قراقوش في التصوير الشعبي هو مثال أو نموذج للحاكم بشكل عام ... وقد مزقه الشعب بخفة دمه اربا اربا ... وكشف عن أنه لا يزيد أن يكون - اي الحاكم أي حاكم - رجلا لا يتميز عن باقي الناس بغير هذا الأعتزاز الغبي بالنفس ...

نجم : ما تقوله صحيح .. ولكن دعني أقدم لك رد الشعب المصري على طغيان الحاكم وجبروته ... وهو الرد الذي غالبا ما يأخذ شكل النكتة ... ذلك أنه يقال أن قراقوش كان يطوف بالمدينة نهارا فوجد اسكافيا يعمل في دكانه ، فتملك قراقوش الغضب وصاح في الأسكافي : ماذا تفعل أيها الرجل ؟.. فقال الأسكافي انني سهران ! فصاح به قراقوش : وهل يسهر أحد نهارا ؟ .. فرد عليه الأسكافي في هدوء ولم لا يا مولانا ؟ .. ألم تأمر بجعل الليل نهارا والنهار ليلا ؟ ... هذا هو رد الشعب المصري .. من منطقك أدينك .. وبذكائي أجعل جبروتك شيئا لا قيمة له . ورأيي أن عدوية والشيخ كشك هما رد الشعب المصري على الفئات الحاكمة ..

وهناك نكتة شائعة عن جبروت الضباط . قبضت الشرطة على ثلاثة اشخاص يضربون ضابطا بالجيش . ولما سألوهم عن سبب ضربهم للضابط قال احدهم ان الضابط تعرض لشقيقته ، وقال الثاني ان شقيقة الأول هي خطيبته ، انما الثالث فقال انه عندما رأى الاثنين يضربون ضابطا ظن ان الثورة قد قامت ، فقرر ان يأخذ بثأره من حكم العسكر .

أ . منصور : هذه النكتة استخدمها عادل امام .

نجم : انا معجب بعادل امام ، ونعود الى سؤالك : هل تعتقد ان الناس تثق بي ...

أ . منصور : لا ، لأن الأسئلة التي اوجهها لك بشكل مباشر ، تجيب عليها اجابات غير مباشرة ، ودعني اروي لك حادثتين ، الأولى ، انه منذ اكثر من عشر سنوات عقد بمدينة الزقازيق مؤتمر لشباب الأدباء ، وكان بين الحضور مظفر النواب وعبد الرحمن الأبنودي ، والقى كل منهما شعرا . والمدهش ان الفلاحين المصريين تجاوبوا مع مظفر النواب بالعامية العراقية . الفلاحين تجاوبوا معه ، ولم يتجاوبوا مع الابنودي الذي القى شعراً بالعامية المصرية .

نجم : لأن مظفر النواب صادق .

أ . منصور : ولذلك يحب المثقفون شعر الابنودي ، انه رغم استخدامه العامية المصرية ، شاعر للمثقفين .

نجم : مظفر له ميزة هي اداؤه . اداؤه عبقري ، بالاضافة الى صدقه .

أ . منصور : اما الحادثة الثانية ، فقد وقعت معكما انت والشيخ امام ، وكانت واقعة شديدة الفظاعة ، اثناء الانتخابات البرلمانية عام ١٩٧٦ ، عندما شن المرشح عن دائرتكم حملة ارهاب ضدكما .

نجم : هذه الحادثة كررها بعد ذلك النبوي اسماعيل (وزير الداخلية الحالي) . المهم ، جاء علوي حافظ ومعه حوالي ٧٠ شخصا شاهري السلاح ، وثبتوا ميكروفونا تحت بيتنا واطلقوا تهديدات بسحلنا وبحرقنا احياء داخل الغرفة التي نسكنها . وفي اليوم التالي رددنا على علوي حافظ ، بأن دعونا المرشح الآخر ، رغم عدم ثقتنا السياسية به . وبينما جاء علوي حافظ مع عدد من تجار المخدرات والبلطجية ، جاء المرشح المنافس تصحبه تظاهرة تضم حوالي ٣ آلاف شخص ليعلنوا وقوفهم معنا .

أ . منصور : الم يكن مفروضا ان يدافع عنك اهل الحي ضد هجمة علوي حافظ ، وفي لحظتها ؟ .

نجم : لم يكن احد يريد مذبحة . والواقع ان فكرة دعوة المرشح المنافس كانت اقتراح اهل الحي .

أ . منصور : ولذلك لم ينفذ علوي حافظ تهديده ؟ .

نجم : لقد هددنا بأنه سيزيل البناء الذي نسكنه من اساسه . وبالطبع لم يستطع ان يفعل ذلك ، بعد ان اعلن الناس موقفهم بهذا الشكل . وبالمناسبة يقول البعض ان هربي من الشرطة قد عزلني عن الناس . بينما الحقيقة انني التقي بجماهير الناس بشكل مستمر ، وبالذات بابناء الغورية ... ورغم ان عمري ما تحدثت مع هؤلاء الناس ، مع سكان « حوش قدم » في السياسة او الشعر ، فهم لا يعرفون بانني شاعر مع اني اعيش وسطهم منذ ١٨ سنة . كيف اعيش وسطهم ؟ الخص ذلك في واقعة بسيطة ، ذات مرة اعتقلت ، وعادة بعد الاعتقال تحاول المباحث نشر جو من الارهاب في الحي ، وفي اليوم التالي لاعتقالي ذهب احد ضباط المباحث الى جار اسمه سعد يبيع حقائب ، متظاهراًأنه يريد الشراء ، وسأله عن رأيه في نجم ، فقال الرجل : « ابن حلال وجدع ، ربنا يفك سجنه ، ربنا يؤذي المؤذي » فقال له الضابط ان نجم شيوعي ، فتدخل في الحديث جار آخر اسمه أبو زيد ، تصادف وجوده ، وسأل الضابط عن معنى كلمة شيوعي ، وأجاب الضابط ان معناها شخص كافر لا يعترف بوجود الله ، فقال ابو زيد « اذا كان نجم شيوعي ، انا شيـوعـي نجم عايش في وسطنا من سنة ، لا كذب على واحد ، ولا نصب على واحد ، ولا واحد منا عنده ازمة ما حضرهاش نجم » وبالمناسبة العرس يعتبر ازمة لأنه يكلف نقودا .

أ . منصور : انت تفعل ذلك تلقائيا . ليست لديك خطة لـ «كسب الناس » ....

نجم : لكي تعرف الى اي حد يثق بي الناس ، اذكر انه وقت الانتخابات الأخيرة . جاءني

عدد من سكان منطقة العدوية وفيها ثلاثة آلاف صوت انتخابي ، جاءوا يسألونني لمن يعطون . اصواتهم ، قلت لهم، انتخبوا المرشح الذي يستطيع ان يضع مصباحا في عامود النور في شارعكم ... هذه هي علاقتي بالناس في حوش قدم . لذلك لا استطيع الابتعاد عنهم .

ا . منصور : ليس هذا ما اقصده . انت شخصية محببة ، لكن هذا شيء آخر غير الثقة ، استشارة الناس لك ليس لها معنى ، فالناس يحبون ارضاء من يحبونهم . انا لا اقصدك كشخص . انا اقصدك كشاعر ، الناس في حوش قدم ـ كما تقول ـ لا يعرفون انك شاعر ولم يقراوا شعرك ...

لماذا تعيد النظر في شعرك وعلى اي اساس ؟ .

نجم : نحن الآن في عام ١٩٨٠، بدانا إمام وأنا ـ نعمل معا في العام ١٩٦٢، هناك١٩ سنة ، سأعيد تقييم شعري بشجاعة اقدر عليها . لن اعيد تقييمه فنيا . ساعيد تقييمه سياسيا . فأنا اكتب اغنية سياسية ، وانا معادي لهذا النظام القائم . وانا اوجه الاغاني والقصائد التي اكتبها باعتبارها طلقات رصاص . هذا هو ما اقصده . الآن انا اشهر شاعر يكتب بالعربية ، في البلاد العربية واوروبا ، ولكني اقل الشعراء شهرة داخل مصر ...

ا . منصور : هناك فئات معينة تعرفك .... الطلبة مثلاً ...

نجم : لا يزيد ممن يعرفون شعري عن ٢٠٪ من المتعلمين ، ومنهم السادات واللصوص والمقاولين والسماسرة ، انهم اقل من ٢٠٪ من الشعب ، بينما انا في الحقيقة لا اكتب لهؤلاء .

ا . منصور : ومع ذلك فهم جمهورك ...

نجم : رغما عني ، ولذلك فإن علي ان اكتشف لغة جديدة اكثر بساطة ، ولا اقصد باللغة هنا الكلمات والتراكيب . انما اقصد لغة للتعامل بين فني وبين الناس . علي ان اجد وسيلة للتواصل مع الناس .

ا . منصور : بماذا اذن تفسر انه رغم انحيازك الكامل للجماهير فإن جمهورك هم اعداؤك واعداء الجماهير ؟.

نجم : معروف اننا نقدم عملنا من خلال ادواتنا ، ادواتنا هي العود (الشيخ امام) والرق (محمد علي) ، والناس تردد معنا . عند الاداء انا غير موجود . لذلك انا افكر في ايجاد اكثر من صوت في اكثر من مكان يؤدون اعمالنا ، وعندما يوجد ناس يغنون في الأعراس والحفلات والمصانع والحقول ، يكون علي ان اقدم لهم ما يغنون .

ا . منصور : شيء غير ما يحبه المثقفون ، فالناس العاديون لا يحبون الحديث المباشر والمكشوف، انهم يحبون الكلام غير المباشر والمغطى ، يحبون التورية والايماء . مثل احمد عدوية عندما يقول «حبة فوق وحبة تحت» ، يعني ..

نجم : بالضبط ، ومثل ما يقول احمد عدوية « ما تاكلوناش بالشوكة وترمونا بالمعلقة » .

ا . منصور : هذا كلام مغطى ، واذا جد الجد يقول لم اكن اقصد شيئاً مما فهمتم ...

نجم : رأيي ان هذا ليس شيئاً سيئاً . بالعكس ، لقد كنت واضحا جدا في الستينات ، كان الوضع العام يتطلب كل هذا القدر من المباشرة والوضوح الذي وصل الى حد البذاءة .

الآن التحايل ممكن . لأن هدف السلطة الأساسي هو تجميدنا ، فإذا كنت انا ذكيا سأخرج من المصيدة . ولذلك علي ان اجد اساليب اخرى ، وسأفعل ذلك .

أ . منصور : يعني المشكلة مشكلة اساليب ؟ اليس جائزا ان تكون المشكلة في الشعر نفسه ؟ .

نجم : جائز .

أ . منصور : هل هذا وارد في اعتبارك وانت تقوم بعملية المراجعة ؟ .

نجم : طبعا .

أ . منصور : اقصد انك عشت فترات طويلة بين المثقفين ، ويمكن ان تكون قد اكتسبت ـ دون وعي ـ طريقتهم في التناول ، اليس جائزا ان تكون هذه هي المشكلة التي تبعدك عن الجماهير ؟ .

نجم : لقد كتبت نموذجا جديدا . انا الآن في مرحلة تجارب من اجل شكل جديد للأغنية السياسية ، فيها تورية ، لكنها مفهومة .

أ . منصور : شكل جديد للأغنية عموما ام للأغنية السياسية بالذات . فالاغنية السياسية يجب ان تكون ايضا ممتعة ...

نجم : اسمع هذا النموذج الجديد :

يا بلح ابريمي يا سمارة
سوّاك الهوا في العالي هويت
على طمى النيل يا سمارة
وشربت عكار لما استكفيت
بس احلويت اوي يا سمارة
لما اسمريت اوي يا سمارة
لفيت الشارع والحارة
على زي نقاوتك فين ، مالقيت .
يا بلح ابريمي .
يا حلاوة بنار الشمس النور
يا سمار وعمار الصحرا البور
شباك الهوا داير ما يدور
حواليك ، اتاريك دبت وطبيت
بس اغلويت اوي يا سمارة
لما ادليت اوي يا سمارة
ونزلت الشارع والحارة ،
سوقك ، لا رخصت ولا اتذليت .
يا بلح ابريمي .

حصلت بعقدك صدرْ الناس ،
من شر النخاس الخناس ،
يا بو قلب لا سوسة ولا وسواس .
ولقيتك يا اسمر واستبقيت .
الضم حبايبك بقى يا سمارة ،
وافتح شبابيك بقى يا سمارة ،
على جو الشارع والحارة
تغلو زيادة ويعلا البيت
يا بلح ابريمي

أ . منصور : هذا كلام بسيط ببساطة مذهلة . هذه اذن هي البساطة التي تقصدها . وبمناسبة الاساليب ، ارى ان اصدار دواوين شعرك خطا . الصلة المباشرة بينك وبين قصائدك وبين الناس شيء لا بد منه . مهم جداً في شعرك القاء نجم المؤدي ، لقد رايتك وانت تؤدي في احد احتفالات المقاومة الفلسطينية ، فلم اعرفك . فوجئت بك شخصا آخر ، جماع عناصر اخرى ، منها الناس الذين يسمعونك . كنت تلقي قصيدك « بيان هام » . لذلك اعتقد ان صدور شعرك في دواوين يربطك بالمثقفين . ارى ان تصدر دواوينك على : اشرطة « كاسيت » .

نجم : اتفق معك .

أ . منصور : لماذا وافقت على ان تغني سعاد حسني للاذاعة الحكومية اغنيتك « دولا مين ودولا مين » أيام حرب ١٩٧٣، لقد هزت هذه الواقعة ثقة البعض بك في حينها .

نجم : لست مستعدا للتفلسف ولا التنظير ولا التقعير . ايام حرب ١٩٧٣ كنت مع المقاتلين قلبا وقالبا . اريد ان ارى اسرائيل وقد محيت من الوجود . المسألة لا تحتمل التفلسف ، انا ضد اسرائيل واميركا على طول الخط . كنت متحمس لحرب اكتوبر ، سواء قادها السادات ام غيره . وما كتبته عن حرب اكتوبر كان عن الفلاحين والعمال : « دولا مين ودولا مين ، دولا عساكر مصريين ، دولا مين ودولا مين ، دولا ولاد الفلاحين»، ولم اسع الى سعاد حسني وكمال الطويل ، انما هم جاءوا الي بعد نشر القصيدة في « روز اليوسف » ، ووافقت لأني وجدتها فرصة لتحية الفلاحين على اوسع نطاق عن طريق الاذاعة . واذكر وقتها ان المخرج الاذاعي وجدي الحكيم ابدى لي ملاحظة ان القصيدة ليست فيها كلمة عن « الريس » ، فقلت له انا اكتب عن الشهداء . فليستشهد وانا اكتب عنه .

كانت فرصة لا راحة اذان الفلاحين من اغاني تتحدث عن « صاحب القرار » و« بطل العبور » و« اسد الغابة » و « جيمس بوند » ... الخ .*

*** سجل في القاهرة عام ١٩٨٠ ونشر في « السفير » اللبنانية بتاريخ ١٩٨١/٦/٢١**

عبد الحميد حواس

ابراهيم منصور : الاستاذ عبد الحميد حواس .. الخبير بالمركز القومي للفنون الشعبية .. اليس ذلك هو الاسم الصحيح ؟ .

عبد الحميد حواس : نعم .. فالاسم الصحيح قريب من ذلك ..

ا. منصور : اذن ما هو الاسم الصحيح ؟ ..

حواس : نعم .. خبير بمركز الفنون الشعبية ، ورئيس قسم الأدب الشعبي بالمركز ..

ا. منصور : وما هي خبراتك في هذا الميدان ؟ معذرة ولكن الدافع وراء هذا السؤال هو ان نثبت للقراء احقيتك في التحدث في هذا الموضوع ... واعتقد ان اهتمامك بالأدب الشعبي يعود الى فترة بعيدة ... متى كان ذلك .. اعني متى بدا اهتمامك بالأدب الشعبي ؟ .

حواس : نعم فقد بدأ اهتمامي بالأدب الشعبي عقب تخرجي من الجامعة مباشرة ..

ا. منصور : ومتى كان ذلك ؟ .

حواس : عام ١٩٥٨ ...

ا. منصور : واظن انك خريج قسم اللغة العربية بكلية آداب جامعة القاهرة ؟ ...

حواس : نعم هذا صحيح ...

ا. منصور : الم يكن الأدب الشعبي من بين المواد التي درستها في الجامعة ؟ ...

حواس : لا .. فلم يكن هناك آنذاك مقرر منظم لهذه المادة ..

ا. منصور : ولم يكن هناك قسم للأدب الشعبي ايضا ؟ .

حواس : لا .. لم يكن هناك قسم للأدب الشعبي آنذاك .. بل انه لا يوجد حتى الآن قسم للأدب الشعبي في كليات الآداب ...

ا. منصور : هل هناك كرسي للأدب الشعبي اذن ؟ .

حواس : لا .. فقد الغت الجامعة نظام الكراسي ... وانما وجد استاذ للأدب الشعبي فقط ..

ا. منصور : ارجو ان تواصل اجابتك بشان خبراتك في هذا الميدان ...

حواس : نعم ... فقد بدأ اهتمامي بالأدب الشعبي - كما قلت - عقب تخرجي من الجامعة...وخاصة بعد ان اكتشفت ان الأدب الشعبي علم مستقل...له اسسه وقواعده واخذت اعلم نفسي عن طريق القراءة المتنوعة .. وبعضها باللغات الأجنبية .. وخاصة الانجليزية ..

ا. منصور : (معذرة .. ولكن هل درست الادب الشعبي دراسة منهجية ؟ ...

حواس : هذا هو ما كنت على وشك ان اتناوله ... فبعد ان اكتشفت ان الأدب الشعبي علم مستقل .. بدأ اهتمامي المنظم بقراءة الكتب الأساسية في هذا الميدان . ولما التحقت بالعمل في مركز الفنون الشعبية ... وبدأت اعمل عملاً ميدانياً ... وجدت انه لا بد من تدعيم قراءاتي السابقة بالخبرة العملية ... وهكذا اكتسب المرء بعض الصلات وقدراً لا بأس به من المعرفة .. كذلك فقد قمت بعدد من الرحلات العلمية المتنوعة ... منها زيارة الى رومانيا دامت شهرين ، زرت فيها المؤسسات الفلكلورية والمراكز والمعاهد المهتمة بهذه الدراسات ... وبعدها في عام ١٩٧٣، زرت فرنسا لمدة شهرين ، قمت اثناءها بدراسة النظم المتبعة في معهد العادات والتقاليد الشعبية هناك كذلك زرت متحف الانسان في باريس ، ودرسته دراسة جيدة ..

ا. منصور : كذلك زرت السودان كما اظن ؟ ...

حواس : نعم ... فقد ذهبت الى السودان بوصفي خبيراً ، وذلك لتأسيس مركز للدراسات الفلكلورية هناك ..

ا. منصور : ومتى كان ذلك ؟ .

حواس : لقد ذهبت الى هناك مرتين .. المرة الأولى كانت عام ١٩٧٦ ... والثانية عام ١٩٧٧ ... ومكثت في كل منهما عدة شهور ...

ا. منصور : وهل لك ، دراسات منشورة في مجال الادب الشعبي ؟ ...

حواس : نعم ... لي دراسات نشرت في مجلة « الفنون الشعبية » ، التي كانت تصدر في القاهرة ، وفي مجلة « التراث الشعبي » العراقية ، وفي مجلة « اقلام » العراقية ايضاً ... وفي عدد آخر من المجلات ...

ا. منصور : واعتقد انك ترجمت كتاباً في الأدب الشعبي ؟ ...

حواس : نعم .. ترجمت كتاب : « الفولكلور : قضاياه وتاريخه » تأليف سوكولوف ، وكذلك ترجمت كتاباً آخر - لا زال تحت النشر - للعالم الفولكلوري « بروب » اسمه : « مورفولوجيا الحكاية الشعبية » . كذلك حضرت عددا من المؤتمرات العلمية في بلدان مختلفة ...

ا. منصور : مثل ؟ ...

حواس : مثل المؤتمر الذي عقد في « هال » بانجلترا .. وكذلك ندوة الحكاية الشعبية التي عقدت في بوخارست ، كذلك الحلقة الدراسية التي عقدت بالقاهرة لدراسة المأثورات المشتركة ، بالاضافة الى ندوة الفولكلور العربي التي عقدت في بغداد .

ا. منصور : اعتقد ان هذا يكفي لاثبات اهليتك ، للتحدث في الموضوع الذي سوف

نتناوله ... واريد ان اسالك ، بوصفك خبيراً فيما يسمى بالفولكلور ... او بالثقافة الشعبية ... واعتقد انك تفضل التعبير الأخير .. أليس كذلك ؟ .

حواس : نعم .. انا افضل استخدام تعبير « الثقافة الشعبية » نظراً لما يثيره التعبير الأول من مشكلات ... وما ينتابه من غموض ...

أ. منصور : اعتقد ان لاختيارك هذا دلالة ما ... على اية حال ... واستكمالا لسؤالي ... فبصفتك قد درست الأدب الشعبي منذ تخرجك .. اي منذ نحو ٢٠ عاماً ... قضيتها وانت متفرغ لهذا الميدان ... وبوصفك ايضا قد زرت بلادا اجنبية لنفس الغرض .. هل تعتقد ان الثقافة الشعبية القائمة في مصر تنفصل انفصالاً تاماً عن ما يمكن تسميته بثقافة المؤسسة .. وانه لا توجد ثمة جسور تربط بين هاتين الثقافتين ؟ .. وهل هذا - في رأيك - امر طبيعي يحدث في بقية انحاء العالم ؟ .. ذلك انه يوجد في جميع البلدان - وبلا استثناء - ثقافتان : ثقافة رسمية ، وثقافة شعبية .. ولكن المقولة التي بنيت عليها هذه الحوارات التي اجريها ، تزعم انه نظرا لظروف تاريخية معينة ، فقد اصبح للثقافة الشعبية المصرية كيفية خاصة ... اي انها اصبحت تختلف اختلافا كيفيا عن الثقافة الرسمية ... ولا تصلها بهذه الثقافة اية جسور او قنوات للاتصال ... ما رأيك في هذا ؟ .

حواس : اعتقد ان هناك شيء من المغالاة في توصيف هذه الظاهرة ، ذلك انه من المؤكد ان هناك انفصالا بين الثقافتين ولكنه من المؤكد ايضا ان هناك جسوراً وقنوات للاتصال بين الثقافة الشعبية والثقافة الرسمية ..

أ. منصور : معذرة ولكنني اريد ان اوضح شيئاً .. وهو ان المقولة التي اشرت اليها لا تنكر وجود التاثرات المتبادلة ، وانما تنكر وجود اطار واحد مشترك يجمع بين الثقافتين : الرسمية والشعبية .. وتنكر ايضا ان نقاط انطلاقهما واحدة ، ما رأيك في ذلك ؟ ...

حواس : لا .. ليس هناك اطار واحد يجمع بين الثقافتين ... ونحن نواجه ، في عصرنا الحالي على الاقل، ثقافتين متميزتين الى حد كبير .. بل هائل ايضا ...

أ. منصور : اذن فالتمايز ليس تاما في رأيك ؟ وهل تعني ايضا ان هذا القدر الموجود من التمايز لا يمنع التاثير المتبادل ؟ ...

حواس : نعم .. ولكن ليس بمعنى اننا نواجه ثقافة من بلد آخر .. ولكن بمعنى ان هناك نوعا من العلاقة التاريخية التي جعلت من الممكن بقاء بعض الجسور بين الثقافتين ...

أ. منصور : معذرة ولكنني اعتقد انه لا بد لي ان اوضح ، ما اعنيه بالتاثير المتبادل بالضبط .. وسوف اضرب لك مثلاً عن ما اعنيه ... فهناك كثير من ما يمكن تسميتهم بمثقفي المؤسسة جذورهم شعبية ... بمعنى انهم وحتى مرحلة معينة في طفولتهم ، كان تكوينهم الثقافي باكمله مستمداً من الثقافة الشعبية ، وهم يحتفظون - حتى بعد التحاقهم بنظام التعليم الموحد وتخرجهم من الجامعات واشتغالهم بأمور الثقافة

الرسمية ـ ببعض بقايا الثقافة الشعبية التي تلقنوها في طفولتهم المبكرة ، والتي قد تنعكس على انتاجهم الثقافي الذي ينتمي الى الثقافة الرسمية ... هذا بالضبط ما اعنيه بالتاثير المتبادل ...

حواس : نعم .. هذا صحيح .. واجب ان اقول ان رؤيتي لهذه المسألة ترتكز على انني انظر الى الثقافة بوصفها بنية او بناء .. وان العنصر المهيمن فيما يمكن تسميته بالثقافة الرسمية .. يكمن خارج هذا التكوين الثقافي الذي يمكن وصفه بالمحلي او القومي .. الخ .. فقد دخلت عناصر هيمنت على البنية الثقافية ، بحيث احدثت فيها تغييرا ...

أ. منصور : اي ثقافة تقصد ؟ .

حواس : اقصد الثقافة الرسمية .. وكذلك بالمثل الثقافة الشعبية ، والتي انظر اليها بوصفها قد اصبحت بنية بها عناصر اساسية وعناصر مهيمنة ...

أ. منصور : وهل تختلف العناصر المهيمنة في كل من الثقافتين ؟ ..

حواس : نعم .. انها تختلف ...

أ. منصور : وهل هذه العناصر المهيمنة هي التي تحدث الاختلاف الكيفي ؟ ... هل هذا هو ما تعنيه ؟ ...

حواس : نعم .. هذا هو ما اعنيه وهي ما تصنع امامنا ظاهرة من نوع آخر تختلف عن الظاهرة الأخرى .. وذلك رغم تجاورهما ... ورغم العلاقات التبادلية القائمة بينهما ...

أ. منصور : معذرة ولكن هل تستطيع اثبات ما تقول ؟ .. اعني انني ـ شخصياً ـ مقتنع بما تقول .. ولكن معظم من اجريت معهم حواراً حول هذا الموضوع لا يوافقون على هذه المقولة ...

حواس : عظيم .. ولكن ذلك يتطلب ان نبدأ من المسائل الأولية .. ولنستهل ذلك بتحديد معنى كلمة « ثقافة » فالثقافة في منظوري ليست مجرد مجموعة من المعارف المنظمة .. بمعنى انه يتم تلقينها في المدارس .. وليست ايضا ما يسمى بالثقافة الرفيعة الخاصة بالصفوة ، اي الموسيقى والباليه .. وما الى ذلك ، فالثقافة ، في تقديري ، هي اساسا خبرة مكثفة ، وهذه الخبرة المكثفة تشكل ، في النهاية ، منظوراً للحياة وهذا المنظور ، بدوره ، يشكل السلوك ، اي مجموعة القيم التي يرتكز عليها سلوكنا ، وهذه القيم قد تكون قيماً معنوية ـ اي نظرتي الى الفن والجمال .. الخ ـ او فيما تنعكس على سلوكي نحو الاخرين ونوع علاقاتي الاجتماعية .. الخ .. هذا كله هو ما تعنيه كلمة الثقافة في تقديري ...

أ. منصور : ولكن الا توجد تعريفات اخرى لكلمة الثقافة ؟ ..

حواس : نعم ولكن التعريف الذي قلته هو ما استقرت عليه الدراسات العلمية الانسانية اي انه ليس مجرد فتوى او رأي فردي .. بل ان الدراسات العلمية الانسانية تأخذ بهذا الفهم الذي ذكرته .اما ما يتعلق بقصرها ـ اي الثقافة على الصفوة وما شابه ذلك..ذلك مجرد جانب من جوانبها .. اي من جوانب المنظور. وتأسيساً على ذلك ، يمكن ان ننظر الى بنية الثقافة الشعبية وسوف نرى ان رؤية الناس للعالم وسلوكهم وابداعهم يدور كله في محيط دائرة معينة

مستمرة ومتواصلة لها عمقها التاريخي .. وفكرة ان هذه الثقافة ـ اي الثقافة الشعبية ـ معزولة .. بمعنى انها مغلقة .. هي فكرة غير صحيحة وهناك العديد من الشواهد التي تثبت انتشارها وتواصلها افقياً .. بالمعنى الجغرافي ، ونحن لو اخذنا عنصراً من عناصر الابداع الشعبي .. مثل السيرة الهلالية .. فسوف نجد ان لدينا لهذه السيرة عدداً من النماذج المجموعة التي تمتد من العراق شرقاً الى المغرب غرباً ، ومن سوريا شمالاً الى جنوب السودان ، بل انه اكتشف مؤخراً أن السيرة الهلالية لا تزال تروى - وباحدى اللهجات العربية ـ في المناطق المحيطة ببحيرة « تشاد » وفي شمال غرب نيجيريا ...

أ. منصور : اعتقد ان مثل هذا الانتشار لا يتمتع به الأدب الرسمي .. اليس كذلك ؟ ...

حواس : نعم .. بالضبط .. اذن ففكرة انغلاق الثقافة الشعبية فكرة غير صحيحة .. بل انه على العكس فكلما استغرقنا في العمل الميداني .. وكلما تضافرت الايدي والجهود .. كلما اكتشفنا المزيد من المواد التي تثبت هذا التواصل على المستوى الأفقي ، من الناحية الجغرافية ، ومن التصورات الخاطئة ايضاً فكرة ان الثقافة الشعبية قد جمدت وتكلست عند مرحلة معينة وهو امر غير صحيح على الاطلاق فالثقافة الشعبية بطبيعتها متجددة ومتغيرة ، كما ان كل جيل يقوم باعادة فحص تراثه او مذخوره القومي ، ويعدله ، ويقوم باستبدال بعض العناصر القديمة وقد قام ذلك كله بتشكيل بنية الثقافة الشعبية القائمة حالياً ...

أ. منصور : اعتقد ان ما قلته الآن يدخل في اطار تجديد سمات الثقافة الشعبية ... وهي التواصل والانتشار الأفقي الجغرافي .. ولكننا نريد اولاً ـ كما قلت ـ ان نثبت وجود هذا الانفصال ـ الذي اشرت اليه ـ بين الثقافة الرسمية والثقافة الشعبية ..

حواس : نعم .. هذا صحيح .. ولكني كنت اريد ان اوصل النظرة الى الثقافة الشعبية . وبالنسبة للثقافة الرسمية ـ او ثقافة المؤسسة ـ فقد حدث ان دخلت عليها ـ وبقوة ـ عناصر مستغربة ، ادت الى اتخاذ النمط الغربي نموذجاً يحتذى ويقتض ويجدد القيم والمفاهيم وكمثال على ذلك نجد ان النموذج الغربي في الرسم التصويري ـ اي اللوحة ـ اتخذ معياراً ومقياساً باعتبار انه هو فن التصوير بمعناه الحقيقي وتجوهلت تماما ـ وهو ما يثبت الانفصال ـ كل الابداعات الفنية السابقة والحالية ...

أ. منصور : هل ذلك من باب الاحتقار في رأيك ؟ ...

حواس : ربما .. ولكن دعني اولاً اكمل كلامي . فقد دار ، ولا يزال يدور حتى الآن ، كلام كثير حول : هل عرف العرب المسرح ام لم يعرفوه ... ولا نجد في كل ما دار وما يزال يدور ـ وهو كثير الى اقصى حد ـ ادراكا لمبدأ الدراما ذاتها ... رغم ان القضية هي قضية الدراما وقضية التعبير الدرامي .. وليست قضية المسرح بشكله الأوروبي .. او شكله الايطالي المحدد بخشبة وستارة .. الى آخر هذه الصورة النمطية . وبالرغم من ذلك ، فقد كان النقاش يدور حول ما اذا كان العرب قد عرفوا خشبة المسرح ام لا ... وليس حول جوهر الدراما نفسه . وبالتالي فقد تجوهلت تماما التعبيرات الدرامية الموجودة في تاريخنا الأدبي .. والتي يراها القائلون بذلك

في حياتهم اليومية ولكنهم لا يعوها بسبب الغمامة النمطية التي تمنعهم من رؤية الأشياء بشكل صحيح . وكذلك الأمر في الأدب . فقد دار ، ولا يزال يدور جدال حول هل عرف العرب الأدب القصصي ام لم يعرفوه . ودخلنا في مماحكات حول ادب المقامة ، وهل هو ادب قصصي ام لا ...

أ. منصور : ولكنني اظن ان كل هذه المناقشات كانت تدور داخل اطار الأدب الرسمي .. وذلك بمعنى انه حين كان يثار التساؤل حول ما اذا كان العرب قد عرفوا المسرح ام لم يعرفوه .. فإن القائلين بأي من الآراء التي وردت في هذا الأمر لم يكن يخطر بذهنهم على الاطلاق ان يتحققوا من وجود مسرح شعبي ام لا .. او من وجود قصص شعبي او عدم وجوده ... وانما كانوا يبحثون في تراث المؤسسة الثقافي ... اي انهم كانوا يسألون : هل عرف زملاؤنا السابقون من مثقفي المؤسسة هذا النوع من التعبير الفني ام لا ... اما بالنسبة للناس فهؤلاء ـ بالنسبة الى مثقفي المؤسسة ـ غير موجودين اصلا ... وليس الأمر مجرد تجاهل او ما الى ذلك فقط ...

حواس : هذا صحيح .. ولذلك فقد نظروا الى الثقافة بشكل صفوي (اي قائم على وجود نخبة مثقفة) ... فبحثوا في التراث المدون ... والمدون باللغة الفصحى ايضا ... وذلك باعتبار انه وحده هو التراث العربي .. واخذوا يسألون : هل هناك مخطوطات مكتوبة كتبها مؤلفون معتمدون لدى الأجهزة الرسمية في هذا الميدان ام لا .. وانا اريد من ذلك ان ابين كيف تغيرت بنية الثقافة الرسمية ، وكيف وضعت لنفسها نموذجا ونمطا مختلفا تماما ...

أ. منصور : تقصد نموذجا في التفكير ؟ ... نموذجا منهجيا ؟ ...

حواس : لا .. اعني نموذجا للثقافة .. نموذجا لمفهوم الأشياء ... اي مفهوم الفن .. ومفهوم الأدب .. بل ومفهوم التحضر .. بمعنى ان التحضر يعني الحداثة ، والحداثة هي المدنية الأوروبية الغربية بالتحديد. واصبح هذا النموذج الغربي هو النموذج السائد في عالمنا الثقافي للحضارة والمدنية والرقي . وبالتالي فكل ما عدا ذلك يمثل التخلف ، ولذا فانه يتعين شطبه ، حتى نستطيع ان نبدأ سيرنا من جديد وفقا لهذا النموذج الغربي . وهذا هو ما احدث هذا الانفصال بين هذا التكوين الذي هيمن عليه هذا النموذج الغربي وبين التكوين الآخر ...

أ. منصور : ولكن هل يعني كلامك هذا ان هذا الانفصال يرجع فقط الى الفترة التي تم فيها اتصال مصر باوروبا بشكل مكثف ... اي منذ الحملة الفرنسية ؟ ...

حواس : لا ... والواقع ان مشكلة موضوعنا هذا ان له زوايا عديدة : وعلى اية حال ، فأنا ازعم ان هذا الانفصال قد حدث منذ ان انقسم المجتمع الانساني طبقيا . وبعد ان كانت هناك ثقافة موحدة للقبيلة او للجماعة .. وبعد ان كان الناس جميعا يتشاركون في المعرفة ... حدث تمايز نتج عن انقسام المجتمع طبقيا ... واصبحت هناك ثقافة للسادة ... وثقافة اخرى للمسودين ...

أ. منصور : ولكن حتى لا يحدث لبس او سوء فهم ... فإنني اقول انني لم اكن اعني في سؤالي هذا التمايز او الاختلاف الناتج عن الانقسام الطبقي .. ذلك انه يوجد في جميع المجتمعات بلا استثناء ما يمكن تسميته بثقافة المؤسسة او الثقافة الرسمية ،

ويوجد ايضا ما يمكن تسميته بالثقافة الشعبية . ولكنه يوجد ايضا ، في معظم هذه المجتمعات ، ما يمكن ان يكون اطارا واحدا يجمع بين هاتين الثقافتين . وما تزعمه المقولة التي يدور حولها حوارنا هو ان هذا الاطار الواحد غير موجود في حالة مصر ... اي ان وضعنا الثقافي الحالي في مصر يفتقر الى وجود هذا الاطار الواحد ...

حواس : نظراً لظروف سياسية واجتماعية نعرفها جميعا .. هيمنت افكار تتعلق بما هي الثقافة الرسمية . وما هي الثقافة التي تعتبر ذات قيمة . وقد اعتبرت اللغة العربية الفصحى انها المحك .. واعتبرت الأعمال المدونة بوصفها الأصل ...

أ. منصور : من الذي اعتبر ؟ اليسوا هم مثقفوا المؤسسة أيضا ؟ .

حواس : نعم .. وفرض هذا بحيث انه بمرور الوقت ـ ونحن لا زلنا نتحدث عن البنية الأساسية قبل حدوث عمليات الاختراق الخارجي ـ حدث هذا الانفصال .. واصبحت الثقافة العربية في المناطق المختلفة تعني ثقافة اللغة الفصحى ـ اي لغة قريش ـ ومدوناتها .. وكل ما يتصل بها من فكر وابداع فني . وبالتالي بدأت عملية الانقسام تتكرس وتتدعم ...

أ. منصور : ولكن هناك رايا ورد في الحوارات التي اجريتها يقول ان الناس ـ بسبب تكرار محاولات الاختراق والغزو الثقافي التي تعرضوا لها في مصر ـ قد بنوا حول انفسهم ما يشبه السور المحصن ومن يخرج من هذا السور لا يسمح له بالدخول اطلاقا مرة اخرى بمعنى ان من يتبنى الثقافة الرسمية اي من التحق بنظام التعليم الموحد يصبح غريبا ولا يعتبره الناس واحدا منهم وبالتالي لا يسمح له بالدخول الى ما وراء السور ذلك ان الناس يعتبرون هؤلاء مشاريع حكام ذلك ان مجرد دخول صغير ـ مهما كان اصله الاجتماعي والطبقي ـ الى المدارس الحكومية يجعله في نظر الناس مشروعا لحاكم اي لضابط شرطة او قاض او مهندس الخ .. وهذا السور هو الذي يوفر للناس الحماية في مواجهة محاولات الاختراق والغزو التي اشرت اليها .

حواس : الحقيقة انني اختلف معك في ذلك فأنا اعتقد اننا نعيش فترة تحول يختلف فيها « ميكانيزم » الأشياء.وهذه الصورة ـ التي اشرت اليها ـ اذ كانت تصدق على عهد مضى ، اي بالنسبة الى الجيل السابق فانها لا تصدق على الوقت الراهن ويجب ان ننتبه الى هذا الخطر جيدا ..

أ. منصور : ولكن الا تلاحظ انه بالرغم من شدة وقوة الهجمة الثقافية فان المظاهر التي ذكرتها هي مظاهر ضعيفة ولا تتناسب مع قوة هذه الهجمة ؟ .

حواس : ولكن الأمر لا يقتصر على ذلك ـ فبعد ان كان الانتماء يمثل ، في مجتمع القرية ، قيمة بالغة الأهمية وكان المرء يفخر بأنه ابن لهؤلاء الناس اصبح العكس هو السائد الآن واصبح المطلب الاساسي هو ان يقطع المرء صلاته بهم وربما كان للعوامل الاقتصادية دخل في ذلك ولكن .

أ. منصور : ليست العوامل الاقتصادية وحدها وانما هناك ، بالاضافة الى ذلك ان الناس لا تمنع احدا من تجاوز السور والخروج الى ما ورائه .

حواس : ولكن حين تخرج القرية باجمعها وتتجاوز هذا السور فهنا يصبح الامر خطرا .

أ. منصور : اعتقد انك تبالغ كثيرا فهناك مثلاً ، هذا الاحجام الملحوظ عن التعليم الرسمي وهي ظاهرة لا بد ان لها اكثر من سبب ولكن لا شك ان احد اسبابها هو محاولة حماية النفس والشك والتخوف وعدم الاقتناع الذي ينظر به الناس الى نوعية الثقافة التي تقدم في المدارس الحكومية .

حواس : اخشى ان يكون في ذلك مبالغة تمنعنا من رؤية الواقع كما هو .

أ. منصور : ولماذا لا تضع انت المسالة في حجمها الصحيح ؟ .

حواس : حسن .. ان القروي حين يخرج من قريته بل وحين يخرج من البلد كلها فانه يفعل ذلك وفق قيم وتوجيهات معينة غريبة عنه ووفق طموحات زرعتها فيه التكوينة الاجتماعية الجديدة التي تحثه ان يكون بورجوازيا صغيرا بكل ما يعنيه ذلك اي ان يجمع قدرا من النقود كي يفتح دكانا لبيع السلع الوسيطة الاستهلاكية او ان يكون مثله مثل التلاميذ الذين التحقوا بالمدارس الحكومية وهكذا فان نظرته الى الحياة تتغير تماما . اما مسألة العزوف عن التعليم بسبب الحماية او ما الى ذلك . فانني اقول لك انه ليس هناك اب لا يلحق ابناءه بالمدارس بسبب تخوفه من نوعية الثقافة التي تقدم في المدارس الحكومية اي ان ذلك استقراء مغلوط للواقع وانا اقول ذلك بحكم معاشرتي واحتكاكي الطويل بالجماهير بحكم عملي بل على العكس فإن الرجل الذي يلحق اولاده بعمل ما ولا يلحقهم بالمدارس يفعل ذلك - وهو يعلم - بوصفهم ادوات استثمار وانتاج .

أ. منصور : واليس الالتحاق بالمدارس نوعاً آخر افضل من انواع الاستثمار ؟ .

حواس : نعم .. هذا صحيح وهو يعرف ذلك ولكن للضرورة احكامها وهو يضطر ، بسبب دوافع اقتصادية الى اختيار هذا الاستثمار الاقل جدوى ولكنه يفعل ذلك مرغما وبرغم احساسه بأن الدنيا كلها تتغير من حوله وان باقي الناس يحسنون اوضاعهم بينما وضعه هو يزداد سوءا .

أ. منصور : ارجو ، اذا سمحت لي ، ان نتوقف شيئا ما عند هذه النقطة ولي ملاحظتان على ما قلته . الملاحظة الأولى هو انني لم ازعم ان الرغبة في الحماية هي السبب الوحيد في هذا العزوف عن التعليم وفي ارتفاع نسبة الأمية نحو ٨٠٪ وانما قلت انه سبب واحد من بين اسباب عديدة . وصحيح ان البعض قد يحجم عن الحاق اولاده بالمدارس بسبب عجزه المالي ، ولكن هناك ايضا من يفعل ذلك لانه لا يريد ان يصبح ابنه غريبا عنه وهو تخوف شائع جدا بين الطبقات الشعبية حيث تجد كثيرا من يقول لك انه لا يريد ان يصبح ابنه افنديا لا يستطيع ان يتفاهم معه . هذه هي الملاحظة الأولى اما الملاحظة الثانية فهي ان ما قلته كان يحدث في الواقع ، طوال التاريخ اعني ان محاولات الاختراق والتسلل ليست بالأمر الجديد بل انها لم تتوقف على الاطلاق طوال تاريخنا فقد كانت هناك دائما محاولات لاجتذاب ابناء الطبقات الشعبية واغرائهم بأن يكونوا خدما

ومعاونين للحكام بل ان قسما كبيرا من مثقفي المؤسسة كان دائما من ذوي الأصول الشعبية ، سواء في العصر الوسيط او في عصرنا الحديث ولكن ذلك لم يكن يؤدي الى تلك الاخطار التي اشرت اليها .

حواس : صحيح ان عمليات الاختراق او محاولات اقامة جسور بين الحكام وبين صفوة تتم غربلتها من داخل الطبقات الشعبية هو امر قديم ومستمر وانما نحن الآن نواجه في الواقع ظاهرة جديدة نتجت عن ان التغير الكمي ادى الى حدوث تغير كيفي بسبب الانتشار الواسع لأجهزة الاعلام الرسمية وعمليات الاستقطاب المكثفة كل ذلك قد احدث تأثيرا الى درجة انني -بوصفي اقوم باعمال ميدانية في مجال الفولكلور - اعتقد ان من اكثر الأمور التي تصيبني بالأسى هو ان هذا المبدع الذي تخرج من مكتبك كي تتعامل معه وتسجل ابداعاته تسجيلاً علمياً هو اول من يعبر لك عن الاحتقار تجاه ابداعه بل تراه يبدي استغرابه بل واستنكافه من ان يقوم « بيك » محترم يلبس نظارة طبية بتجشم كل هذه المشاق والسفر والترحال من القاهرة حاملاً كل هذه المعدات والأجهزة وذلك من اجل لقائه واجراء حوار معه الى آخر كل هذه البلاهات والخزعبلات في رأيه ..

ا. منصور : الواقع انه يوجد تفسير آخر لهذه الظاهرة .. واريد ان اعرف رأيك فيما يتعلق به . فانا ازعم ان الرجل الذي عبر لك عن اندهاشه او استنكافه هذا لم يكن صادقا فيما قال ... اعني فيما عبر عنه من استنكاف .. او ان تكون انت قد اخطات في استنتاجك .. ذلك أن السؤال الذي يوجهه لك هذا الرجل منطقي ومبرر تماماً .. اعني لماذا ، فـلان يعني « بيك » مثلك بالنزول من مجلسه فوق السحاب مع امثاله من الحكام ... لكن يهتم بالثقافة الشعبية ؟ .. ان ذلك لا يعني شيئاً سوى انك تحمل هدفاً معادياً ... وهو - كما تعرف - تعود أن لا يتوقع من الحكام القادمين من العاصمة شيئاً آخر غير الشر والأذى .. وليس فقط في ميدان الثقافة ... بل في الميادين الآخرى ايضا ...

حواس : من الأمور الأولية التي نتعلمها قبل النزول الى العمل الميداني .. هو أننا سوف نقابل بقدر كبير من الريبة .. وان هناك تراثاً طويلاً من الشك وعدم الثقة بين الموظف الحكومي - بكل أنواعه - وبين المواطن العادي ... أعني أن كل ذلك وارد - ولكنني لا أتحدث عن ذلك ... فذلك كله كان صحيحا قبل أن أنجح في اقامة علاقة انسانية وحميمة وطيبة معه .. وبعد أن يكون قد فتح لي باب قلبه .. واصبحنا نتعامل على أساس الصداقة والمصارحة .

ا. منصور : وما هي العلاقة او الاشارة التي تدلك على ان ذلك قد حدث ..

حواس : هذا جزء من الخبرات التي نكتسبها في عملنا هذا ...

ا. منصور : لا عليك .. إن سؤالي هو : ما هي الظواهر التي تؤكد لك أن هذا الشخص .. اي عضو الطبقات الشعبية هذا قد وثق بك ، وانه سوف يفتح لك قلبه وعقله معا ؟ ...

حواس : لا .. انك بذلك تضع الأمر في حده الأقصى ... ولكنني ، على أية حال ، ابن هذه

الثقافة الشعبية .. ولست أوروبيا أو أمريكيا ... وانما انا ابنهم .. ابن الطبقات الشعبية ..

أ. منصور : ربما يكون من الأدق ان نقول انك كنت كذلك ... هل توافق على ذلك ..؟..

حواس : انني ، على الأقل ، لا أزال أحاول أن أكون كذلك ...

أ. منصور : وأنت تعرف ان الطريق الى جهنم مرصوف ، كما يقولون ، بالنيات الطيبة .. أو ربما كان من الأنسب ـ بالنسبة اليك ـ أن نستشهد بهذا المثل الشعبي الذي يقول : .. تجري جري الوحوش .. غير رزقك لم تحوش ...

حواس : انني ، على أية حال ، لا زلت اعتبر نفسي ـ بشكل ما ـ ابنا لهذه الثقافة .. أي الثقافة الشعبية .. فأنا على معرفة بها .. كما اعرف ايضا ممارسوها .. الى حد ما .. كذلك فقد اصبح لدى الناس من الحس والوعي بحيث ان المرء منهم سوف يصدقني اذا لم يكن يريدني ...

أ. منصور : ولكنك تعرف ان اساليب الناس في الصد ليست واحدة .. وانما هي تختلف وفقا لطبيعة الشخص وتلوينه .. ولكنك ، في الواقع ، تثير نقطة هامة .. وهي ان بعض المثقفين ـ واقصد مثقفي المؤسسة ـ يتصورون ان من السهل ـ او من الممكن ـ خداع الناس ... فقد قال لي الدكتور يوسف أدريس ، مثلاً ، انه يكتسب ثقة الفلاحين لأنه يكلمهم بلهجتهم .. وانا اعتقد ان هذا شيء مضحك ...

حواس : بالقطع ... فإن ذلك لا يزيد عن أن يكون مجرد «فهلوة»... لن تجدي لأن ذلك سوف يكون كما لو أن مستشرقا يتحدث اللغة العربية .. ويتصور أن الناس لن تستطيع أن تتبين أنه أجنبي ...

أ. منصور : الواقع ان احدى المحطات الرئيسية في هذا المجال هو ما دفعك للقيام بما تقوم به .. أو لحساب من انت تعمل ... وبالنسبة لحالتك انت ، فإن دافعك هو ، ببساطة ، انك تؤدي مهام الوظيفة الحكومية التي تتقاضى عنها راتباً ... اي انك تعمل لحساب الحكومة .. وعند هذا الحد ينتهي الأمر بالنسبة لعضو الطبقات الشعبية الذي تحادثه ... ويكون حسم أمرك شيئاً بسيطاً مهما كانت درجة وثوقه بك انت شخصياً ... ومهما كان يقينه باخلاصك وامانتك ... فانت ـ وهو الأهم والأكثر دلالة ـ موظف حكومي تتقاضى راتبا من اجل ذلك من الحكومة .. وهو لا يثق بالحكومة ... على الاطلاق ...

حواس : ولكن الواقع ان عناصر وعوامل جديدة قد دخلت في الأمر .. نتيجة لتأثير اجهزة الاعلام ... فقد اصبح من بين العوامل التي تدفع عضو الطبقات الشعبية الى التعامل معك ... رغبته مثلاً ، في سماع صوته في الاذاعة ... او رؤية نفسه على شاشة التليفزيون .. أو أن يكتب عنه في الصحف .. الخ ..

أ. منصور : وأنت تعرف كيف ينظر الناس الى ما يسمعونه في الاذاعة .. او يرونه على شاشة التليفزيون أو يقرؤونه في الحصف .. إنهم ينظرون اليه على انه كذب صريح

خالص .. اذن ، فإنه في احسن الأحوال ، فإن عضو الطبقات الشعبية سوف يكذب لمجرد انه يتصور ان حديثه هذا سوف يذاع في الاذاعة او ينشر في الصحف .. وهو يراك تاتي حاملاً كل أجهزة التسجيل هذه اللازمة لعملك ـ بالاضافة الى بذلتك ونظارتك الطبية وربطة عنقك ـ فهل تعتقد ، انه سوف يخرق التقاليد الاذاعية الثابتة ويمتنع عن الكذب بالرغم من هذا كله ؟ .. والخلاصة انني اعتقد ان اية محاولة من جانبك ـ بوصفك موظفاً حكومياً ـ لكسب ثقة أحد اعضاء الطبقات الشعبية ، هي محاولة لا طائل من ورائها .. وتدخل في حكم المستحيلات .. وهذا ، بالطبع ، لا ينفي الإخلاص والأمانة التي تتميز بها محاولتك .. ولكن الأمر ، لسوء حظك ، لا يتوقف على الاخلاص ..

حواس : انني أسلم بصحة ما تقول بوصفه محاذير لا بد من مراعاتها من أجل انضباط العمل ... وهي كلها أمور لا بد أن يضعها المرء في اعتباره وهو يتعامل مع راو من الرواة .. أو وهو يرصد ظاهرة ما ...

أ. منصور : عظيم .. واعتقد اننا بذلك نكون قد فرغنا من هذه النقطة ... ولننتقل الآن الى نقطة أخرى .. فانا أريد ان أسألك ، عن رأيك في تأثر الثقافة الرسمية بالثقافة الشعبية ... وهناك من الظواهر ما يشير الى ذلك .. مثل اقامة مركز الفنون الشعبية الذي نجري فيه حديثنا هذا ... ومثل قيام بعض المطربات والمطربين بتشويه الأغاني الشعبية ... ومثل شيوع عدد من التعبيرات الكلامية وانماط السلوك التي كانت قاصرة على الطبقات الشعبية بين بعض اقسام الطبقتين الوسطى والعليا ... الا يدل ذلك من بعض جوانبه ، على حالة الضعف التي تعانيها الثقافة الرسمية في الوقت الحاضر ؟ ...

حواس : يا سيدي ... إن أحد انجازات البورجوازية ، بلا شك ، هو قيامها بدراسة الثقافة الشعبية .. واقامة مركز الفنون الشعبية هذا الذي نجلس به الآن .. هو أحد انجازات البورجوازية المصرية ...

أ. منصور : هذا صحيح بلا شك ... ولكن هذا الانجاز يحوي نقيضه ايضاً ... اذ ان هناك بلا شك عدداً ممن هم على شاكلتك يعملون في هذا المركز ... الذي اقيم طبعا بهدف استخدام الوسائل العلمية للسيطرة على الثقافة الشعبية .. واحكام قبضة الحكومة بالتالي على الطبقات الشعبية ... ولكن وجود امثالك في هذا المركز يؤدي الى « نزع سمة » ـ كما يقولون ـ او الى عدم تحقيق هذا الهدف ، على الاقل ، بالصورة المرجوة ..

حواس : لقد حيرتني ... فأنت تعاملني أحياناً بوصفي عميلاً للحكومة ضد الشعب ... وأحياناً أخرى تعاملني على أنني عميل للشعب ضد الحكومة ..

أ. منصور : انا لا علاقة لي بذلك ، فالطبقات الشعبية هي التي تعاملك بوصفك عميلاً يعمل ضدها لحساب الحكومة .. أما الحكومة فانها لا شك سوف تفصل من خدمتها فوراً من تشك في انه لا يعمل لحسابها ... وما اريد ان اقوله هو ان وجود امثالك

ممن يعون خطورة عمليات اختراق الثقافة الشعبية ... يؤدي الى عدم تحقيق هذه العلميات لأهدافها ... او عدم تحقيق اهدافها بشكل كامل على الاقل ... كذلك اريد ان اقول ان الشعب لا يدخل هذه المعركة الثقافية اعزل من السلاح ... ذلك ان الواقع ان الطبقات الشعبية تمتلك ترسانة تاريخية من الأسلحة الثقافية المضادة والدفاعية ...

حواس : لا أدري ... ولكني أود لو كنت متفائلا مثلك ...

أ. منصور : شكراً ، يا استاذ حواس .. على الرغبة .. وعلى الحوار ايضاً ..*

* سجل في القاهرة عام ١٩٨٠ ونشر في « السفير » اللبنانية ، بتاريخ ٢٨/٦/١٩٨١

عبد الحكيم قاسم

أ. منصور : ... الاستاذ عبد الحكيم قاسم ... الروائي المصري المقيم حالياً في برلين ـ الغربية ... قرات الحوار الذي اجريته مع الاستاذ السيد ياسين حول موضوعي الإزدواج الثقافي الفصامي والهوية القومية .. ولعلك لاحظت ان هناك تقارباً ملحوظاً بين المقولة التي قمت بطرحها على الاستاذ السيد ياسين وبين المقولة التي تضمنها البحث الذي تقدمت به انت الى ندوة الروائيين العرب التي عقدت في مدينة « فاس » في ديسمبر ١٩٨٠ ... والذي كان يدور حول طبيعة الثقافة العربية : هل هي ، في جوهرها ، رجعية ام تقدمية ... والواقع ان ذلك كان من بين الأسباب التي دفعتني الى ان اطلب منك اجراء هذا الحوار ... ذلك انه بالإضافة الى يقيني من اهمية المشكلة التي تطرحها هذه الحوارات .. فإن يقيني بالمقولة التي تدور حولها ليس كاملاً ... بل يمكن القول بانه لا يزيد عن ٥٠٪ ... الأمر الذي يجعل من طرح كافة وجهات النظر المتعلقة بهذا الأمر ضرورة حيوية ، وشرطاً جوهريا لاحراز اي تقدم نحو حل هذه المشكلة ...

... ومعذرة ، يا استاذ عبد الحكيم ، عن هذه المقدمة الطويلة بعض الشيء ...

ولتبدأ ـ اذا سمحت ـ بطرح وجهة نظرك في حواري مع الاستاذ السيد ياسين ...

ع . قاسم : .... في تصوري ان الحديث الذي كان يدور بينك وبين الاستاذ السيد ياسين كان يتسم بأنك تنطلق من منطلق محدد جداً ... وهو ان الثقافة الأوروبية قد اتخذت في مصر نوعاً من السيادة المطلقة .... الأمر الذي ادى الى ذبول ثقافتنا القومية الأصلية .. وانت ـ منطلقاً من هذا المنطلق ـ تحاول ان تأخذ إقراراً منه بوجهة نظرك هذه ... او تدعيماً لها . اما الاستاذ السيد ياسين ، فإنه يتحرك فكريا وسط محاذير معينة تمليها ، بالطبع ، الأوضاع المعروفة في مجتمعنا . ومن بين هذه المحاذير ، حذره ـ بوصفه عالماً اكاديمياً ـ من التعميم ورغبته في اعطاء المدلول المحدد للواقع المحدد . وذلك الى جانب محاذير اخرى كثيرة ... اعتقد انها معروفة ولا داعي لذكرها . وفي حدود ما قرأته من الحوار ـ الذي لم اقرأه بالكامل ـ فإنه في اعتقادي لم يقدم اجابات جديدة ، او انه كان يحوي ما يمكن ان نسميه كشوفاً ... وهي التي تتولد في العادة ... او بالأحرى التي يفترض المرء انه كان ضرورياً ان تتولد في حوار كهذا يدور

بين اثنين اعرفهما معرفة حميمة ... واحترم قدراتهما وامانتهما .... مما جعلني اتوقع ان تكون نتيجة هذا الإحتكاك بين السائل والمسؤول ... الوصول الى آفاق ابعد مما حدث ....

أ. منصور : ... ربما كان ما تقوله صحيحا .. يا عبد الحكيم ..

ع. قاسم : ... وهذا ـ في اعتقادي ـ لم يحدث . ولكن هذا لا ينفي ان الحوار تضمن الكثير من الكلام الجيد ... والكثير ايضاً من الأحكام الطيبة ... والكثير ايضاً ـ للأسف ـ من التعميمات ...

أ. منصور : ... السريعة ؟ ...

ع. قاسم : ... نعم ... الكثير من التعميمات السريعة التي تتسم بأنها مريحة وخطيرة أيضاً في آن واحد ... في تصوري ...

أ. منصور : .... هل تسمح باعطائنا بعض الأمثلة على ما تقول ؟ ...

ع. قاسم : ... نعم ... وبقدر ما تسعفني الذاكرة ... فقد استوقفني ، مثلاً ، تعبير « المثقف العربي » ... وهو تعبير يثير في نفسي كثيراً من الضيق . ذلك ان « المثقف العربي » في الواقع هو حالة ... او وضع نشـأ وتطور ... بشكل يجعل من المتعذر ان يكون لهذا التعبير دلالة ما ... وخاصة اذا ما كان التعبير بهذه البساطة التي تخل بالدقة .. وخاصة ايضاً اذا المثقف العربي ـ في الواقع ـ شيئاً اكثر تعقيداً وتركيباً من ذلك التعبير ...

أ. منصور : ... هل تعني ان ذلك التعبير يتجاهل الطبيعة الطبقية للمثقف ؟ ... اعني ان المثقفين ـ كفئة ـ ليسوا كلا متجانساً ... بل هم موزعون على الطبقات المختلفة وفقاً لأوضاعهم الإجتماعية ومعتقداتهم الفكرية ؟ ...

ع. قاسم : ... نعم ... بل ان هناك اختلافاً بين مثقفي الطبقة الواحدة ايضاً . والواقع كذلك ان المثقف ، في نهاية الأمر ، ليس مربوطاً ربطاً محكماً بطبقة معينة .. او بمجموعة معينة داخل طبقة ما . فالمثقف يمتلك تحرره الذاتي ، حتى وهو يعبر عن فكر طبقي معين ...

أ. منصور : ... وهل هناك مثلاً ....

ع. قاسم : .... فهذا مثل على ما ذكرته بشأن التعميمات السريعة ... وهناك أيضاً ...

أ. منصور : ... هل انتهى كلامك فيما يتعلق بهذه النقطة ، يا استاذ عبد الحكيم ؟ ... ذلك انني ـ اذا سمحت ـ اريد ان نتحدث اكثر حول هذا الأمر ...

ع. قاسم : ... كذلك فقد استوقفني رأي آخر ورد في حديث الأستاذ السيد ياسين ... حين قال انه لا ينظر الى الاستاذين توفيق الحكيم ونجيب محفوظ باعتبارهما يمثلان المثقفين العرب ... او باعتبارهما من ذوي التأثير على المثقفين العرب ... لأنهما في رأيه من الفنانين المبدعين . والواقع انه لا شك ان الفنان المبدع هو أحد صور المثقف العربي . واخراج الفنانين المبدعين من دائرة المثقفين ...

أ. منصور : ... معذرة لمقاطعتك ، يا استاذ عبد الحكيم ، ولكنني اعتقد ان الأستاذ السيد ياسين كان ، في الغالب ، يقصد المثقف بالمفهوم الأوروبي . ونحن اذا طبقنا هذا المفهوم الأوروبي للمثقف على من اصطلح على تسميتهم بالمثقفين العرب ، لاضطررنا الى

اخراج معظمهم من دائرة المثقفين ... ولما انطبق هذا المفهوم الا على عدد قليل منهم .. قد لا يزيد عن اصابع اليد الواحدة ...

ع. قاسم : ... في الواقع ... انا لا ادري ... ولكن في حدود معرفتي بالواقع الالماني ، فإن تعبير « انتليكتويل » (intellektuelle)بالالمانية وهي تقابل كلمة intellectual بالإنجليزية (والتي تعني : « المثقف » ـ أ.م) يشمل الفنانين ايضاً .. فهو يعني اولئك الذين يفوق نشاطهم الذهني نشاطهم اليدوي ...

أ. منصور : ... ولكنك تعرف ، يا استاذ عبد الحكيم ، ان هناك تعريفات اخرى ...

ع. قاسم : ... نعم هناك تعريفات اخرى ... ولكنني اتحدث هنا عن هذا الفهم الذي ذكرته . وهناك ايضاً داخل دائرة هذا المفهوم ، دائرة اخرى اكثر ضيقا ... وهي تضم اولئك الذين ينطبق عليهم مفهوم المثقف كما اشرت انت اليه ... وهؤلاء يطلق عليهم في اللغة الالمانية تعبير « جليرته » (Gelehrte)بالالمانية وهي تقابل بالإنجليزية كلمة Learned او Savant او Scholar (اي « ذو علم » او « حكيم » او « عالم اكاديمي » بالترتيب ـ أ.م) ... اي عالم ... او عالم فاضل ـ كما نقول ـ او عالم موسوعي . وهذا المصطلح معروف ومستعمل في اللغة العربية ....

أ. منصور : ... وهل يعود وصفك لتعبير « المثقف العربي » بالعمومية وعدم التحديد الى اعتقادك بأن المثقف المصري ـ مثلاً ـ يختلف عن المثقف العراقي او المثقف اللبناني ... الخ ؟ ....

ع. قاسم : ... نعم ... وانا هنا اوافق موافقة شبه كاملة على ما ورد في حديث الاستاذ السيد ياسين فيما يتعلق بوجود ما يمكن تسميته بـ « نمط المثقف العربي الشامل » ... اي المثقف القادر على التعبير عن الوطن العربي كوضعيه ، داخل مجمل الثقافات العالمية القائمة . وفي نفس الوقت ، وفي إطار نفس هذا التقسيم ، يمكن ان يكون للمثقف المصري لون اكثر خصوصية ....

أ. منصور : .... ولكن هذا ، بالطبع ، لا يمنع من وجود سمات مشتركة ؟ ...

ع. قاسم : ... نعم ... بدون شك ... ما دامت اللغة العربية هي لغتهم جميعاً ... وما داموا يتقاسمون نفس التراث ...

أ. منصور : ... كذلك بالإضافة الى تماثل منابعهم الفكرية ... او تشابهها على الأقل ...

ع. قاسم : ... نعم ... ولكن تعبير المنبع الفكري ... اعني انه لا يمكن التعبير عن الثقافة العربية ، بتاريخها الطويل ، بكلمة واحدة . فأنا لا اتصور ، مثلاً ، ان من منبعه «معتزلي» (نسبة الى فرقة المعتزلة ـ أ.م.) يماثل من منبعه ...

أ. منصور : ... لا ... لا .. انا لا اعني ذلك ، يا استاذ عبد الحكيم ... وانما كنت اعني ان المنابع الفكرية للمثقفين العرب ، بشكل عام ، تكاد تكون واحدة . اي ان الذين يجيدون اللغات الأجنبية منهم ، مثلاً ، يقرؤون نفس الأشياء تقريباً ، والذين لا يجيدون

لغة اجنبية .. يقرؤون ايضاً نفس الكتب المترجمة تقريباً ....

ع. قاسم : ... هذا صحيح .. ولكننا يجب ان نضع في اعتبارنا ، بالرغم من ذلك ، ان الثقافة العربية اكثر سعة وشمولاً من كل ذلك . ثم إن المرء ، في الواقع ، يختار لنفسه منبعاً فكرياً معيناً من داخل هذه الثقافة العربية الشاملة . هذا بالإضافة الى اختلاف شكل وطبيعة الرؤية للمنبع الفكري الواحد ، وفقاً لاختلاف الأشخاص ... اعني ان التنوع والإختلاف موجودان وقائمان . ولكننا ، في نهاية الأمر ، نستطيع ان نقول ان هناك ما يمكن ان نسميه بالثقافة العربية الواحدة والشاملة . ولكننا يجب ان لا ننسى في نفس الوقت ، ان المثقف لا يمكن سكه كما تسك العملة ... وان المثقف الواحد تختلف رؤيته باختلاف مراحل تطوره ونموه ...

ا. منصور : ... وهل تعتقد ، يا استاذ عبد الحكيم ، ان ما نسميه اليوم بالثقافة العربية يعبر بامانة عن الهوية القومية الأصيلة للشعب العربي ؟ ...

ع. قاسم : ... بدون شك .... ذلك لأن ....

ا. منصور : ... اعني ... هل منابع هذه الثقافة قومية ام اجنبية ؟ ...

ع. قاسم : ... آه .. انت تعني الثقافة العربية بوصفها حالة ... بمعنى انني عندما اتحدث عن الرواية .. او عن القصة القصيرة بالمعنى الموجود ... ذلك انه يقال اننا نقلنا شكل القصة القصيرة عن المجتمع .. او الثقافة الأوروبية . وانا لا اؤمن بصحة هذه المقولة على إطلاقها . ذلك ان هناك ظواهر فنية خاصة متعلقة بمجتمعات خاصة ، في مرحلة خاصة من مراحل نموها . اذن ، فربما استطعنا ، اذا اخذنا مشكلة القصة القصيرة ، كمثال ، ان نصل الى تصورات محددة بشأنها ...

ا. منصور : ... او مشكلة الرواية ؟ ..

ع. قاسم : ... نعم ... او مشكلة الرواية ، ولكن دعنا نتناول مسألة القصة القصيرة . فربما تكون اوروبا قد عرفت شكل القصة القصيرة قبلنا ، ولكن المهم هو اننا كتبنا القصة القصيرة عندما وصلنا الى المرحلة التي كان ينبغي فيها على مجتمعنا ان يعرف شكل القصة القصيرة .. وذلك من النواحي النفسية والسياسية والإقتصادية ... الخ ...

ا. منصور : ... الا تعتقد ان الأعمال الفنية التي ظهرت في مصر وسوريا وفلسطين في العصور الوسطى - وبالذات في عهد سلاطين المماليك - يمكن اعتبارها اعمالاً قصصية ؟ ... او بعبارة اخرى ... الا يمكن اعتبار عمل فني مثل « الف ليلة وليلة » عملاً روائياً ؟ ...

ع. قاسم : ... سوف نصل الى ذلك لو اننا تتبعنا هذا المثل ، ولو بشكل سريع .. نعم .. سوف نصل الى حلول لكل هذه المشاكل ...

ا. منصور : ... انا لا افهم ما تعنيه ، يا استاذ عبد الحكيم ...

ع. قاسم : ... اعني ان الإجابة على سؤالك الاخير هذا سوف تأتي حتما ، ودون ان نضطر الى ابتسار المسألة التي نتناولها . وانا أقول انه لكي يتمكن المرء من نقل صورة ادبية .. او شكل ادبي من مجتمع آخر ، فلا بد ان تكون لديك القدرة ، اصلاً ، على استيعابه وفهمه .

ولذلك فإننا لم ننقل شكل القصة القصيرة من الغرب الا بعد ان اصبحنا قادرين على فهمها ...

ا. منصور : ... تعني حين وصلنا الى مرحلة القدرة على الفهم ؟ ...

ع. قاسم : ... نعم .. لا ... لا....

ا. منصور : ... ماذا تعني إذن ؟ ... فالواقع ان ذلك هو ما فهمته من كلامك ...

ع. قاسم : ... يجب ان يسير الحوار على راحته .. وبدون تسرع او عجلة ...

ا. منصور : ... لا باس بذلك ... كما تريد يا استاذ عبد الحكيم ...

ع. قاسم : ... اريد ان اقول انه لمّا يكون هذا المجتمع ... بمعنى توفر الذكاء الخاص ... ـ ولا اعني هنا الذكاء الخاص بالمعنى العنصري ، وانما اعني ان احد الطرق التي يتبعها مجتمع ما من اجل التعبير عن مشاكله القائمة تستلزم استخدام طرق جديدة وفقاً لمرحلة نموه . فمجتمع المدينة المصرية ، على سبيل المثال ، كان مجتمعاً مصنوعاً وفق النمط الغربي تقريباً ... فالمصنع هو نفس المصنع ... والإدارات الحكومية هي نفس الإدارات الحكومية ...

ا. منصور : ... ونظام التعليم ؟ ...

ع. قاسم : ... ونظام التعليم ايضاً كان هو نفس نظام التعليم . اذن ، يمكن ان نقول ان مجتمع المدينة هذا هو مجتمع ... منشق .... او مشتق من المجتمع الغربي ....

ا. منصور : ... تعني انه مجتمع .. « باستارد » Bastard [أي ابن زنا ـ أ. م.] ؟ .. بمعنى ان منابعه الفكرية والحضارية توجد خارجه ، ولا تنبثق من داخله ؟ ....

ع. قاسم : ... لا .. ليس تماماً ... انا اعني ان هذا المجتمع كان اشبه بصورة انشئت على أصل اجنبي . وبطبيعة الحال ، فإن الصورة تظل دائماً صورة . وقد استطاع المجتمع المصري ، في مرحلة ما ، ان يقرأ القصة القصيرة ... وان يترجم نماذج متعددة منها ...

ا. منصور : ... وما كنه هذا النموذج ؟ ...

ع. قاسم : ... لحظة واحدة ... لحظة واحدة ... وما يحدث عادة هو ان الأمر يبدأ بترجمة عدد من القصص القصيرة .. ثم بدأ الكتاب المصريون يكتبون القصة القصيرة ... ونذكر ، على سبيل المثال السريع ، « رشاد رشدي » ، الذي قدم مواصفات للقصة القصيرة ... كي يتبعها الكاتب الذي يريد كتابة هذا النوع من الأجناس الأدبية . وبطبيعة الحال ، فإن « رشاد رشدي » قد قرأ الأدب الغربي .. ولخصه ... وهو يدعو الكتاب المصريين الذين يريدون كتابة القصة القصيرة ان يكتبوها وفق هذه المواصفات ...

ا. منصور : ... عظيم ، يا استاذ عبد الحكيم ...

ع. قاسم : ... لحظة واحدة ...

ا. منصور : ... تفضل ... ولكنني ارجو ان تسمح لي ان الفت نظرك الى ان من حقي ان اقاطعك ... وذلك حتى لا تسترسل في الكلام .. بحيث يتحول الحوار الى محاضرة تلقيها انت ... تفضل ...

ع. قاسم : ... لا بأس ... ولكن ما يحدث هو انك عندما تسأل سؤالاً اظن ان الإجابة عليه سوف تأتي في سياق كلامي .. فإنني اواصل الحديث .. وهكذا ...

أ. منصور : ... عظيم ... اتفقنا إذن ...

ع. قاسم : ... نعم ... ان ما يحدث هو ان القصة القصيرة ... اعني ان المسألة تكمن في الثنائية القائمة في مجتمعنا . فعندنا مدينة - وصفتها انت بأنها بنت زنا - توجد جنبا الى جنب مع ريف يقوم بمهمة الحفاظ على الثقافة القومية ، عن طريق النقل ، وهو لا يطورها لأنه - هو نفسه - مجتمع لا يتطور . وهذا المجتمع الريفي يرفض - في نفس الوقت - ثقافة المدينة بشكلها القائم ...

أ. منصور : ... اعتقد انه يرفض ثقافة المدينة من اجل حماية ثقافته القومية ...

ع. قاسم : ... نعم ... انا اتفق معك في هذا التفسير . ولكن القضية هي ان المدينة ، رغم كونها بنت زنا ، الا انه يظهر فيها - من آن لآخر - فنان يحاول ان يتعايش مع هذه المدينة - كما يحاول كل الفنانين القادمين من القرية - ولكنه في نفس الوقت يحتفظ ، داخل نفسه ، بجزء من هذه القرية التي قدم منها . وهذا التفاعل البطيء بين هذا اللون الفني - الذي قلنا اننا قد نقلناه عن اوروبا - وبين اللون الفني القائم في المدينة ، تدخل عليه تعديلات ، بحيث تصبح للقصة القصيرة سمات مختلفة . واستطيع ان اؤكد تماماً ان للقصة القصيرة التي يكتبها جيلنا سمات تختلف عن سمات القصة القصيرة التي كانت تكتبها الأجيال التي سبقتنا ، كما تختلف ايضاً عن سمات القصة القصيرة كما تكتب حالياً في اوروبا . ولكن ما حدث هو ان هذه العملية قد عوّقت ...

أ. منصور : ... اية عملية ؟ ...

ع. قاسم : ... عملية ان تصبح القصة القصيرة مصرية مائة في المائة ...

أ. منصور : ... اعتقد ، يا استاذ عبد الحكيم ، انه قد يكون من الافضل لو انني سألتك سؤالاً محدداً ... ولنبدأ بان اسأل عن ما هي ، في رأيك ، المصادر او المنابع التي يعتبرها الكتاب والفنانون المصريون - وبغض النظر عن اختلاف اجيالهم - منبعاً لإبداعهم الفني ؟ وما هو النموذج ، في اعتقادك ، الذي يضعه هؤلاء الكتاب امامهم عندما يشرعون في عملية ابداعهم الفني ؟ ... واعني : هل هو نموذج قومي ام اجنبي ؟ ...

ع. قاسم : ... لو انك طبقت ذلك على فنان لم يزل في بدء حياته الفنية ...

أ. منصور : ... يا استاذ عبد الحكيم .. لقد سألتك سؤالاً محدداً .. كي احظى باجابة محددة على سؤالي .. وليس على سؤال خطر بذهنك انت .. !! .. ولذا فانا أرجوك ان تجيب على سؤالي هذا - الذي هو عام يشمل جميع الأجيال كما اشرت - ثم بعد ذلك لك ان تجيب على اي سؤال يحلو لك ...

ع. قاسم : ... ان القضية هي ان منبع اي فنان هو حياته اليومية . أما الثقافات التي يتيسر له الإلمام بها ، فإنها تمثل الخبرة التي تعلمه كيف يصوغ هذه الحياة اليومية ...

أ. منصور : ... وما هي جنسية هذه الخبرة ؟ ...

ع. قاسم : ... هذه الخبرة ... هي ، أصلاً ، خبرته العربية القديمة ... هذا هو المفروض ...

أ. منصور : ... يا استاذ عبد الحكيم ... انا اسألك عما يحدث فعلاً ... وليس عن ما

يفترض ان يحدث ....

ع. قاسم : ... ان ما يحدث بعد ذلك هو عملية قهر صغيرة لخبرته الأولى .... فانا - وسوف اضرب مثلاً بنفسي - خبرتي اليومية بهذا الشكل ... وانا اقرأ « ابو زيد الهلالي » و« الف ليلة وليلة » ... الخ . ولكنني - نتيجة لنمط معين من التعليم ، ونتيجة لأنني أُلقن باستمرار ان الصورة الأمثل هي احدى الروايات التي كتبها كاتب غربي ... وهنا توجد حادثة مهمة جداً ...

أ. منصور : ... اكمل الجملة اولا ، يا استاذ عبد الحكيم ...

ع. قاسم : ... يحدث - نتيجة لهذا التلقين اليومي المستمر - ترسيب في وعي الكاتب بأن تجربته لن ينقلها بشكل فعال الا الشكل الأوروبي ... وتكون النتيجة ان يكتب الكاتب تجربته الريفية في شكل رواية اوروبية . وهنا يكمن الخلل الذي يحسه المرء دائماً وانت تتذوق العمل الفني ، بعد فترة طويلة . وتحضرني هنا حادثة ذات دلالة هامة فيما يتعلق بحوارنا هذا ، فقد قام طه حسين بترجمة عمل روائي لكاتب فرنسي ، غاب عني اسمه آلان ، وارسل هذه الترجمة الى المؤلف ، فرد عليه هذا برسالة يشكره فيها على ما بذله من جهد ، ويعبر فيها ، في نفس الوقت ، عن دهشته لاختيار طه حسين لهذه الرواية بالذات ، وهي التي تتناول قضية الكثلكة (اي المشاكل المتعلقة بالمذهب الكاثوليكي المسيحي - أ. م) في المجتمع الفرنسي ...

أ. منصور : ... لا بد انك تقصد رواية « الباب الضيق » لـ « موریاك » ...

ع. قاسم : ... نعم ... بالضبط ... وهذه هي القضية ... على الرغم من ان هذا المثل قد لا يكون دقيقاً تماما ... اعني ان القضية هي انك تتعامل مع ثقافة ووسائل اعلام تؤكد لك طيلة الوقت ان اعلى صور الفن ... هي الشـكل الفني الغربي ...

أ. منصور : ... عظيم .. يا استاذ عبد الحكيم ...

ع. قاسم : ... ويثير ذلك قضية هامة وخطيرة جداً .. فعلى الرغم من انني لا امتلك الخبرة الكافية لإصدار احكام تتعلق بالموسيقى ... فإنني اعتقد ، مثلاً ، ان السيمفونية - بوصفها احد اشكال التأليف الموسيقي - هي تطوير للألحان الأوروبية الأولى ...

أ. منصور : ... هي تطوير ، كما اظن ، للألحان الكنسية القديمة ...

ع. قاسم : وكذلك بالمثل ، فلو ان الألحان العربية القديمة كانت قد تطورت ... لكان قد تم تخليق شيء آخر .. ليس هو السيمفونية ...

أ. منصور : ... مرة اخرى .. اظن ان هذا ليس هو ما سألتك بشأنه ، يا استاذ عبد الحكيم ، ولكنني اظن - برغم ذلك - ان إجابتك هذه تعني انك تتفق معي على ان المثقف العربي - والمصري خاصة - يقف موقف الإنسحاق من الإبداع الفني الأوروبي .. ومن الفكر الأوروبي ايضاً ...

ع. قاسم : ... نعم ...ولكنـني اتحفظ شيئاً ما على تعبير « موقف الإنسحاق » . ذلك اننا يجب ان نحذر جداً عند استخدامنا للغة . ذلك أن وقوف المرء موقف الإنسحاق يكاد ان يعني العمالة ... والقضية ...

أ. منصور : ... لا ... انا لا اقصد ذلك بالطبع ... فانا اعني بالوقوف موقف الإنسحاق ان يصل الإنبهار الى الحد الذي لا يستطيع فيه المرء ان يرى شيئاً بغير عيون هذه الثقافة التي وقف امامها موقف الإنسحاق ...

ع. قاسم : ... نعم ... ولكنني اعتقد ان مثل هذا المرء يظل يرى الثقافة الأخرى ـ التي نبذها ـ ولكنها تبقى مكبوتة . ويشبه ذلك الى حد كبير ما يفعله العامل المصري حين يرتدي صديريا فلاحياً تحت بذلته الإفرنجية ، وبحيث تخفي هذه البذلة وجود الصديري ، الذي يظل موجوداً بالرغم من ذلك . وهذا ما يحدث لنا جميعاً في الواقع . اذ اننا نبقى قرويين في داخلنا ... بالرغم من خارجنا الأوروبي ...

أ. منصور : ... ولكن المهم هو ما يراه الناس : اهو الصديري ام البذلة ؟ ...

ع. قاسم : ... البذلة التي اذهب بها الى عملي ...

أ. منصور : ... تماما ...

ع. قاسم : ... نعم .... البذلة التي اذهب بها الى عملي .

أ. منصور : ... نعم ... اما الصديري فهو بالداخل ... ولكي تصل اليه .. يجب ان تشق طريقك بفأس ... او ربما بمقص ...

ع. قاسم : ... وانت حين تذهب الى المدرسة الإبتدائية ، فإنك تتلقى تعليماً على النمط الأوروبي .... ولكن الأمر ....

أ. منصور : ... ولا تنسى ، يا استاذ عبد الحكيم ايضاً ، هذا الإعجاب الشائع بالنموذج الأوروبي ... وخاصة بين افراد الطبقة المتوسطة المصرية ...

ع. قاسم : ... كذلك فإن من القضايا الهامة ايضاً ، ان التعليم الأزهري الذي كان موجوداً كان تعليماً ...

أ. منصور : ... على النمط الأوروبي ....

ع. قاسم : ... ولكنه كان تعليماً دينياً صرفاً ... اي تعليماً عربياً صرفاً ...

أ. منصور : ... وما اهمية ان يكون التلقين باللغة العربية ... اذا كان المنهج والرؤية اوروبيان ؟ ... وانت تعرف ماذا فعل المرحومان الشيخ محمد عبده ، والشيخ مصطفى المراغي بالأزهر ... والدور الهام الذي لعباه في عملية تغيير مناهج التعليم في الأزهر الى النمط الأوروبي ... وناهيك بالتغير الهائل الذي حدث في الأزهر في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ... بحيث ان التعليم في الأزهر الآن يكاد ان يكون نسخة كربونية من التعليم الأوروبي ... مع التشويه الحتمي الراجع للإفتقار الى الكفاءة ...

ع. قاسم : ... ولكن القضية الهامة ، في رأيي ، هي طبيعة التقييم الإجتماعي لخريجي الأزهر . ذلك ان الأزهري يظل ـ حتى ولو اشتغل بتدريس اللغة العربية في المدارس الثانوية ـ معتبراً في مرتبة اقل من الناحية الإجتماعية ... بل قد يطلب منه التخلي عن زيه الأزهري واستبداله بالزي الأفرنجي ....

أ. منصور : ... ولكن ما هي اهمية الملابس بالنسبة لهذا الموضوع ؟ ...

ع. قاسم : ... لا ... ليست المسألة مسألة ملابس ، وانما هو الرمز الاجتماعي الذي تمثله ... فالزي الأزهري - وهو زي يمكن ان نعتبره زياً قومياً - يوضع في مرتبة اقل من الزي الإفرنجي الأوروبي ...

ا. منصور : ... نعم هذا صحيح .. واظن ان ذلك يعود الى حقيقة انه عقب الاحتلال البريطاني لمصر في عام ١٨٨٢ ... بل ان الأصح ان نقول عقب الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٩... شاع ما يمكن ان يكون نوعاً من الإزدراء لما يسمى بالتراث الثقافي العربي ...

ع. قاسم : ... نعم ... انا اتفق معك في ذلك ... بل ان الواقع ، ان نابليون لم يحدث اي تطوير في نظم التعليم التي كانت قائمة في مصر ... بل على العكس ، فقد قام باغلاق جميع الكتاتيب التي كانت موجودة في مصر آنذاك ... وكان عدد هذه الكتاتيب هائلاً ... وكل ما فعله نابليون هو انه فتح عدداً قليلاً من المدارس التي تسير على النمط الأوروبي ... والتي كان الهدف منها تخريج موظفين حكوميين ...

ا. منصور : ... اعتقد ، يا استاذ عبد الحكيم ، انك تقصد ما فعله « دنلوب » (المستشار الإنجليزي لنظارة المدارس في السنوات الأولى للاحتلال الإنجليزي في مصر - ا. م.) بنظم التعليم في مصر في عهد الاحتلال الانجليزي ... اما ما حدث في عهد الحملة الفرنسية ، فقد كان انبهارا شديداً ، من جانب المثقفين المصريين ، بالثقافة الأوروبية وبالقوة العسكرية الأوروبية التي اوقعت بالمماليك مثل هذه الهزيمة الساحقة وحين يقرا المرء كتاب عبد الرحمن الجبرتي « عجائب الآثار » ، فإنه يلحظ بوضوح مدى انبهار الجبرتي وانبهار استاذه ايضاً « حسن العطار » - بالثقافة الأوروبية وبالقوة الأوروبية ... وهو انبهار افقده القدرة على الرؤية الواضحة او الفهم السليم . ولا أدل على ذلك من رد فعل الجبرتي إزاء تجربة البارود في معمل البعثة العلمية الفرنسية حين قام بزيارته ، هذا في حين ان البارود كان معروفاً تماما في منطقتنا قبل ذلك بنحو ٣٠٠ عام ... كما استخدم على نطاق واسع في معركة مرج دابق التي دارت بين العثمانيين وبين السلطان المملوكي « قنصوه الغوري » . والسؤال الذي تثيره هذه الحادثة هو : كيف عجز الجبرتي - وهو الرجل الذي اشتغل ، هو ووالده ايضاً ، بالعلوم الطبيعية - عن ادراك ان هذه المادة ، التي رآها في معمل البعثة العلمية الفرنسية ، هي مادة البارود التي لا بد انه كان يعرفها جيداً ؟ ....

ع. قاسم : ... ولكن الجبرتي لم يكن يعمل في ترسانة المدافع..

ا. منصور : ... ولكنه كان يشتغل - كما قلت - بالعلوم الطبيعية ...

ع. قاسم : ... ولكنه لم يكن له - في نهاية الأمر - خبرة بالبارود - والا لقال انه يعرفه .. فلم يكن هناك ما يضطره الى الكذب ...

ا . منصور : ... انا لم اقل انه كان يكذب ...

ع. قاسم : ... انا لا اقول ... اعني ان الإنبهار هو مرحلة اولى من مراحل الفهم . ونحن

اذا لاحظنا العملية التي تمت في وجدان الشعب المصري ، لوجدنا ان الشعب المصري قد انبهر بهذه التجربة ، ولكنه قاومها بعد ذلك ...

أ. منصور : ... نحن هنا لا نتحدث عن الشعب ، يا استاذ عبد الحكيم ، وانما نحن نتكلم عن فئة المثقفين ... او عن فئات الطبقة الوسطى ، اذا شئت ...

ع. قاسم : ... وهناك ايضاً ، من بين فئة المثقفين ، من وقف موقف المعارضة من الحملة الفرنسية ...

أ. منصور : ... وحتى اذا افترضنا جدلاً ان ما تقوله صحيح ... فماذا كانت النتيجة ؟ ... النتيجة ان ما حدث كان تمهيداً لما اعقب ذلك . فحين سافر « رفاعة رافع الطهطاوي » الى باريس ، بوصفه واعظا دينياً لأول بعثة علمية يرسلها « محمد علي » الى فرنسا ، عاد من اقامته هناك كي يكتب كتابة الشهير : « تخليص الإبريز في وصف باريز » ، الذي دعا فيه ، بوضوح وصراحة ، الى تبني الثقافة الأوروبية .. وطريقة الحياة الأوروبية ـ وان كان تعبيره عن ذلك بشكل غير مباشر فيما يتعلق بالنقطة الأخيرة ـ ونظم الحكم الأوروبية ايضا ـ والا لما كان هناك داعي لأن يقوم بترجمة الدستور الفرنسي ترجمة كاملة . وقد كان ذلك بمثابة القطرة التي يعقبها السيل المنهمر ، فما ان جاء عام ١٨٨٢ ونجحت الحملة العسكرية الانجليزية في هزيمة احمد عرابي باشا واحتلال مصر ، حتى اصبحت الأغلبية الساحقة من المثقفين المصريين تؤمن بما دعا اليه رفاعة رافع الطهطاوي ...

ع. قاسم : ... ولكن لم يكن موقع « رفاعة رافع الطهطاوي » من الثقافة الفرنسية هو نفس موقع المثقفين المصريين من الثقافة الإنجليزية بعد ذلك .

أ. منصور : ... نعم ، لا شك في ان انبهاره كان اقل من انبهار المثقفين المصريين ، بعد الإحتلال الإنجليزي ، بالثقافة الغربية ...

ع. قاسم : ذلك أن « رفاعة رافع الطهطاوي » ذهب الى فرنسا كي يتعلم مع زملائه ، ثم يعودوا الى مصر كي يساهموا في انشاء الجيش المصري ...

أ. منصور : الواقع انه ـ كما سبق لي ان اشرت ـ ذهب الى فرنسا بوصفه واعظاً دينياً ملحقاً بالبعثة العلمية المصرية ...

ع. قاسم : ... نعم ... ولكن أعضاء البعثة التي كان ملحقاً بها ذهبوا الى فرنسا .. كي يعودوا للعمل كضباط في الجيش ....

أ. منصور : ... هل تسمح بإيضاح اهمية ذلك ؟ ...

ع. قاسم : ... اي ان اعضاء البعثة ذهبوا الى فرنسا للإلتقاء بالثقافة الغربية بقدر من الندية ...

أ. منصور : معذرة ، يا استاذ عبد الحكيم ، ولكن ما قلته يبدو غامضاً بعض الشيء ، على الأقل بالنسبة لي ... ذلك انه يبدو لي انه لو كان الأمر كما تقول .. اي لو كان هناك هذا القدر من الندية الذي تشير اليه ، لتلقي اعضاء البعثة تعليمهم في بلادهم ، ولما

كان هناك ما يدعو « محمد علي » الى ان يتكلف كل هذه النفقات كي يرسل هذه البعثة ، والبعثات التي تلتها ، الى فرنسا ...

ع. قاسم : ..لا ... ان هذا لا يعني ذلك ... اقصد ان اقول انهم (اي الفرنسيين - أ. م.) لم يكونوا محتلين ... ولم تكن مصر مستعمرة فرنسية ... اي انهم ذهبوا الى فرنسا بوصفهم مواطنين من أمة مستقلة ...

أ. منصور : ... الا تعتقد ، يا استاذ عبد الحكيم ، انك بذلك تتجاهل الخلفية التاريخية التي ارسل « محمد علي » في ظلها هذه البعثة الى فرنسا ؟ ... ففي ذلك الوقت ، كانت اوروبا قد بلغت درجة عالية من القوة العسكرية ... وكانت على اهبة دخول المرحلة الإستعمارية . وقد كان « محمد علي » على معرفة تامة بهذه القوة الأوروبية ...

ع. قاسم : ... ولكن « محمد علي » كان من كبار ضباط الحكومة العثمانية ... وكانت الدولة العثمانية ، في ذلك الوقت ، احدى القوى العظمى في العالم ...

أ. منصور : ... وهل يتفق ذلك مع اللقب الذي عرفت به وهو « الرجل المريض ».. والذي اطلقته القوى الأوروبية على الدولة العثمانية ؟ .. وناهيك ، بالإضافة الى ذلك ، الى سلسلة الهزائم الساحقة التي الحقها جيش الفلاحين المصريين الوليد بجيوش هذه القوة الدولية العظمى ... كما تسميها ...

ع. قاسم : ... نعم ... ولكنني عندما أقارن وضع مصر كمستعمرة (لم تكن مصر ابداً مستعمرة انجليزية من نــاحية القانون الدولي . فقد تم التدخل العسكري الإنجليزي بدعوى مساعدة الخديوي توفيق على قمع « تمرد » عرابي باشا . ثم تحدد وضع مصر القانوني في عام ١٩١٤ ، عندما اعلن وضعها تحت الحماية الإنجليزية - أ. م.) ترزح تحت نير الإستعمار الإنجليزي ، وبين وضعها في عهد محمد علي ....

أ. منصور : ... لا شك ان الوضع مختلف من الناحية الواقعية ... اما من الناحية الرسمية فقد كان الوضع اكثر سوءاً في عهد « محمد علي » .. حين كانت مصر جزءاً من أملاك الدولة العثمانية ...

ع. قاسم : ... على أية حال ، فلا شك ان « رفاعة رافع الطهطاوي » كان يكتب دون عُقَد ، كما كان يكتب عن ثقافة يقف ازاءها موقف الند ...

أ. منصور : ... ولكن ما يهمني هنا هو ما انتهى اليه في كتاباته هذه ... التي كتبها دون عُقَد ... اي ان ما يهمني ، فيما يتعلق بموضوع حوارنا ، هو ما كان « رفاعة الطهطاوي » يدعو اليه ...

ع. قاسم : ... لقد كان يدعو الى تعليم الناس ... ونحن نعرف ان لهذه القضية ، في الواقع جذور اسلامية عميقة جداً ...

أ. منصور : ... ألم تكن دعوة الطهطاوي الرئيسية هي اقتباس الأنظمة السياسية الأوروبية ؟ .. وألم يكن رأيه ان العالم الغربي عالم متحضر ... وانه اذا كانت مصر تريد التقدم والحضارة ، فإن السبيل الوحيد امامها لتحقيق ذلك هو اقتفاء اثر اوروبا ؟ ...

ع. قاسم : ... لقد نقلت الدولة الأموية نظام محتسبي السوق ، وقوانين الموازين ... الخ من الأنظمة التي وضعتها الإمبراطورية الرومانية لحكم الشام ...

أ. منصور : ... ولكن المقارنة ...

ع. قاسم : ... لحظة واحدة ... كذلك فإن ديوان الدواوين ، الذي كان موجوداً في عهد عمر بن الخطاب ، كان العمل يجري فيه بلغة اخرى غير اللغة العربية **(لا ادري على وجه اليقين مدى دقة المعلومات التاريخية التي اوردها الاستاذ عبد الحكيم قاسم في الجملة الاخيرة - أ.م)** ...

أ. منصور : ... بغض النظر ، يا استاذ عبد الحكيم ، عن انتفاء اوجه التشبه التي تتيح المقارنة ، فإن هذه الأنظمة التي اشرت اليها لم تكن غريبة عن المنطقة ...

ع. قاسم : ... نعم .. لم تكن غريبة عن المنطقة .. ولكن ...

أ. منصور : ... ربما كانت غريبة عن عرب شبه الجزيرة العربية .. ولكنها لم تكن غريبة عن سكان المنطقة انفسهم ...

ع. قاسم : ... في ذلك الوقت ، كان لتعبير : « اجنبي » .. ولتعبير : « قومي » أيضاً صبغة دينية ...

أ. منصور : ... انا لا ادري نصيب ذلك من الصحة ، يا استاذ عبد الحكيم ... وعلى اية حال ، فانا أرجو ان لا تختلط الامور في حوارنا هذا . فنحن نتناول الموضوع بعقلية زماننا هذا ....

ع. قاسم : ... على أية حال ، فإن ما أريد ان اقوله هو ان احد الجذور الأساسية للثقافة الإسلامية ... اعني انه لو انك احد المتحمسين للثقافة الإسلامية لأدركت وجود هذا الجذر وهو : ان الثقافة الإسلامية تملك القدرة على التعلم ... ولا تنبع إطلاقا ...

أ. منصور : ... التعلّم وليس الإنسحاق ... وليس التقليد الاعمى ...

ع. قاسم : ... ولهذا فقد اكدت لك على هذا النموذج . لانه ينبغي علينا ان نلتزم الحذر الشديد عند تقييم كبار مثقفينا ... حتى لا نقلل من قيمتهم ...

أ. منصور : ... لا شك ان مثل هذه المشاعر النبيلة تستحق الشكر والتقدير ..!!...

ع. قاسم : ... ولقد كان المثقفون المسلمون يطوفون بالأمصار ... ويتعلمون من الشعوب ...

أ. منصور : ... ليس ذلك موضوع حوارنا ، يا استاذ عبد الحكيم ... او على الاقل فإن ذلك ليس اجابة على السؤال الذي وجهته اليك . وسوف اعيد توجيه سؤالي هذا اليك بشكل آخر . وارجو ان تكون اجابتك عليه صريحة وواضحة . والسؤال هو : .. ما هي ، في ظنك ، منابعك الفنية ؟ ...

ع. قاسم : .. فيما يتعلق بمنابعي الفنية ، فقد دار في نفسي صراع حولها . ذلك ان تجربتي اليومية التي اريد الكتابة عنها هي الحياة اليومية المصرية ...

أ. منصور : ... الحياة اليومية المصرية لأي فئة ؟ ... لأي طبقة ؟ ... لأي مجموعة

من الناس ؟ ...

ع. قاسم : ... الحياة اليومية الشعبية جداً ... في الريف المصري ...

ا. منصور : ... ولكنك - بحكم اصلك ونشاتك - لا تنتمي الى هذه الطبقات الشعبية .. كما انني اعرف ان والدك - رحمه الله - كان ينتمي الى ما يمكن تسميته بالطبقة المتوسطة الريفية . وعلى ذلك ، وبالإضافة الى غير ذلك من الأسباب ، فانت تنتمي قطعاً الى هذه الطبقة المتوسطة . فهل تعتقد ان من حقك ، بالرغم من ذلك ، ان تتحدث عن هذه الطبقات الشعبية ، وحياتها اليومية ؟ ...

ع. قاسم : ... ليس هناك تصور لشخص ما وفقاً لبطاقته الشخصية . فأنا اتصور ...

ا. منصور : ... معذرة يا استاذ عبد الحكيم .. ولكنك قلت ان تجربتك اليومية التي تريد الكتابة عنها ، هي الحياة اليومية للطبقات الشعبية . واسمح لي ان اشك في ذلك . ذلك ان حياتك اليومية هي الحياة اليومية للطبقة المتوسطة .. كما ان اتصالاتك بالطبقات والفئات الأخرى تحددها نظرة هذه الطبقات اليك بوصفه عضوا في الطبقة الوسطى ، كما تحددها ، ايضاً ، نظرتك انت اليهم بوصفك عضوا في الطبقة المتوسطة . الا توافقني على ذلك ؟ .

ع. قاسم : ... لا ... انا لا اوافقك على ذلك ...

ا. منصور : ... اذن .. هل تتفضل بتبيان السبب ؟ ...

ع. قاسم : ... لأنه ليس هناك في التشكيل الطبقي في مصر ، وخاصة في الريف ، ما يوجد في الأنظمة الأوروبية من انغلاق للطبقات على نفسها ... وهو ما يسمونه باللغة الألمانية كاستيه Kaste (وتقابلها في اللغة الإنجليزية كلمة Caste ، وتعني طبقة اجتماعية مغلقة - أ. م .) .. اي ان كل طبقة تغلق صندوقها على نفسها ، ولا تخالط غيرها من الطبقات . ولذلك فإنك تلحظ في المجتمع الألماني ان هناك فروقاً في اللغة واستخدام المفردات ونطقها وفقاً للطبقة التي ينتمي اليها المرء . اما في الريف المصري ، فإن السائد هو التقسيم الأسري . وذلك بمعنى أن الأسرة ... او ان كل اسرة تمثل معسكراً . ويضم معسكر الأسرة : الأغنياء والأقل غنى والمستورين والفقراء والمعدمين ...

ا. منصور : ... معذرة ، يا عبد الحكيم ، ولكنني اسالك : كم فرداً من جيلك في القرية تلقى تعليماً ... اي التحق بالمدارس والجامعات ، كما فعلت انت ؟ ...

ع. قاسم : ... لقد التحق كل ابناء جيلي معي بكتّاب القرية ... اعني جميعهم : فقراء واغنياء ...

ا. منصور : ... وكم منهم واصل تعليمه بعد ذلك ؟ ...

ع . قاسم : وجلسوا معاً جميعاً على « الحصيرة » (بساط رخيص الثمن يصنع من القش ، او ما شابه ، وتُفرش به المساجد عادة - أ. م.) .. ثم ذهبنا ، بعد ذلك ، الى المدرسة الأولية المجانية في القرية - والتي كانت تتبع مجالس المديريات في ذلك الوقت - ... وهذه المؤسسات التعليمية - التي تكوّن فيها وجداني الفكري ، حتى بلغت التاسعة من عمري - كنت

فيها مع جميع ابناء قريتي ...

أ. منصور : ... ما الذي تريد ان تصل اليه ، يا استاذ عبد الحكيم ؟ ... أليس صحيحاً ان والدك ـ بفضل قدرته المالية ـ كان يستطيع ان يستغني عن الدخل الذي كان يمكن ان تجلبه لو انه الحقك بعمل ما في الحقل او غير ذلك ؟ ... واليس صحيحاً انك ـ بسبب قدرة والدك المالية ـ استطعت ان تواصل تعليمك ، وان تعود الى القرية في الإجازة الصيفية كي تستمتع بجمال الريف ، ودون ان تكون بحاجة لأن تعمل في « تنقية الدودة » او جمع المحصول ؟ ... واليس صحيحاً ان ابن الفلاح المعدم لم يكن ليستطيع ، بأي حال من الاحوال ، ان يستمتع بهذا الترف الذي استمتعت انت به ؟ ...

ع. قاسم : ... لا .. ليس صحيحاً ...

أ. منصور : ... ولماذا ؟ .

ع. قاسم : ... لأنه توجد اعمال محددة يشتغل فيها جميع الأطفال بلا استثناء ....

أ. منصور : ... ماذا كان يعمل والدك ، يا عبد الحكيم ؟ ...

ع. قاسم : ... كان فلاحاً أيضاً ....

أ. منصور : ... مثل الرئيس المؤمن محمد انور السادات ؟ ...

ع. قاسم : ... كان فلاحاً ...

أ. منصور : ... كم كان يمتلك من الأرض ؟ ...

ع. قاسم : ... عشرة افدنة .. او نحو ذلك ...

أ. منصور : ... والا يجعله هذا القدر من الملكية عضواً اصيلاً في الطبقة المتوسطة ؟ ...

ع. قاسم : ... على أية حال ، فأنا أقول لك ما أعتقده ... ومن حقك ، طبعاً ، أن تختلف معي ...

أ. منصور : ... نحن نريد ان نتناقش ، يا عبد الحكيم ...

ع. قاسم : ... حسن ... إن الأطفال في الريف المصري يُطلبون لأعمال محددة . مثل تنقية دودة القطن ...

أ. منصور : ... اي اطفال ، يا استاذ عبد الحكيم ؟ ....

ع. قاسم : ... جميع الأطفال ...

أ. منصور : ... واطفال كبار الملاك ايضاً ؟ ...

ع. قاسم : ... قد لا يشتغل اطفال كبار الملاك في مثل هذه الأعمال . ولكن موسم عمل الأطفال في الريف المصري هو فصل الصيف ... ولذلك ...

أ. منصور : ... معذرة ، يا استاذ عبد الحكيم ... انا لا اريد ان استطرد في نقاش غير مجدي ، في إعتقادي ... ولذلك فسوف اطرح عليك ـ بدلاً من ذلك ـ تقييماً لك كانسان . هذا التقييم هو انك ـ كشخص او إنسان ـ يدور في داخلك صراع حاد .. بل وبالغ الحدة بينك ، كعضو في الطبقة المتوسطة ، وبينك بوصفك فناناً . هل توافق على

هذا التقييم ؟ ...

ع. قاسم : ... لا ...

أ. منصور : ... حسن ... سوف ازيد الأمر تفصيلاً . فانت تذكر انني كنت اقول لك دائماً ـ ونحن في مصر ـ انك تلبس كما يلبس المحامي الريفي ... وانت تعرف ، طبعاً ، طبيعة تكوين محامي الارياف .. وطريقة تفكيره ... ورؤيته الإجتماعية . ولكنك ، ايضاً ، تجرؤ احياناً على قول وفعل ما لا يستطيع نصفك الآخر ان يقوله ويفعله ... فانت احياناً تكون شخصاً محافظاً غاية المحافظة ... اي محامياً ريفياً كما يجب ان يكون محامي الأرياف : ... يجلس على مقهى الأفندية بعد الإنتهاء من مكتبه ، مرتدياً ربطة عنق و« كوفية » ـ لا ضرورة لهما على الإطلاق ... ويمسح حذاءه حتى يستطيع ان يرى صورة وجهه في لمعانه .. ويخرج ، بين الحين والآخر ، منديلاً من جيب جاكتته الداخلي كي يجفف به عرقاً وهمياً في معظم الاحوال .... قل لي ، يا استاذ عبد الحكيم ، هل هذا صحيح ام غير صحيح ؟ ...

ع. قاسم : ... لا .. ليس صحيحاً ... وسوف اواصل الكلام عن عمل الأطفال في الريف ...

أ. منصور : ... ليس هذا هو موضوع حوارنا ، يا عبد الحكيم ، وعليك الآن ان توضح جوانب الخطأ فيما قلته انا لك ... ولماذا هو غير صحيح ....

ع. قاسم : ... لا اعرف ... ولكنه فيما يتعلق بموضوع الثياب ، فإنني اؤمن بالنظافة .. (يضحك) ...

أ. منصور : ... وهل تؤمن بربطة العنق ايضاً ، يا استاذ عبد الحكيم ؟ ...

ع. قاسم : ... نعم ....

أ. منصور : ... وهل تؤمن بالكوفية كذلك ؟ .

ع. قاسم : ... نعم ... فأنا أرى انها اشياء لطيفة جداً ...

أ. منصور : ... نحن لا نمزح الآن ، يا استاذ عبد الحكيم ... وثق انني عندما اقوم بتفريغ حوارنا هذا ، فإنني سوف اسجل انك كنت تبتسم ... وبالمناسبة .. لماذا تبتسم ؟ ...

ع. قاسم : ... أنا أقول ان الثورية ليست ان ...

أ. منصور : ... نحن لا نتحدث الآن عن الثورية ... وانما نحن نتحدث عن هذا الإنقسام الواضح في شخصيتك ... وهو انقسام لا تنفرد به وحدك .. وانما يشاطرك فيه معظم ابناء جيلك .. وانا شخصياً من بينهم ... لذا فارجو ان لا تعتبر هذا التقييم خاصاً بك وحدك ...

ع. قاسم : ... انا لا اعقد ربطة العنق على عقلي .. وانما اعقدها على رقبتي ...

أ. منصور : ... يجب ان تعترف ، يا استاذ عبد الحكيم ، انك كثيراً ما تعقدها على عقلك ... واعتقد انك تربطها الآن على عقلك .. رغم انك تجلس امامي مرتدياً قميصاً ازرقاً

انيقاً وروباً منزلياً مثل الذي يرتديه نجوم السينما في افلامنا المصرية ...

ع. قاسم : ... نعم ...

أ. منصور : ... ولكنك لست كذلك ، يا عبد الحكيم .. كما انك حين تكتب ، لا تكون كذلك ايضاً . اليس هذا صحيحاً يا عبد الحكيم .. يا ... قاسم ؟ ...

ع. قاسم : ... أنا لا أحاسب الا على ما اكتبه وما أقوله ...

أ. منصور : ... وانا لم آتي هنا كي احاسبك .. بل كي اناقشك ...

ع. قاسم : ... حسن .. لا بأس ...

أ. منصور : ... فلا تأخذ اذن موقف الدفاع عن النفس ...

ع. قاسم : ... إطلاقاً ...

أ. منصور : .. ان انطباعي هو انك قد اخذت موقف الدفاع عن النفس ...

ع. قاسم : .. ليس هذا صحيحاً ...

أ. منصور : ... اذن .. ما الأمر ؟ ...

ع. قاسم : ... انا اقول لك انني لم احس بأي قلق تجاه موضوع الثياب هذا . بمعنى انني ارتدي ثيابي بالشكل الذي يريحني ...

أ. منصور : ... اذن فانت توافقني على انك ترتدي نفس الثياب التي يرتديها اعضاء الطبقة المتوسطة .. وبنفس طريقتهم ايضاً ؟ ...

ع. قاسم : ... انا لم أرهم .. ولم ...

أ. منصور : ... تعني انك لم تـر احداً من الطبقة المتوسطة طيلة حياتك ؟ ...

ع. قاسم : ... لا ... اعني انني لم احاول ان اقلدهم ...

أ. منصور : ... وانا لم اقل انك تحاول تقليدهم ... ذلك انك - في ظني - تفعل ذلك بطريقة طبيعية ... وربما بدون ان تشعر ...

ع. قاسم : ... هذا محتمل ...

أ. منصور : ... ولماذا تحاول تجنب مناقشة هذا الموضوع ؟ اليس لذلك دلالة ما ؟ ...

ع. قاسم : ... لا... انا لا أحاول تجنب مناقشة هذا الموضوع ... بل انا على استعداد لمناقشته ...

أ. منصور : ... اذن ... تفضل ...

ع. قاسم : .. وماذا اقول ؟ ...

أ. منصور : ـــ هل تطلب مني ان اقول لك ما تقول ؟ !....

ع. قاسم : ... انا لا اشعر ان هناك صراعاً يدور في نفسي حول هذا الأمر ...

أ. منصور : ... اذن لماذا يرتدي رجل عاقل مثلك ربطة عنق ؟ ...

ع. قاسم : ... انا اعتقد ان ربطة العنق شيء لطيف جداً ... وانا مصرّ على ارتدائه....

أ . منصور : ... لماذا ؟ لعلها تُدفئك مثلاً ؟ ...

ع . قاسم : .. لا .. انني اعتبرها نوعاً من ...

ا . منصور : ... التميز الإجتماعي ؟ .. اليست ربطة العنق رمزاً للتميز الاجتماعي ؟ ... الا تعني انني استطيع ان ارتدي شيئاً لا ضرورة له ؟ .. واليس من سمات الطبقة المتوسطة ـ التي يسيطر عليها رعب الإنحدار الى الطبقات الدنيا ـ ان تنتهز اية فرصة لكي تؤكد ، للعالم كله ، انها لا تقف على حافة الهاوية ؟ .. والا توافقني على ان الفلاح الأجير المعدم لا يستطيع ان يرتدي شيئاً غير ضروري ؟ ...

ع . قاسم : ... لا ... انا لا اوافقك على ما تقول ...

ا . منصور : .. ولماذا ؟ ...

ع . قاسم : ... لأنك ، حقيقة ، لا تعرف شيئاً ـ ربما اخبرك به روميش لو انك سألته عنه [الأستاذ محمد الصادق روميش قصاص مصري من جيل الأستاذ قاسم ، وهو يعمل الآن مستشاراً قانونياً للبنك المركزي في الكويت ـ ا. م .) ـ عن شيء اسمه « المنديل » ...

ا . منصور : ... وانا لا اجري حواري هذا مع روميش ... فلماذا لا تقول انت ما هو هذا المنديل ؟ ...

ع . قاسم : ... لقد ذكرت « روميش » لأنه حكى لي قصة لطيفة عن « المنديل » ... وعلى اية حال ، فإن هذا « المنديل » يصنع من الحرير ، ويباع غالباً في مدينة المحلة الكبرى [احدى المدن الهامة لصناعة النسيج في مصر ـ ا. م.] ... والفلاحون يشترونه رغم ارتفاع ثمنه . بالنسبة الى دخولهم ، ورغم انه لا فائدة له ... فهو لا يدفيء العنق ـ الذي غالباً ما يُلف هذا المنديل حوله ـ بسبب صغر حجمه ...

ا . منصور : ... اذا كان معظم الفلاحين ـ كما تقول ـ يشترون هذا المنديل ، فإنه لا يصبح اذن دليلاً او رمزاً على التميز الإجتماعي .. وانما هو يؤدي وظيفة .. او وظائف اخرى بالقطع واظن ان ذلك يشبه مباهاة ابن البلد بجلبابه الأبيض النظيف ، الذي اجاد الكوّاء كيّه ، وبعصاته و« لاسته » الأنيقة .. وخاصة امام النساء . وانا واثق انك تعرف ذلك جيداً ، يا استاذ عبد الحكيم . وكل ما في الأمر هو انك تغالط نفسك ... تماما كما يغالط افراد الطبقة المتوسطة انفسهم ...

ع . قاسم : ... انا ، شخصياً ، يروق لي ان اتزين .. وان ...

ا . منصور : ... وانا واثق انني اريدك ان تفعل ما يحلو لك ، يا استاذ عبد الحكيم .... ولكن السؤال هو لماذا تكون ربطة العنق ـ بالذات ـ هي طريقك الى التزين ؟ ...

ع . قاسم : ... لأنها تروقني جداً ...

ا . منصور : ... معذرة ... ولكنه يصعب على ان اصدق ذلك ...

[اتفقنا عند ذاك على انه قد يكون من الأفضل ان نستمع الى ما تم تسجيله من حوارنا ، وذلك حتى نستطيع ان نصحح ما قد نكون قد اسانا التعبير عنه من افكار . وبعد ان انتهينا من سماع الجزء السابق من الحوار ، بدا الأستاذ عبد الحكيم قاسم

حوارنا المسجّل قائلاً] :

ع . قاسم : .. انني اتصور ان الجُراة إما ان تكون جراة عقلية ، وإما ان تكون جراة بدنية ، وإما ان تكون جراة عقلية وبدنية معاً ....

أ . منصور : .. عن ماذا تتحدث الآن ، يا استاذ عبد الحكيم ؟ ...

ع . قاسم : ... انني ارد عما اثرته بشأن مسألة الملابس . فأنا لا اريد الإصطدام بالمثل السائدة في المجتمع ، فيما يتعلق بأمور لا تعنيني ...

أ . منصور : ... وأين تسود هذه المثل ؟ ...

ع . قاسم : ... في المجتمع من حولي ...

أ . منصور : .. وهل تعني بكلمة « سائدة » ان الاغلبية الساحقة في المجتمع من حولك تلتزم بها ؟ ...

ع . قاسم : ... بمعنى ان الوضع المستقر ..

أ . منصور : .. لدى من ؟ ... لدى الطبقة المتوسطة ؟ ...

ع . قاسم : .. نعم .. عند الطبقة المتوسطة ....

أ . منصور : ... إذن فانت لا تريد الإصطدام بالمثل السائدة لدى الطبقة المتوسطة ؟ .. او بكلمات اخرى .. انت لا تريد إغضاب الطبقة المتوسطة ؟ ..

ع . قاسم : ... نعم ...

أ . منصور : ... ومع ذلك فانت ، بلا شك ، تغضب الطبقة المتوسطة بالإتجاهات « السائدة » في اعمالك الفنية ....

ع . قاسم : ... نعم ...

أ . منصور : .. وهذا يعني انك توافق على تلك المقولة التي طرحتها عليك بشان الصراع الدائر داخلك ...

ع . قاسم : ... اذا كان عدم الخروج عن إطار هذه الطبقة يؤدي الى ان يُسمح لك بالوجود في هذا المجتمع ... فلا بد لك من ان تكون لطيفاً ... اي لا غبار على مظهرك الخارجي . وهذا طبعاً لا يمنعك ، حين تكتب ، من ان تقول الحقيقة ...

أ . منصور : ... هل يعني هذا ، يا استاذ عبد الحكيم ، انه لا يعنيك ان تغضب الفلاحين ، وانما الذي يعنيك ويشغل فكرك هو ان تحوز رضاء الطبقة المتوسطة ؟ .. ان ربطة العنق هذه ، والتي قلت انها تروقك ، هي بمثابة الاسلاك الشائكة التي تفصلك عن جمهورك الحقيقي والطبيعي .. اي عن الأغلبية الساحقة من شعبنا ... وانا اعتقد انك تعرف ذلك جيداً ...

ع . قاسم : ... انا لست قائداً ثورياً ...

أ . منصور : ... وهل طالبتك بان تكون قائداً ثورياً ؟ ... إن كل ما كنت اريد تنبيهك اليه ... هو ان تسعى - وبوصفك كاتباً فناناً وليس قائداً ثورياً - وراء جمهورك الطبيعي ... والا فهل تعتقد انه يمكن لفلاح اجير ان يجلس معك « على راحته » وانت

ترتدي هذه الأسلاك الشائكة ألتي تسميها ربطة العنق ؟ ...

ع . قاسم : ... انا لا اعتقد ان اي قارىء لأعمالي الفنية يمكن ان يتولد لديه الإنطباع بأن الفلاحين لا يتعاملون معي كواحد منهم ..

أ . منصور : ... ليس هذا هو ما نتحدث عنه ... اننا ....

ع . قاسم : ... المسألة ان المرء لا يجلس مع الفلاحين وهو يرتدي ربطة عنق ...

أ . منصور : ... وهل تظن ان ربطة العنق لا تترك اثارها على عنقك بعد ان تخلعها ؟ ... هل تظن ان الفلاحين لا يشعرون بوجود ربطة العنق هذه ... حتى ولو لم تكن تعقدها على رقبتك ؟ ... هل تظن ان الفلاحين اغبياء ، يا استاذ عبد الحكيم ؟ ... الم يتكون لدى الفلاح المصري ـ عبر آلاف السنين من خبرات الغزو والقهر والحكام الأجانب وعملائهم المحليين ـ تراكم هائل من الخبرة بوسائل المقاومة والدفاع عن النفس .. والقدرة على التمييز بين العدو وبين الصديق ... او بين من يعنيه ان يرضي الطبقة المتوسطة .... ولا يعنيه ان يغضبهم ؟ .... هل ما اقوله صحيح ام ليس صحيحاً ، يا استاذ عبد الحكيم ؟ ....

ع . قاسم : ... على أية حال .. فأنا أظن انه من الأفضل ان نحتفظ بمواقفنا فيما يتعلق بهذه المسألة ، وان نكمل ما تبقى من نقاط في حوارنا ...

أ . منصور : ... لا ... ان هذه هي النقطة الرئيسية في حوارنا ... بل انها تكاد ان تكون موضوع حوارنا كله ... فانت رجل تريد الإتصال بالناس ... ولديك ، كما اعتقد ، رغبة صادقة وملحة في الاتصال بالناس ... وايصال ما تكتبه من اعمال فنية لهم .. ومع ذلك ، فانت لا تفعل شيئاً من اجل ان تصبح واحداً من هؤلاء الناس ! على العكس ، فإن كل ما تريده ـ كما قلت بنفسك ـ هو ان تنال رضاء الطبقة المتوسطة ... وهي الطبقة التي نبذت ثقافتنا القومية .. وتبنت ثقافات الغزاة الأجانب ..

ع . قاسم : ... وما الذي يمكن ، في كتاباتي ، ان يرضي الطبقة المتوسطة ؟ ...

أ . منصور : ... وهل يقراك احد غير الطبقة المتوسطة ؟ ... وهل يفهمك احد غير الطبقة المتوسطة ؟ ... هل تريد ان تعرف سبب ذلك ؟ .. ان السبب ببساطة هو ان منابعك الفكرية والفنية ـ حتى الآن ـ هي تلك المنابع التي يرضى عنها مثقفو الطبقة المتوسطة ...

ع . قاسم : ... وما هو النموذج الذي ... ؟ ...

أ . منصور : ... هل ستجري معي حديثاً ؟ ...

ع . قاسم : ... نعم .. بالقطع . فما دمت تصدر مثل هذه الأحكام ، فإن من حقي ان اسألك بشأنها ... لكي افهمها ، على الاقل ، وحتى يمكن ان نتعامل انطلاقاً من ارضية واحدة . وانا اسألك : ما هو ، في اعتقادك ، نموذج الكتابة الجيدة ؟ بمقاييسك انت ؟ ... وما هو البعد ...

أ . منصور : ... انا لم اكن اتحدث عن الكتابة الجيدة والكتابة الرديئة ... انا كنت

اتحدث عن الوصول الى الناس .. او عدم الوصول اليهم . وهناك من كتاب الطبقة المتوسطة من ينتج اعمالاً فنية ممتازة .. وبكل المقاييس ... ولكن هذا لا يعني ـ بتاتاً ـ انهم يكتبون للفلاحين ومن شابههم .....

ع . قاسم : ... وانا لست منظماً ثورياً ...

ا . منصور : ... ومن قال لك ذلك ؟ ... ومن تحدث عن الثورية ؟ ... لقد تحدثت عنك ككاتب ينتج اعمالاً فنية كي يقراها الناس . والسؤال هو : لمن تكتب ؟ .. هل تكتب للطبقة المتوسطة ام تكتب للفلاحين الذين تكتب عنهم ؟ ....

ع . قاسم : ... هذه قضية أخرى ... وانا لا اكتب لجماهير الفلاحين ...

ا . منصور : ... انت تكتب عن جماهير الفلاحين ... وانا واثق ايضاً انك تريد ان تكتب لهم . فهل هذا يحدث ؟ ...

ع . قاسم : ... لا... انا لا اريد ان اكتب لهم ...

ا . منصور : ... اذن لمن تريد ان تكتب ؟ . ـ

ع . قاسم : ... اريد ان اكتب لقضية مختلفة تماما ...

ا . منصور : ... ان سؤالي هو : لمن تريد ان تكتب ؟ ...

ع . قاسم : ... للضمير المصري ...

ا . منصور : ... ومن الذي يتمثل فيه الضمير المصري ؟ ... ومن الذي حفظ وصان الضمير المصري ؟ ... ومن الذي حفظ وصان الهوية القومية والثقافة القومية ؟ ...

ع . قاسم : ... هؤلاء الناس ... هؤلاء الناس ... انا معك في هذا . ولكن لا ينبغي ... او لا يطلب مني ان اكتب ما يستطيعون قراءته حرفاً حرفاً ... حتى اكون ...

ا . منصور : ... يا استاذ عبد الحكيم .. انا لم اقل لك ان الفلاحين الاميين سوف يقرؤونك .. وكل ما قلته هو انني واثق انك تريد الوصول اليهم ... وبحيث ان هذا الفلاح الأمي ، لو تعلم القراءة والكتابة ، لكان من المحتمل ان يفهم ما تكتبه .. وان يتفاعل معه ... او بكلمات اخرى ... فإنني سوف اوجه اليك نفس السؤال بشكل آخر ... فلنفترض ان عاملاً زراعياً تعلم قراءة الرموز التي تكتب بها ... ولنفترض كذلك ان هذا لم يجعله يفقد هويته ... او يولّد في نفسه اية تطلعات طبقية ... فهل تعتقد ان هذا العامل الزراعي سوف يكون ، عندئذ ، قادراً على فهم ما تكتبه والتفاعل معه ؟ ... انا اطرح عليك انه لن يفهم ما تكتبه ولن يتفاعل معه ... بل على العكس .. فإنه حتى لو فهم ما تكتبه ... فإنه سوف يقاومك ... هل تعرف لم ؟ ... لأن هذا العامل الزراعي قد رسخت في اعماقه ـ عبر قرون وقرون ـ روح مقاومة الثقافات الأجنبية .. وروح النفور منها . وذلك لأن هذه الثقافات الأجنبية كانت تبغي تحطيمه ... وتحطيم ثقافته القومية . وقد عرف اباؤه واجداده ـ بالخبرة ـ هذه الحقيقـة... ونقلوها اليه ... ونقلوا اليه ايضاً وسائل مقاومة هذه الثقافات الأجنبية ... هل هذا صحيح ام لا .. يا استاذ عبد الحكيم ؟ ...

ع . قاسم : ... انا لا اعرف ما الذي تتحدث عنه ... وكل ما فهمته هو انك تقول انني

اكتب افكاراً اجنبية ...

ا . منصور : ... وانا اقول ذلك استخلاصاً من اجاباتك انت نفسك على الأسئلة التي وجهتها اليك ... فقد قلت منذ لحظة انك لا تكتب للفلاحين .. رغم انني واثق انك تريد ان تكتب لهم . ولكنك ـ ومن باب المحاجاة فقط ـ تقول انك لا تريد الكتابة لهم ....

ع . قاسم : ... انا لا اريد الكتابة لهم ...

ا . منصور : .... وانت تقول انك تريد ان تكتب لما اسميته بضمير الشعب ... او الضمير المصري . وانا اسالك : ما هو هذا الضمير المصري الذي تريد الكتابة له ؟ ... والم تعترض في بداية حديثنا على استخدامي للمصطلحات التي تتسم بالعمومية وعدم التحوير ، في حديثي مع الاستاذ السيد ياسين ؟ . والا يصلح اصطلاح « ضمير الشعب » او « الضمير المصري » ان يكون نموذجاً للعمومية وعدم التحرير ؟ ... والا فماذا تعني ـ بحق جميع المقدسات ـ بهذا المصطلح ؟ ! ...

ع . قاسم : ... الضمير المصري هو ... الضمير الثقافي المصري .... او هو مجموعة الفكريات والأدب والفن والفلسفة ...

ا . منصور : ... التي تعتمدها الطبقة المتوسطة ؟ ....

ع . قاسم : ... لا ... التي تعتمدها اي طبقة ... او التي يعتمدها الشعب في مجموعه ...

ا . منصور : ... كيف ؟ ....

ع . قاسم : ... لقد بدات اغضب حقيقة ...

ا . منصور : ... ولماذا تغضب يا عبد الحكيم ؟ ....

ع . قاسم : ... لقد بدات اغضب لأن هذه ليست طريقة لائقة في الحديث ... وليس هناك سوى حل واحد لذلك ...

ا . منصور : ... انا لا اعتقد ان هناك مبرر لغضبك ، يا عبد الحكيم ... ولا اعتقد ان من حقك ان تغضب لمجرد ...

ع . قاسم : ... وهو ان نوقف التسجيل ...

ا . منصور : ..لا .. لن نوقف التسجيل ...

ع . قاسم : ... لا ... الأفضل ان نوقفه .

ا . منصور : ... لماذا ؟ ...

ع . قاسم : ... لأنه لا يمكن الاستمرار على هذا النحو .. ومن رأيي ...

[أصر الاستاذ عبد الحكيم قاسم على رأيه الذي اعتقد ، الآن ، انه كان صائباً . فقد اتاح لنا ذلك تهدئة اعصابنا نحن الإثنان] .

ع . قاسم : .... ولا تزال صلته العفوية بالناس وبالشارع هي العامل الأساسي والحاسم في تكوينه الفني . وتتميز ثقافتهم بأنها ثقافة تم تحصيلها شفاهياً .. ووسط تجمعات شعبية بعيدة عن حلقات المثقفين وتجمعاتهم . وانت تعرف ان حلقات المثقفين هذه لم تكن تقبل احداً من هذه المجموعة ....

أ . منصور : ... نعم .. هذا صحيح ... وقد كانوا يطلقون عليهم اسم : « بتوع ريش »* (* قهوة ريش ، وهي احد اماكن تجمع المثقفين بالقاهرة) ...

ع . قاسم : ... نعم ... كذلك فقد جدت لغة الكلام وسط هذه المجموعة . وانا اقوم الآن ببحث لغوي لدراسة هذه التراكيب اللغوية الجديدة . وبالإضافة الى ذلك ، وترتيباً عليه ايضاً ، فقد جدت ايضاً في كتاباتهم طريقة جديدة في صياغة الجمل .. وفي التنقلات الذهنية . هذا طبعاً بالإضافة الى التجديدات التي احدثوها في شكل القصة القصيرة ، والتي ادت الى نبذ كثير من المسلمات التي كانت قائمة من قبل ، مثل نقطة التنوير .. وخط التطور .. او ان يكتب الفنان عن الآخرين كي يكون كاتباً جيداً ... الخ . كل ذلك حدث . وبدأنا ايضاً نسمع ترتيل صبيان الكتاتيب في كثير من القصص القصيرة . كما قرأنا ايضاً ، في ذلك الوقت ، قصص « محمد حافظ رجب » - الذي اعتقد انه كاتب بالغ الأهمية ، وان قيمته الفنية سوف تظهر بوضوح في المستقبل - ومحمد الصادق روميش - وهو كاتب بالغ الأهمية ايضاً في رأيي - ويحيى الطاهر عبد الله ... الخ . وهنا نأتي الى نقطة هامة ، وهو ان هذه المجموعة في خروجها عن الأنماط السائرة ، وعلى جميع المستويات ، وكما اشرت انت ، عند حديثنا عن الملابس ، ان يحيى الطاهر لم يكن يرتدي ملابسه كما يفعل محامو الأرياف .. وكما افعل انا ايضاً ...

أ . منصور : ... لقد كان ذلك خارج الحوار المسجل ...

ع . قاسم : ... على أية حال ، فربما كنت اكثر تعقلاً من الباقيين ، ولكنني لم اكن اكثرهم تعقلاً عندما اكتب ...

أ . منصور : .... لعلك تذكر ، يا استاذ عبد الحكيم ، ان الراي الذي ابديته لم يكن متعلقاً بانتاجك الأدبي . كما انني افضل ان استبدل تعبير « اكثر تعقلاً » بتعبير آخر هو : « اكثر تردداً » ....

ع . قاسم : ... قد يكون ذلك صحيحاً ... وعلى اية حال ، فقد كان المرء يلحظ ان هناك خوفاً كامناً في نفوس هذه المجموعة من ان يتم تحطيمها . وقد تحققت بعض مخاوف هذه المجموعة ... فقد تم تحطيم عدد كبير من افرادها ... كما تم تحطيم عدد آخر ايضاً من انساقها الفكرية* (* تمثلت الضربات التي تلقتها هذه المجموعة - التي يشير اليها الاستاذ عبد الحكيم قاسم - في وفاة بعضهم واصابة آخرين بالأمراض العصبية والعقلية . وكان آخر من « استشهد » من هذه المجموعة الكاتب الفنان يحيى الطاهر عبد الله ، الذي لقي مصرعه في حادث سيارة في الطريق الصحراوي المؤدي الى الواحات البحرية - أ .م .) . ولكن بعض افراد هذه المجموعة نجحوا في الاستمرار وفي تطوير منطلقاتهم الفكرية والفنية ، وانا اعتبر نفسي - بدون اي تردد - واحداً من هؤلاء...

أ . منصور : ... وهل تعتقد ان رحيلك عن مصر كان إنقاذاً لك من هذا التحطيم الذي تشير اليه ؟ ...

ع . قاسم : ... نعم ... كان انقاذاً لي من اشياء كثيرة . ورغم انك تقول انني اعيش في قلب اوروبا ، الا انني بالفعل اعيش في قلبها كنقيض لها ....

أ . منصور : .... لقد قلت لك ، يا عبد الحكيم - وان كان ذلك خارج الحوار المسجل - ان وجودك في اوروبا لم يغيرك كثيراً ...

ع . قاسم : .... نعم .. لقد قلت ذلك ونحن نطهو السمك الذي سوف اطعمك اياه ...

أ . منصور : ... والذي لم آكله بعد ... (ولم آكله فيما بعد - أ.. م.)

ع . قاسم : ... على أية حال ، فقد كانت هناك ظاهرة غريبة تحدث آنذاك . فبينما كان سكان القاهرة - التي وصفتها انت بحق بأنها « ابنة زنا » - يرددون عبارات مثل « الفلة في الفانلة » و« الأكس في التاكس »* (* عبارات وردت في مسلسل اذاعي بثته إذاعة القاهرة في شهر سبتمبر ١٩٦٧، وكتبه احد الصحفيين البارزين في صحف النظام المصري وهو احمد رجب ، كما قام ببطولته فؤاد المهندس وشويكار ويوسف وهبي . وقد القي هذا المسلسل - لأسباب عديدة لا محل لذكرها هنا - نجاحاً كبيراً - أ. م.) كانت القرية المصرية تقرأ الأوراد والتراتيل . ورغم تواجد هذه المجموعة الأدبية في القاهرة ، فإنها لم تكن تشارك سكانها في ترديد هذه العبارات المبتذلة ، وانما كانت تردد الأوراد والتراتيل التي كانت القرية تقرأها . وقد كتب بعض النقاد ، عند تعليقهم على الانتاج الفني لهذه المجموعة ، ان معظم افرادها لا يعرفون لغتهم العربية جيداً . رغم ان اعتقادي الجازم ان اللغة العربية الأصيلة قد تحققت فنياً ، ولأول مرة ، في كتابات هذه المجموعة . ولا يحتاج اثبات ذلك الا الى النظر في كتاباتي او في كتابات يحيى الطاهر عبد الله حيث نجد استعمالاً يقظاً للغة وتمكناً من استخدامها بشكل فني ...

أ . منصور : .... اعتقد ، يا استاذ عبد الحكيم ، ان حديثك الطويل نوعاً عن هذه المجموعة الأدبية يثير امرين هامين. الأمر الأول هو ما اشرت اليه من تطويرهم لإستخدام اللغة العربية فنياً . والسؤال الذي يتبادر الى ذهن المرء فيما يتعلق بذلك هو : هل يسير هذا التطور اللغوي ، الذي اشرت اليه ، نحو الإقتراب او الإتصال باللغة الشعبية ؟ ... وانا هنا بالطبع لا اعني باللغة مجموعة المفردات التي تحويها .. وانما اعني طرق الاستخدام والتوليد والايحاءات ... الخ . هذا امر . اما الأمر الثاني فهو يتعلق بما ذكرته عن اهمية « محمد حافظ رجب » . وانا اتفق معك فيما يتعلق بأهميته ، ولكنني اعتقد ان جانباً كبيراً من هذه الأهمية يرجع الى شعار اطلقه حافظ رجب ، ربما بدون وعي منذ عدة سنوات ، وهو شعار : «نحن جيل بلا اساتذة » . وانا اعتقد ان هذا الشعار يقدم توصيفاً جامعاً ودقيقاً ، الى حد بعيد ، للمجموعة الأدبية التي اشرت اليها . ذلك انه لا شك في ان هذه المجموعة لم تتلمذ على يد هؤلاء الذي وقفوا موقف الإنسحاق ....

ع . قاسم : ... قد استطيع اكمال هذا الشعار كي يكون كالآتي : « نحن جيل بلا اساتذة ، ولكن لنا مشايخ » ...

أ . منصور : ... لا ... انا لا اتفق معك في ذلك . فنحن جيل بلا اساتذة على الإطلاق .

فاساتذتنا ليسوا هم المنسحقون امام الثقافة الغربية ، وليسوا ايضاً - وللأسف الشديد - جماهير الشعب . وهذه في اعتقادي ، وعلى وجه التحديد ، الأزمة التي يعيشها جيلنا . فنحن جيل بلا آباء يوفرون لنا الأمن والحماية . فجماهير الشعب لن تلعب لنا دور الأب الذي يوفر الأمن والحماية ، لأن هذه الجماهير تنظر الينا بوصفنا من معسكر الأعداء .. او بوصفنا مشاريع حكام على الأقل*

---

* مسجل في برلين الغربية في اغسطس ١٩٨٠

د . غالي شكري

أ . منصور : .. الكاتب والباحث والناقد الأدبي الدكتور غالي شكري.. ارجو ان تكون قد قرات بعض الحوارات التي اجريتها حول موضوع « الازدواج الثقافي وازمة المعارضة في مصر » ، والتي نشرتها جريدة السفير اللبنانية في الشهر الماضي ..

غ . شكري : .. نعم لقد قرأتها كلها ..

أ . منصور : .. اذن .. ارجو ان تتفضل بابداء انطباعاتك عنها ..

غ . شكري: .. اريد ان اشير ، اولا ، الى اهمية الموضوع الذي دارت حوله هذه الحوارات .. ففي رأيي ، ان هذا الموضوع يمس جوانب حياتنا كلها . ولكن من الواضح انه نتيجة لأن موضوع الحوارات لم يتبلور في مصطلح قريب من مصطلحات الثقافة الغربية ، فإن بعض من اجريت معهم هذه الحوارات ، قد خرجوا عن جوهر الموضوع .. فقد فهم بعضهم مصطلح « الازدواجية » بشكل لا يتفق مع السياق الذي قصدته انت في حقيقة الأمر . كذلك فانه حتى حين فهم بعضهم الاصطلاح كما تعنيه ، فإن ردودهم لم تكن تمثل إجابة كاملة عن اسئلتك ...

أ . منصور : .. من الذين تعنيهم بكلامك هذا ، بالضبط ، يا دكتور غالي ؟ ..

غ .شكري:.. اني اعني ، مثلا ، الاستاذ محمد سيد احمد ، والاستاذ نجيب محفوظ . ذلك انه على الرغم من ان الاستاذ نجيب محفوظ قد فهم جوهر الموضوع الذي تدور حوله الحوارات ، فإن هذا الفهم لم يكن يتضح في اجاباته على بعض اسئلتك الجزئية . فعندما سألته ، مثلا ، عن السبب في عدم تأثر رواياته العديدة ، التي تدور وقائعها في الأحياء الشعبية ، بالنماذج المعمارية الرائعة التي توجد في هذه الأحياء ، لم يتمثل الاستاذ نجيب سؤالك تمثلا كاملا ، ولم يفهم انك تقصد ان رواياته لا تمثل تفاعلا فنيا مع هذه النماذج المعمارية . ولم يكن عدم تمثل الاستاذ نجيب لسؤالك نتيجة نقص في ذكاءه ، بل على العكس ، فقد عكست اجابته ذكاءا مفرطا ، وكل ما في الأمر ان اجابته هذه كانت تتعلق بسياق ثقافي يختلف عن سياق سؤالك . ولذلك ، فقد قال في اجابته ان هذه النماذج موجودة في رواياته ، ولم يدرك انها توجد مثل ديكور لا كبنية جمالية . كذلك فقد ذكر الاستاذ نجيب انه استوحى التراث

الفرعوني . وفي رأيي انه لم يكتب قط عملا فنيا يستلهم الروح المصرية القديمة . وكل ما فعله ، في الواقع ، انه البس شخصياته المحدثة والمعاصرة ثيابا فرعونية ، وذلك لكي يعالج الوضع الملكي الاستعماري الذي كان قائما في مصر ، وبمنطق فني غربي كامل .

هذا فيما يتعلق بهذه النقطة ، اما فيما يتعلق بمجموع الحوارات ، فإن هناك عددا من النقاط ارجو ان تسمح لي بتناولها ..

أ . منصور : .. تفضل .. والشكر لك ..

غ .شكري: .. اولى هذه النقاط ، ان هناك خلطا شديدا بين مفاهيم ثلاثة هي : الحضارة والثقافة والتراث . فالدكتور فؤاد زكريا مثلا - ورغم انني اتفق معه جزئيا بالنسبة لفكرة ان الحضارة تيار متصل متعدد المراكز الجغرافية وفقا لتعدد العصور ، وذلك بمعنى وجود مراكز حضارية متعددة في الأزمنة المختلفة ..

أ . منصور : .. ولكن الا تعتقد ان ذلك كان يمثل خروجا عن الموضوع ، بعض الشيء ، من جانب الدكتور فؤاد زكريا ؟ ..

غ .شكري:.. وعلى اية حال ، فما الذي يعنيه الخروج عن الموضوع ؟.. انه يعني اختلافا في طريقة فهم السؤال . اعني انه صحيح ، بشكل عام ، ان ما يسمى بالثقافة الغربية قد اخذت عن الحضارات والثقافات الأخرى القديمة مثل الثقافات العربية والصينية والمصرية القديمة والبابلية والهندية .. الخ ، هذا القول صحيح بشكل عام . ولكن منذ قدوم عصر النهضة الأوروبية حتى اليوم ، يوجد شيء اسمه الحضارة الأوروبية . ولذلك فأنا اوافقك تماما حين تستعمل تعبير : الطابع الأوروبي للحياة ، فيرد عليك الدكتور زكريا بأنه لا يجدر بنا ان نستخدم هذا التعبير ، لأن الحضارة الاوروبية الحالية ، هي حضارة انسانية عامة . ذلك ان مقولة الدكتور فؤاد هي مقولة صحيحة ، ولكنه استولد منها مقولة خاطئة . كيف ؟ ذلك انه رغم ان الحضارة الأوروبية هي حصيلة حضارات سابقة عليها ، فإنها تمثل ، في نفس الوقت ، تغيرا كيفيا في مسيرة الحضارة ، وبحيث ان هناك اسهاما غربيا ، تشترك فيه مكونات اصيلة للإنسان الغربي . ولا يجب ان نظلم الحضارة الغربية فننفي وجودها . لأن هناك ، بالفعل ، حضارة غربية ، وهناك اسهام غربي في الحضارة، وهناك طابع غربي مميز تماما . وقد اقترن بروز هذا الطابع الغربي بحركة المد الكولونيالي الذي اجتاح ما يسمى بشعوب العالم الثالث . ومن هنا جاء ما اسميته انت بالعدوانية التي تتسم بها الحضارة الغربية .. وكذلك الإستعلاء ايضا . وذلك بغض النظر عن بعض الحوادث التاريخية التي تتسم بطابع التهريج والبهلوانية . كما حدث حين قدم الإسكندر الأكبر الى مصر وادعى انه من اتباع الاله « امون » ، او حين ادعى نابليون الإسلام حين غزا مصر ايضا . فكلاهما كان يدعي - كاذبا - انه يتبع ثقافة اخرى غير ثقافته ..

أ . منصور : .. تعني ان ذلك احد سمات الثقافة الغربية التي تخفى طابعها الاستعلائي ؟ .. اعني ان كلا من الاسكندر ونابليون كانا ، بسبب ايمانهما بتفوق حضارتهما تفوقا كاملا ومطلقا ، كانا يظنان انهما سوف يقابلان بالتصديق بسبب تخلف

الآخرين وتدني حضارتهم ؟ ..

غ .شكري: .. نعم .. هذا صحيح . ففي الوقت الذي كان فيه نابليون يدعى الإسلام ، كان قد جلب معه حملة من العلماء(بجانب الحملة العسكرية)تمثل،في واقع الأمر،أول عمل استشراقي في التاريخ الحديث ، وهي التي أخرجت ايضا اول عمل استشراقي في التاريخ الحديث وهو كتاب : « وصف مصر » .ونابليون هذا الذي ادعى الاسلام ، هو نفسه الذي فعل ما فعل في « أبي الهول » وفي الأزهر .. وهو ما يمثل في الواقع موقفا محددا من الحضارات الاخرى ..

أ . منصور : .. كذلك ايضا ، تأكيدا لكلامك ، تكوينه فرقة عسكرية ـ عقب ثورة القاهرة الأولى ـ من الأروام بقيادة « المعلم يعقوب » ..

غ . شكري: .. نعم .. هذا صحيح .. وانا اريد ان اصل من ذلك الى ان ما يظن انه تناقض في سلوك الفاتح ، انما هو ـ في واقع الأمر ـ تسويد لنمط ثقافي معين على نمط ثقافي آخر ..

أ . منصور : .. معذرة .. يا دكتور غالي .. ولكن الا تظن ان هناك دلالة ما لأن يحول الدكتور فؤاد زكريا موضوع انسحاق المثقفين المصريين امام الثقافات الغازية الى موضوع الثقافة بشكل عام ؟ .. اعني لتكن الثقافة او الحضارة ما تكون .. فلم يكن هذا هو موضوع الحوار . فقد كان موضوع الحوار هو رد فعل هذه الحضارة ـ ايا كانت ـ لدى مثقفي الطبقة الوسطى في مصر ..

غ شكري: .. انا اعتقد ان لهذا الأمر دلالة سوسيولوجية ، ذلك ان الدكتور فؤاد زكريا يفكر . منذ بداية الحوار وحتى نهايته ـ بمنطق غربي كامل ، وبالتالي فانه يخيل لك ان ردوده تمثل خروجا عن الموضوع ـ وهو تخيل صحيح . اما بالنسبة اليه ، فان ردوده متماسكة تماما ، وتنسجم تماما مع تصوره للسؤال الذي طرحته .. وبدليل حدوث اشكال منهجي بينك وبينه فيما يتعلق بتعبير « التراث » . فقد كان يظن انك تنطلق من منطلق الأصولية العربية الإسلامية كما يتم طرحها الآن بالفعل، بتركيز شديد ، من جانب تيار كامل ، هو تيار الفكر الإسلامي الجديد ، والذي يطرح الآن كبديل للإخفاقات المتوالية للتجارب شبه الإشتراكية السابقة . وهناك الآن ، بالفعل ، تيار اسلامي جديد في الفكر العربي ، وبالذات في مصر . ولكن هذا التيار انت لا علاقة لك به . فانت حين تتكلم عن التراث انما تعني به ، في الواقع ، الثقافة الشعبية ، اي ثقافة القاعدة الشعبية العريضة ، ومدى اتصالها او انفصالها عن النمط الغربي الثقافي ، بل وايضا عن النمط الرسمي أو المؤسسي للاسلام الثقافي . ذلك ان هناك فهما غربيا للإسلام . وقد تبناه التيار السلفي عندنا . وليس من الغريب اذن ان كلا من التيار الغربي والتيار السلفي يلتقيان في نهاية الأمر .. فالتيار الغربي الذي يقول ان النقد يقتصر على ما قاله النقاد منذ « ارسطو » في اليونان حتى « بارت » في فرنسا ، يلتقي في نهاية الأمر بالتيار الآخر الذي يقول ان ما كتبه الجرجاني وابن قتيبة هو وحده ما يمكن تسميته نقدا ..

أ . منصور : .. تعني انهما يمثلان وجهين لعملة واحدة ؟ ..

غ .شكري: .. نعم .. بالطبع ، وهما يلتقيان بطريقة طبيعية جدا . بل ان التيار السلفي يحاكي الأوروبيين الذين يؤمنون بأنه لا توجد ثقافة غير الثقافة الاوروبية ، ولا يوجد بشر غير الأوروبيين . والسلفيون يحاكون ذلك تماما . اما انت ، فقد كنت تتحدث عن شيء آخر ..

أ . منصور : .. ولكن ما هو تفسيرك ، يا دكتور غالي ، لظاهرة ان عالما فاضلا ، لا يشك احد في امانته العلمية ، مثل الدكتور فؤاد زكريا ، قد عجز عن فهم سؤال بسيط كالذي وجهته اليه ، وخلط ، في إجابته ، بين الثقافة الشعبية ـ والتي هي ـ في واقع الأمر ـ الثقافة القومية ، وبين ثقافة المؤسسة في العصور الوسطى ؟ وانا اعترف لك انني عجزت تماما عن تفسير ذلك . فهل لديك انت تفسير لهذا الأمر ؟..

غ .شكري: .. الواقع ان تفسير ذلك بسيط جدا . فالمشكلة ليست مشكلة الدكتور فؤاد زكريا نفسه . ذلك ان موقف طبقتنا الوسطى من الثقافة الشعبية ، وهو ما درجنا على تسميته ، باستلهام التراث في الأدب العربي .. وفي الادب المصري . فحين يأخذ صلاح عبد الصبور ، مثلا ، الحلاج ، او حين يأخذ الفريد فرج « المهلهل » ايضا ـ وقد قرأت تعليقاتكما انت وامل دنقل وعلى انتاج الفريد فرج ، وانا اتفق معكما في معظمها ، رغم انني اعتقد ان الفريد فرج حاول الخروج من عنق الزجاجة الأرسطيطالية .. اعني البناء الدرامي الارسطي للمسرحية ، من اجل الوصول الى جوهر التراث الشعبي ، ولكن .

أ . منصور : .. اظن ، ان ما فعله الاستاذ الفريد فرج لم يكن محاولة للوصول الى جوهر التراث الشعبي او الثقافة الشعبية ، كما تقول ، وانما هو ، في الواقع ، كان يحاول التواصل مع تراث المؤسسة في العصور الوسطى . بل ان استلهامه لألف ليلة وليلة في مسرحيته « حلاق بغداد » ،كانت استلهاما لنظرة المؤسسة لهذا العمل الفني .

غ . شكري: .. ولكن

أ . منصور : .. وكذلك حين استلهم ملحمة « المهلهل » في مسرحيته « الزير سالم » ، فقد كانت نظرته التي استلهم بها هذا العمل تتسم بالطابع الأوروبي ، وجعل من « الزير سالم» هاملت آخر .. اعني انه جعل من « هاملت » النموذج الذي رسم شخصية « المهلهل » على اساسه ..

غ .شكري: .. هذا صحيح .. والواقع انني الاحظ ان « هاملت » يهيمن على رؤية الفريد فرج الفنية منذ زمن . فسليمان الحلبي مثلا ، في مسرحيته التي تحمل هذا الاسم ، يحمل الكثير من سمات وقسمات « هاملت » في مسرح شكسبير ايضا . وعلى أية حال ، فإن ما كنت اريد ان اقوله ـ قبل استطرادنا في موضوع الفريد فرج ـ هو ان تعاملنا مع التراث يتصف بأمرين : اولهما انه تعامل رسمي ، وثانيهما انه يتم بمنطق غربي . كذلك فاننا نفتقد حتى ادراك كيف تعامل الأوروبيون مع ثقافتهم الشعبية ..

أ . منصور : .. الواقع ان موهبة الفريد فرج ـ ومهارته الحرفية ايضا ـ هما اللتان انقذتاه من الوقوع في جريمة ارتكاب عدوان فظ على الثقافة الشعبية ..

غ .شكري: .. هذا صحيح .. كما ان النقطة التي اثرتها انت بشقيها ، وهي تعاملنا

مع تراثنا بنفس منطق تعامل الأوروبيين معه ، وليس بمنطق تعاملهم مع تراثهم هم ، هي ملاحظة صحيحة تماما . ولكن هناك نقطة اخرى ، وهي ان تسويد ايديولوجية . او بالأحرى ايديولوجيات الطبقة المتوسطة المصرية ، وطريقة تفاعلها مع الغرب - وانا اعني بالتسويد تسويد هذه الأيديولوجيات على الثقافة الشعبية . وانا ، بهذه المناسبة ، اريد ان اقول ان هناك نقطتين تتعلقان بتعبير الثقافة الشعبية . النقطة الأولى هي ما قلته انت بخصوص اعتبار فترة نهاية عصر الاسرات الفرعونية هي بداية عصور الإنسحاق - من جانب مثقفي الطبقة الوسطى - امام الثقافات الأجنبية وانا اوافقك على هذا التحديد التاريخي . ولكنني اريد ان اجعله بمثابة نقطة انطلاق الى نقاط اخرى .. مثل مدى الإستمرارية والانقطاع في ثقافتنا الشعبية ..

ا . منصور : .. الواقع ان ذلك يحتاج الى دراسة متخصصة ، لست مؤهلا - انا شخصيا - للقيام بها ..

غ . شكري:.. ولكن ذلك امر ضروري حتى لا نقع في الخطأ المنهجي الذي وقع فيه الدكتور فؤاد زكريا مثلا . ذلك ان الثقافة الشعبية نفسها ليست ثقافة واحدة .. وليست ايضا ثقافة مرحلة واحدة ..

ا . منصور : .. انا لا استطيع الإدعاء بان معرفتي بالثقافة الشعبية تبيح لي الخوض في هذا الأمر ..

غ .شكري:.. لست وحدك فيما يتعلق بهذا . وبحسب ما اعرف ، فإن احدا لم يقم بمثل هذه الدراسة ، فرغم الجهد العظيم الذي بذله الدكتور عبد الحميد يونس في دراسته لتغريبة « بني هلال » .. وقد ذكرت انت ان هناك دراسة اكاديمية واحدة فقط عن « الف ليلة وليلة ».. وانا اعتقد انك كنت تعني الدراسة التي قامت بها الدكتورة سهير القلماوي ...

ا . منصور : .. نعم ..

غ .شكري:.. وهي دراسة تتسم بانها وصف تقريري وسردي لألف ليلة وليلة ، كما ان الدكتورة سهير تنظر الى هذا العمل الفني من الخارج وعلى بعد كبير منه. ورغم ان تناول الدكتورة سهير القلماوي لألف ليلة وليلة يختلف عن الطريقة التي تناول بها الدكتور عبد الحميد يونس «السيرة الهلالية» ، فإن الدكتور يونس ، ايضا ، لم يكتشف القوانين الداخلية المضمرة داخل هذه البنية الثقافية الشعبية من الناحية الاجتماعية . هذا هو ما لم يستطع الدكتور يونس ان يفعله . بل انني استطيع القول ان هذا لم يتم عمله حتى الآن بالنسبة للأعمال الفنية الشعبية . وبالتالي فلست انت فقط الذي لا تعرف ما هي الثقافة الشعبية المصرية .. بل اننا كلنا ، وبلا استثناء ، لا نعرف ايضا ..

ا . منصور : .. هذا صحيح .. وانا اوافقك على ذلك ..

غ .شكري:.. اريد بعد ذلك ان اتناول مسألة التعدد الثقافي الطبقي والوحدة القومية ، فقد كنت دائما تشير في حواراتك ، عندما تثار المقارنة بيننا وبين الولايات المتحدة او اوروبا ، ان بعض المتحاورين كانوا ينسون وجود عنصر الوحدة او التجانس القومي الموجود في الثقافة

الأوروبية ، وبالتالي ينسون وجود مصطلح قومي واحد . ولكن هذا المصطلح القومي لا يلغي التعدد .. ووجود الوان ثقافية مختلفة ، والتي هي اشبه ما تكون بالخيوط المتعددة في قطعة النسيج الواحدة .

أ . منصور : .. تعني ، ان هناك إطارا واحدا تنضوي تحته كل هذه الألوان الثقافية ؟ ..

غ . شكري: .. نعم .. فهناك بالقطع إطار يسمى الثقافة الأمريكية ..

أ . منصور : .. نعم .. هناك ـ الآن ـ ما يمكن ان يسمى بالثقافة الأمريكية ..

غ . شكري: أي ان هناك مصطلحا قوميا واحدا . وهذا يفسر لماذا تبلغ نسبة من يذهبون الى صناديق الاقتراع لاختيار مرشحي الأحزاب في البلدان الأوروبية نحو ٨٠٪ او ٩٠٪ ومن ثم فانه يمكن القول بوجود جسر تواصل حقيقي بين القيادات السياسية ـ والتي تتكون في غالبيتها من المثقفين ـ وبين القواعد الشعبية ..

أ . منصور : .. هل تشير بذلك ، يا دكتور غالي ، الى مقدرة الطبقة المتوسطة الأوروبية على إقامة احزاب جماهيرية . في الماضي على الأقل ؟ .. وهو ما لم يحدث في بلادنا ؟ ..

غ . شكري: .. نعم .. ولم يكن ممكنا ان يحدث هذا في بلادنا . لماذا ؟ .. لأن الطبقة المتوسطة في بلادنا ولدت ، اصلا ، في احضان الاستعمار الغربي ..

أ . منصور : .. تعني الانسحاق امام شخصية الأب ؟؟

غ . شكري: رغم ان ذلك ليس مصطلحا علميا .. ولكنك لا بد انك تعني به ان الاحتكارات الأجنبية ، من ناحية ، وشبه الاقطاع المصري ، من ناحية اخرى .. اعني ان الطبقة المتوسطة في بلادنا لم تتولّد عبر كشوف جغرافية او علمية .. ولم تكن ايضا طبقة صناعية .

أ . منصور : .. وهو احد المبررات الاساسية لوجود الطبقة المتوسطة عموما .. اي ان تكون طبقة منتجة ..

غ . شكري: تماماً .. ان ما حدث عندنا هو ان الاقطاعي ـ او بالاحرى شبه الاقطاعي ـ هو نفسه الذي اصبح صاحب المصنع .. وصاحب المؤسسة التجارية ، في نفس الوقت الذي كان فيه يملك الأرض ايضا . وهكذا ، فقد وجدت لدينا ظاهرة جديدة تماما ، وهي ان شبه الاقطاعي اصبح ـ في نفس اللحظة ـ شبه بورجوازي ، معتمدا في ذلك ـ بشكل كامل ـ على رأس المال الأجنبي ، وعلى الفاتح الاجنبي . وبالتالي فان ولادة ونشأة هذه الطبقة تتسم بأنها مشوهة ..

أ . منصور : .. معذرة ، يا دكتور غالي .. ولكن هناك أمر أريد ان استوضحه وهو : هل يعني كلامك هذا انك تعتقد ان مولد الطبقة المتوسطة المصرية يرجع ، فقط ، الى بداية عهد الإحتلال الإنجليزي ؟ ..

غ . شكري: .. لا .. فإن كلمة الاستعمار لا تعني الاحتلال لدي .. وانما اعني بها فترة تعود الى ما قبل الحملة الفرنسية على مصر ..

ا . منصور : .. هل تعود بها ، مثلا ، الى فترة نشأة المراكز الحضرية في مصر .. اي الى فترة حكم البطالمة.. حين قامت مراكز حضرية في الاسكندرية ودمنهور والفيوم .. الخ ؟.. وذلك باعتبار ان سكان هذه المراكز الحضرية يمثلون احد المنابع الهامة الاساسية لهذه الطبقة .

غ . شكري: سوف نأتي الى النقطة المتعلقة بالقطع التاريخي الذي ذكرته .. والواقع ان هذه نقطة هامة .. وانا اتفق فيها معك تماما ..

ولو اننا اخذنا شكل التفاعل مع الثقافة الغربية ، خلال الـ ٢٠٠ عاما الماضية ـ وهي الفترة التي غالبا ما تسمى بالعصر الحديث ـ لوجدنا ان هذا الشكل يتصف بالانسحاق من جانب الطبقة الوسطى .وقد تمثل اقصى ما استطاع فكر مثقفي الطبقة المتوسطة ان يصل اليه في رفاعة رافع الطهطاوي . وليس القصد هو ادانة رفاعة الطهطاوي او إتهامه ، كما ظن الدكتور فؤاد زكريا في حواره معك . وانت تعلم ان موضوع اطروحتي التي تقدمت بها لنيل الدكتوراه هو دراسة نقدية مقارنة بين عصري محمد علي وجمال عبد الناصر . ويوحى هذا التحديد الزمني بأنها ـ اي الاطروحة ـ ليست دراسة في التاريخ بقدر ما هي رسالة في علم الاجتماع (سوسيولوجيا) فيما يتعلق بالثقافة المصرية . وقد كان ذلك امرا مقصودا ومتعمدا . على اية حال ، فإنه رغم انه صحيح ان الطبقة الوسطى قد اعتمدت ، اقتصاديا ، على الإستعمار وعلى الإقطاع .. او بالأحرى على شبه الاقطاع ، فإن شكل تفاعلها ، في نفس الوقت ، مع الثقافة الغربية ، كان يتميز بطابع الانسحاق . وكانت الذروة التي وصل اليها فكر الطبقة الوسطى المصرية هو رفاعة رافع الطهطاوي . الذي كان اقصى ما وصل اليه بدوره ، هو ما يمكن تسميته بمعادلة التوفيق بين التراث والعصر . والتراث ، كما كان يفهمه رفاعة الطهطاوي ، هو الاسلام وهذا هو التيار الذي تواصل حتى وصل اوجه في المرحلة الناصرية . وانا اعني ذلك على مستوى التغير الإجتماعي الشامل .. بدءا من الطهطاوي ومرورا بالثورة العرابية وبسعد زغلول وحتى جمال عبد الناصر . ولم تكن هزيمة ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ، بصراحة ، مجرد هزيمة عسكرية ، بل ولا حتى هزيمة شاملة ، كما يقول البعض . وانما كانت هذه الهزيمة ، في رأيي ، بمثابة النهاية الرسمية لمعادلة التوفيق بين ما يسمى بالتراث وبين ما يسمى بالحداثة او بالمعاصرة . وقد سبقت هذه النهاية الرسمية نهايات اخرى في الماضي .. ولكن ما حدث عام ١٩٦٧ كان يمثل النهاية الرسمية . وعام ١٩٦٧ ، في الواقع ، يمثل تاريخا هاما وخطيرا في حياتنا جميعا . وقد كان لإنتهاء المعادلة التوفيقية عديد من النتائج،منها ما يحدث الآن مثل الانسحاق امام المفهوم الغربي للإسلام .. وسوف تجد ان عددا من الماركسيين قد تخلوا عن ماركسيتهم ، في غمضة عين ، عندما استقل « الخميني » الطائرة من باريس الى طهران . فقد تخلى نفر كبير من الماركسيين عن الماركسية ، واستقلوا طائرة « الخميني » ..

ا . منصور : .. تقصد الماركسيين الإيرانيين ؟ ..

غ . شكري .. لا .. ليس فقط الإيرانيين .. بل العرب والمصريين ايضا بالذات . فقد ركب هؤلاء طائرة « الخميني » فكريا من « سوربون باريس » الى معاهد « قم » الدينية . وقد

كانت هذه النقلة تكرارا لما حدث في اوائل هذا القرن وفي القرن التاسع عشر . اعني ركوب الطائرة الى ما وراء البحار دون ان يبرح المرء وطنه .. نفس الشيء حدث .. نفس التغريب . فهناك الآن تياران : التيار الأول هو التيار الغربي الصريح المباشر ، كما يتمثل ، مثلا ، في الدكتور لويس عوض الذي يقول صراحة انه ما لم نصبح تلاميذ نجباء للثقافة الغربية ، فانه لا امل في ان نحقق اي تقدم .

أ . منصور : .. **تاكيدا لكلامك، فقد كنت ، منذ قريب ، اعيد قراءة كتاب الدكتور لويس عوض « مذكرات طالب بعثة» فاستوقفتني فقرة في ص ٤٥ (طبعة الكتاب الذهبي) يصف فيها الدكتور مشاعره وهو يترك شاطىء الاسكندرية في طريقه الى الشاطىء المقابل ، الذي هو ـ حسب كلمات الدكتور : .. الشاطىء اللي يا ما روحي اويت اليه كل ما قريت الصاوي وتوفيق الحكيم ، كانه وطني الحقيقي اللي ما شفتهوش من يوم ما خطفوني الغجر وانا لسه رضيع وجابوني مصر..» فهل نحن في حاجة الى ان نقول المزيد ؟..**

غ . شكري: .. ان الرجل لا ينكر اراءه .. ولكن اريدك ان تنتبه الى ظاهرة سوسيولوجية ثقافية تمثلها هذه الفقرة التي قرأتها .. وهي انها مكتوبة باللهجة العامية المصرية ..

أ . منصور : .. **هذه ملاحظة هامة جدا في اعتقادي .. فما تفسيرك لذلك ؟**

غ . شكري: .. رأيي ان تلك هي الازدواجية . فلو انه كتب هذه الفقرة باللغة الانجليزية لما كانت هناك اية ازدواجية . ولكنه هو الذي يرى انه قد ولد بطريق الخطأ في مدينة « المنيا » (مدينة في صعيد مصر) ..

أ . منصور : .. **نعم .. الم يقل ان الغجر قد خطفوه من وطنه الحقيقي وجلبوه الى مصر ؟ ..**

غ . شكري: .. تماما .. ولكن الإزدواجية تكمن في انه كتب هذه الفقرة باللهجة العامية المصرية . وهذا يقودنا الى ملاحظة اخرى . لأن هناك آخرين غيره ممن لا يعترفون بمثل ما اعترف به الدكتور لويس عوض ، ومن يكتبون بالعامية المصرية عدوانا على الثقافة الشعبية المصرية ..

أ . منصور : . **نعم .. وهم لا يقعون تحت حصر ..**

غ . شكري: .. تماما .. وعلى اية حال ، فقد كنت اقول ان هناك تيارين اساسيين : تيار التغريب بالإسلام ، وتيار التغريب المباشر .. اي الانسحاق امام الغرب بشكل مباشر. اما التيار الذي يحاول صياغة ثقافة قومية تحمل في تضاعيفها كل قوانين التطور الخاص بالثقافة الشعبية في بلادنا ، فهو تيار غير موجود تقريبا الا في محاولات جنينية الى أقصى حد ..

أ . منصور : .. **اصارحك بانني لم افهم تماما ما قلت .. فهلا تفضلت بايراد بعض الامثلة لايضاح ما قلته ..**

غ . شكري: .. سوف اضرب بعض الامثلة كما طلبت .. ولكن دعنا نتفق اولا على اننا نحاول استكشاف الأرض التي نقف عليها : كيف نفهم ونحدد طبيعة الثقافة التي يمثلها ذلك

التيار الذي يقف بين التيارين السابق ذكرهما . واحب ان انبه ، اولا ، الى انني كنت اعني بتعبير « التغريب بالإسلام » .. موقف المؤسسة الرسمية الإسلامية ، كما كنت اعني ايضا ان من يتناولون التراث باعتبار انه المرحلة العربية الحضرية الإسلامية فقط ، انما يفتقدون الفهم التاريخي للتراث ، الأمر الذي يؤدي الى الوقوع في « الشوفينية » والتعصب القومي الأعمى .. الخ . وانا اعتقد ان هناك خصوصية تميز شكل تفاعلنا ـ اعني سكان القطر المصري ـ مع الآخرين . فنحن لا نأخذ كل ما لدى الآخرين ، او انسحقنا امامهم ، كلما تفاعلنا معهم ، كما اننا ايضا لا نفرض الآخرين ولا نتقوقع امامهم . كما ان هناك خاصية اخرى ، وهي ان العرب عامة ، والمصريين بشكل خاص ، كان من حظهم ان كلا من الإغريق والعرب والفرنسيين قد وفدوا عليهم وهم في ذروة قوتهم وازدهارهم الحضاري . فقد كانت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت وليدة ثورة كانت في ذلك الوقت محط انظار العالم ، كما كان العرب ، حين قدموا الى مصر ، في اوج اندفاعهم الحضاري ، كذلك كان الإسكندر الأكبر يمثل اقصى ما وصلت اليه قوة الإغريق . ومن ثم ، فانه صحيح ان المصريين كانوا يأخذون من الآخرين ، ولكنهم كانوا يتولون القيادة فيما بعد . كيف ؟ خذ الاحتلال اليوناني على سبيل المثال . افلم تكن مدينة الاسكندرية المنارة الثقافية الرئيسية في العالم القديم ؟ والم تكن مكتبة الاسكندرية هي مركز الإشعاع الثقافي في ذلك العالم ؟ ..

ا . منصور : .. ولكن ما هي طبيعة هذه الثقافة يا دكتور غالي ؟ .. والم تكن الاسكندرية مدينة اغريقية مائة في المائة ؟ ..

غ . شكري : .. هذا أمر آخر سوف نصل اليه فيما بعد . وما اريد ان اقوله الآن هو ان العرب والمصريين بشكل خاص ، لم يكونوا يتعاملون مع ثقافة اخرى ما لم يكن لديها ما تعطيه ، وسرعان ايضا ما يحتل المصريون موقع القيادة .. حتى ولو كان ذلك فيما يتعلق بالمؤسسة الرسمية ..

ا . منصور : .. قد تكون الأرض الثقافية المصرية صالحة للتلقي والتفاعل ، ولكن ذلك ليس موضوع حوارنا .. فنحن نتحدث عن طبيعة التلقي وكيفية التفاعل ..

غ . شكري : .. لقد قلت ذلك كي اصل منه الى نقطة تتعلق بالتغريب . فكما احتلت مصر موقع القيادة فيما يتعلق بالثقافة اليونانية ، كذلك احتلت نفس الموقع في الثقافة العربية الاسلامية .. اما فيما يتعلق بالحملة الفرنسية ، فيجب ان نلاحظ انها لم تمكث في مصر غير ثلاث سنوات فقط ، ومع ذلك فقد تركت في السجل الثقافي المصري اثارا لا تزال باقية حتى يومنا هذا .. مثل الدستور والبرلمان وفكرة الأحزاب .. فكل هذه الأمور من اثار الحملة الفرنسية . ولكن تأمل موقفنا من الأتراك ، وهم مسلمون مثل غالبية شعبنا ، او موقفنا من الإنجليز ، وهم الذين يتماثلون ، فيما يتعلق بالدين ، مع الفرنسيين... اعني ان كليهما يعتنق الدين المسيحي . ولكن بالرغم من ذلك ، فان احدا من المصريين لم يتعلم اللغة الانجليزية على النحو الصحيح .. في ظل الاستعمار الانجليزي .

ا . منصور : لا افهم .. معذرة .. ولكن ماذا تعني بالضبط ؟..

غ . شكري : .. اعني ان الفرنسيين في الجزائر ، مثلا ، تركوا بصمات قوية وواضحة .. بحيث لا تزال الجزائر تواجه حتى الآن مشكلة اللغة .. اي مجرد الحديث باللغة العربية .. بينما لم تواجه مصر مشكلة كهذه بعد الاحتلال الانجليزي ..

أ . منصور : .. ولكن الم تكن علاقة فرنسا بالجزائر تختلف كثيرا عن علاقة مصر ببريطانيا ؟ ..

غ . شكري : .. لقد احتل الانجليز مصر مدة ٧٥ عاما ، ولكن الفرنسيين الذين احتلوا مصر مدة ثلاث سنوات فقط ، تركوا اثارا اعمق بكثير مما تركه الانجليز ، الذين لم يتركوا سوى جوانب سلبية . ولا اعني بذلك ان الاثار التي تركها الاحتلال الفرنسي كانت ايجابية . وسوف اتناول المضمون فيما بعد . ولكني اريد ان افرق ايضا بين استجابة مصر للآخر .. او طريقة التحاور مع الأجنبي .. اعني انها تختلف من اجنبي الى آخر .. وهو الأمر الذي يمثل خصوصية وطنية مصرية ..

أ . منصور : .. الا يتوقف ذلك ايضا على الظروف التي يفد فيها هذا الأجنبي ، والملابسات التي تحيط بقدومه ؟ ..

غ . شكري : .. لقد اوردت ، انت نفسك ، في حواراتك التي اجريتها حول هذا الموضوع مثلين هامين في رأيي . المثل الأول هو ان تأثر الاقباط المصريين باليونانيين قد وصل الى حد انهم تسموا بالأسماء اليونانية ..

أ . منصور : .. انا لم اعن الأقباط عامة . وانما عنيت سكان المدن ـ او المراكز الحضرية منهم ـ وهم الذين خرج منهم الآباء الأول للكنسية القبطية ، مثل « ذو الفم الذهبي » وغيره .. فقد كانت اسماؤهم جميعا اسماء يونانية . كما كانوا يكتبون ايضا باللغة اليونانية ..

غ . شكري : .. بل اكثر من ذلك .. فما هي اللغة القبطية ؟ اللغة القبطية هي اللغة الدارجة المصرية القديمة « الديموطيقية » بالاضافة الى سبعة احرف يونانية . اي ان اللغة القبطية قد اضافت الى ابجديتها سبعة احرف يونانية . وقد غيرت مصر ديانتها عدة مرات ، أما لغتها فمرة واحدة حين تعربت . وهذا الاستثناء التاريخي له مغزاه .

أ . منصور : .. اعتقد ان التعميم هنا غير دقيق .. اللهم الا اذا كنت تعني بمصر سكان المراكز الحضرية ، فإنهم هم الذين غيروا لغتهم .. اما باقي المصريين ، فإنني اظن ان التغير الوحيد الذي قد يكون قد طرا على لغتهم هو دخول عدد من مفردات اللغة اليونانية نتيجة لاحتكاكهم بالجهاز البيروقراطي للإحتلال اليوناني .. ونتيجة ايضا لدخول المفردات اليونانية في طقوس العبادة الكنسية .. كما اظن ايضا انهم لم يتسموا بالأسماء اليونانية ..

غ . شكري : .. ولكنك تجد اليوم في اعماق صعيد مصر عائلات قبطية ذات اسماء من اصل يوناني ..

أ . منصور : .. اعتقد ان ذلك قد حدث فيما بعد .. نتيجة للتقليد ، مثلا ، او

لإنتقال العائلات من مكان الى آخر .. او تيمنا باسماء اباء الكنيسة .. الذين كانوا كلهم - او معظهم على الاقل - يحملون اسماء يونانية ..

غ . شكري : .. ومع ذلك فإن هذه الكنيسة نفسها ، حين اتخذ قسطنطين قراره السياسي باعتناق الدين المسيحي - وذلك في محاولة لخداع الناس - لم تنخدع ، ولم تنساق وراءه ، بل ابدعت مذهبها الخاص المختلف عن مذهبه . وقد كان هذا الخلاف اللاهوتي يرمز الى ما هو اعمق .. وهو ارتباط الكنيسة المصرية القومي بالأرض . وبالتالي فان الكنيسة القبطية ، لم تكن ، لفترة طويلة، مجرد تعبير علوي ، وانما كانت جزءا أساسيا من الصراع القومي ..

ا . منصور : .. هذا صحيح .. فالجماهير التي شاركت بشكل ايجابي في الصراع بين الكنيسة الوطنية القبطية وبين الكنيسة البيزنطية لم تكن تعرف شيئا عن هذا الخلاف اللاهوتي .. او عن مجمع نيقية .. وما الى ذلك .. وانما كان صراعها موجها في جوهره ضد مؤسسة ثقافة اجنبية كانت تحاول فرض هيمنتها على مؤسسات الشعب المصري الثقافية ..

غ . شكري : .. نعم .. فقد كانوا يؤيدون الكنيسة القبطية لأنها كانت تقف ضد الاجنبي .

ا . منصور : .. وكانوا يحمون بارواحهم البطاركة المصريين الذين كانت الكنيسة البيزنطية تعزلهم عن مناصبهم التي وصلوا اليها باختيار الشعب المصري .. اي ان الشعب، ببساطة ،كان يدافع عن ممثليه ..

غ . شكري : .. بالضبط .. وهذا يعني ان الكنيسة كانت جزءا من الحركة الشعبية العامة .

ا . منصور : .. هل يعني ذلك ان فترة الصراع هذه ، قد شهدت التحاما حقيقيا بين المثقفين - اي رجال الكنيسة من بطاركة ومطارنة .. الخ - وبين جماهير الشعب .. او بكلمات اخرى.. التحاما حقيقيا بين ثقافة المؤسسة وبين الثقافة الشعبية ، التي هي في واقع الأمر ، الثقافة القومية ؟ ..

غ . شكري : .. اعتقد ان ذلك صحيح تماما ..

ا . منصور : .. وشهداء هذا الصراع لم يستشهدوا دفاعا عن مقولات لاهوتية او خلافات مذهبية - لم تكن واضحة قط - وانما استشهدوا في صراع قومي ضد اجنبي يريد ان يفرض هيمنته . هذا - باختصار - هو تصوري للأمر ..

غ . شكري : .. هذا تصور صحيح تماما .. ولكنني اريد ان اقول اننا اذا دققنا النظر فسوف نعثر على تشوهات .. اعني اننا سوف نجد تشوهات حتى في الثقافة الشعبية .كيف ؟ .. صحيح انك كنت مصيبا فيما قلته بشأن عدم ثقة الجماهير في اجهزة الاعلام الرسمية،ولكن هذا الفلاح الذي يكره «الأفندي» الحاكم - لأنه هو « الصراف » و« الشرطي ».. الخ - هو نفسه الذي يتمنى باستمرار ان يصبح ابنه افنديا .. وهو الذي يلحق ابنه بالمدرسة .. حيث

يتلقى نفس نمط التعليم الذي يتلقاه ابن الطبقة المتوسطة .. وحيث يتخرج من المدرسة كي يصبح افنديا .. كل ذلك لأن كلمة « افندي » مرتبطة بالسلطة ..

أ . منصور : .. اليس هذا تعميما لا بد ان تنقصه الدقة ..

غ . شكري : .. ربما كان هذا صحيحا . ولكنني ارجو ان لا تظن ان الثقافة الشعبية قد بلغت من الميتافيزيقية ما يحول بينها وبين التأثر بالاسلحة الماضية التي يتم غزوها بها ..

أ . منصور : .. يا دكتور غالي.. انا لم اقصد ذلك ..

غ . شكري : .. .. والإعلام المصري ، الذي قلت عنه – في حوارك مع الدكتور فؤاد زكريا – انه لا يمكن مقارنته بأجهزة الاعلام الأمريكي .. ليس بالشكل المتخلف الذي تظنه ، بل انني اعتقد انه يمكن مقارنته ، فعلا ، بالإعلام الامريكي .. صحيح انه لا شك في قوة اجهزة الاعلام الامريكي ، ولكن اجهزة الإعلام المصري ايضا قوية وخاصة ، اذا وضعنا في اعتبارنا ، ما قلته انت نفسك بخصوص نسبة الأمية في مصر التي تبلغ ٨٧٪ .. بل ان ذلك الوضع يجعل اجهزة الاعلام المصري تفوق كثيرا في قوتها اجهزة الإعلام الأمريكي ..

أ . منصور : .. لا .. انا لا اعتقد ..

غ . شكري : .. واجهزة الإعلام المصري مؤثرة ايضا الى حد كبير .. فعندما ترى المحراث في القرية .. وقد علق عليه الفلاح الراديو الترانزستور . اعني علقه في رقبة البقرة . صحيح ان الفلاح قد يسمع اغاني عبد الحليم حافظ وشادية ووردة .. الخ دون ان يتأثر بها ..

أ . منصور : .. .. اظن انها لا تزيد بالنسبة اليه عن ان تكون مجرد جلبة .. يأتنس بها وهو يعمل ..

غ . شكري : .. قد يكون ذلك صحيحا .. ولكن من المؤكد ان قطرات من هذه الاغاني تترسب في روحه ..

أ . منصور : .. ان السؤال ، يا دكتور غالي ، هو : حين يريد هذا الفلاح ان يغني ، فماذا يغني ؟ .. هل يغني اغاني عبد الحليم حافظ ؟.. بالقطع لا .. لأن له اغانيه الخاصة التي يرددها ..

غ . شكري : .. صحيح انه يغني الموال .. ولكن يجب ان تضع في اعتبارك ايضا ان هناك اجيالا جديدة من هذه الجماهير تغني اغاني المدينة ، بل وبماذا تفسِّر اصلا هجرة الفلاحين الى المدينة ؟ وراء الحُلم والنموذج « الآخر » ؟

أ . منصور : .. اظن انك تأخذ الامر بطريقة غير صحيحة ، يا دكتور غالي .. ذلك ان الفلاح المصري ، في الغالب ، لا يرفض التعامل مع الثقافات الأخرى .. ذلك ان الثقافة القومية لا ترفض الثقافات الأخرى ..

غ . شكري : .. اتعرف ماذا يعني كلامك هذا ؟.. يعني انه لا توجد ثمة مشكلة .. فاذا كانت الثقافة القومية تتلقى المؤثرات الخارجية دون ان تتأثر بها ، فليست هناك من مشكلة .. ولكن الواقع انه لا شك في وجود تأثيرها .. وفي وجود غزو مؤثر ..

أ . منصور : .. انا لا استطيع ، في الواقع ، ان احدد مدى هذا التأثير الذي تشير

اليه .. او عمقه .. لأن ذلك يقتضي اجراء دراسات متخصصة ..

غ . شكري : .. نعم انت على حق في ذلك .. ولننتقل الى نقطة اخرى وهي فكرة الحزبية . وانا لا اريدك.. اعني انك تريد نبذ المنطق الغربي .. اليس كذلك ؟.. او انك نبذته فعلا . وبالتالي فنحن لا نريد ان نسأل ..

ا . منصور : .. معذرة .. انا ما اريد نبذه ليس المنطق الغربي .. بل الموقف من المنطق الغربي .. ومن الحضارة الغربية .. ذلك انه لا بد من الاستفادة والتفاعل مع هذه الحضارة ..

غ . شكري : .. هذا امر مفهوم تماما .. وهو شيء بديهي بالنسبة الينا . ولكن ما اريد ان اقوله هو اننا اذا بحثنا في الخصوصية المصرية .. اعني انك حين تسأل لماذا لم يصبح حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي حزبا جماهيريا رغم انه يرفع شعارات تخدم مصالح الجماهير ، فانك تدفعني لأن اجيب بلا او نعم ـ كما فعل الاستاذ محمد سيد احمد ـ وانا لا اريد ان افعل ذلك . وانما انا اريد ان اناقش فكرة الحزبية ـ ذاتها ـ في مصر ، وعلى ضوء الثقافة الشعبية . فقد يتبين لي من هذه المناقشة ان فكرة الحزبية نفسها ـ بسبب الخصوصية المصرية ـ غير موجودة في مصر . وساورد لك بعض الشواهد الدالة على ذلك . فمن رأيي ان حزب الوفد لم يكن حزبا ..

ا . منصور : .. تعني انه كان تحالفا ؟.. او جبهة ؟ ..

غ . شكري : .. وانا لا اريد ان استخدم مصطلحات مثل « تحالف » او « جبهة » .. الخ . فقد كان هناك شارع وفدي في تلك الأيام ، بعد ثورة ١٩١٩ ، يلتف حول مجموعة من المبادىء وزعيم فرد يمثل ـ لدى هؤلاء الناس ـ مجموعة القيم والمبادىء المشار اليها . ومن رأيي ، ايضا ، ان جمال عبد الناصر لم ينشىء حزبا في اي يوم من الأيام . وانما كان هناك شارع ناصري يرتبط بمجموعة من القيم والمبادىء تجسدت في شخص جمال عبد الناصر ..

ا . منصور : .. اريد ان اقول يا دكتور غالي ..

غ . شكري : .. والا ..

ا . منصور : .. اسمح لي ...

غ . شكري : .. معذرة .. والا كيف يمكن تفسير حقيقة انه لا يوجد حزب سياسي في مصر الآن ـ سواء من اقصى اليمين الى أقصى اليسار ـ يؤيد النظام القائم مما يعني ان القيادات المثقفة في الخريطة السياسية المصرية ضد النظام القائم . بينما يبدو لي ان هذه القيادات لا ترتبط بأعماق التربة المصرية ، او بكلمات اخرى ، انه لا توجد جسور اتصال ـ او تواصل ـ بينها وبين الجماهير ، بحيث تستطيع هذه القيادات ان تعتمد على قوة الجماهير من اجل إقصاء النظام القائم . ومعنى ذلك ان فكرة الحزبية في مصر لا علاقة لها بالثقافة الشعبية المصرية . ولننتظر فيما حدث يومي ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ . فقد هب الشعب المصري ـ من الإسكندرية الى اسوان ـ ضد هذا النظام ، في الوقت الذي لم تكن فيه اية قيادة سياسية لأي قوة في مصر في نفس مستوى الشارع ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة بانعدام الديموقراطية فقط . وانما لا بد ان

هناك شيئا اعمق وهو ان الشارع المصري كان دائما اسبق من هذه القيادات السياسية . كذلك لننظر في ما حدث عام ١٩٦٨ ، وتحت ظل جمال عبد الناصر ، وما كان يمثله من سطوة وانجازات تاريخية في نفس الوقت - اي انه كان يجمع بين القهر النسبي وبين الانجازات التاريخية الوطنية - .. ولكن بالرغم من ذلك كله ، ففي عام ١٩٦٨ قام قطاع واسع من جماهير الشعب المصري - وليس الشعب كله ، وانما قطاع واسع منه فقط - ضد النظام ، وبدون ان تكون هناك احزاب او تنظيمات سياسية . ولا يستطيع اي حزب سياسي ان يدعي انه تولى قيادة هذه الجماهير . على العكس ، فان اكثر الاحزاب تقدمية في مصر قد تنصلت امام المحاكم من اية علاقة لها بانتفاضة ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ ..

ا . منصور : .. وقد كانت صادقة في تنصلها هذا بلا شك ..

غ . شكري : .. نعم .. لقد كانت بريئة تماما من الاتهام الذي وجهه اليها ..

ا . منصور : .. معذرة .. ولكني اريد ان اطرح عليك مقولة بشان ما قلته عن الوفد .. هذا المقولة هي ان المرة الوحيدة التي انتفض فيها الريف المصري باكمله كانت اثناء ثورة ١٩١٩ .. اعني المرة الوحيدة في تاريخ مصر الحديث ، على الأقل . ولكن بالرغم من هذا التحرك الشامل المسلح بالعنف - قطع الكباري .. نزع قضبان السكك الحديدية .. اعلان الجمهورية في اسيوط وغيرها . ولأن هذا التحرك كان يتم تحت قيادة الطبقة المتوسطة في الريف وبعض كبار الاقطاعيين - فان المحصلة النهائية لهذا التحرك كانت خيبة امل جماهير الفلاحين في قيادة الثورة . واظن ان جماهير الفلاحين كانت تعلق امالا كبارا على هذه الثورة ، التي اشتركوا فيها بشكل ايجابي ، وقدموا على مذبحها مئات الشهداء ، وطرحوا جانبا الاستقرار الذليل الذي الفوه ، وبالرغم من ذلك كله ، فماذا كانت النتيجة ؟ .. كانت النتيجة ان القيادة البورجوازية للثورة قد استولت على كل ثمارها ولم تترك لجماهير الفلاحين شيئا سوى الياس وخيبة الأمل . وتدعي هذه المقولة ان خيبة امل جماهير الفلاحين المصريين في ثورة ١٩١٩ يمثل احد الأسباب الاساسية في فشل الطبقة المتوسطة - ومثقفوها من اليمين واليسار على السواء - في انشاء احزاب سياسية جماهيرية منذ ذلك الحين وحتى الآن ..

غ . شكري : .. صحيح ان ذلك قد يكون سببا ، ولكنه قد يكون ايضا ، وفي نفس الوقت ، نتيجة لخصوصية ثقافية مصرية لم ندرك بعد ابعادها ، ولم نتوصل بعد الى قوانينها الداخلية .

ا . منصور : .. انا لا استطيع الافتاء في هذا الأمر ..

غ . شكري : .. ولا انا استطيع .. ولكن هناك ظاهرة .. او ظواهر .. هناك ظاهرة اسمها « الحزب الوطني »، الذي كان قائما عام ١٨٨١ .. وهناك ظاهرة اخرى اسمها الثورة العرابية .. هذا شيء . وذاك شيء مختلف عنه . ذلك ان احدا لا يستطيع الإدعاء بأن الثورة العرابية كانت التعبير الرسمي عن الحزب الوطني ، بل ان جماهير الفلاحين المصريين هي الثورة العرابية ، وهي التي استمرت تقاتل - بصورة مختلفة - حتى ثورة ١٩١٩ - كما قلت

انت . فقد قاتلت جماهير الفلاحين مع « أحمد عرابي » ، ومع « عبد الله النديم » ـ وعبد الله النديم ، هنا ، نموذج بالغ الأهمية والتفرد ، وحين اشرت ، فيما سبق ، الى أمثلة جنينية للتواصل كنت اعني من هم من امثال عبد الله النديم . وكذلك فانه بالرغم من ان « بيرم التونسي » لم يكن مصري الأصل ، فانه استطاع ان يستوعب ويتفهم ويتمثل الروح المصرية بشكل يفوق كثيرا تمثل العديد من ذوي الأصول المصرية لها ..

أ . منصور : .. اعتقد ، يا دكتور غالي ، ان الفنانين من امثال بيرم التونسي واحمد فؤاد نجم ـ رغم مقاومته البطولية العنيفة ـ..

غ . شكري : .. وسيد درويش ..

أ . منصور : .. وسيد درويش وام كلثوم ..

غ . شكري : .. لا .. ان ام كلثوم شيء آخر ..

أ . منصور : .. لا عليك الآن .. ما اريد ان اقوله هو ان امثال هؤلاء الفنانين قد استوعبوا من جانب الطبقة المتوسطة .. او من جانب المؤسسة بشكل أدق ..

غ . شكري : .. لا .. ان ام كلثوم وعبد الوهاب شيء آخر ..

أ . منصور : .. انا اختلف معك .. فهناك سمات مشتركة بينهم جميعا ..

غ . شكري : .. في تقديري ان ام كلثوم وعبد الوهاب ..

أ . منصور : .. انا لم اذكر عبد الوهاب ..

غ . شكري : .. هذا صحيح ، ولكن في تقديري ان كلا من ام كلثوم وعبد الوهاب كانا يمثلان ثورة مضادة بالنسبة الى سيد درويش .. الذي كان يحمل ، في اعتقادي ، اصالة ..

أ . منصور : .. اليست هناك دلالة ما لحقيقة ان سيد درويش كان يفكر ، في اخريات حياته ، في السفر الى ايطاليا لدراسة الموسيقى الغربية ..

غ . شكري : .. ولم لا يذهب ؟ المهم ما سوف يفعله بعد عودته من هناك ..

أ . منصور : .. معذرة .. ولكنني اظن ان دلالة ذلك ان سيد درويش قد وقع تحت تاثير الموقف الانسحاقي الذي كانت تقفه الطبقة المتوسطة آنذاك من الحضارة الأوروبية .. وانه قد يكون قد ظن انه لكي يكون موسيقيا محترما ـ بمفهوم الطبقة المتوسطة ـ فلا بد له من دراسة الموسيقى الأوروبية كي يضع موسيقاه ، واوبريتاته بشكل خاص ، على نسقها . وهذا يشير الى انه خضع اخيرا لضغوط المؤسسة الثقافية .. التي كانت تقف موقف الانسحاق من الثقافة الغربية .. والتي لم تكن ترى ادبا او فنا ـ يستحقان هذا الموسم ـ الا الأدب والفن الأوروبي . بل انني اقول انه لولا وفاة سيد درويش المبكرة لاصبح محمد عبد الوهاب آخر . ولا تنس ان عبد الوهاب بدأ حياته الفنية بتقليد سيد درويش ..

غ . شكري : .. وربما كان سيد درويش ، ايضا ، ينوي الذهاب الى اوروبا كي يستفيد من الأدوات العملية فقط ، ولكي يعود اكثر اصالة وتواصلا مع الجماهير .. اليس هذا جائزا ؟.. على اية حال ، نحن لا نعرف . ولكن لا شك ان وفاة سيد درويش كانت تمثل كسرا في

ا . منصور : .. ان رايي ، بصراحة ، هو ان سيد درويش كان افضل مطربي وموسيقي الطبقة المتوسطة المصرية ، والتي كانت آنذاك في اوج اندفاعها ..

غ . شكري : .. هذا يغير كثيرا مما قلته .. ولكن ، على اية حال ، فان ما يهمني هنا هو فكرة الحزبية ، والخصوصية المصرية فيما يتعلق بها . ذلك انها تلقي ضوءا يزيل لنا موضوع التواصل وعدم التواصل . وحين ننظر الى الحركة الشيوعية المصرية ، فسوف تجد انه لم يكن بينها وبين الجماهير الشعبية تواصل عضوي عميق منذ حرب ١٩٢٤ وحتى الآن .. لماذا ؟ لا يمكن ان يكون السبب في ذلك فقط هو وجود عدد من العناصر اليهودية في قيادة الحركة الشيوعية في مصر ..

ا . منصور : .. ليس هذا سببا بالقطع .. بل هو نتيجة بالفعل ..

غ . شكري : .. كما لا يمكن ان يكون السبب ايضا هو انتماء قيادات الحركة الشيوعية في مصر الى ما يسمى بالبورجوازية الصغيرة فقط . والمشكلة - اعني مشكلتنا - هي في الواقع مشكلة منهجية . فنحن نريد ان نستخدم ادوات غربية من اجل ان نفهم شيئا غير غربي . ومهمتنا ، في الواقع ، ينبغي ان تكون هي استكشاف ادوات الثقافة الشعبية من اجل معرفة هذه الثقافة ، ومن اجل انتاجها ايضا .. وليس معرفتها فقط . لانه من الجائز ان ننتج عملا فنيا .. لا يستلهم « الف ليلة وليلة » - ورغم موافقتي الكاملة على ما قلته بشانها في حواراتك - فهي عمل فني ليس عظيما فحسب ، بل انه في رأيي ، انه قد يكون اخطر عمل فني في تاريخ الأدب الشعبي ثم انظر فيما فعلوه بالف ليلة وليلة .. فقد تم تحنيطها .. وسواء كان هذا التحنيط قد تم في قوالب فنية ام في قوالب دراسية اكاديمية ..

ا . منصور : .. الواقع ان المثقفين المصريين قد تفضلوا ايضا بتنقيح « الف ليلة وليلة » ،وتخليصها من الشوائب .. بل والاخطاء النحوية ايضا ! وكان آخر من تفضل بالقيام بمثل هذا العمل الجليل (!) هو - حسب علمي المرحوم الاستاذ رشدي صالح ، الذي رايت له في مكتبات بيروت - عندما زرتها مؤخرا - طبعة من الف ليلة وليلة ملونة مزخرفة ومزينة بصور عدد من الرسامين المحترمين الذين حلت رسومهم محل الرسومات القديمة (التي لا تستحق الاحترام فعلا ، مثلها مثل الرسومات الجديدة !) . والغريب ، ذو الدلالة الهامة فيما اعتقد ، ان المرحوم احمد رشدي صالح ، الذي ارتكب هذا الاعتداء الفظ ، هو احد الرواد الهامين الداعين لدراسة ما يسمى بالادب الشعبي في مصر . ولذا فان السؤال الذي يطرح نفسه هو : باي منظار كان المرحوم رشدي صالح ينظر الى ما يسمى بالأدب الشعبي ؟ والي اي حد يمكن ان يدل ما فعله على مدى احتقاره واستخفافه بالجماهير .. وبثقافتها التي اقنع نفسه ، فيما يظهر ، بانه قد وهب لها عمره ؟ وكيف خطر له انه يملك الأهلية والكفاءة على تنقيح عمل فني اشتركت اجيال من المصريين في صنعه ؟ ..

غ . شكري : .. انا لم ار هذه الطبعة من الف ليلة وليلة التي تشير اليها ، والتي قام

بصياغتها المرحوم رشدي صالح ، ولكن قد يكفي في هذا المجال ، ان اذكر لك انه قام ، منذ نحو ١٥ عاما ، بترجمة - وانا اضع خطأ تحت كلمة « ترجمة » هذه ، لأنها تكفي لتفسير ما فعله - كتاب اجنبي عن « الفولكلور » ، يقول بأن إحياء - وانا اضع خطا آخر تحت كلمة إحياء لما لها من دلالة - الثقافة الشعبية - وكأنها قد ماتت - يتم باعادة صياغتها وفقا لروح العصر . فماذا يعني تعبير« روح العصر » ؟ .. الا يعني - في غالب الأمر- روح الغرب .. وثقافة الغرب ؟ .. ولا يعني هذا ، ايا كان الأمر ، ان اعادة الصياغة هذه لن تتم وفق روحنا .. اعني وفق روح جماهير الشعب المصري ؟ .. ولكن الواقع ان المرحوم رشدي صالح لا يزيد عن ان يكون جزءا من ظاهرة عامة ترتكب في ظلها مثل هذه الجرائم ..

أ . منصور : .. وهناك شيء آخر ، يا دكتور غالي ، فقد كنت تتحدث منذ فترة عن السبب في فشل الحركة الشيوعية في بناء حزب جماهيري ، وانا اقول لك ان ذلك هو احد اسباب هذا الفشل ، فيجب ان لا ننسى ان المرحوم رشدي صالح كان احد قيادات الحركة الشيوعية في الأربعينات ، وكذلك ايضا كان الاستاذ عبد الرحمن الخميسي احد قيادات الحركة الشيوعية في الخمسينات ، وقد قام هو ايضا باعادة صياغة الف ليلة وليلة وتخليصها من الشوائب .. واظن انه ربما كانت نظرة مثل هذه القيادات - وهي نظرة تتسم بالتعالي وبالروح الأبوية ومعاملة الجماهير معاملة الأطفال - تمثل احد الاسباب الرئيسية في فشل الحركة الشيوعية في مدّ جذورها بين الجماهير ..

غ . شكري : .. كذلك ارجو ان نلاحظ طريقة الالتفات الى الثقافة الغربية . فهم يلتفتون الى اشياء ويغضون النظر عن اشياء اخرى . ففكرة العقل الجمعي عند « يونج » مثلا ، وقد ترجم العديد من الكتب التي تعالجها . فهل تصور احد ان هناك عقلا جمعيا مصريا ، وانه يجب استكشافه ؟... ولماذا تحاول تطبيق اشياء دون اخرى ؟... وموقع اليسار ، وهو في الواقع ، نفس موقع اليمين . ذلك انه على الرغم من ان اليسار يحمل الوية الجماهير الا ان نظرته اليها - كما قلت - تتسم بالتعالي . اما اليمين فانه يعتمد على الإدعاء بأن الدين (الرسمي او المؤسسي) هو الأيديولوجية الشعبية الصحيحة . ومع ذلك فاننا نجد ان اليمين فعل نفس ما فعله اليسار . والمثل على ذلك الاستاذ عباس خضر والاستاذ فاروق خورشيد ، فقد ارتكبا ايضا نفس الأخطاء .

أ . منصور : .. الواقع ان قولك ان عباس خضر وفاروق خورشيد يمثلان اليمين . بينما يمثل رشدي صالح وعبد الرحمن الخميسي اليسار فيه قدر كبير من المبالغة وعدم الدقة . ذلك انهم - جميعا - ينطلقون من نفس المنطلق . لأنه ما هو المحك الذي يتم على اساسه تحديد ما اذا كان المرء يمينيا او يساريا ؟ ان هذا المحك ، ببساطة ، هو كيف ينظر المرء الى الجماهير . وجميعهم ، كما هو واضح، ينظرون الى الجماهير نفس النظرة ..

غ . شكري : .. هذا صحيح .. ولننتقل الآن الى نقطة اخرى اثرتها في حواراتك ، وكان يبدو ان هناك تخوفاً - من جانب بعض المتحاورين معك - من مواجهتها . وهذه النقطة تتعلق

بالمعتقدات الشعبية المصرية . ذلك ان بعض من تحاوروا معك لم يكونوا يتصورون انك تقصد انه يوجد في بعض ما نسميه بالعادات والتقاليد والقيم المتوارثة اشياء هي ، في جوهرها ، لا تمت للإسلام ، ولا تمت للمسيحية ، وانما هي معتقدات قديمة لا علاقة لها بالدينين . وقد اشرت انت الى المكسيك ، في حوارك مع الدكتور فؤاد زكريا . وفي المكسيك تراث وثني قديم تم ادخاله في الطقوس الدينية التي تمارسها الكنيسة الكاثوليكية علناً . وينطبق نفس الشيء على الإسلام المصري وعلى المسيحية المصرية ...

أ. منصور : ... ان كثيراً من الأوروبيين ـ والبروتستانت منهم بوجه خاص ـ ينظرون الى الكنيسة القبطية بوصفها تمارس طقوساً بربرية وثنية لا علاقة لها بالدين المسيحي كما يفهمونه .. ولكن الاهم من ذلك هو انني اعتقد ان دين المؤسسة ـ وسواء كان إسلاماً أم مسيحية ـ لا يربطه بمعتقدات الجماهير الدينية غير الشكل الخارجي من طقوس وصلوات وما شابهها .

غ. شكري : ... اظنك تعني ثقافة الجماهير ...

أ. منصور : ... نعم .. ذلك ان معتقدات الجماهير الدينية هي بلا شك جزء من الثقافة الشعبية ....

غ. شكري : .. تماماً .. لأن الثقافة هي فكر وسلوك معاً .. وليست واحداً منهما فقط ...

أ. منصور : .. ولماذا ، في رايك ، تجنب بعض من تحاورت معهم مواجهة هذه المسألة ؟ ... ولماذا مثلاً قلل الدكتور فؤاد زكريا من اهمية دلالة قصة الموالد المطبوعة والتي تقول ان النبي محمد قد ولد في طيبه ؟ .. وكيف لم يستوقفه هذا الأمر بدعوى انه لا يعرف مدى انتشارها ؟ ....

غ. شكري : ... سوف افترض انا انها منتشرة ...

أ. منصور : ... وما اهمية انتشارها ؟ .. الا يكفي وجودها في حد ذاته ؟ .

غ. شكري : .. لا .. لا .. لا ينبغي ان يصل الحياد والموضوعية في العلم ، ان لا يكون ترجيح المرء نتيجة قناعة . وانا اتصور ان هذه الحكاية التي تشير اليها منتشرة . ولهذا الأمر دلالة غاية في الأهمية . فالإسلام كما ظهر في عهد الرسول ، وفي المكان الذي كان يوجد فيه الرسول ، هو غير الإسلام في زمان المصريين ومكانهم .. وغيرهم من الشعوب ايضاً ..

لقد أصبح الإسلام هو دين السلطة ، وليس اسلام الانتفاضات الشعبية ...

أ. منصور : .. ان هناك من يقول ان الجماهير المصرية ـ مسلمين كانوا ام اقباطا ـ تؤمن بمجموعة من العقائد الدينية المتوارثة والمتراكمة، وان مجموعة العقائد هذه تحوي عناصر إسلامية ومسيحية ومن الديانات المصرية القديمة ...

غ. شكري : .. ان الجماهير كانت تدخل في معتقداتها العناصر القريبة منها .. مثل مسألة التثليث ، على سبيل المثال ، أو العذراء .

أ. منصور : ... ولا تنسى ان كثيراً من الكنائس بني في معابد فرعونية قديمة ، وهو شيء اعتقد ان له بعض الدلالة .. اذ انه يعني ان قداسة المعبد الفرعوني قد استمرت ،

وانه اعتبر مكاناً صالحاً لإقامة كنيسة ، الأمر الذي يشير الى ان المصريين ، رغم اعتناقهم للمسيحية ، قد ظلوا يحترمون معتقداتهم الدينية القديمة ... وبحيث اخذت العذراء ، مثلاً ، كثيراً من ملامح ايزيس ... الخ ولو كانوا يرفضون العقائد الدينية القديمة لاعتبروا الأماكن التي اقيمت عليها المعابد الفرعونية اماكن دنسة لا تصلح لإقامة كنائس العبادة عليها ...

غ. شكري : ... الواقع ان الأمر لا يقتصر فقط على الشكل .. بل هو يتعدى ذلك الى المضمون .. فالجماهير اخذت من المسيحية اشياء قريبة جداً من وجدانها الديني ..ووجدانها الثقافي المتوارث .. مثل فكرة التثليث التي نشأت في مصر .. بل وفكرة التوحيد .. او وحدة الإله ايضاً ... انا اتفق معك تماماً . وسوف تجد ظواهر كثيرة تدل على ذلك مثل الإحتفال بمرور ٤٠ يوماً على الوفاة ... وتقاليد الزفاف .. والعاب الأطفال ، ولا ننسى ايضاً هذه الرسائل البريدية التي لا يزال الأهالي يرسلونها الى الإمام الشافعي في ضريحه (والتي قام الدكتور سيد عويس ، مدير المركز القومي للأبحاث الاجتماعية ، بدراستها) ...

ا. منصور : ... هذا ، في الواقع ، هو ما يسميه رجال الدين الرسميون بالبدع والخرافات ، والتي هي في الواقع جزء اساسي واصيل في معتقدات الجماهير الدينية ...

غ. شكري : .. او ذلك التشابه الشديد بين « الخضر » عند المسلمين وبين « ماري جرجس » عند المسيحيين . على اية حال ، فإنني اريد ان اصل من ذلك الى نتيجتين قد يكونا مثار مناقشة طويلة . واول هاتين النتيجتين ، ان اخشى ما اخشاه هو ان يفهم هذا الكلام – رغم براءة حواراتك منه – انه دعوة جديدة لما يسمى – بالمصطلح الأوروبي – بالإقليمية او الشوفينية. ذلك ان فكرة الإسلام ، عند البعض ، تعني وحدة المتناقضات . بينما الدعوة ، التي قد يسميها البعض دعوة انثروبولوجية لفهم الثقافة الشعبية ، في حين ان علم الانثروبولوجي – في جوهره – يمثل عدواناً على الثقافة الشعبية .. حتى في البلدان الأوروبية . ونشأة هذا العلم ، وانعكاساته الثقافية ، تمثل عدواناً على هذه الشعوب التي ينتمي بها . فكم يكون قدر العدوان الذي يمثله بالنسبة الى بلدان مثل بلادنا ؟ وانا اريد ان اقول ان الشوفينية او الإقليمية – بالمصطلح الغربي – لا علاقة لها بحوارنا هذا . بل على العكس ، فإن الوحدة الإضطرارية .. او الوحدة المصنوعة من اعلى ... او الوحدة الرسمية .. وتحت اي من الرايات الأيديولوجية هي التي تفرق الناس ولاتجمعهم . وسوف نلاحظ ذلك بوضوح تام . ففي ظل اتجاه عام .. او شعار عام ، يسمى الدولة الإسلامية ، يحدث في اليوم التالي مباشرة التناحر الطائفي او القبلي او العشائري . وما يحدث في لبنان ، وما يحدث في ايران – رغم اختلاف المنطلقات – يثبت ان هذا امر لا جدوى منه . وذلك لأنها شعارات وثقافات المؤسسة الرسمية ، وهي ثقافة تفتقر – اذا استخدمنا المصطلح الغربي – الى ديموقراطية الثقافة الشعبية ، والتي تخلو بالضرورة من اي شوفينية او تعصب . بل انها تحوي ايماناً بديهياً بالتعدد بحكم تكوينها ذاته .. وهذا التعدد هو ما نسميه بالديموقراطية . وعلى ذلك فإن الحوارات التي دارت حول موضوعنا هذا لا يمكن ان تؤدي الى اي دعم للإقليمية او للشوفينية، بل هي ، على العكس من

ذلك ، لا تؤدي سوى الى كل ما تخشاه الانظمة السياسية والثقافية العربية وهو : الديموقراطية . ذلك انها تتضمن ، بالضرورة ، ايماناً بالديموقراطية . وهذا مرفوض من جانب هذه الأنظمة ....

أ. منصور : ... حسن .. هناك سؤال اخير ، يا دكتور غالي ، وانا اوجهه اليك بوصفك ناقداً ادبياً . فقد اشرت ، في مجرى حوارك هذا معي، الى وجود محاولات جنينية لإحداث تواصل بين المثقفين الرسميين الذين تربوا في ظل ثقافة المؤسسة وبين الثقافة الشعبية ، فهل تتفضل بتفصيل هذا الامر بعض الشيء ؟ .. ذلك ان كثيراً من المثقفين والفنانين الصادقين ـ والتابعين في نفس الوقت للمؤسسة الرسمية ـ يعترفون ـ صراحة ـ بعجزهم وفشلهم في احداث هذا التواصل . ومن هؤلاء ـ على سبيل المثال ـ الشاعر المناضل العظيم احمد فؤاد نجم ، والكاتب الروائي والقصصي الأستاذ جميل عطية ابراهيم . وانا اريد ان اعرف رايك في هذا الموضوع . فهل تعتقد ، مثلاً ، ان الظروف القائمة حالياً ـ الظروف التعليمية ، وظروف الإنسحاق التاريخي لمثقفي الطبقة المتوسطة امام الثقافات الأجنبية الغازية ، وظروف انعدام الممارسات الديموقراطية ـ هل تسمح هذه الظروف بإحداث هذا التواصل المطلوب ؟ ...

غ. شكري : .. علينا أولاً ان نزيد تحديداً بعض المصطلحات العامة التي اتفقنا على مضمونها في السياق ، حتى أستطيع الجواب على هذا السؤال من منظور حوارنا . النقطة الأولى هي الموقف من الغرب . هنا لا بد من التفرقة بين « الإنسحاق » أمامه وبين التفاعل معه . وهنا يجب ايضاً ان نميز بين ثقافة الشعب من جهة والتخلف من جهة أخرى .

الحضارة الحديثة ليست محض حضارة غربية ، وانما هي ثمرة تراكمات وخبرات حضارية سابقة من بين ابرزها في ما يخص منطقتنا ، الحضارتان الفرعونية والبابلية في العصور القديمة ثم المسيحية فالحضارة العربية الإسلامية في ذروة مجدها بالعصر الوسيط . أي ان نصيبنا في تكوين الحضارة الإنسانية الحديثة كبير كما وكيف . حدث أن تخلفنا عن الركب الحضاري الانساني العام ، بسطوة المؤسسة الإسلامية الرسمية التي بلغت قمتها في الامبراطورية العثمانية . قبل ذلك تخلفت الدولة الإسلامية الأولى من الداخل بفقدانها شروط العدل الاجتماعي والديموقراطية ، واقبلت الدولة العثمانية لتفقدنا كذلك الشرط القومي . هكذا تفككت أوصال الرقعة الإسلامية العربية وعادت فعلاً الى العصر الجاهلي بتركيبة القبلية العشائرية البدوية اساساً .

في مصر ، انعكس ذلك كله بما أسميه الانقطاع التاريخي الذي تسبب في تيسير الغزو الأجنبي بدءاً من البطالمة والفرس والرومان ، ثم الاتراك فالحملات الصليبية واخيراً الاستعمار الغربي الحديث .

تخلفنا اذن في وقت واحد مع نهضة الغرب التي استوعبت اعظم ما في بنائنا الحضاري (وابنية غيرنا) وتجاوزته إلى مرحلة جديدة هي المرحلة الغربية . علينا بالتالي أن نفرق بين الوجهين الانساني العام والغربي الخاص ، بين كوننا مشاركين في السياق الرئيسي للحضارة

العالمية ، وبين تخلفنا عن احدث مستويات هذه الحضارة .

رواد نهضتنا العربية الحديثة حلّوا الاشكال التاريخي بالتوفيق . أقاموا منذ قرنين معادلة التراث (والمقصود هو الإسلام بمعناه المؤسسي الرسمي) والعصر (والمقصود هو الغرب أو الاضافة الغربية للحضارة) .

لم ينسحق رواد النهضة أمام الغرب ، لأنهم كانوا مسلمين (بالمعنى السابق) وتأمل معي هذه الظاهرة : رفاعة الطهطاوي ـ محمد عبده ـ طه حسين ـ علي عبد الرازق ـ خالد محمد خالد ، كلهم من رجال الأزهر ، واكثر من نصفهم تعلم أو عاش في فرنسا . هذا المزيج من الازهر والسوربون ، ليس انسحاقاً ، ولكنه « توفيق » اصلاحي يناسب ميلاد الطبقة الوسطى الحديثة ، وليس « تركيباً » يناسب الثورة الثقافية الشاملة .

الناصرية كانت آخر حلقات هذه المعادلة التوفيقية بين التراث والعصر ، وانجازها الرئيسي هو تأصيل اكتشاف القومية العربية كمدخل الى معادلة جديدة استحالت على الناصرية وعصرها ومجتمعها .

التركيب يبدأ باكتشاف القوانين الاساسية لحركتنا الحضارية منذ ولدت الحضارة في بلاد ما بين النهرين ووادي النيل ، الى مرحلة « الأديان » ، فعصور الانحطاط حتى العصر الحديث . قوانين النهضة والسقوط ، التحدي والاستجابة ، نحن والآخر إلى غير ذلك من قوانين سوسيو ثقافية مضمرة في باطن الحركة التاريخية للحضارة .

والتركيب ينتهي بالمكونات الأصيلة لثقافتنا الشعبية القومية . وكثيراً ما امتهنت كلمة « الأصالة » فكل كاتب يفهمها على هواه (الاسلامي مثلاً ، المسيحي مثلاً ، الفرعوني ، البابلي ، الفينيقي ... الخ) . ليست الاصالة هنا الماضي ولا هي احدى مراحل التاريخ بالذات ، ولكنها ما ترسب ، ما تبقى من هذا الماضي ومن كل مراحل التاريخ ، في النفس العربية ، في السلوك العربي ، في العقل العربي ... اي كل ما قاوم الزمن وتحدى المتغيرات واضحى « نمطا » ثقافياً ـ اجتماعياً .

اذا درسنا الأمثلة الشعبية في مصر وليبيا والسودان والمغرب وسوريا وفلسطين والعراق ، سنجد تشابهاً مثيراً في التركيب اللفظي او العاطفي او الفكري ، كذلك بقية ما يسمى ظلماً وعدواناً بالفولكلور . يعني ذلك ان هناك ثقافة « قومية » عربية شعبية مقهورة بالغزو المديني الحضري ، أو بمراسيم الدفن الاكاديمية المتخفية .

لا يكفي ان أمل دنقل أو نجم أو عبد الحكيم قاسم قرأوا الف ليلة وتغريبة بني هلال وأن يكون نجيب محفوظ أو يوسف ادريس اكتفى ببلزاك أو شكسبير ، حتى نقيم التفرقة بين الأجيال ، أصالة ومعاصرة . بل لا يكفي حتى الانتماء الاجتماعي الصريح الى هذه الطبقة او تلك ، كما يتضح الأمر تماماً في الأجوبة الذكية لأحمد فؤاد نجم وما يسميه بالمراجعة الشاملة لعمله الشعري .

إن مسرح الحكيم مثلاً ليس انسحاقاً امام الغرب ولا رواية محفوظ رغم استيحاء الكلاسيكية الغربية نموذجها الدرامي أو الروائي . والعكس ايضاً صحيح ، وهو أن الكتابة

العامية عند الشاعر صلاح جاهين ليست في جوهرها العميق « أصالة شعبية »

ا. منصور : وقفة هنا ، لأن الكلام تشعب قبل ان نصل الى جواب لسؤالي السابق .

غ. شكري : التشعب في حدود السياق ، لتكون الظاهرة المطروحة للنقاش ـ وهي الظاهرة الأدبية والجماهير ـ في الاطار العام لمشكلة الثقافة الشعبية القومية والموقف من الغرب .

ا. منصور : تفضل ، اكمل ... معك حتى نهاية الشريط .

غ. شكري : الحكيم رغم تأثره بالغرب في البنية الدرامية ، هو نفسه صاحب « عصفور من الشرق » الذي يسخر بلا هوادة من « ماديات الغرب » ويقوم محسن بدور الاغراء لايفان الروسي الابيض للاتجاه نحو « رومانيات الشرق » . الحكيم ايضاً هو صاحب « اشعب » و« سليمان الحكيم » و« اهل الكهف » و« ايزيس » و« السلطان الحائر » و« يا طالع الشجرة » وغيرها وغيرها من المسرحيات التي استوحى « موضوعاتها » من القرآن والف ليلة وما يسمى بالموروث الشعبي .

والسؤال هو : هل كان منسحقاً امام الغرب حين نقل « الشكل » وكان اصيلاً في الوقت نفسه حين نقل « الموضوع » من كتب التاريخ والدين ؟ .

كلا ، بل كان في الحالين أحد أبناء « النهضة » الطهطاوية ، اي من رجال معادلة التراث والعصر ، اي التوفيق بين الاسلام والغرب . وليست صدفة انه صاحب الكتاب النظري المعروف « التعادلية » .

مع الفورات الفردية والفئوية ، هذه هي الايديولوجية الجمالية السائدة منذ رواية « علم الدين » لعلي مبارك و« حديث عيسى بن هشام للمويلحي » و« زينب » لهيكل حتى آخر رواية لمحفوظ أو مسرحية للحكيم عام ١٩٦٧ عام الهزيمة ، هزيمة هذه الايديولوجية الجمالية والمعادلة الفكرية التوفيقية . فالهزيمة ليست لنظام سياسي فقط بل لنظام فكري دام قرنين .

انه نظام الطبقة الوسطى كما تسميها ، ولكنها الطبقة التي نشأت أصلاً في حضن الاستعمار ومن رحم الاقطاع (مع التجاوز الكبير في التسميات ، فالبرجوازية أو الاقطاع عندنا مصطلحات لا تطابق الواقع تماماً ، وهي انعكاس لأزمتنا التي نناقشها في هذا الحوار) .

الشرائح التجارية من الطبقة الوسطى الحديثة اعتمدت اساساً على الاحتكارات الاجنبية ، كذلك الشرائح الزراعية . كبار الملاك انفسهم تحولوا الى تجار واصحاب معامل ووكلاء استيراد وتصدير وشركاء في المصانع . هذه الفوضى ـ أو الخصوصية ان شئت ـ في تكوين الطبقة الوسطى المصرية هي الأم الشرعية للمعادلة التوفيقية . وهي المعادلة التي انعكست جماليا على أبنية الأدب المصري الحديث كله شعرا ونثرا ، من زوايا مختلفة . الحكيم قاسم ....

في رحاب الستينات ، ولد جيل جديد في هذا الأدب ، اعتقد ان رؤيا جديدة ولدت معه ، خاصة في لهيب الهزيمة قبلها وبعدها . ليس هو ادب الطبقة الوسطى بكل تأكيد ، مختلفاً بذلك مع نقاشك الحاد لعبد الحكيم قاسم . ولكنه ليس هو الأدب الشعبي القومي ، بكل تأكيد

ايضاً . لماذا ؟ لأن « الثورة الثقافية » الشعبية القومية ، صاحبة المعادلة التركيبية النافية لكل توفيق ، لم تولد بعد . انها جنين يتحرك في بطن الواقع الاجتماعي ـ الثقافي . وما الأدب الجديد إلّا بشارة ، واقرب ما يكون للمخاض .

ا. منصور : **والتواصل ؟ .**

غ. شكري : الفجوة بين الأدب الجديد والجماهير ليس مصدرها انتماء الأول للطبقة الوسطى ، وليس مصدرها أمية الجماهير . مصدرها نجاح الثورة المضادة في وراثة مجتمع الهزيمة ، والاجهاض المتصل للثورة الثقافية

ا. منصور : **شكراً يا دكتور غالي ، فقد انتهى الشريط***

---

* سجل في فيينا بتاريخ ١٩٨١/٧/١٧

فهرس

صدر عن دار الطليعة

- مصر في عهد عبد الناصر
  بيلياييف وبريماكوف
- مصر : من الثورة الى الردة
  مجموعة من الكتاب المصريين
- الثورة المضادة في مصر
  د. غالي شكري
- المسألة الطائفية في مصر
  مجموعة من الكتاب المصريين
  تقديم : خالد محي الدين
- العرب في الحاضر : آفاق حرب تشرين ١٩٧٣
  محمود حسين
- تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر ١٩٠٠ – ١٩٢٥
  د. رفعت السعيد
- اليسار المصري : ١٩٢٥ – ١٩٤٠ (طبعة ثانية)
  د. رفعت السعيد
- الصحافة اليسارية في مصر : ١٩٢٥ – ١٩٤٨
  د. رفعت السعيد
- الصحافة اليسارية في مصر ١٩٥٠ – ١٩٥٢
  د. رفعت السعيد
- دراسات في الواقع المصري المعاصر
  لطفي الخولي
- ثلاث سنوات : يونيو ١٩٦٧ – ١٩٧٠
  احمد بهاء الدين
- المجتمع المصري والجيش
  د. انور عبد الملك

٣٠٠٠/٨١/٨٦٢